كتاب

خطط الشام

الجزء الخامس

تأليف

محمد كرد علي

رئيس المجمع العلمي العربي

طبع في مطبعة الترقي بدمشق ١٣٤٦ ﻫ و ١٩٢٧ م

كتاب
خطط الشام

الجزء الخامس

تأليف

محمد كرد علي

رئيس المجمع العلمي العربي

طبع في مطبعة الترقي بدمشق ١٣٤٦ ه و ١٩٢٧ م

التاريخ المدني

الجيش

جيوش الاشوريين والفراعنة والعبرانيين } لم تُغلب القبائل الاولى التي كانت تسكن الشام على امرها ، الا يوم جاءها من اشور جيش منظم في الجملة أغار عليها واستصفى بلادها ، واذا عرفنا ان الاشوريين عرفوا بسفك الدماء ، وانهم طالما أسروا شعوباً برمتها ، وانهم يعتقدون في ملوكهم الخلافة عن الله في الارض كما كان الروس والعثمانيون يقولون بذلك الى عهد قريب — ندرك مبلغهم من الطاعة ، وان الأرواح كانت نهب صاحب الشأن ، يُنهبها كما يشاء ، ويصرفها في السبيل التي يراها . والدولة التي تستطيع ان تأسر أُمة بأمرها ، تجيش جيشاً مهماً يستميت في قيام أمرها ، ويطيع قواده طاعة عمياء .

كان الاشوريون او الكلدان يغزون في فصل الربيع من كل عام ، وسلاحهم لرمح والسيف ، والترس والدرع ، والقوس والنشاب والعربات ، واخترعوا آلات لافتتاح المدن والقلاع . يقسمون جيوشهم ثلاث فرق ، فرقة المشاة وهم القواسة ، وفرقة الفرسان وهم الرماحة ، وفرقة راكبي العربات الحربية وهم حاملو السيوف والاتراس . وكانت الاوامر تصدر الى القواد من الملك مباشرةً ، وتبلغ الى من يلزم على نظام غريب ، ولم يؤثر ان ُغلب الجيش الاشوري ولا في وقعة واحدة . ومن هذا الجيش ذاقت الشام ايام استيلاء الاشوريين عليها القهر والذل .

وكان الفراعنة الذين امتد سلطانهم على بعض ارجاء القطر زمناً يجندون

أحياناً من الشاميين ، ولكننا لا نعرف كيف كانوا يجندون ، وقد ظهرت نماذج من أنظمتهم الحربية عرفناها بما حفظ من آثارهم في المتحف المصري · وكانوا الى العز ايام تماسك جيوشهم ، والى الذل اذا ضعف نظامهم في جنديتهم ، مثل ايام ملوك الرعاة المعروفين بالهيكسوس وهم العرب او العمالقة ·

واشتهر العبرانيون اولاً انهم أُمة حربية ، وكان لكل سبط من أسباطهم حامية او جيش صغير يدفع به عدوه ، وقد لا يكون من الاسباط الأُخرى · ولذلك كان بأسهم بينهم على الأغلب ، فكان العبراني أسداً على نفسه وعلى أبناء جنسه ، ونعامة يوم يوافيه الغريب ، يؤثر ان يرأم للذلة ، على ان يُرخص روحه في الذود عن حماه · وكان بقاء الشعب الاسرائيلي في التيه على عهد موسى الكليم سنين طويلة من الحِكم التي قُصد بها انقراض شيوخهم المستضعفين ، وتربية الشبان على الأخلاق الحربية ، فتجدد شباب هذه الامة بهذه الرحلة الطويلة · ولما جاءت جيوش بُخت نُصر الفارسي وادريانوس الروماني الى فلسطين اذاقت ابناء إسرائيل الويلات ولم يغن عنهم ما جيشوه من الجيوش ، ولا ما كتَّبوه من كتائبهم ·

٭ ٭ ٭

جيش اليونان والرومان

كانت جيوش جميع الامم القديمة كما هو الحال عند بعض الامم الحديثة ولا سيما المستعمرة اخلاطاً من الشعوب وأجيالاً من الناس · والامة التي يكون جيشها من عنصر واحد او سواده الاعظم منه تكتب لها الغلبة على الأكثر ، ويكون نظامها أتم وتحمسها في النيل من العدو اكثر ، وما نظن ان الجيش الذي جاء به الاسكندر المقدوني الى هذه الديار وهو لا يتجاوز الثلاثين الف راجل واربعة آلاف وخمسمائة فارس ، الا مؤلفاً من عنصر واحد ، وهو الجيش الذي غلب الفرس على كثرة جيوشهم وقضى على دولتهم وسلطانهم ·

وكان جيش الاسكندر أحسن جيش عهد في بلاد اليونان ، ويتألف الجحفل اليوناني من ١٦ الف من الرجال مصفوفين الوفاً الوفاً ستة عشر صفاً يحمل كل واحد منها رمحاً طوله ستة أمتار ، وكان المقدونيون لا يسيرون في ساحة الوغى الى جهة

العدو ، بل يقفون ولا حراك بهم ، و يضربون عدوهم برماحهم من كل جانب ، فيرفع جنود المؤخرة رماحهم من فوق رؤوس الصفوف الاولى ، بحيث كان الجيش يشبه حيواناً عظيماً قد انتصب وعليه الحديد ، والعدو يداهمه فيتحطم ، والجيش مؤلف على الأغلب من خيار فتيان الأشراف .

واشتهرت الجيوش الرومانية بشدتها وحسن نظامها ، وما نظن رومية الا كانت تجند من أبناء هذه البلاد كثيراً ، لان الشام أنبغت عدة رجال غدوا امبراطرة وقواداً في رومية ، فيستحيل ان لا يشترك أبناؤها في جنديتها ، وان لا تكون منهم الكتائب المنظمة والمتطوعة او المستأجرة على شروط معينة ، خصوصاً والشام كانت ولاية رومانية . وكان يقضى على كل من يدخل الجيش الروماني ان يكون وطنياً رومانياً وان يكون له مورد ثروة ليجهز نفسه بالسلاح و يأكل و يلبس ، و يعفى الفقراء من هذه الخدمة . وكان من له حق التجند تبعاً لقائده من سن السابعة عشرة الى السادسة والاربعين ، فكان كل فرد في رومية كما كان في المدن الرومانية وطنياً وجندياً معاً ، ومتى احتاجت الدولة الى الجند يصدر القنصل امره الى جميع الوطنيين فيأتون و يحلفون يمين الاخلاص والطاعة للقائد ، و يتعاهدون ان يقاتلوا دون أعلامهم ، و يحق للقائد ان يقتل جنديه او يبقي عليه . فلا يستطيع جندي ان يفر من الزحف او يتزحزح عن محله الا بامر قائده ، وسلاحهم الرماح والسيوف ويستعملون الدروع والخوذ والاتراس ويمرنون أبداً جنودهم في إنشاء الطرق والجسور والمجاري ، اذا لم يكن أمامهم عدو يقاتلونه او متاريس يقيمونها .

* * *

الجيش العربي مع الرومي — ولقد فتح الجيش الروماني أعظم مملكة في العصور السالفة ، ايام كانت قوته تامة ، ورابطته متينة ، وقيادته موحدة ، فلما ضعفت مميزاته ، انحلت المملكة وانقسمت الى مملكتين : مملكة الروم الشرقية وعاصمتها القسطنطينية ، ومملكة الروم الغربية وعاصمتها رومية . وكان نصيب هذه البلاد ان تقع في حصة المملكة الشرقية في القسمة . وهذه المملكة التي هي حاربتها جيوش العرب لما جاءت لفتح الشام .

وكان الجيش الرومي الذي قاتل العرب على اليرموك وفي دمشق وفحل وأجنادين وقيسارية وبيسان وقنسرين وايلياء مؤلفاً من الروم ومن العرب المتنصرة ومن الارمن، وجمهرته الروم ، واذ كان جيشاً مرتجلاً لم يدرب زمناً وكان جيش العرب روحاً واحداً ، كتبت له الغلبة على قلته وكثرة عدد اعدائه وعُددهم ، فنال الجيش العربي من الروم ، وان كانوا لاول امرهم مشهورين بالطاعة لسادتهم ، ولما جاءتهم العرب كان امرهم قد انحل ، وميزاتهم قد ضعفت ، بل أصبح جيشهم مثال الجيوش المتفسخة ، ووقعتهم على الواقوصة مع العرب من أدهش أمارات الضعف والغفلة .

كان الجيش العربي مشهوراً بنظامه وطاعته لقواده ، ومهارة هؤلاء وحنكتهم ، وكانت للعرب عناية خاصة بالاحتفاظ بخطوط رجعتهم ، ولكن أية رجعة لجيش منه من جاء من مكان قصي يبلغ طوله ألفي كيلو متر ، ومنه من اقل ومنه من اكثر ، واذا فرضنا ان مدينة الرسول كانت أُس الحركات الحربية ، وان العرب كانوا قد فتحوا الحجاز كله يوم جاؤا لفتح الشام ، فجعلوا معسكرهم في اقصى حدودها الشمالية ، فخط الرجعة على كل لا يقل عن بضع مئات من الكيلومترات ، يمر في سباسب وبوادٍ لا ماء فيها ولا كلاء ، وكيف كان يتأتى الظفر لو لم يكن قلب كل جندي حصناً قائماً بالايمان ، معموراً بالطاعة للسلطان ؟

كان الجيش الذي فتح الشام مُخفّاً مقلاً من كل شيء ، مقلاً من الزاد ، مقلاً من السلاح ، مقلاً من الظهر ، والخيول قليلة فيه والإبل اكثر ، والإبل تصبر على العطش اياماً ، اما الجند العربي فكان يصبر على الجوع والعطش معاً . قال جويدي : تعلمت العرب صناعة الحرب من الفرس والروم وكان ذلك سبباً لدخول الفاظ رومية وفارسية كثيرة في لغتهم .

ولما فتحت الشام قسمت خمسة اجناد اي خمسة فيالق بحسب مصطلح هذه الايام . فسميت كل ناحية بجند كانوا يقبضون أعطياتهم فيها ، وكان الجنود اولاً من عرب الجزيرة ثم دخل فيهم من دان بالاسلام من جميع الشعوب المغلوبة ، وكان اليمانيون اكثرية الجيش الشامي ، وعليهم جلُّ اعتماد رأس بني أُمية في الشام . ذكروا ان سفيان

ابن عوف كان اتخذ من كل جند من اجناد الشام رجالاً اهل فروسية ونجدة وعفاف وسياسة وحروب وكانوا عدة له قد عرفهم وعرفوا به ·

* * *

بعض قوانين الجيش العربي } ومن الجيش ما كان تحت الطلب في كل ساعة ، ومنه ما يجند اي يجمع في ايام قلائل حين الحاجة ، والأعطيات للجنود دارة في كل شهر ، ولهم المغانم في الحروب الا قليلاً ، يتقاسمونها مع قوادهم بحسب بلائهم ورتبهم ودرجاتهم ، وللجند مصطلحات معلومة ولهم امراء وقواد ، يرتّبون عليهم العرفاء وينقّبون عليهم النقباء ، لتعرف من عرفائهم ونقبائهم احوالهم كما قال الماوردي ولكل طائفة شعار يتداعون به ليصيروا متميزين وبالاجتماع متظافرين وللامير «ان يتصفح الجيش « اي يستعرضه ويفتشه) ومن فيه ليخرج من كان فيه تخذيل للمجاهدين وإرجاف للمسلمين او عين لهم للمشركين » ·

واوجبوا على امير الجيش في سياسته عشرة اشياء : احدها حراستهم من غرة يظفر بها العدو منهم وذلك بان يتتبع المكامن ويحوّط سوادهم بحرس يأمنون به على نفوسهم ورجالهم ليسكنوا في وقت الدّعة ويأمنوا ماوراءهم في وقت المحاربة · والثاني ان يتخير لهم موضع نزولهم لمحاربة عدوهم ، وذلك ان يكون اوطأ الارض مكاناً ، واكثرها مرعى وماءً ، واحرسها اكنافاً واطرافاً ليكون اعون لهم على المنازلة ، واقوى لهم على المرابطة · والثالث إعداد ما يحتاج الجيش اليه من زاد وعلوفة ، تفرق عليهم في وقت الحاجة حتى تسكن نفوسهم الى مادة يستغنون عن طلبها ليكونوا على الحرب اوفر ، وعلى منازلة العدو اقدر · والرابع ان يعرف اخبار عدوه حتى يقف عليها ويتصفح احوالها حتى يخبرها فيسلم من مكره ، ويلتمس الغرة في الهجوم عليه · والخامس ترتيب الجيش في مصاف الحرب والتعويل في كل جهة على من يراه كفؤاً لها ، ويتفقد الصفوف من الخلل فيها ، ويراعي كل جهة يميل العدو اليها بمدد يكون عوناً لها · والسادس ان يقوي نفوسهم بما يشعرهم من الظفر ، ويخيل لهم من اسباب النصر ، ليقل العدو في اعينهم فيكون عليه اجرأ وبالجرأة يتسهل الظفر · والسابع ان يمد اهل الصبر والبلاء منهم بثواب الله لو كانوا من اهل الآخرة ، وبالجزاء والنفل من الغنيمة ان كانوا من

اهل الدنيا . والثامن ان يشاور ذوي الرأي فيما اعضل ، و يرجع الى اهل الحزم فيما اشكل ، ليأمنَ الخطأ و يسلم من الزلل . والتاسع ان يأخذ جيشه بما اوجبه الله تعالى من حقوقه ، وامر به من حدوده ، حتى لا يكون بينهم تجوز في دين ، ولا تحيف في حق . والعاشر ان لا يمكن احداً من جيشه ان يتشاغل بتجارة او زراعة ، لصرفه الاهتمام بها من مصابرة العدو وصدق الجهاد .

ولهم في هذا الباب قوانين مهمة لا تقل في حفظ رابطة الجيش عن كثير من قوانين الجندية في الحرب والسلم في هذا العهد الحديث ، منها انه لا يجوز اذا نقض العدو عهداً ان يُقتل ما في ايدي المسلمين من رهائنهم . فقد نقض الروم عهدهم زمن معاوية وفي يده رهائن فامتنع المسلمون جميعاً من قتلهم وخلوا سبيلهم ، وقالوا : وفاء بغدر خير من غدر بغدر . ومنها انه يجوز لامير الجيش في حصار العدو ان ينصب عليهم العرادات والمنجنيقات وان يهدم عليهم منازلهم ، و يضع عليهم البيات والتحريق . واذا رأى في قطع نخلهم وشجرهم صلاحاً يستضعفهم به ليظفر بهم عنوةً او يدخلوا في السلم صلحاً فعل ، ولا يفعل ان لم ير فيه صلاحاً .

وذكر ابن خلدون ان الحرب اول الاسلام كانت زحفاً كلها ، والزحف ان تمشي الفئتان المتقاتلتان كل فئة مشياً رويداً الى الفئة الاخرى قبل التداني للضراب ، وهي مزاحف اهل الحرب . وربما استجنت الرجالة بجنتها ، وتزاحفت من قعود ، الى ان يعرض لها الضراب او الطعان . وكان العرب انما يعرفون الكر والفر حملهم على إبداله امران اول الاسلام ، احدهما ان اعداءهم كانوا يقاتلون زحفاً فيضطرون الى مقاتلتهم مثل قتالهم . الثاني انهم كانوا مستميتين في جهادهم لما رغبوا فيه من الصبر ، ولما رسخ فيهم من الايمان ، والزحف الى الاستماتة اقرب . واول من ابطل الصف في الحروب وصار الى التعبية كراديس مروان بن الحكم ، ابطل الصف فتنوسي قتال الزحف . وزعموا ان امرأة قالت لولدها اذا رأت العينُ العينَ فدغراً ولا صفاً ، اي ادغروا عليهم اي احملوا ولا تصفوا صفاً .

وكان قواد الجيوش يرسمون الخطط الحربية بحسب قواعد لهم قديمة ، او يستنبطونها من الحال والموقع ، كما فعل علي بن ابي طالب يوم صِفين فدعا زياد بن النضر وشُريح بن

هاني، فعقد لكل واحد منهما على ستة آلاف فارس، وقال: ليس كل واحد منكما منفرداً عن صاحبه، فان جمعتكما حرب فأنت يا زياد الامير. واعلما ان مقدمة القوم عيونهم، وعيون المقدمة طلائعهم، فاياكما ان تسأما عن توجيه الطلائع ولا تسيرا بالكتائب والقبائل من لدن مسيركما الى نزولكما الا بتعبية وحذر، واذا نزلتم بعدو او نزل بكم فليكن معسكركم في اشرف المواضع، ليكن ذلك لكم حصناً حصيناً واذا غشيكم الليل فحفوا عسكركم بالرماح والترسة، وليليهم الرماة وما اقمتم فكذلك فكونوا، لان لا يصاب منكم غرة، واحرسا عسكركما بانفسكما ولا تذوقا نوماً الا غراراً ومضمضة، وليكن عندي خبركما فاني ولا شيء الا ما شاء الله حثيث السير في اثركما، ولا تقاتلا حتى تبدآ او يأتيكما امري ان شاء الله.

ولقد كان للجيش ثكنات لايواء الجند قال ابن حوقل: ليس من مدينة عظيمة الا وبها دار ينزلها غزاة تلك البلدة، ويرابطون بها اذا وردوها، وتكثر لديهم الصلات، وترد عليهم الاموال والصدقات العظيمة، الى ما كان السلاطين يتكلفونه، وارباب النعم يعاونونه وينفذونه، متطوعين متبرعين، ولم يكن في ناحية رئيس ولا نفيس، الا وله عليها وقف من ضيعة ذات مزارع وغلات، او مسقف من فنادق اه. ولقد جعل بعض الاغنياء دأبهم اذا اجتازت بهم الجيوش ان يقروها ويبروها، ومن رجال بني أمية من جعل ذلك ديدنه، واهل الخير على اختلاف طبقاتهم يتصدقون على الجيش.

واشترط العرب على اهل الذمة ان يؤوا جندهم ثلاثة ايام على الأغلب ويطعموهم من طعامهم، عناية من الفاتح بجنوده، وحتى لا تتبرم الرعية بنزولهم عليهم ان لم يكن لهم حق النزول. وكانوا لاول امرهم يختارون النزول في الخيام والمضارب، فاذا كلب الشتاء ينزلون في المدن والقرى، ويأوون الى دور الروم الذين رحلوا بقدوم الفاتحين، واول من انزل الجند في بيوت غيرهم الحجاج، انزل اهل الشام ببيوت اهل الكوفة.

وكان الأمويون في بعض ادوارهم يجندون الشبان ويجردونهم ليعرفوا عاهاتهم وحالتهم من الصحة. وفي الأغاني ان الحجاج ضرب البعث على المحتلمين ومن انبت من

الصبيان فكانت المرأة تجيء الى ابنها وقد جُرد فتضمه اليها وتقول له بابي جزعًا عليه ، فسمي ذلك الجيش جيش بابي . وقد أُحضر ابن عبدل فوجد اعرج فأُعفي عنه فقال بذلك :

(لعمري لقد جردتني فوجدتني كثير العيوب سيئ المتجرد)
(فأعفيتني لما رأيت زمانتي ووفقت مني للقضاء المسدد)

وكان غرامهم بالخيل المطهمة يدربونها على الطراد ويربونها ويتعهدونها ، ومن ملوكهم من يستكثر منها جداً لتكون معدة ليوم الشدة .

روى ابن السائب الكلبي ان هشام بن عبدالملك قال يوماً لقوامه على خيله : كم اكثر ما ضمت حلبة من الخيل في الجاهلية والاسلام قالوا : الف فرس وقيل الفان . فأمر ان يؤذن بالناس بحلبة تضم اربعة آلاف فرس فقيل له : يا امير المؤمنين يحطم بعضها بعضاً فلا يتسع لها طريق . قال : نطلقها ونتوكل على الله والله الصانع ، فجعل الغاية خمسين ومائتي غلوة والقصب مائة والقوس ستة اسهم ، وقاد اليه الناس من كل اوب ثم برز هشام الى دهناء الرصافة قبيل الحلبة بايام فأصلح طريقاً واسعاً لا يضيق بها ، فأرسلت يوم الحلبة بين يديه وهو ينظر اليها تدور حتى ترجع وجعل الناس يتراؤونها — نقله ياقوت .

☆ ☆ ☆

تعبية الجيش العربي — وذكر بعض العارفين من علماء العرب ان اكثر من وضع شيئاً في تعبية الحروب جعل اعداد اصحاب السلاح ١٦٣٨٤ ويجعل جيش العزل نصف هذا العدد ، وجيش الفرسان نصف جيش العزل . وذلك ان هذا العدد ينقسم بقسمين الى ان ينتهي الى الواحد ، واذا جعلنا الصف المتقاطر ستة عشر رجلاً يجب ان يكون في هذا العدد من الصفوف المتقاطرة الف صف واربعة وعشرون صفاً . وهذه الصفوف تنقسم الى انواع ، فكل ستة عشر تسمى صفاً ، وكل صفين من هذه الصفوف المتقاطرة تسمي عُصبة ، وعدد من فيها من الرجال اثنان وثلاثون رجلاً ، والمقدم عليهم يسمي صاحب العصبة ، وكل اربعة صفوف متقاطرة تسمى مِقنباً ، والذي يرأسه يدعى صاحب المقنب ، وعدد من فيها من الرجال اربعة وستون رجلاً ، وكل مقنبين يسميان كردوساً ، وعدد

من فيه من الرجال مائة وثمانية وعشرون رجلاً من الصفوف المتقاطرة ثمانية ، والمقدم عليها يسمى صاحب المائة و يدعى رئيس الكردوس ، و كل كردوسين يسميان جحفلاً ، ويسميان ايضاً فئة ، وعدد من فيها من الصفوف المتقاطرة ستة عشر صفاً ، ومن الرجال مائتان وستة وخمسون رجلاً ، والمقدم عليهم رئيس الفئة او الجحفل وكل جحفل يجمع من هذا العدد خمسة رجال مختارين، وهم صاحب الراية وصاحب الساقة وصاحب البوق والخادم ·

قال والذي اختاره ان يكون غلمانه خلفه ، يرتبون كترتيب الصفوف المتقاطرة حتى لايخرجوا عن الصفوف ، وشكل الجحفل مربعاً كرقعة الشطرنج ثمانية في ثمانية ، وهذا ستة عشر طولاً وستة عشر عرضاً · وكل جحفلين يدعيان كوكبة ، وعدد من فيها من الرجال خمس مائة واثنا عشر رجلاً ، ومن الصفوف المتقاطرة اثنان وثلاثون صفاً ، ويسمى المقدم عليهم رئيس الكوكبة ، وكل كوكبتين زمرة ، وعدد من فيها من الرجال الف واربعة وعشرون رجلاً ، ومن الصفوف المتقاطرة اربعة وستون صفاً ويسمى صاحبها صاحب الزمرة ، وكل زمرتين طائفة ، وعدد من فيها من الرجال الفان وثمانية واربعون رجلاً ، والمقدم عليهم يسمى رئيس الطائفة ، فيها من الصفوف المتقاطرة مائة صف وثمانية وعشرون صفاً ، ومن الناس من يسمي الطائفة الجماعة التامة ، ويسمى المتولي عليها رئيس الجماعة التامة ، وكل طائفتين يسميان جيشاً وعدد من فيه من الرجال اربعة آلاف وستة وتسعون رجلاً ، وفيه من الصفوف المتقاطرة مائتا صف وستة وخمسون صفاً ، والمتولي لامره يدعى رئيس الجيش ، وبعض الناس يسميه عسكراً ويسمى المتولي عليها قائد الجيش ، وكل جيشين يدعيان خميساً ، وعدد من فيه من الرجال ثمانية آلاف رجل ومائة واثنان وتسعون رجلاً ، ومن الصفوف المتقاطرة خمسمائة صف واثنا عشر صفاً ، ومن الجيش طائفة ومنهم من يسميه قافلة ، والمتولي عليه يدعى رئيس القافلة ، وكل خميسين يدعيان العسكر الاعظم ، وفيه من الصفوف المتقاطرة الف صف واربعة وعشرون صفاً ، ومن الرجال ستة عشر الفاً وثلاثمائة واربعة وثمانون رجلاً وهو العدد الاول ، فيصير مجموع العسكر قلبين وهما اربعة جيوش ، والاربعة جيوش اثنان وثلاثون كوكبة وهي اربعة وستون

جحفلاً ، وذلك مائة وثمانية وعشرون كردوساً وهي مائتان وستة وخمسون مقنباً وذلك الجمع خمسمائة واثنتا عشرة عصبة وعدد ذلك من الصفوف ما تقدم ·

* * *

شدة الأمويين ومثال من اوامرهم

وكان الأمويون من أشد الدول في الشام على جنودهم ، وهم في أحسن جند ، لان الشاميين عرفوا بطاعة السلطان من بين جميع اهل البلدان ، وبهم يضرب المثل في الطاعة والمشايعة ، وان لم يخل كل زمن من قوالين بالحق ، ناقمين على القائم بالامر ، داعين الى مناقشته · قالوا : وانما وَرِيت زناد معاوية باهل الشام ، لانه كان في أطوع جند منهم · وكان علي بن ابي طالب في أعصى جند من اهل العراق على الضد · والطاعة اول خطة يسلكها الجندي ، وبفضل هذه الصفة المستحسنة رفعت اعلام الأمويين (١)

(١) اول لواء عقده صاحب الرسالة لواء ابيض لعمه حمزة وقال : « خذه يااسد الله » واول ما عُقدت الرايات في الاسلام يوم حُنين ، عقد الرسول راية سوداء من بُرد عائشة وكانوا قبل ذلك لا يعرفون الا الالوية وكان اسم رايته العُقاب · وكان شعار بني أمية من الالوان البياض وشعار بني العباس السواد · ويقال للأمويين المبيضة وللعباسيين المسوّدة · وكانت راية صلاح الدين صفراء وراية الفاطميين خضراء وراية العثمانيين حمراء وبها هلال ومنها راية مصر اليوم فيها بعض التبديل اشبه بشعار والشعار يختلف ايضاً · وكان شعار الظاهر بيبرس الاسد · وكان اللون الاحمر شعار القيسية واللون الابيض شعار اليمانية · وجعلوا لون راية دولة الحجاز ايام استقلت عن الترك في الحرب العالمية الأبيض والأحمر والأسود والأخضر جمعوا فيها ألوان دول قديمة اخذوا ذلك فيما قيل من قول الصفي الحلي :

بيض صنائعنا سود وقائعنا خضر مرابعنا حمر مواضينا

وكانت العرب في كل حروبهم يستميتون دون راياتهم فاذا سقطت الراية فكأن الانحلال دب الى الجيش المحارب · ولما أعلن مجلس نواب الشام استقلال سورية في عهد الملك فيصل جعل رايته راية الحجاز باضافة نجمة في وسطها · ولما احتل الجيش

في الصين من بلاد الشرق ، وفي الاندلس من بلاد الغرب ومابينهما الاقطار والامصار وكان الأُمويون اذا عرض لجيوشهم شيء من الضعف يرمونها برجل قوي الشكيمة فيرد جماحها ، ويجمع على الطاعة قلوبها ، كما فعل زياد والحجاج بالعراق ، ولولا شدتهما لخرج ذاك القطر عن طاعة بني أُمية ·

شكا عبد الملك بن مروان الى روح بن زنباع انحلال عسكره ، وان الناس لا يرحلون برحيله ولا ينزلون بنزوله ، فقال له : ان في شرطتي رجلاً لو قلده اميرالمؤمنين امر عسكره لأرحل الناس برحيله وانزلهم بنزوله ، يقال له الحجاج بن يوسف · قال : فانا قد قلدناه ذلك · فكان لا يقدر احد ان يتخلف عن الرحيل والنزول الا أعوان روح بن زنباع ، فوقف عليهم يوماً وقد ارحل الناس وهم على الطعام يأكلون ، فأمر بهم فجلدوا بالسياط وطوفهم في العسكر ، وامر بفساطيط روح فأحرقت بالنار · فدخل روح على عبدالملك باكياً ، وشكا مما اتاه الحجاج مع رجاله فقال الخليفة علي به · فلما دخل عليه قال له : ما حملك على ما فعلت · قال : انا مافعلت قال : ومن فعل قال : انت فعلت ، انما يدي يدك ، وسوطي سوطك ، وما على امير المؤمنين ان يخلف لروح عوض الفسطاط فسطاطين ، وعوض الغلام غلامين ، فلا يكسرني فيما قدمني له ، فأخلف لروح ما ذهب منه · ولما استقر البيعة لعبد الملك بن مروان أراد الخروج الى مصعب بن الزبير فجعل يستنفر اهل الشام فيبطؤن عليه فقال له الحجاج بن يوسف : سلطني عليهم فوالله لاخرجنهم معك · قال له : قد سلطتك عليهم · فكان الحجاج لا يمر على باب رجل من اهل الشام قد تخلف عن الخروج الا أحرق عليه داره ، فلما رأى ذلك اهل الشام خرجوا ·

ومن رسالة لعبدالحميد الكاتب على لسان مروان الى ولي عهده عبدالله بن مروان

الفرنسي المنطقة الداخلية جعل شعار الدولة السورية ارضاً سماوية اللون وفي وسطها دائرة بيضاء ثم تبدل ذلك عندما اتحدت حلب بدمشق فجعلت الراية زرقاء وخضراء وبيضاء يعلوها في احدى ناحيتيها العلم المثلث الألوان اي العلم الفرنسي وجعل علم لبنان ارزة فوقها العلم المثلث ·

حين وجهه لمحاربة الضحاك الخارجي وفيها بعض قواعد الحرب المعروفة عند الأمم بين قال : اذا كنت من عدوك على مسافة دانية وسنن لقاء مختصر ، وكان من عسكرك مقترباً ، قد شامت طلائعك مقدمات ضلالته ، وحماة فتنته ، فتأهب أهبة المناجزة ، وأعدّ إعداد الحذر ، وكتّب خيولك ، وعبِّ جنودك ، وإياك والمسير الا مقدمة وميمنة ، وميسرة وساقة ، قد شهروا بالاسلحة ، ونشروا البنود والاعلام ، وعرف جندك مراكزهم سائرين تحت ألويتهم ، قد اخذوا اهبة القتال ، واستعدوا للقاء ، ملحين الى مواقفهم ، عارفين بمواضعهم من مسيرهم ومعسكرهم ، وليكن ترجلهم وتنزلهم على راياتهم واعلامهم ومراكزهم ، وعرّف كل قائد واصحابه موقعهم من الميمنة والميسرة والقلب والساقة والطليعة ، لازمين لها غير مخلين بما استنجدتهم له ، ولا متهاونين بما أهبت بهم اليه ، حتى تكون عساكرهم في كل منهل تصل اليه ، ومسافة تختارها ، كأنه عسكر واحد في اجتماعها على العدة ، واخذها بالحزم ، ومسيرها على راياتها ، ونزولها على مراكزها ، ومعرفتها بمواضعها ، ان أضلت دابة موضعها عرف اهل العسكر من اي المراكز هي ومن صاحبها ، وفي اي المحل حلوله منها ، فردت اليه هداية ومعرفة ونسبة قيادة صاحبها ، فان تقدُّمك بذلك ، وإحكامك له ، اطراح عن جندك مؤونة الطلب ، وعناء المعرفة ، وابتغاء الضالة . ثم اجعل على ساقتك اوثق اهل عسكرك في نفسك صرامةً ونفاذاً . ورضا في العامة وانصافاً من نفسه للرعية . واخذاً بالحق في المعدلة . مستشعراً تقوى الله وطاعته . آخذاً بهديك وادبك . واقفاً عند امرك ونهيك . معتزماً على مناصحتك وتزيينك . نظيراً لك في الحال . وشبيهاً بك في الشرف . وعديلاً في الموضع . ومقارباً في الصيت . ثم اكثف معه الجمع . وايده بالقوة . وقوّه بالظهر . وأعنه بالأموال . واغمره بالسلاح . ومره بالعطف على ذوي الضعف من جندك . ومن رخفت به دابته . واصابته نكبة من مرض . او رجلة او آفة . من غير ان تأذن لاحد منهم في التنحي عن عسكره . اوالتخلف بعد ترحيله . الا المجهود اوالمطروق بآفة . ثم تقدم اليه محذراً . ومره زاجراً . وانهه مغلظاً بالشدة على من مرّ به منصرفاً عن معسكرك من جندك بغير جوازك ، شاداً لهم اسراً . وموقرهم حديداً . ومعاقبهم موجعاً اوموجههم اليك فتنهكهم عقوبة . وتجعلهم لغيرهم من جندك عظة ...

اجعل خلف ساقتك رجلاً من وجوه قوادك ٠ جليداً ماضياً ٠ عفيفاً صارماً ٠ شهم الرأي ٠ شديد الحذر ٠ شكيم القوة ٠ غير مداهن في عقوبة ٠ ولا مهين في قوة ٠ في خمسين فارساً من خيلك ٠ تحشر اليك جندك ٠ ويلحق بك من يتخلف عنك ٠ بعد الإبلاغ في عقوبتهم والنَّهك لهم والتنكيل بهم ٠٠٠ ليكن رحيلك إبّاناً واحداً ٠ ووقتاً معلوماً ٠ لتخف المؤنة بذلك على جنـدك ٠ ويعلموا اوان رحيلهم ٠ فيقوموا فيما يريدون من معـالجة اطعمتهم ٠ وإعلاف دوابهم ٠ وتسكن أفئدتهم الى الوقت الذي وقفوا عليه ٠ ويطمئن ذوو الحاجات إبان الرحيل ٠ ومتى يكون رحيلك مختلفاً تعظم المؤنة عليك وعلى جنـدك ٠ ويخلوا بمراكزهم ٠ ولا يزال ذوو السفه والنزق يترحلون بالإرجاف ٠ وينزلون بالتوهم ٠ حتى لا ينتفع ذو رأي بنوم ولا طمأنينة ٠

إياك ان تنادي برحيل من منزل تكون فيه ٠ حتى يأمر صاحب تعبيتك بالوقوف على معسكرك ٠ آخذاً بفوهة جنبتيـه باسلحتهم ٠ عدةً لامران حضر ٠ ومفاجأة من طليعة للعدو ان اراد نهزة ٠ او لحت عندكم غرة ٠ ثم مر الناس بالرحيل وخيلك واقفة ٠ وأُهبتك مُعدَّة ٠ وجُنَّتك واقية ٠ حتى اذا استقللتم من معسكركم ٠ وتوجهتم من منازلكم ٠ سرتم على تعبيتكم بسكون ريح ٠ وهدو جملة وحسن دعة ٠٠٠٠

إياك ان يكون منزلك الا في خندق او حصن تأمن به بيات عدوك ٠ وتستنيم فيه الى الحزم من مكيدته ٠ اذا وضعت الأثقال ٠ وخططت ابنيـة اهل العسكر لم يمد خباء ٠ ولم ينتصب بنـاء ٠ حتى يقطع لكل قائد ذرع معلوم من الارض بقدر اصحابه فيحتفروه عليهم ٠ ويبنون بعد ذلك خنادق الحسك ٠ طارحين لها دون اشجار الرماح ٠ ونصب الترسة ٠ لها بابان قـد وكلت بعد بحفظ كل باب منهما رجلاً من قوادك في مائة رجل من اصحابه ٠ فاذا فرغ من الخندق كان ذلك القـائدان اهلاً لذلك المركز ٠٠٠ واياك ان يشهروا سيفاً يتجالدون به ٠ وتقدم اليهم فلا يكون قتالهم بالليل في تلك المواضع من طرقهم الا بالرماح مسندين لها الى صدورهم ٠ والنشاب راشقين به وجوههم ٠ قد ألبدوا بالترسة ٠ واستجنوا بالبيض ٠ والقوا عليهم سوابغ الدروع ٠ وجباب الحشو ٠ فان صد العدو عنهم حاملين على ناحية أخرى ٠ كبر اهل تلك الناحية الاولى وبقية العسكر سكوت ٠ والناحية التي صدر عنهـا العدو لازمة

لمراكزها . فعلت في تقويتهم وامدادهم بمثل صنيعك باخوانهم . وإياك ان تخمد نار روافك . واذا وقع العدو في معسكرك فاججها ساعراً لها . واوقدها حطباً جزلا . يعرف بها اهل العسكر مكانك وموضع روافك . و يسكن نافر قلوبهم . و يقوى واهن قوتهم . و يشد منخذل ظهورهم . ولا يرجفون فيك بالظنون . و يجيلون لك آراء السوء . وذلك من فعلك رد عدوك بغيظه . ولم يستقل منك بظفر . ولم يبلغ من نكايتك سروراً ان شاء الله اه .

هذا وقد كانت الشام على عهد أوائل العباسيين كما كانت في العهد الأموي تخرج جنداً لغزو الصوائف والشواتي اي حروب الصيف والشتاء الموجهة الى الروم . وان كانوا في جهادهم على الاكثر لافرق عندهم في الفصول يصيفون و يشتون . و يرتبعون و يخرفون . ذكر المؤرخون ان المأمون أقطع اخاه ابا اسحق المعتصم الشام ومصر وفرض على دمشق وحمص والأردن ٤٠٠٠ جندي لغزو الصائفة . وذكر قدامة ان راتب مغازي الصوائف والشواتي في البر والبحر في السنة على التقريب مائتا الف دينار . وعلى المبالغة ثلاثمائة الف دينار . وكان ارتفاع الثغور الشامية — اي طرطوس وأذنة والمصيصة وعين زربة والكنيسة والهارونية وبياس ونقابلس — نحو المائة الف دينار تنفق في مصالحها وسائر وجوه شأنها وهي المراقب والحرس والفواثير (الكشافة) والركاضة (البريديون) والموكلون بالدروب والمخايض والحصون وغير ذلك من الامور والأحوال ، ويحتاج الى شحنتها من الجند والصعاليك اي الجند غير المنظم .

وكان اذا عصا بعض عمالهم او نجم ناجم من الثوار يبعثون بالجيوش من العراق كما أرسلوا جيشاً لحرب نصر بن شبث ، وجيشاً لقتال القرامطة . وكان الجيش الذي ألفه احمد بن طولون واولاده من الاسباب القوية في نزع مصر والشام من حكم العباسيين بالفعل . وقد قيل ان الجيش الذي نظمه ابو الجيش خمارويه بن احمد بن طولون لم ينفق مثله لأعظم الفاتحين ، وكان مؤلفاً من صقالبة اي من اهل صقلية من الطليان والروم وغيرهم من العناصر .

* * *

ادوات التدمير والسلاح والمواصلات } كان جل الاعتماد في القتل والتخريب على المنجنيق والنشاب ، الاول لتخريب الحصون ودك الاسوار والثاني لازهاق النفوس · والمنجنيق (بفتح الميم وكسرها) آلة ترمى بها الحجارة بشد سوار مرتفعة جداً من الخشب ، يوضع عليها مايراد رميه ثم يضرب بسارية توصله لمكان بعيد جداً · قال في التاج وهي آلة قديمة وضعت قبل وضع النصارى البارود والمدافع ، واول من رمى به الرسول (ص) في حصار الطائف ، واول من رمى به في الجاهلية جذيمة الابرش وهو من ملوك الطوائف · ويستعملون الدبابات وهي أشبه بدبابات هذه الايام (التانك) وهي جمع دبابة آلة تتخذ في الحصار يدخل في جوفها الرجال ثم تدفع في اصل الحصن فينقبونه وهم في جوفها · ويتخذون ايضاً الحسك (السلك الحديد) يتحصنون وراءه ويمنعون العدو بعض الشيء من مباغتتهم · واخترع بعض الدمشقيين في حصار المسلمين عكا على عهد صلاح الدين سائلاً اذا قذف به على الصقالات التي توضع لرمي المنجنيقات تشعلها لحينها · فكان الصليبيون منها في مصيبة · وأهم سلاح عندهم للمهاجمة السيف والرمح وللدفاع الدرع ·

ومما كانوا يتقون به مداهمة العدو ان يضعوا مما يلي البلاد من حد الشرق رجالاً لتحرق زرعها ونباتها ، وهي اراض مخصبة كانت تقوم بكفاية خيل القوم مرعى اذا قصدوا البلاد ، فكانت تحرق إضعافاً لهم ، وإقعاداً لحركاتهم ، اذ كانوا من عادتهم انهم لايتكلفون علوفة لخيلهم بل يكلونها الى ماتنبت الارض ، فاذا كانت ارضاً مخصبة سلكوها ، واذا كانت مجدبة تجنبوها ، وكانوا لايفطنون لتقصد حريقها ثم فطنوا ، فصاروا يربطون عليها الطرق ويمسكون منها بالاطراف ، وكان ينفق في هذه المحرقات في كل سنة من الخزانة بدمشق جمل من الاموال ، ويجهز فيها أجلاد الرجال · وكان شأنهم في الاحراق استصحاب الثعالب الوحشية والكلاب المنفرة ، ثم يكمن المجهزون لذلك عند أمناء النصاح في كهوف الجبال وبطون الاودية ، وتمضي الايام حتى يكون يوم ريحه عاصف ، وهواؤه زعزع ، وتعلق النار موثوقة في أذناب الثعالب والكلاب ، ثم تطلق الثعالب والكلاب في أثرها ، وقد جوعت فتجد الثعالب في الهرب ، والكلاب في الطلب ، فتحرق مامرت به وتعلو الريح النار منه فيما جاوره · هذا الى

ما كانت تلقيه الرجال بايديها في الليالي المظلمة ، وعشايا الايام المعتمة ، على ماروى ذلك جميعه ابن فضل الله .

واستعمل الملوك والامراء النشاب للتسلية واظهار الشجاعة ومعرفة أساليب الرماية ، فاذا رموا أصموا ، واذا أفضلوا بالغوا ، وقد استعمل الامين لقتال عساكر اخيه المأمون نصول النشاب من خالص الذهب ونقش عليها هذين البيتين :

ومن جودنا نرمي العداة بأسهم من الذهب الابريز صيغت نصولها
يداوي بها المجروح منها جراحه ويشري بها الاكفان منها قتيلها

واستعمل ذلك كثير من الملوك ومنهم السلطان احمد بن الملك الناصر بن محمد ابن قلاوون ، وكان يجلس كل يوم بين شراريف قلعة الكرك وهو محصور ويرمي سبعة سهام صيغت نصولها من فضة موشاة بذهب وقد نقش عليها هذان البيتان .

كان اعتماد الملوك في نقل الاخبار على ثلاثة امور : البريد واول من وضعه في الاسلام معاوية بن ابي سفيان حين استقرت له الخلافة ، فوضع البريد لتسرع اليه أخبار بلاده من جميع أطرافها ، أمر باحضار رجال من دهاقين الفرس واهل اعمال الروم وعرفهم مايريد فوضعوا له البرد واتخذوا له بغالاً باكف كان عليها سفر البريد . ولم يزل البريد قائماً حتى آن لبناء الدولة المروانية ان ينقض ، ولما ان اغزى المهدي ابنه هارون الرشيد الروم ، وأحب ان لا يزال على علم قريب من خبره رتب ما بينه وبين معسكر ابنه برداً ، كانت تأتيه باخباره ، وتريه متجددات ايامه ، فلما قفل الرشيد قطع المهدي تلك البرد ، ثم رتب على عهد الرشيد على ما كان عليه ايام بني أمية ، وجعل البغال في المراكز ، وكان لايجهز عليه الا الخليفة او صاحب الخبر ، ثم جاءت أدوار فلم يكن بين الملوك ومايريدون معرفته من الاخبار الا الرسل على الخيل والإبل . فلما أتت الدولة الزنكية أقامت لهذا النجابة ، وأعدت لها النجب المنتخبة ، ودام هذا الى سقوط دولة بني ايوب . ولما صار الملك للظاهر بيبرس كان أحرص مايحرص عليه مواصلته بالاخبار ، وما يتجدد من أخبار التتار والفرنج . وقال مرة لكاتب الانشاء شرف الدين عبدالوهاب ان قدرت ان لاتبيتني كل ليلة الا على خبر ، ولاتصبحني الا على خبر فافعل ، واتخذ لذلك هو ومن بعده مراكز البريد ، تشتري الخيل بمال السلطان

و يقام لها السواس والعلوفات . ثم مما يليها خيل البريد المقررة على عربان ذوي اقطاعات عليها خيول موظفة تحضر في هلال كل شهر الى كل مركز اصحاب النوبة فيه بالخيل ، فاذا انسلخ الشهر جاء غيرهم ، وهم لهذا يسمون خيل الشهارة ، وعلى الشهارة والٍ من قبل السلطان ، يستعرض في رأس كل شهر خيل أصحاب النوبة فيه ، و يدوغها بالداغ السلطاني . وقد جعلوا لها مراكز ومحطات وبنوا عليها خانات وفنادق ومساجد في كل طرف من أطراف المملكة .

هذا ما كان من امر البريد وانشأوا في الموصل حمام الزاجل ، فاقتبسه خلفاء الفاطميين بمصر والشام ، و بالغوا حتى أفردوا له ديواناً وجرائد بانساب الحمام . نقله من الموصل نورالدين محمود سنة ٥٦٥ وكانوا في النهار يجعلون جل اعتمادهم عليه في نقل الاخبار ولاسيما زمن الحروب الصليبية ، وله مراكز في هذا القطر من الجنوب الى الشمال . ومن جملة ما يعتمدون عليه في الليل المناور وهي مواضع رفع النار في الليل ، والدخان في النهار ، للاعلام بحركات العدو ، اذا قصدوا البلاد للدخول لحرب او لإغارة ، ولما يرفع من هذه النيران او يدخن من هذا الدخان أدلة تعرف فيها اختلاف حالات رؤية العدو والمخبر به ، باختلاف حالاتها تارة في العدو وتارة في غير ذلك . وقد أرصد في كل منوّر الديادب والنظّارة لرؤية ماوراءهم وايراء ماأمامهم . والمناور المذكورة تارة تكون على رؤوس الجبال وتارةً تكون في أبنية عالية ، ومواضعها تعرف بها اكثرالسفارة . وهي من أقصى ثغور الاسلام الى حضرة السلطان . حتى ان المتجدد بكرة بالفرات كان يعلم به السلطان عشاءً في مصر والمتجدد بها عشاءً كان يعلم به بكرة . قال صالح بن يحيى وفي سنة ٦٩٣ جُعلت لامراء الغرب في لبنان درك ببيروت ليراقبوا البحر وجعلوا فيها رهجية وحمام بطاقة مدرج الى دمشق وخيل بريد فكانت النار للحوادث في الليل وحمام البطاقة للحوادث في النهار والبريد لما يتجدد من الاخبار وكل ذلك فعلوه خوفاً من رجوع الافرنج . الى ان قال وذلك لاجل ما يتجدد من الأخبار ومنع الافرنج عن الاجتماع باهل كسروان . والزاجل والمناور أشبه بالهليوستا والابجكتيف او البروجكتور عند اهل زماننا .

***

الجيش على عهد ملوك الطوائف

كانت جمهرة الجيوش الاسلامية على عهد صلاح الدين مؤلفـة من عرب واكراد وأتراك وكان صلاح الدين كمعلمه نور الدين من عظام القواد يعرف علم التعبية والمصافات ولا يغفل يوماً عن تقوية جسمه بالرياضة البدنية ولا سيما لعب الكرة والجريد والصيد والقنص ليستعين بذلك على القتـال . وكان اول اتصال صلاح الدين بنور الدين تفوق صلاح الدين بلعب الكرة . وقد الف صلاح الدين بين القلوب وجمعها على المقصد الذي أراد حتى لا يشعر المرء في جيشه باختلاف في العادات والمنازع .

وارتقى فن الحرب في الدولتين النورية والصلاحية بين الشاميين . والحرب تُعلم في الحرب . والجيش الذي يقوده قائد كنور الدين بنفسه مستعيناً بمشاهير قواده ثم يقوده صلاح الدين بنفسه ومشاهير قواده مكتوب له الظفر لا محالة . وكان الجند موسعاً عليه كل التوسعة ، وهو على قلة عدده بالنسبة لجيوش الصليبيين منصور في اكثر الوقائع . وكانت نسبته نسبة واحد من المسلمين الى اربعة من الصليبيين كما كان يوم حطين . والفرنجي يلبس زرد الحديد من فرقه الى قدمه وقد لا يقتل الا اذا جُندل حصانه والشاميون مخفون من السلاح . وكان اعتماد الفريقين على النشاب والنبال يقف جمازة في حومة الوغى يأخذ منها من خلت جعابه والسلطان بنفسه يصف الاطلاب و يجهز ابداً جيشه ويعلمه للبيكار والجمازة من آلات المحامل والاطلاب الكتائب والبيكار الحملة او الحرب . والجندي الغازي موفور الكرامة والقواد عند السلطان كأخوته وأشقائه وأولاده والأموال دارة على الجميع كما قال عبد المنعم الجلياني شاعر صلاح الدين :

ان الملوك الذين امتد امرهم   لم يخزنوا المال بل مهما حووا بذلوا
كذا السياسة فالاجنـاد لو علموا   بخل الملوك وجاءت شدة خذلوا

ذكر ياقوت ان الملك العزيز صاحب حلب كان طول مملكته من الشرق الى الغرب مسيرة خمسة ايام ومثلها من الجنوب الى الشمال . وفيها ثمانمائة ونيف وعشرون قرية كانت تقوم برزق خمسة آلاف فارس مُزاحي العلة موسع عليهم وفيها من الطواشية المفاريد ما يزيد على الف فارس يحصل للواحد منهم في العام من عشرة آلاف

درهم الى خمسة عشر الف درهم وفي اعمالها احدى وعشرون قلعة يقام بذخائرها وارزاق مستحفظيها ·

ولما استكثر آخر ملوك الايوبيين الملك الصالح ايوب من شراء المماليك وكان يجعلهم في جزيرة الروضة على النيل او على بحر النيل اطلق عليهم اسم المماليك البحرية فكانوا القاضين على الدولة الايوبية جعلوا الملك منهم · فسميت دولتهم دولة المماليك البحرية كما سميت الدولة الخالفة دولة المماليك البرجية · وهم الذين أنشأهم السلطان قلاوون من المغول والشركس وكان يجلس معهم في أبراج قلعة القاهرة فسموا المماليك البرجية ·

وهؤلاء المماليك البحرية والبرجية كانوا بلاء على الدول التي كانوا قوتها الوحيدة اذا أحسنوا يوماً فاساءتهم ايام · وطاعتهم وغناؤهم وبلاؤهم تبع للسلطان · اذا كان على أخلاق ومتانة خضعوا واستكانوا وكانوا آلة خير لقتال اعداء البلاد والخوارج على الملك في الداخل والا أصبحوا من أعظم أدوات الشر · وكان هؤلاء يتمحضون للخدمة ويعيشون بالأقطاعات العظيمة التي كانت لهم · واذا نشبت الحرب راجت سوقهم وكثر الخير عليهم لانهم يجهزون من الدولة بالاموال والالبسة والسلاح والكراع · وكلما جازوا بلداً او فتحوا مصراً اعتدوا على السكان والمكان واخذوا مااستطاعوا اخذه من مال الامة وعروضها وناطقها وصامتها · ولولا صفات خاصة في هؤلاء المماليك أورثتهم قوة مااستطاعوا وهم غرباء في مصر والشام ان يحكموها ٢٧٥ سنة ·

* * *

الجيوش الصليبية والتترية } رأت الشـام من ضروب الجيوش على عهد الحروب الصليبية ثم في عهد الحروب المغولية التترية مايستغرب منه · فان جيوش الصليبيين كانت مؤلفة من معظم العناصر الفرنجية التي كانت تدين بدين البابوية في اوربا ، بل كانوا يجندون من أحبَّ من الوطنيين ولا سيما الموارنة · وكانت جيوش هولاكو وغازان وتيمورلنك مؤلفة من معظم عناصر آسيا الا قليلاً · وجميع هذه الجيوش الغربية والشرقية أضرت بهذه الديار أضراراً فاحشة ، لان النظم الحربية الحديثة لم تكن معروفة اذ ذاك فكان القائد بحكم الضرورة يتسامح مع

أجنـاده اذا عرفوا لحم من ينزلون عليهم و كسروه سواء كانوا مسالمين او محاربين ٠ وطول دور الحروب الصليبية في الشام أورث اهله شجاعة واستهانة بالموت حتى كاد يعد جميع اهله جنداً ٠ والشدائد معلمة الشعوب ٠ واي شدة على الشام أعظم من ان تجيش اوربا على هذا القطر الصغير ٠ وكانت العاقبة ان غلب هذا الصغير ذاك الكبير بالصبر والمتانة والاهتداء الى طرق ناجعة في جهاد عدوهم ومعرفة العرق الحساس من مَقاتلهم ٠ وقد اعترف المسلمون للصليبيين بالشجاعة والاقدام ٠ واعترف هؤلاء للمسلمين بمثل ذلك ٠ ومن أجمل ضروب الانصاف ان ينصف المرء خصمه ويذكر محاسنه كما يذكر مقابحه ٠

* * *

أجناس الجيوش في القرون الوسطى وجمعيات الفتوة

كانت طوائف الاجناد عُدة كثيرة تُنسب كما قال القلقشندي كل طائفة منهم الى من بقي من بقايا خليفة من الخلفاء الماضين منهم كالحافظية والآمرية من بقايا الحافظ والآمر او الى من بقي من بقايا الوزراء الماضين كالجيوشية والأفضلية من بقايا امير الجيوش بدر الجمالي وولده الافضل او الى من هي منتسبة اليه كالوزيرية او غير ذلك من القبائل والأجناس كالأتراك والاكراد والغز والديلم والمصامدة او من المستضعفين كالروم والفرنج والصقالبة او من السودان من عبيد الشراء او العتقاء وغيرهم من الطوائف ولكل طائفة منهم قواد ومقدمون يحكمون عليهم ٠

وكان الجنود في دولة المماليك يقسمون الى طبقتين : المماليك السلطانية وهم أعظم الأجناد شـأناً وأرفعهم قدراً وأشدهم الى السلطان قرباً وأوفرهم أقطاعاً ، ومنهم تؤمَّر الامراء رتبة بعد رتبة ٠ وهم في العدة بحسب ما يؤثره السلطان من الكثرة والقلة ٠ وقد كان لهم في زمن الناصر محمد بن قلاوون ثم في ايام الظاهر برقوق العدد الجم والمدد الوافر ، لطول مدة ملكهما واعتنائهما بجلب المماليك ومشتراها ٠ والطبقة الثانية أجناد الحلقة وهم عدد جم وخلق كثير ، وربما دخل عليهم من ليس بصفة الجند من المتعممين وغيرهم بواسطة النزول عن الاقطاعات ٠ وقد جرت عادة ديوان الجيش

عدم الجمع على الجند كي لا يحاط بعدته ويطلع اليه هذا مارواه القلقشندي · وروى ابن فضل الله انه كان لكل اربعين نفساً منهم مقدم ليس له عليهم حكم الا اذا خرج العسكر كانت مواقفهم معه وترتيبهم في موقفهم اليه · وكان اقوش الأفرم اذا مات لاحد من أجناده فرس يحضر الكفل الى مطبخه و يأخذ من الديوان ستمائة درهم · واذا خرج الى بيكار فجميع جنوده الى ان يعودوا لا يطبخ احد منهم ولا يشتري تبناً ولاشعيراً · وذكر الاسدي ان عبرة العساكر في الشام في القرن التاسع كانت اربعة وعشرين الف فارس وانه كان في كل مدينة الامراء والاجناد · وذكر الظاهري ان الجيوش كانت تنقسم في القرن التاسع أقساماً وهي أجناد حلقة و بحرية وتركمان وعرب واكراد وغير ذلك · وأجناد الحلقة بدمشق اثنا عشر الفاً ومماليك كافلها والامراء بها ثلاثة آلاف · واجناد الحلقة في حلب ستة آلاف ومماليك كافلها والامراء بها الفان · وأجناد الحلقة بطرابلس اربعة آلاف ومماليك كافلها والامراء بها الف · وأجناد الحلقة بصفد الف ومماليك كافلها والامراء بها الف · واجناد الحلقة بغزة ومماليك كافلها والامراء بها الف ·

وجيش الحلقة هذا هو الجيش القائم دوماً على السلاح وهو ما يقابل باصطلاح هذه الايام جيش الحامية (garnison) وكان لكاتب الجيش جريدة باسماء الاجناد وأقطاعاتهم · ويحتاج صاحب ديوان الاقطاع ان يكون ماضياً فيما يسأل عنه من امور الاجناد وأحوالهم متفقداً لمن يغيب منهم بغير دستور · وكان الى صاحب ديوان الجيش عرض الاجناد وخيولهم وذكر صلاحهم وشيات خيولهم، اي علائمها وأشكالها ، وكان من شرط هذا الديوان عندهم ان لا يثبت لاحد من الاجناد الا الفرس الجيد من ذكور الخيل واناثها دون البغال والبراذين وبين يديه نقباء الامراء يعرفونه احوال الاجناد من الحياة والموت والغيبة والحضور وغير ذلك — قاله القلقشندي ·

اما أجناس الجيوش في مصر والشام فكانت منوعة اي من الترك والشركس والروم والروس وغير ذلك من الاجناس المضاهية للترك في الزي · وكانت للعرب على مايظهر كتائب خاصة بقيادة امرائهم يستدعون حين الحاجة للقتال على اصولهم · وجيوش بني حمدان وبني مرداس وبني كلاب وبني كلب وآل الفضل وغيرهم من

الملوك والامراء عرب صرف لان صاحب العصبية عربي لا يأمن غيرهم . واكثرية الجيش شراكسة او اتراك على الغالب والباقون من اهل البلاد .

ولقد كان بعض الخلفاء والملوك والامراء اذا شاهدوا أعراض الضعف في قوتهم يعمدون الى طرق ظاهرها بسيط وباطنها قوة لهم ليتقووا بهم عند الحاجة . اي يكونون جيشاً يرتجل في الحال ويغني غناءه . كما فعل الناصر لدين الله العباسي سنة اربع وستمائة فتقدم الى الوزير بجمع رؤوس الاحزاب وان يكتب في ذلك منشور فدخل الناس من الخاص والعام في الفتوة وسأل ملوك الأطراف الفتوة فنفذ اليهم الرسل وقد ألبسهم سراويلات الفتوة بطريقة الوكالة . فما كتبه الوزير ان امير المؤمنين علي ابن ابي طالب كرم الله وجهه هو اصل الفتوة ومنبعها ، ومنجم أوصافها الشريفة ومطلعها ، وعنه تروى محاسنها وآدابها ، ومنه تشعبت قبائلها وأحزابها ، واليه دون غيره ينسب الفتيان . فعل ذلك بمرأى من السلف الصالح ومسمع ، ومشهد من أخيار الصحابة فلم يسمع ان احداً من الامة لامه ، ولا طعن عليه طاعن في حد أقامه ، وحقيق بمن اورثه الله مقامه ، وانتمى اليه في فتوته ان يقتدي به عليه السلام في أفعاله . الى ان قال : ان من قتل له رفيق نفساً نهى الله تعالى عن قتلها وحرّمه ، وسفك دماً حقنه الشرع المطهر وعصمه، وصار بذلك ممن قال الله تعالى في حقه ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها ثلاثة ، ان ينزل عنه في الحال في جمع الفتيان عند تحققه لذلك ومعرفته ، و يبادر الى تغيير رفقته ، مخرجاً له بذلك عن دائرة الفتوة . وان كل فتى يحوي قاتلاً و يخفيه ، و يساعده على امره و يؤويه ، ينزل كبيره عنه ، و يغير رفاقته و يتبرأ منه ، وان من حوى ذاعيب فقد عاب وغوى ، ومن آوى طريد الشرع ضل وهوى ، فان الفتى متى قتل فتىً من حزبه سقطت فتوته . ووجب ان يؤخذ منه القصاص . وان قتل غير فتىً عوناً من الأعوان او متعلقاً بديوان في بلد سيدنا الامام الناصر لدين الله فقد عيب هذا القاتل في حرم صاحب الحرب بالقتل ، فكأنما عيب على كبيرة فسقطت فتوته بهذا السبب . وسلم الى كل واحد من رؤوس الأحزاب منشور بهذا المثال فيه شهادة اثنين من العدول ، فألزم الناس اجراء الامر على ما تضمنه هذا المرسوم قائلين في تعهدهم ومتى جرى ما ينافي المأمور به المحدود فيه كان الدرك لازماً

لهم على مايراه صاحب الحرب اي الخليفة . وهؤلاء الفتيان كانوا يغتالون كل من يخالفهم حتى أفتى الفقهاء بعد ذلك العصر بتحريم الفتوة وانكروا نسبتها الى علي بن ابي طالب وهي أشبه بجمعية فوضوية يعمد الى تقويتها ايام الضعف .

***

الجيوش العثمانية

لما جاء العثمانيون لفتح الشام كانت جيوشهم من العسكر المعروف (باليكي چري) اي العسكر الجديد ، وقد حرف الشاميون والمصريون هذه التسميـة بلفظ الانكشارية ، وهو الجيش الذي ألفه السلطان اورخان بن السلطان عثمان باقتراح الوزير قره خليل جاندارلي على ان يؤلف من اولاد المسيحيين من العثمانيين كالبوشناق والروم والصرب والبلغار والالبان ، يجندون بحسب اللزوم وبموجب قانون التجنيد المعروف عندهم (بدوشرمه) اي اللقطاء ، وذلك من اهل الروم ايلي ومن سكان الاناضول على قلة ، ويعفى من ذلك الارمن وسكان جزيرتي ساقز ورودس ، يأخذونهم من اهلهم من سن العاشرة الى الخامسة عشرة و يستثنى من ذلك المتزوجون الفتيان ، و يربونهم تربية اسلامية ثم يجعلونهم في التكنات في الاستانة ، ومنهم من يخدم في قصور السلاطين في أعمال البستنة وغيرها ، ومنهم من يتعلم سبع سنين ولا سيما اللغة التركية حتى يصبحوا مسلمين اتراكاً ثم ينقلون الى العاصمة ، و كثير منهم ارتقوا في مناصب الدولة حتى اصبحوا وزراء وقواداً عظاماً وخدموا العثمانيين خدمة عظيمـة ، لان خلّص الاتراك على الأغلب كانوا يفرون من تعليم اولادهم . وان كان الآباء عظماء في السلطنة . فانتقلت الأحكام بالطبيعة الى ايدي فئة من هؤلاء المتعلمين من الانكشارية .

ولما أسس اورخان هذا الجيش قصد ذات يوم آماسية وكان فيها رجل من الصلحاء اسمه حاجي بكتاش ، والتمس منه ان يسمي هـذا الجيش فسماه الولي العسكر الجديد (يكي چري) ودعا له بما معناه : بيض الله وجوههم ، وقوى سواعدهم ، وارهف سيوفهم ، وأهلك الاعداء بسهامهم ، و كتب لهم الغلبة والتوفيق . قال هوار : ذهب قره خليل جاندارلي في تأليفه هذه الكتائب من المشاة بهذا الفخر . وكان تأليفها في عصر كانت فيه اوربا في القرون الوسطى ، وليس لها من الجيوش الا عصابات مسلحة ، بل وقبل

تنظيم كتائب الرماة في انكلترا ، وقبل ان أسس الملك شارل السابع ملك فرنسا جيشاً دائماً تحت الطلب بقرن واحد . وقال ميشو : كان العثمانيون بادي بدء الامة الوحيدة التي كان لها تحت السلاح جيش دائم منظم مما كان للدولة به التفوق على الأمم التي تريد إخضاعها لسلطانها . وأصبح لمعظم ممالك اوربا في القرن السادس عشر جيوش يقاومون بها أعداءهم ، فانتشر النظام والتربية العسكرية بسرعة بين شعوب النصرانية ، واخذت المدفعية والبحرية كل يوم تزيدان نظاماً ورقياً في الغرب ، على حين كان الأتراك يزهدون في التجارب التي وصلت اليها الجيوش البحرية والبرية ، ولا يستفيدون بتاتاً من العلوم التي انتشرت بين أعدائهم وجيرانهم اه .

أسس العثمانيون جيش الانكشارية على غير مثال في التاريخ ، خالفوا فيه الشريعة الاسلامية التي لا تجيز للملك ان يُكره الذميين على استرقاق اولادهم ، واتبعوا فيه العُرف والمصلحة ، ثم دخل فيه سوء الاستعمال في القرن السادس عشر على رأي موردتمان ، وذلك بان اخذوا يتساهلون بادخال أناس من المسلمين واليهود والنَّوَر ، فأخذ جيش الانكشارية يشبه جيشاً من الأسرى على الاصول الافريقية الجديدة ، وكان ذلك من أسباب تسرّب الفساد اليه .

كان عدد جيش الانكشارية لاول تأسيسهم ستة آلاف جندي وقيل بل الف جندي ، ثم جاوزوا المائة الف وقائدهم العام « آغا » الانكشارية ، وهم يقسمون الى كتائب وكانت كل كتيبة بادي بدء مؤلفة من مائة الى خمسمائة مقاتل ، يعلّمون في الولايات على الكرّ والفرّ ويستخدم بعضهم في خدمة الولاة او في مزارع ارباب الأقطاعات او في حوانيت ارباب الصنائع ، و يعيش أفراد هذا الجيش من مياومات طفيفة وهي «اقچه» واحدة لكل فرد في اليوم ، وتزيد اذا أثبت المقاتل في الحرب كفاءة ، و يقبضون ذلك مرة كل ثلاثة أشهر بأبهة وطنطنة . وتوزع الاقطاعات على المبرزين منهم من الضباط وغيرهم يعيشون بها زمن السلم ، و يُقضى عليهم في الحرب ان يُجهزوا أنفسهم على نفقتهم .

وكان أغلب الانكشارية في الولايات من الفرسان وفي العاصمة من المشاة . وسلاح المشاة الدروع والمغافر والاتراس والخناجر مما يخف حمله ، وسلاح الغارات

السيوف والرماح والحراب والمعاول يستعملونها في القرب ، ويستعملون في البعد الرماحَ والبنادق والغدارات . واسلحة الفرسان عبارة عن سيوف مستطيلة وبنادق بفتيل وبنادق بصوان وغدارات وقفافيز من حديد . وقد استعمل العثمانيون أسلحة نارية تشبه المدافع في محاربة قوصوة المشهورة . وكانت المدافع والمكاحل في عسكر السلطان سليم على مرج دابق من أسباب ظفره بجيش المماليك لان هؤلاء كانوا خلواً منها .

قال احمد رفيق : ولقد كان العثمانيون يستعملون من السلاح ما خف محمله حتى ان نعال خيولهم كانت على غاية الدقة وذلك حتى تسير سيراً سريعاً . وكانوا يبدون مهارة فائقة في التقدم وكشف قوة العدو والإحاطة به وتعجيزه . ويكمنون له ويعنون من وراء الغاية بتعليم الجند وتدريبهم حتى يبلغوا بمن يأخذونهم من الاولاد مرتبة الكمال . يعلمونهم الألعاب الرياضية واستعمال القوس والنشاب ثم الرماية بالبنادق ، ويدربونهم على لعب الجريد والمسايفة ليل نهار . وتتبدل الاسلحة بتبدل الزمن .

وكان لكل كتيبة شعار يرسمه الجندون فيها على خيامهم وعلى أبواب ثكناتهم ويشمونهم اي يستعملون لهم الوشم بايديهم وأرجلهم . وقد أخذ هذا الجيش يفسد على عهد مراد الثالث لانه رخص سنة ٩٩٠ بقبول الرقاصين والمصارعين في الدخول فيه . وبعد ذلك اخذ يدخل في سلكه أخلاط من كل صنف من الناس بالشفاعات والرُشى ليستفيدوا من امتيازات الانكشارية . وفي ذلك الوقت اخذ بعض سكان الشام يدخلون في هذا الجيش على مايظهر . وفي سنة ١١٥٣ صدر الامر بان تباع العلوفات فضعفت قوة الجندية في الانكشارية وأصبح من كانوا من الجند حقيقة لا يقبضون من العلوفات مايكفيهم بل يعيشون بالنهب والسرقة . وكلما اتى الزمن على الانكشارية زاد تدخلهم في سياسة الملك في الاستانة فأخذوا يخيفون السلاطين ويخلعونهم بل يقتلونهم ويعزلون الصدور العظام وينصبونهم او يقتلونهم ويشردونهم . وآخر من قتلوه من سلاطين العثمانيين السلطان سليم الثالث .

ولما تربع السلطان محمود الثاني في دست الملك ورأى ماتم لعزيز مصر محمد علي من إنشاء جيش له على النمط الغربي صحت عزيمته ان يعجل في القضاء على الانكشارية

فاستصدر فتوى بقتلهم فقتلهم الاهالي ورجال البحرية ، وأُلغي نظام الانكشارية سنة ١٢٤١ وسموا هذه الوقعة في الاستانة بالوقعة الخيرية . وقد قتل فيها في العاصمة والولايات ستة آلاف رجل على رواية المؤرخ اسعد افندي . ومن ذاك الوقت ألفت الدولة جنداً على مثال الجيوش الاوربية . وكان من الانكشارية في الشام ان خربوا القرى والضواحي . وكانوا يعتدون على الاعراض والاموال واي اعتداء . ولما صدر الامر بقتلهم قُتل بعضهم هنا ومنهم قسم من الاهالي غير اسمه ورسمه فتغاضت الدولة عنه . هذا هو الجيش الذي بقيت الشام تحت رحمته اكثر من ثلاثمائة سنة ولم تر الشام من حسناته بل رأت سيئاته وتخريباته .

وكان من جملة الجيش عسكر اسمه (اللوند) وهو العسكر الخفيف الذي كانت مملكة البندقية تستخدمه قديماً ومنهم عسكر اسمه (السكبان) — السكبان كلمة فارسية مركبة معناها حارس الكلب — قال البوريني : وهم عبارة عن طائفة كان وصفهم ان الواحد منهم يحمل البندقية على ظهره و يقود الكلب في ساجوره (قيده) ويمشي أمام الامير والكبير حتى يسير الى الصيد . قال : ولم يكونوا اولاً شيئاً حتى جاء الى بلاد الشام امير يقال له ابو سيفين تولى ولاية نابلس فصحب منهم نحو مائة رجل يستعين بهم على رعايا بلاد نابلس لانهم لايخلون من نوع شراسة ، فاعتاد الامراء استصحابهم الى ولاياتهم فكثروا . وقد أُضيف هذا العسكر الى جوقة الانكشارية .
ومن الجند صنف يقال له (السباهية) وهو من الفرسان كانوا يعطون عشر بعض الاراضي على صورة أقطاع و يقومون مقابل ذلك مدة الحرب بمعاونة الدولة في القتال ، يأتون على خيولهم والدولة تعطيهم الذخائر والمؤن . ومنهم صنف يقال له (جبه جي) وهو من العسكر المدرع (زرهلي) من جيوش العثمانيين . ومنهم (القبوقولي) اي الحراس وأصلهم حراس السلطان كثروا في آخر القرن الماضي . ومنهم (الدالاتية) اي الادلاء واصل الكلمة فارسية من داله بمعنى الدليل . وكانوا يلبسون في رؤوسهم قلنسوة كالطرطور على مافي محيط المحيط و(الهوارة) وهم صنف من العساكر الغير المنظمة و (التفكجية) مأخوذة من تفنكجي اي صاحب البندقية وهم جند من رماة البنادق وكانوا للمحافظة و (الشوربجية) وهم ضباط الانكشارية يعمل لهم الحساء اي الشوربة في

قدرخاص ، ورتبةالواحدمنهم معادلة لرتبة قائد بعرفنا الى غير ذلك من صنوف الجنود ٠

* * *

الجيوش الحديثة

كان بعض الامراء في هذه الديار لا يخلون من مقاتلة على الدوام يستخدمونهم في قيام امرهم ٠ ومن اهمهم في هذا الباب اولاد معن امراء الشوف وما اليها فقد كانوا يستطيعون ان يجندوا اربعين الفاً٠ وذكر فولني في القرن الثامن عشر انه رأى الامير في دير القمر جند خمسة عشر الف جندي في ثلاثة ايام ٠ ومن الجيوش التي رأتها الشام وكانت بالنسبة للجيوش التركية تراعي النظام جيوش مصر مدة حكم ابراهيم باشا ابن محمد علي الكبير فكانت مؤلفة من المصريين والارناؤد والهوارة والهنادي من عرب مصر وكلهم يدربهم ضباط ماهرون وكان في رأس القواد بعض ضباط أجانب من الفرنسيس ٠

ولما انتشر نظام الجند الجديد ضاقت صدور الناس بالجندية لانها لم تكن مستوفاة شروط الراحة ولان الأخلاق الحربية أوشكت ان تزول لطول العهد بها ولاسيما من سكان المدن٠ على ان سكان البادية كانوا يعفون من هذه الخدمة ٠ والسبب في ذلك ان امراءهم لم يكونوا من جنسهم فكانت اللغة من جهة والشدة عليهم من أخرى من الحوائل دون امتيازهم بالصفات الحربية وايثارهم التفلت من الجندية ان أمكن ٠

ولقدأخرجت المدرسة العسكرية في دمشق مدة نصف قرن مئات من الضباط من أبناء الشام خدموا الدولة خدمة صادقة٠ وكان منهم نبغاء لم يقصروا عن ارقى العناصر العثمانية علماً وذكاءً ومضاءً ٠ ويقال على الجملة ان هذه البلاد في الدور العثماني كانت بعسكرها والحامية الانكشارية اولاً ثم الحامية النظامية آخراً أشبه بمعسكرات عظيمة ، يعمل فريق عظيم من الناس لخدمة الجيش ٠ وكانت رواتب الضباط وجرايات الجنود تجف جداً وكذلك علف الدواب فيسدون العجز بطرق مخربة ٠ ومع عدم العناية بمأكل الجند وملبسه كانوا يوم الغارة اسوداً خصوصاً اذا حسنت قيادتهم لان الشباب كانوا يتدربون على الصراع والمسايفة والرماية والألعاب الرياضية بجملتها فاذا كانت الحرب اواقتضت الحال الغارة على فريق اودفع صولة صائل استطاعوا ان يستعملوا السلاح و يحسنوا الطعن والضرب اول تجنيدهم ٠

وكانت أنظمة العثمانيين الأخيرة محتذاة من أنظمة الجيش الألماني والفرنسي ولنا ان نقول بعد هذا انه لم يتأورب اي لم يصبح اوربيًا في هذه الارض مدة حكم العثمانيين شيء من أوضاعنا مثل الجيش . جندت الدولة العثمانية في الحرب العامة نحو ربع مليون من بلاد الشام او سبعًا وعشرين قرعة ويمكن ان يقال على الجملة انه حارب ربعهم وهلك ربعهم واستخدم ربع في خدم خفيفة وهرب الربع الآخر . ولما غلبت الدولة العثمانية في الشام في الحرب العالمية الأخيرة وانهزم جيشها واستسلم اكثره لم يتمكن من الثبات أمام قوى الحلفاء الجديدة فانحل الجيش في هذه الديار بالطبيعة .

وقد رأت هذه البلاد مدة الحرب العالمية الأخيرة جيوشًا من الترك والأكراد والألمان والمجر والنمسويين والبوهيميين وغيرهم كما رأت بعد انحلال العثمانية جيوشًا من البريطانيين والكناديين والاوستراليين والهنود والفرنسيين والجزائريين والمراكشيين والهنود الصينيين والسنغاليين والسودانيين . وبالجملة رأت جنودًا من معظم المستعمرات الخاضعة لبريطانيا وفرنسا فأشبه تبلبل الألسنة في الشام تبلبلها فيه على عهد الحروب الصليبية والمغولية .

ولما أُسست الحكومة العربية في المدن الاربع وأعمالها اخذوا يجندون جنودًا عربية مأجورة من اهل هذه الديار ثم شرعوا بالتجنيد الاجباري اشهرًا قليلة ريثما دخلت فرقة الجنرالين غوابيه وديلاموط الى دمشق وحلب وسقطت البلاد في يد الحكومة الفرنسية المنتدبة وفضّ الجيش العربي وصُفي . وكان بضعة الوف مسجلة على الورق . ثم اخذت فرنسا بتأليف جيش مختلط من السوريين والفرنسيس أشبه بالدرك وذلك في البلاد الواقعة تحت انتدابها . وأبقت فرنسا فرقًا من جندها في البلاد التي انتدبت للاشراف عليها ، كما جعلت بريطانيا العظمى في فلسطين اعتمادها على جيشها . وفي الشرق العربي على جيش صغير من أبناء البلاد يعاونه الجيش البريطاني المرابط في فلسطين عند الاقتضاء . وفي ثورة سنة ١٣٤٤ جندت الدولة المنتدبة كتائب من المتطوعة سمتهم الانصار وكانت جمهرتهم من الشركس والارمن والاسماعيلية فلقي الأهلون من سوء تربيتهم وقلة نظامهم واعتدائهم على الابرياء ما انسى ذكر الانكشارية . وكانت حجة الحكومة انها اصطنعت أشقياء لقتال اشقياء . وجعل لبنان كتيبة له من الجند سماها القناصة وهم أشبه بالدرك والشحنة .

الاسطول

بحرية الفينيقيين والعبرانيين والفراعنة — ليس في الايدي نص يركن اليه لمعرفة ما كانت عليه شعوب الشام القدماء من الاصطلاح في بحريتهم . وسواحل هذه الديار المستطيلة الممتدة من العريش الى خليج الاسكندرونة تحتاج في اتصالها الى مراكب للتجارة وغيرها . ولم يعرف ان اعظم الأنهار في الشام كالأُردن والعاصي كانت تجري فيها سفن الا الفرات فانه كان يحمل مغادي وحراقات وجلبات تذهب وتجيء بين الشام والعراق .

واهم من عُرف بمعاناة البحار اهل فينيقية سكان الساحل الأوسط فلم يكونوا اعظم شعب بحري درج على هذه الارض فقط ، بل كانوا أعظم الشعوب القديمة في العالم جرأة على الأسفار في البحار ، وكانت اصولهم على الارجح من شعوب بحارة جاؤوا من البحرين في خليج فارس ونزلوا هذا الساحل الجميل فظهرت كفاءتهم في اختراق العباب في سالف الأحقاب . والصناعات في الناس تكون بالارث او ابنة المحيط . والفينيقيون استوفوا هذين الشرطين فكانوا بحارة بالفطرة والبيئة بحارة بالتربية والحاجة .

ومما ساعد الفينيقيين على إجادة صنع السفن كثرة الأخشاب في لبنان ولاسيما شجر الأرز الذي منه كانوا يصنعون مراكبهم الصغيرة والكبيرة . وكانت لهم شؤون ما عرفها غيرهم في السير والإسراء ، والإقلاع والإرساء ، يهتدون بنجمة القطب يستدلون بها على سمت الشمال . ولذلك كانوا يوغلون في البحار ، لا يخشون الاخطار ،

حتى لقد اجتازوا البحر الأبيض الى بحر الظلمات و بحر الشمال وغيره ، ولم ينازعهم منازع من الشعوب في هذا الباب ، لانهم كانوا يكتمون سرّ الطرق التي يسلكونها و يتشددون في كتمانها . وربما أغرقوا سفنهم اذا اطلع بعض التجارة من الغرباء عنهم على خطة رحلاتهم ، فضلاً عن إغراق مراكب من يحاول سرقة اسرارهم في طرقهم البحرية . ولم يعرف غير الفينيقيين جزائر الكاسيتريد (Cassitérides) او جزائر سورلنج في الشاطيء الغربي من الجزائر البريطانية ومنها كانوا يجلبون القصدير .

ولم يؤثر عن العبرانيين ان كان لهم اسطول بل قوارب لا تبعد كثيراً عن الساحل على النمط القديم . اما الفراعنة الذين حكموا جزءاً مهماً من جنوب الشام وساحله مدة فكانت بحريتهم وصناعتهم[1] في مصر اولاً ثم جعلت في طرابلس وصور وجبيل لقربها من مستودع الاخشاب الصالحة لصنع السفن . ولم تكن ملاحة للفراعنة من السلائل الاولى حتى الدولة السادسة والعشرين لانهم ليسوا أُمة حربية .

* * *

بحرية الروم واليونان

كانت البحرية في العهد اليوناني في الشام على مثال بحرية تلك الدولة قوية منظمة . وكانت اليونان أُمة بحرية من الطراز الاول عند الاقدمين . أَلفوا اليمّ منذ عرف تاريخهم لان معظمهم جزائريون طالما عاركوا البحر وعركهم . و بالطبع انطبع سكان الساحل الشامي بطابعهم وساروا على أقدامهم في سلوك سبل البحار . ومثل ذلك يقال في الرومان الذين طال عهدهم في الشام ، فان أساطيلهم كانت تحمل من شواطيء ايطاليا واليها تجارات الامم التي خضعت لسلطانهم . وصعب ان يحكم على بحرية الشام في الدور الروماني ولعلها لم تخرج في كل حال عن طور الرومان . ولا شك ان بعض المواني الشامية كان لها صناعات كما كان لها في كل دور . ويمكن ان يقال على الجملة ان الشام لم يعرف له

(١) الصناعة في العرف اسم المكان المعد لانشاء المراكب والسفن نقلت الى لغات الغرب فصارت ارسنال (Arsenal) وعادت الى العرب من طريق الترك باسم « ترسانة » .

منذ عرف تاريخه الى الفتح الاسلامي بحرية خاصة وافية بالغرض بالنسبة لتلك الاعصر الا في عهد الفينيقيين وكان في سائر أدواره مندمجاً في الامم القوية التي امتد سلطانها عليه .

* * *

العرب والبحار

كان العرب الا قليلاً لايحبون البحار لبعدهم عنها ولما كان يبلغهم من أخطارها . وقد اتفق في أوائل الفتوح ان العلاء ابن الحضرمي عمل اسطولاً واجتاز من البحرين الى فارس ووصل الى اصطخر ، ودمر الاعداء اسطوله فقتل كثير من رجاله ، فغضب لذلك عمر بن الخطاب لان هذا العمل لم يكن عن مشورته . ولما كان معاوية على جند دمشق والأردن الح على عمر في غزو البحر ، فكتب الخليفة الى عامله في مصر عمرو بن العاص يريده على ان يصف له البحر فكتب اليه « يا امير المؤمنين اني رأيت البحر خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير ، ليس الا السماء والماء ، ان ركد خرق القلوب ، وان تحرك أزاغ العقول ، يزداد فيه اليقين قلة ، والشك كثرة ، هم فيه كدود على عود ، ان مال غرق ، وان نجا برق . » فكتب عمر الى معاوية « لا والذي بعث محمداً بالحق لاأحمل فيه مسلماً ابداً ... وتالله لمسلم واحد احبُّ اليَّ مما حوت الروم . فإياك ان تعرض لي ، وقد علمت مالقي العلاء مني ولم أتقدم اليه في مثل ذلك . »

وقد علل ابن خلدون امتناع المسلمين عن ركوب البحر بان العرب لبداوتهم لم يكونوا اول الامر مهرة في ثقافته وركوبه . والروم والفرنج لممارستهم أحواله ، ومرباهم في التقلب على أعواده ، مرنوا عليه وأحكموا الدربة بثقافته . فلما استقر الملك للعرب وشمخ سلطانهم ، وصارت أمم العجم خولاً لهم وتحت أيديهم ، وتقرب كل ذي صنعة اليهم بمبلغ صناعته ، واستخدموا من النواتية في حاجاتهم البحرية أمماً ، وتكررت ممارستهم البحر وثقافته ، فتاقت أنفسهم الى الجهاد فيه وانشاء السفن والشواني ، وشحنوا الاساطيل بالرجال والسلاح ، وأمطوها العساكر والمقاتلة لمن وراء البحر . واختصوا بذلك من ممالكهم وثغورهم ما كان أقرب الى هذا البحر وعلى ضفته مثل الشام وغيرها .

ولذا كان العرب بادئ بدء يتخوفون ركوب البحر كل التخوف فقد استعمل الوليد بن يزيد الاسود بن بلال المحاربي على بحر الشام فقدم عليه اعرابي من قومه ففرض له واغزاه البحر فلما أصابت البدوي تلك الأهوال قال شعراً منه :

فلله رأيي قادني لسفينة — واخضر موّار السرار يمور
ترى متنه سهلاً اذا الريح أقلعت — وان عصفت فالسهل منه وعور
فيا ابن بلال للضلال دعوتني — وما كان مثلي في الضلال يسير
لئن وقعت رجلاي في الارض مرة — وحان لاصحاب السفين وكور
وسلمت من موج كأن متونه — حرار بدت اركانه وثبير
لتعترضن اسمي لدى العرض حلقة — وذلك ان كان الأياب يسير
وقد كان في حول الشربة مقعد — لذيذ وعيش بالحديث غرير

✲ ✲ ✲

اول خليفة غزا في البحر الشامي والبحرية الاموية } منع عمر عماله من غزو البحر بعد إخفاق العلاء في غزوته البحرية . ولما قلد عمر عبدالله بن قيس النظر في ثغور الشام جميعها كتب اليه عمر اني لا أحمل المسلمين على أعواد نجرها نجار وجلفطها الجلفاط (والجلفاط الذي يشد ألواح السفينة) وما زال به معاوية حتى أقنعه . وفي بيروت عمر معاوية المراكب وجهز الجيش الى قبرس ومعهم ام حرام واسمها الرميصاء بنت ملحان زوجة عبادة بن الصامت فلما رجعت رابطت في بيروت وماتت فيها . وشتا المسلمون بارض الروم سنة اثنتين واربعين وهو اول مشتى شتوه بها فاستعمل معاوية على اهل المدينة عبد الملك بن مروان وهو يومئذ ابن ست عشرة سنة فركب عبدالملك بالناس البحر . فلما ولي عثمان بن عفان طلب اليه معاوية ان يغزو البحر فوافقه على ذلك على ان ينتخب من يحملهم في المراكب ولا يقترع بينهم ، فمن اختار الغزو طائعاً يحمله و يعينه ففعل . وغزا معاوية الغزوة الاولى فكان اول مسلم غزا في البحر ، كما ابتدع أعمالاً كثيرة نافعة في قوام الدولة وحفظ البيضة . واستعمل على البحر عبد الله بن قيس الحاسي خليفة بني فزارة فغزا خمسين غزوة من بين شاتية وصائفة في البر والبحر ولم يغرق فيه احد . وأغزى معاوية عقبة بن عامر

الجُهني في البحر وامره ان يتوجه الي رودس . وفتح هذه الجزيرة جُنادة بن ابي أُمية فنزلها المسلمون واتخذوا بها أموالاً ومواشي يرعونها حولها ، فاذا أمسوا ادخلوها الحصن . ولهم ناطور يحذرهم ما في البحر ممن يريدهم بكيد ، فكانوا على حذر منهم ، وكانوا أشد شيء على الروم يعترضونهم في البحر فيقطعون سفنهم . وكان معاوية يدرُّ لهم الارزاق والعطاء ، وكان العدو قد خافهم . فلما مات معاوية أقفلهم يزيد بن معاوية — رواه الطبري . وجُنادة بن ابي أُمية الازدي من صحابة الشام كان على غزو الروم في البحر لمعاوية زمن عثمان الى ايام يزيد الا ما كان من ايام الفتنة فتنة علي ومعاوية وشتى في البحر سنة ٥٩ .

وبذلك عرفنا ان معاوية أدرك بصائب رأيه ان سواحل الشام بل الشام لا ينجيها من غزوات الروم الا ايجاد اسطول عربي يغزو سواحلهم الحين بعد الآخر . والا تعذرت المحافظة على السواحل وبطلت التجارات . وكان المسلمون قبل ذلك على خطر ابداً يتخطفهم اعداؤهم من عُقر دارهم ، ويطردونهم حتى في ارضهم ويحملونهم أسرى يبيعونهم بيع الاماء والرقيق . اي ان الروم يغزون الشام اذا لم يغزهم اهله فحاول معاوية ان يقنع الخليفة الثاني فتحامى هذا الاذن بركوب البحر خوفاً على المسلمين ، متأثراً مما أصابهم يوم غزوة البحرين ، ولانه لم ير ما رآه عامله في الشام من الخطر الذي يدهم البلاد ان لم تتوازن قوتها البحرية بقوتها البرية .

قال محبوب المنبجي : وفي السنة الثالثة لعثمان ركب معاوية البحر وصار الى قبرس فافتتحها وكان معه الف وسبعمائة سفينة مملوءة سلاحاً واموالاً فسبى منها ومن الجزائر المطيفة بها خلقاً من الناس ، ونزل على جزيرة ارود (رودس) ولم يصل اليها وفي الربيع رجع في جيوش أعظم واكثر من الاولى فنزل عليها وضيق عليهم جداً . فلما رأى اهل ارود الشدة التي هم فيها والعساكر التي أظلتهم طلبوا الامان على ان يخرجوا الى سورية ويسكنوا حيث شاؤا ووفى لهم معاوية بن ابي سفيان وخرجوا منها فأمر بهدم سورها فهدم وأُحرق .

وذكر المنبجي ايضاً انه في السنة الرابعة عشرة لمعاوية غزت العرب الروم في لوقية فلما توسطوا البحر لحقهم بعض الروم في سفينة فألقى النار في السفن فاحترقت كلها وهم

اي الروم اول من أخرج النار وصارت لهم عادة . وقد كان المسلمون في خطب جلل من هذه النار في البحار وهي الصواريخ (Feu gregeois) وكانت اذا أصابت المراكب لا تطفأ بالماء بل تطفأ بالتراب الندي اوالرمل ومخترعها كالينكوس من اهل بعلبك لجأ الى الروم سنة ٦٧٣ م فعلمهم هذا التركيب الذي كان له في الحروب البحرية أهاويل .

وممن غزا في ايام معاوية في البحر بُسر بن أبي أرطاة وفُضالة بن عبيد الانصاري . وفي سنة ٤٩ كانت غزوة يزيد بن شجرة الرُّهاوي في البحر فشتى باهل الشام . وغزا في البحر ايضاً عمرو بن يزيد الجُهني (٥٨) . وروى المنبجي ان معاوية ابن ابي سفيان استعد لقصد القسطنطينية في السنة التاسعة لعثمان والرابعة والثلاثين للعرب ، وأعدَّ سفناً كثيرة في مدينة طرابلس على ساحل البحر ، وحمل من السلاح امراً عظيماً ، وان الروم أحرقوا سفن العرب فبعث معاوية بجيش من البر ففتح قسماً من بلاد الروم وسبى من اهلها مئة الف نفس . ثم جاء ملك الروم في سفن كثيرة من البحر فلما التقى الجمعان كانت الهزيمة على الروم ، وكاد ملكهم ان يغرق ، وتخلص بعد ان قتل من الروم خلق كثير حتى صار البحر دماً ، ورجع العرب بغلبة كبيرة .

وفي هذا برهان جلي على العظمة التي بلغها الاسطول العربي بسرعة ، وما أُحرق منه في طرابلس لم يؤثر فيه لان الصناعة كانت ايضاً في عكا وصور وربما في غيرهما من ساحل الشام ، ومن عكا ركب معاوية البحر لغزو قبرس ، وبعد ان أحرق الروميان اللذان كانا في خدمة الاسطول في طرابلس اسطول هذه الفرضة البحرية باجمعه ، اصبح من المتعذر على معاوية ان يأمن على أساطيله من كان ائتمنهم ، وهم أنباط النصارى في رأي بعضهم ، ممن جعلتهم العرب ربابنة سفنهم ونواتيهم في مراكبهم الحربية ، والغالب ان العرب تعلموا ثقافة البحر من سكان ساحل الشام ثم اعتمدوا على انفسهم شأنهم في كثير من مقومات مدنيتهم .

ومع هذا كان اكثر البحرية والذين يتكفلون بغزو الروم من اهل الاسلام وكان الروم معهم ولا سيما في القرون الثلاثة الاولى للهجرة في امر مريج . قال المسعودي :

أخبرني بعض الروم ممن كان قد أسلم وحسن اسلامه ان الروم صوّرت عشرة انفس في بعض كنائسها من اهل البأس والنجدة والمكايد في النصرانية والحيلة من المسلمين ، منهم الرجل الذي بعث به معاوية حين احتال على البطريق فأسره من القسطنطينية ، فأقاد منه بالضرب ورده الى القسطنطينية ، وعبد الله البطال وعمرو بن عبيد الله وعلي بن يحيى الارمني والعربيل بن بكار واحمد بن ابي قطيفة وقرنياس البيلقاني صاحب مدينة ابريق (ازنيق؟) وحرس خادس اخت قرنياس و يازمان الخادم في موكبه ، والرجال حوله وابو القاسم بن عبدالباقي . ومن رجال البحر الذين طالما تبرم بهم الروم ليون الطرابلسي ومعيوف بن يحيى الحجوري من اهل دمشق والمغيرة بن عبيد الازدي الخراساني ولي غازية البحر في ايام يزيد بن عبد الملك .

* * *

وصف اسطول شامي | وللبحتري قصيدة في مدح احمد بن دينار يصف فيها مركباً كان اتخذه وهو والي البحر وغزا فيه بلاد الروم . قال العسكري في ديوان المعاني وعنه نقل صاحب بلوغ الارب : لم يصف احد من المتقدمين والمتأخرين القتال في المراكب الا البحتري ، وعدوا قصيدته هذه من عيون قصائده وفضلوها على كثير من الشعر وهي التي يقول من جملتها :

ولما خطونا دجلةَ انصرم الهوى   فلم يُبقِ الا لفتةَ المتذكر
وخاطرَ شوق ما يزال يهيجنا   لبادين من اهل الشآم وحضر

الى ان قال :

ولما تولى البحر والجود صِنوه   غدا البحرُ من أخلاقه بين أبحر
اضاف الى التدبير فضلَ شجاعة   ولا عزم الا للشجاع المدبّر
اذا شجروه [1] بالرماح تكسرت   عواملها [2] في صدر ليث غضنفر [3]

(١) شجره بالرمح طعنه به . (٢) عامل الرمح وعاملته صدره دون السنان والجمع العوامل . (٣) الاسد الغضنفر كسفرجل الغليظ الخلق المتغضن .

غدوت على «الميمون [١]» صبحاً وانما غدا المركب الميمون تحت المظفر
أطلَّ بعِطفيه ومرَّ كأنما تشرف [٢] من هادي حصان مشهر [٣]
اذا زمجر النوتي فوق علاته [٤] رأيت خطيباً في ذؤابة منبر
يغضون دون الاشتيام [٥] عيونهم وقوفَ السماط [٦] للعظيم المؤمَّر
اذا عصفت فيه الجنوب اعتلى له جناحا عقاب في السماء مُهجّر
اذا ما انكفا في هبوة [٧] الماء خلته تلفع في اثناء [٨] بُرد محبّر
وحولك ركابون للهول عاقروا كؤوس الردى من دارعين وحسّر
تميل المنايا حيث مالت اكفهم اذا أصلتوا حدَّ الحديد المذكّر
اذا رشقوا بالنار لم يك رشقهم ليُقْلع الا عن شواءٍ مقتّر [٩]
صدمت بهم صهب العثانين [١٠] دونهم ضرابٌ كإيقاد اللظى المتسعر
يسوقون اسطولاً كأن سفينه سحائب صيف من جهام وممطر
كأن ضجيج البحر بين رماحهم اذا اختلفت ترجيع عَوْدٍ مجرجر [١١]
تقارب من زحفيهم فكأنما تؤلف من أعناق وحش منفر

---

(١) الميمون اسم المركب والمظفر الممدوح . (٢) يقال اشرف المربأ علاه كتشرفه وشارفه ومثله تشوّف من السطح تطاول ونظر وأشرف . والهادي المتقدم من كل شيء او العنق و يقصد به مقدم السفينة . (٣) المشهّر فرس المهلهل بن ربيعة التغلبي ولعله يريد بالمشهر كل فرس كريم . (٤) العَلاة السندان حجراً كان او حديداً . ولكن ما مراده بالعلاة هنا ولعلها محرفة عن العلاء بالهمز . (٥) الاشتيام (الاستيام) رئيس المراكب البحرية الحربية . (٦) السماط الصف بكسر السين يقال قام بين السماطين و يقال قام القوم حوله سماطين اي صفين . (٧) انكفأ القوم رجعوا وتبددوا وانكفأ الى كذا مال اليه . الهبوة الغبرة ويعني بها رشاش الماء . (٨) اثناء — طيات . (٩) المقتر ذو القتار بالضم وهو الدخان من المطبوخ والشواء . (١٠) الاصهب والجمع صهب هو الذي يخالط بياض شعره حمرة والعثانين جمع عُثنون وهي اللحية يعني بذلك الروم لانهم شقر اللحى . (١١) مجرجر من جرجر البعير ردد صوته في حنجرته والعود المسن من الإبل والشاء .

فما رِمتَ[1] حتى اجلت الحرب عن طُلىً مقطعةً فيهم وهام مُطيَّر
على حين لا نقع تطوّحه الصَّبا ولا ارض تُلفى للصريع المقطَّر
وكنت ابن كسرى قبل ذاك وبعده مليئاً[2] بان توهي صفاةَ ابن قيصر
جدحت له الموتَ الزعافَ فعافه وطار على الواح شطْب[3] مُسَمَّر
مضى وهو مولى الريح يشكر فضلها عليه ومن يولَ الصنيعة يشكر
اذا الموج لم يَبلغه إدراكُ عينه ثنى في انحدار الموج لحظة اخزر
تعلق بالارض الكبيرة بعدما تنقّصه جري الردى المتمطر[4]

* * *

سواحل الشام ونفقات الاسطول والمناور البحرية والرباطات والفداء — كانت سواحل اجناد الشام كثيرة ، ولكن الصناعة صناعة المراكب كانت في صور وعكا وطرابلس على الاكثر .

وسواحل جند حمص في الاسلام انطرطوس وبلنياس واللاذقية وجبلة ، وسواحل جند دمشق عرقة وطرابلس وجبيل وبيروت وصيدا وحصن الصرفند وعدلون ، وسواحل جند الأردن صور وعكا ، وسواحل جند فلسطين قيسارية وأرسوف ويافا وعسقلان وغزة ، وسواحل جند قنسرين الاسكندرونة والسويدية . وعلى امتداد سواحل الشام لم يحدثنا التاريخ انه أُغير عليها الا من البر ، وما جاءها من الحملات البحرية في عدة أدوار ولا سيما على عهد الاسكندر والرومان والصليبيين والاتراك او الاسطول الانكليزي سنة ١٧٩٩ م والاسطول الدولي ١٨٤١ واسطول الحلفاء سنة ١٩١٨ لم يكن في الحقيقة الا ثانوياً أُريد به دك بعض المواقع الحربية بنيران السفن او ضمان جلب الذخيرة او عدم قطع خط الرجعة من البر .

وذكر قدامة انه كان يجتمع الى مراكب الشام التي كانت تغزو من الثغور الشامية مراكب الشام ومصر من الثمانين الى المائة ، والغزاة اذا عزموا عليها في البحر كوتب

(١) فما رمت ما برحت مكانك . (٢) المليُّ بالامر المضطلع به القدير عليه .
(٣) الشطب الطويل الحسن الخلق وقد اراد به المركب . (٤) المتمطر الفرس السريع .

اصحاب مصر والشام في العمل على ذلك والتأهب له ليجتمع بجزيرة قبرس ، ويسمى مايجتمع منها « الاسطول » كما يسمى مايجتمع من الجيش في البر « المعسكر » ، والمدبر لجميع امور المراكب الشامية والمصرية صاحب الثغور الشامية ومقدار النفقة على المراكب اذا غزت من مصر والشام نحو مائة الف دينار ٠

وذكر المقريزي ان اول ما أُنشئ الاسطول بمصر في ايام المعتصم سنة ٢٣٨ فأُنشئت الشواني برسم الاسطول وجعلت الارزاق لغزاة البحر كما هي لغزاة البر ، واجتهد الناس في تعليم اولادهم الرماية وجميع انواع المحاربة وانتخب له القواد العارفون بمحاربة العدو ، وكان لا ينزل في رجال الاسطول جاهل بامور الحرب ، وكانت الحرب سجالاً بين المسلمين والروم ينال المسلمون من العدو وينال العدو منهم ، وقد قويت العناية بالاسطول على عهد المعز الفاطمي ، فكانت المراكب تنشأ بمدينة مصر واسكندرية ودمياط من الشواني الحربية والشلنديات والمسطحات وتسير الى بلاد الساحل مثل صور وعكا وعسقلان ٠ وكانت جريدة قواد الاسطول في آخر امرهم تزيد على خمسة آلاف مدونة ، منهم عشرة اعيان يقال لهم القواد ولهم رواتب دارة ، وكانت عدة المراكب السائرة في ايام المعز لدين الله تزيد على ستمائة قطعة وآخر ماصارت اليه في آخر الدولة نحو مائة قطعة ٠

ولقد اتخذ المسلمون المناور البحرية لهداية السفن على الشواطئ الشامية ، وكانت في معظم السواحل رباطات للنيل من الاعداء ان قدموا بحراً ، فاهل دمشق يرابطون في بيروت ، واهل القدس في الرملة او يافا ، واهل حمص في طرابلس ، وكانت قرية كفر سلاَّم من قرى قيسارية في فلسطين ولها رباطات على البحر يقع فيها النفير ، وتقلع اليها شلنديات الروم وشوانيهم معهم اسارى المسلمين للبيع كل ثلاثة بمائة دينار ، وفي كل رباط قوم يذهبون في الرسالات ، ويحمل اليهم اصناف الاطعمة وبضج بالنفير لما تتراءى مراكبهم فان كان الوقت ليلاً أُوقدت منارة ذلك الرباط ، وان كان نهاراً دخنوا ، ومن كل رباط الى القصبة عدة منائر شاهقة ، قد رتب فيها أقوام فتوقد المنارة التي للرباط ثم الى التي تليها ثم الاخرى ، فلا يكون ساعة الا وقد أُنفر بالقصبة ، وضرب الطبل على المنارة ، ونودي الى ذلك الرباط وخرج الناس

بالسلاح والقوة واجتمع احداث الرساتيق ثم يكون الفداء رجل يشتري رجلاً وآخر يطرح درهماً او خاتماً حتى يشتري ما معهم · ورباطات هـذه الكورة التي يقع بهن الفداء غزة ، ميماس ، عسقلان ، ماحوز ، ازدود ، ماحوز يبنا ، يافا ، أرسوف — قاله المقدسي · والماحوز هو المكان الذي بينهم وبين العدو ، وفيه اساميهم بلغة الشام ، ومنه الحديث فلم نزل مفطرين حتى بلغنا ماحوزنا ·

وكانت حيفا تشارك هذه الموانى في صنع المراكب وتسمى الابنية الخاصة بالملاحة البحرية بالجودي اشارة الى سفينة نوح التي استوت على الجودي في الجزيرة ·

وكانت الحروب سجالاً بين المسلمين والروم ، ينال المسلمون من العدو وينال العدو منهم ، ويأسر بعضهم بعضاً لكثرة هجوم أساطيل الاسلام على بلاد العدو ، وكان اول فداء وقع في الاسلام ايام بني العباس ، ولم يقع في ايام بني أمية فداء مشهور ، وانما كان يفادى بالنفر بعد النفر في سواحل الشام ومصر وغيرها ، الى ان كانت خلافة الرشيد فوقع الفداء الاول باللامس من سواحل البحر الرومي قريباً من طرسوس في سنة تسع وثمانين ومائة على يد القاسم بن الرشيد وهو معسكر بمرج دابق من بلاد قنسرين في اعمال حلب ، ففودي بكل اسير كان ببلاد الروم من ذكر وانثى ، وحضر هذا الفداء من اهل الثغور وغيرهم من اهل الأمصار نحو من خمسمائة الف انسان بأحسن مايكون من العدد والخيل والسلاح والقوة وقد اخذوا السهل والجبل وضاق بهم الفضاء ، وحضرت مراكب الروم الحربية بأحسن مايكون من الزي معهم اسارى المسلمين ، فكان عدة من فودي به من المسلمين في اثني عشر يوماً ثلاثة آلاف وسبعمائة أسير ، وجرى الفداء في ادوار مختلفة · ذكر هذا المقريزي ثم عدد ما وقع من الفداء في اوقات مختلفة الى القرن الرابع وكان اكثر عدد من فودي به في خلافة الواثق ٤٣٦٢ من ذكر وانثى ·

* * *

الاساطيل في القرون الوسطى — ومعلوم ما كان من اسطول الفاطميين من المنافع في زمن الحروب الصليبية فكان ينجد المسلمين في عسقلان ويافا وصور وبيروت وطرابلس وجبلة واللاذقية · وكانت اساطيل الفاطميين

ـفي الساحل مرتبة في عسقلان وعكا وصور وغيرها وذلك قبل ان يغلبهم الصليبيون على الساحل . وكان الاسطول من جملة العوامل في بقاء الامل باسترجاع البلاد ، وقد كان الظفر حليف الجيوش البحرية لكثرة ما لها من الامتيازات ، وفي العادة ان الاسطول اذا غنم ماعساه ان يغنم لا يتعرض السلطان منه الى شيء البتة ، الا ما كان من الأسرى والسلاح فانه للسلطان ، وما عداهما من المال والثياب ونحوهما فانه لغزاة الاسطول لا يشاركهم فيه احد .

ولم يقصر صلاح الدين ثم الدولة الايوبية ثم دولة المماليك البحرية ودولة المماليك البرجية في إنشاء السفن الحربية والتجارية ، وان كانت عنايتهم بجيوشهم البرية اكثر بما لا يقدر ، وما كان الصليبيون ينالون من المسلمين في الساحل الا يوم تصل سفنهم من موانئ الغرب ويكثر عددها ، حتى اذا أقلعت وخلا الساحل تغزوه مراكب الدولة مقلعة من الثغور ، او يمد من يجب امداده من المسلمين في الساحل الشامي ، وعلى الرغم من المعاهدات التي عقدت بين اصحاب مصر والشام وبين امراء ايطاليا واسبانيا والبرتقال ، بعد القضاء على الصليبيين في الساحل ، فان بعض الفرنج والروم عادوا الى طريقتهم القديمة من غزو البحر فغزوا صيدا وبيروت وطرابلس ، ولما غزوا اسكندرية (سنة ٧٦٧ هـ) ارتأى رجال الدولة في مصر ان يعمروا من غابة بيروت مراكب كثيرة ، حمالات وشواني ، للدخول الى قبرس ، فأحضروا الصناع من جميع الممالك ، وعمروا مسطبة بظاهر بيروت وكانت المراكب تعمل بها على بعد من البحر وأحضر الجند من دمشق فأنزل بين البحر والمراكب حذراً من مراكب صاحب قبرس لئلا يحضر العدو على حين غفلة فيحرق مايعمل من المراكب ، وعملت حمالتان كبيرتان الواحدة باسم (سنقر) والثانية باسم (قراجا) وهما اميران من امراء ذلك الوقت ، ثم أهمل الاسطول الى ان جاء الجنوية (٧٨٤ هـ ١٣٨٢ م) الى صيدا واخذوها ثم جلوا منها ، ثم عادوا فغزوا بيروت ورمى الفرنج المسلمين بالجروخ[1] والمدافع — روى ذلك صالح بن يحيى .

---

(١) الجروخ جمع جرخ فارسية معناها الدولاب وهي آلة ترمى بها الحجارة والنفط وغيرهما .

وكانت جزيرة قبرس مما يرغب الفاتحون بالاستيلاء عليه لانها مفتاح الشام ، وهي تعد من بحره وقطره ، ولذلك كان اذا استولى عليها صاحبها من الروم وقوي سلطانه صانعه صاحب مصر والشام ، واذا استضعفوه أسروه وحملوه الى العاصمة فأهانوه وأذلوه . وكان ملك انكلترا ، او ملك الانكلتار كما يقول مؤرخونا في الحروب الصليبية استعان بهذه الجزيرة ، وقد جعلها ريشاردس قلب الاسد لما جاء باسطوله العظيم لفض الحرب مع صلاح الدين ، قاعدة اعماله الحربية البحرية . فانظر كيف يعيد التاريخ نفسه ، وكيف يتسلسل الفكر في الغرب وينقطع في الشرق بانقطاع من يبتدعه ويؤسسه .

وكان الجنوية والبياسنة والبنادقة من سكان سواحل ايطاليا قد استولوا على أزمة البحار في تلك العصور كما استولت عليها بريطانيا العظمى في العصرين الاخيرين ، وكانوا احتلوا بعض جزر البحر المتوسط يأتون بعض السواحل الشامية يغزونها ، فكانت حكومات الشام تعنى بالمراكب أشد العناية ، لكن الاعتماد في نقل الجيوش من مصر والشام كان على طريق البر لانه أسلم ، اللهم الا في اوقات مخصوصة من السنة وعندما يُصافي ملوك الفرنجة والروم وصاحب قبرس . وظلت العناية بالاساطيل على عهد حكومات المماليك البحرية والبرجية تختلف باختلاف عقل السلطان المتغلب ، وتفرغ ذهنه لصيانة مملكته من الطوارئ الخارجية . اما السفن التجارية فزادت العناية بها خصوصاً واهل الشام مابرحوا منذ الزمن الأطول أمة تمارس الاسفار البحرية ، وتعرف من اين تؤكل الكتف في المتاجر ، وقد شوهدت آثارها حتى في جزائر بريطانيا وبلاد النروج وفنلندة ومعظم سواحل البحر الابيض .

وكانت الحروب الصليبية معلمة لاهل اوربا على طريق البحار الى الشرق ، ومعلمة لاهل الشام على اختراق العباب الى اوربا ، وكل ذلك على سفن ومراكب فذات امثلة منها في المتاحف البحرية في الغرب ولاسيما في ايطاليا وفرنسا واسبانيا . وكانت السفن الحربية تسمى باسماء كثيرة منها الاغربة والبُطسات والاعواديات والبركوشات والشلنديات والمسطحات والحراريق (الحراقات) واليخوت والشواني والقراقير . ولكثرة اختلاط النواتية والملاحين من اهل الشام وغيرهم من السواحل الاسلامية

بابناء حرفتهم النازلين على الشاطئ المقابل للشاطئ الافريقي والشامي ، اخذ الفرنج كثيراً من المصطلحات البحرية عند العرب ، ونقلوها الى لغاتهم محرفة مرخمة ، ولا تزال الى اليوم نقرأوها في معاجم اللغات اللاتينية خاصة ، ومنها « امير الماء » نحرف منها الفرنج وصاغوا لفظ «اميرال» والاصل فيهـا امير الماء اي الربان الاعظم وقائد الاسطول ، وقد اخذ الفرنج من العرب استعمال ابرة السفينة (الحك او الحقة) و كان العرب اخذوها عن الصينيين فيما قيل واخذها الفرنج عنهم في الحروب الصليبية .

ولما فتح العثمانيون الشام ومصر كان الاسطول العثماني في إبان قوته ، وكانت بعض سفنهم تقلع من موانى الروم وتأتي ساحل الشام ، وبعضها يقف بالمرصاد لقرصان البحر ، واذا حدثت فتنة داخلية كانوا يجهزون بعض مراكبهم لتساحل الشام وتشاطئ الارض التي نجم فيها الشر ، حتى اذا ضعفت بحرية العثمانيين بضعف الدولة — ولاسيما بعد ان أحرق اسطولها والاسطول المصري في نافارين يوم الفتنة اليونانية سنة ١٨٢٧ أحرقته الأساطيل الانكليزية والفرنسية والروسية ، لان الدولة العثمانية لم تراع اصول الهدنة التي كانت تقررت بين العثمانيين واليونانيين ، ولم يفقد من اساطيل الحلفاء شيء مع جودة المدفعية العثمانيـة اذ ذاك — أصبحت السفن التي يتمتع سكان السواحل بمرآها للامم الحديثة ولا سيما الروسيون والجنويون والبنـادقة والفرنـسيس والانكليز ، وقلّت سفن البرتقاليين والاسبانيين ، لان طرق مستعمرات هاتين الدولتين وتجاراتهما لم تكن على بحرنا ، وسفنهم تمخر العباب الى وجهات أخرى في اميركا وآسيا . والغالب ان الصناعة اي صنع المراكب كان خاصاً بالاستانة ولم يعهد في دور العثمانيين ان أنشأوا سفناً في صناعات الشام . وكان للعثمانيين مراكب في الفرات يستخدمونها لنقل جيوشهم من الشـام الى العراق ، ولاسيما في زمن الثورات والازمات ، على ما يفهم من كتاب أسفار البحار لكاتب جلبي .

وانحلت بحرية الترك في أواخر ايامهم حتى صرت لا تشاهد في ساحل الشام الا على الندر مراكب عثمانية ، وهي اذا قيست الى غيرها تبين الفرق العظيم بين بحرية الامم المتحركة المتجددة و بحرية الامة الجامدة الخامدة . وكانت الدولة ان صحت

عزيمتها في أواخر ايامها ان تنشيءَ لها طراداً اورعاداً اوغواصة اودارعةاو يختاً ، توصي عليه في صناعات ايطاليا اوفرنسا اوانكلترا ، لان العلم بذلك فُقد من بنيها ، ولم تسر مع العصر في الرقي البحري ، كما سارت مع العصر في الجيش البري ، بمعنى ان الدولة العثمانية أصبحت قبيل انقراضهـا دولة برية فقط ، وكانت تجمع المزيتين البرية والبحرية ايام كانت ترتعد الفرائص منها في الغرب ، ويتمنى عظماء ملوكها ان يخطبوا ودها كل ساعة لقوة أساطيلها وجيوشها .

وقد ظهر في حرب جناق قلعة الاخيرة مثال من ترقي بحرية الحلفـاء ، ونموذج من ترقي جيش العثمانيين ، واستبسال قوادهم وضباطهم وأفرادهم . وفي مغادرة الحلفاء ذاك الشاطئ بعدان أضاعوا زهاء مئة الف من جنودهم مدة حربهم عليه سنة وزيادة ، اعتراف ضمني للعثمانيين بتفوقهم بجيوشهم البرية ، وان العسكري التركي من خير جنود الارض صبراً وإقداماً على الموت .

☆ ☆ ☆

قصورنا في البر والبحر } ومن الغريب ان اهل الساحل ، ومنهم قسم يفتخر بانه من نسل الفينيقيين سادة البحار ، لم تصح عزيمتهم الى اليوم ، على كثرة مابلغه الشامي من درجات الغنى والتمدن في مَهاجره ، ان ينشئوا لهم اسطولاً تجارياً صغيراً على النحو الذي تفعل أضعف الشعوب لتغدو وتروح على الأقل بين سواحل البحر الابيض والبحر الاحمر والبحر الاسود ، يحملون عليهـا متاجرهم وينقلون قاصديهم وأبناءهم ، ويعتمدون عليها في نقل صادرات القطر وارداته ، على الصورة التي كانت لليونان قبل ان ينادوا باستقلال بلادهم منذ نحو مئة سنة ، فكان لهم اسطول تجاري قلبوه اسطولاً حربياً يوم استقلوا . وأغرب من هذا ان يقال للقطر الشـامي انه مستقل ، وما شوهدت قط في قديم ولا حديث ، امة مستقلة لا اسطول لها ولا معسكر . وهذا من اغرب ما يدونه المدونون ، من اخبار هذه القرون .

الجباية والخراج

جبايات القدماء { عزّ علينا الظفر بنص صريح في اصول الجباية في الامم القديمة التي انبسط سلطانها على هذا القطر ، وغاية ماعرفنا عن الرومان وهي الامة الاعرق في المدنية من غيرها والتي طال عهدها سبعمائة سنة ، انه كان يقضي على الشعب الشامي ان يؤدي الجزية وعشر غلاته ، وإتاوة من المال ، ورسماً على كل رأس · وللشعب الروماني مواد مهمة من الجمارك والمناجم والضرائب والحقول الصالحة لزرع الحنطة والمراعي يؤجرونها من شركات متعهدين يسمونهم العشارين ، يبتاعون من الحكومة حق جباية الخراج · وفي كل ولاية عدة شركات من العشارين ولكل شركة مستخدمون من الكتاب والجباة يظهرون في مظهر السادة ، و يتناولون اكثر مما يجب لهم اخذه ، و يسلبون نعمة الاهلين ، وكثيراً مايبيعونهم كما يباع الرقيق · ولما كان الرومان قد جمعوا في بلادهم ثروة الامم المغلوبة اصبحت الدراهم كثيرة جداً في رومية ، ونادرة جداً في الولايات ، فكان في رومية يمكن الاقتراض بفائدة اربعة او خمسة في المائة اما في الولايات فلا يقل عن اثني عشر في المئة · واذا لم يستطع المدين ان يوفي رأس المال ور باه يعمد الصيارف في تقاضي أموالهم الى الطرق التي يستعملها العشارون · اوجز احدهم السياسة الامبراطورية في الرومان بقوله : « الراعي الصالح يجزّ صوف غنمه ولا ينتفه » فمضى قرنان وامبراطرة الرومان يكتفون بجز سكان مملكتهم ، يسلبون منهم كثيراً من الأموال ولكنهم يحمونهم من العدو الخارجي .

ويقول لامنس ان الرومان ضربوا الجزية على اهالي الشام على الذكور من سن الرابعة عشرة وعلى الاناث من الثانية عشرة الى سن ٦٥ من عمرهم جميعاً وفرضوا عليهم خراجاً جبوه من الأملاك يبلغ في المئة واحداً ورسموا ايضاً ضرائب ومكوساً على الواردات والصادرات من السلع الا ان هذه الرسوم مع ثقلها كانت أخف على عاتق الشاميين من المغارم والسخر التي حملهم إياها ملوكهم سابقاً وكانوا يتقاضونها دون نظام معلوم وفي اي آن شاؤوا اه ٠

وفي قاموس الكتاب المقدس ان العشار ملتزم الاعشار والضرائب عند الرومانيين وكانوا مشهورين بالظلم والصرامة ، وان التعشير جرى قبل ايام موسى بكثير بين الامم القديمة ولا سيما الآسيوية وأدخلها موسى بإلهام آلهي في شريعته وأعطيت العشور للاويين الذين لم يكن لهم نصيب من الارض فالتزموا ان يأخذوا معاشهم من إخوتهم وكانوا يعشرون البقر وبقية المواشي ولم يكن عشر الاعشاب مطلوباً الا ان الفريسيين كانوا يعشرون النعنع والشبث والكمون ٠ اما الجزية على ما يؤخذ من روايات التوراة فقد عُلم ان الشريعة الموسوية كانت تفرض على كل معدود نصف شاقل ينفق في سبيل خيمة الاجتماع وفي الايام الاولى من تاريخ العبرانيين الى ايام الملوك لم تكن جزية للخدمة المدنية والعسكرية وانما قدم الشعب من عمله ومقتنياته تبرعاً حتى جعل الملوك جزية او خراجاً على الارض وأكمل ذلك سليمان الى درجة ثقيلة جداً على الشعب ٠

* * *

الجباية في الاسلام اعتمدت العرب اول الفتح في تنظيم دواوين أموالها على الروم في الشام ، ينظرون لهم في مسائل الدخل والخرج ، ووضع التوازن بحسب عرف تلك الايام ، وذلك لان العرب كانوا لاول امرهم نصف أميين او نصف متحضرين ، واهل الشام أعرق منهم في الحضارة ومايبنغي لها ، حتى كان زياد يقول : ينبغي ان يكون كتاب الخراج من رؤساء الاعاجم العالمين بأمور الخراج ٠

ولقد كان الإسراف يبدو في الاموال ايام الترف والنعيم ، ويتجلى الاقتصاد

فيها على عهد الجد والاصلاح ، وذلك يرجع على الاغلب الى من يتولى امر الامة من خليفة اوسلطان او ملك او امير ، فاذا صلح الرأس صلح الجسد كله . واذ كانت دواعي الانفاق محصورة داخل البلاد ، وكان النقد أقل من هذه الايام بالطبع ، والتفنن في ضبط الشؤون الاقتصادية لم يبلغ مبلغه في القرون الاخيرة ، وحركة المعاملات والمقايضات محدودة ، وأضعف من العصور الحديثة ، كانت المسائل المالية لعهد العرب الى السذاجة لاول الامر شأنهم في عامة امورهم .

والجباية اول الدولة كما قال ابن خلدون تكون قليلة الوزائع كثيرة الجملة ، وآخر الدولة تكون كثيرة الوزائع قليلة الجملة ، فان كانت الدولة على سنن الدين فليست الا المغارم الشرعية من الصدقات والخراج والجزية ، وهي قليلة الوزائع ، لان مقدار الزكاة من المال قليل ، وكذا زكاة الحبوب والماشية ، وكذا الجزية والخراج وجميع المغارم الشرعية وهي حدود لاتتعدى ، وان كانت على سنن التغلب والعصبية فلابد من البداوة في اولها . والبداوة تقتضي المسامحة والمكارمة وخفض الجناح ، والتجافي عن أموال الناس والغفلة عن تحصيل ذلك الا في النادر . قال : والدولة تكون في اولها قليلة الحاجات لعدم الترف وعوائده ، فيكون خرجها وانفاقها قليلاً ، ويكون في الجباية حينئذ وفاء بازيد منها ، بل يفضل منها كثير عن حاجاتهم ، ثم لاتلبث ان تأخذ بدين الحضارة في الترف ، فيكثر لذلك خراج اهل الدولة ، و يكثر خراج السلطان خصوصاً كثرة بالغة ، فيزيد في مقدار الوظائف والوزائع ، ويستحدث أنواعاً من الجباية يضربها على البياعات ، و يفرض لها قدراً معلوماً على الاثمان في الأسواق ، وعلى أعيان السلع في المدينة .

* * *

ضروب الجباية ― كانت الجباية في الصدر الاول تجمع من الخراج والعشور والصدقات والجوالي[1] اي ان لها اربعة موارد

(١) «الفيء» مايؤخذ من ارض العنوة «الخراج» مايؤخذ من ارض الصلح «العشر» مايؤخذ من زكاة الارض التي أسلم اهلها عليها والتي أحياها المسلمون من الارضين او القطائع «صدقات الماشية» وهي زكاة السوائم من الإبل والبقر والغنم دون العوامل

رئيسة ، ثم صارت اصول جهات الأموال السلطانية عشرة الجزية والخراج والعشور والاجور والزكوات وأثمان المبيعات والمقاسمات والغنيمة والفيء والمعادن . وزادت أنواع الجباية على عهد انحطاط هذه البلاد ونسي المتغلبون اوالفاتحون « ان تكثير المالك ماله باموال رعيته بمنزلة من يحصن سطوحه بما يقتلعه من قواعد بنيانه . »

قال الظاهري : ان كثرة الأموال وقلتها بقدر المعرفة باجتلابها من جزى مقررة ، ومتاجر معشرة ، وأخرجة محضرة ، وعشور محررة ، وقسم مقدرة ، وغنائم موفرة ، وفيء من جهات غير منحصرة ، هذا الى زكوات واجبة ، وأجور لازمة ،

والمعلوفة « الكُراع » هي الدواب لا غير «الحَشْري» هو ميراث من لا وارث له «الركاز» دفين الجاهلية «سيب البحر» هو عطاء البحر كاللؤلؤ والمرجان والعنبر ونحوه . ومن ابواب المال أخماس المعادن وأخماس الغنائم وجزاء رؤوس اهل الذمة جمع جزية وهو معرب كزيت وهو الخراج بالفارسية « مال الجوالي » جمع جالية وهم الذين جلوا عن أوطانهم ويسمى في بعض البلدان مال الجماجم وهي جمع جمجمة وهي الرأس «المكس» ضريبة تؤخذ من التجار في المراصد «الطسق» الوظيفة توضع على أصناف الزروع لكل جريب وهو بالفارسية تشك وهوالاجرة «الاستان» المقاسمة «الاقطاع» ان يقطع السلطان رجلاً ارضاً فتصيرله رقبتها وتسمى تلك الارضون قطائع واحدتها قطيعة «الطعمة» هي ان تدفع الضيعة الى رجل ليعمرها ويؤدي عشرها وتكون له مدة حياته فاذا مات ارتجعت من ورثته والقطيعة تكون لعقبه من بعده « الإيغار » هو الحماية وذلك ان تحمى الضيعة او القرية فلا يدخلها عامل ويوضع عليها شيء يؤدى في السنة لبيت المال في الحضرة او في بعض النواحي . « التسويغ » ان يسوغ الرجل شيئاً من خراجه في السنة وكذلك الحطيطة والتريكة «العبرة» ثبت الصدقات لكورة وعبرة سائر الارتفاعات هو ان يعتبر مثلاً ارتفاع السنة التي هي أقل ريعاً والسنة التي هي اكثر ريعاً ويجمعان ويؤخذ نصفهما فتلك العبرة بعد ان تعتبر الاسعار وسائر العوارض الواقعة «التلجئة» ان يلجئ الضعيف ضيعته الى قوي ليحامي عليها وجمعها الملاجئ والتلاجئ وقد الجأ القوي الضيعة وقد ألجاها صاحبها اليه . (مفاتيح العلوم).

وديات دماء ذاهبة ، ومحرر مباحات راتبة ، ومستخرج معادن غير ناهبة ، وعداد نعم سائمة لاسائبة ، ووظائف على أكرة عاملة ناصبة ، الى غير ذلك من تربيع مزارع ، وتوزيع قطائع ، وتوسيع مراتع ، وتفريع مواضع ، وترجيع طوالع · فهذه جهات أموال جعل الشرع بيد السلطنة زمام استخراجها · ومكن من استيفائها بسلوك طريقها ومنهاجها · وفوض فيها حقوقاً تجب رعايتها · عند صرفها واخراجها اه ·

وقال الغزالي : وكل مايحمل للسلطان سوى الاحياء وما يشترك فيه الرعية قسمان : قسم مأخوذ من الاعداء وهو الغنيمة المأخوذة بالقهر · والفيء وهوالذي حصل من مالهم في يده من غير قتال · والجزية واموال المصالحة وهي التي تؤخذ بالشروط والمعاقدة · والقسم الثاني المأخوذ من المسلمين فلا يحل منه لا قسمان · المواريث وسائرالاموال الضائعة التي لا يتعين لها مالك · والاوقاف التي لامتولي لها · اماالصدقات فليست توجد في هذا الزمان — اي في القرن الخامس — وماعدا ذلك من الخراج المضروب على المسلمين والمصادرات وانواع الرشوة كلها حرام · وقال ايضاً : ان أموال السلاطين في عصرنا حرام كلها اوا كثرها و كيف لا والحلال هو الصدقات والفيء والغنيمة ولاوجود لها ، وليس يدخل منها شيء في يد السلطان ولم يبق الا الجزية وانما تؤخذ بانواع من الظلم لايحل اخذها به · فانهم يجاوزون حدود الشرع في المأخوذ والمأخوذ منه ، والوفاء له بالشرط · ثم اذا نسبت ذلك الى ماينصبُّ اليهم من الخراج المضروب على المسلمين · ومن المصادرات والرشا وصنوف الظلم لم يبلغ عشر معشار عشيره ·

* * *

اول مافرض من الجباية } واول شيء من المال فرض على اهل دومة الجندل يعرف من الكتاب الذي أرسله النبي مع حارثة بن قطن الكلبي من اهل دومة الجندل يقول فيه : هذا كتاب من محمد رسول الله الى اهل دومة الجندل ومايليها من طوائف كلب لنا الناجية من النخل ولكم الصامتة من النخل · على الجارية العشر وعلى الغايرة نصف العشر · لاتجمع سارحتكم · ولا تعد فاردتكم · تقيمون الصلاة لوقتها · وتؤتون الزكاة بحقها · لايحظر عليكم النبات · ولا يؤخذ منكم عشر النبات · لكم بذلك عهد الله والميثاق · ولنا عليكم النصح والوفاء وذمة الله

ورسوله . شهد الله ومن حضر من المسلمين اه . واول أقطاع اقطعه الرسول عليه السلام لتميم الداري كان سنة تسع للهجرة اي قبل ان تفتح الشام باربع سنين وذلك بعد منصرفه من غزوة تبوك .

واختلف مقدار الجبايات باختلاف العصور . وكان لأول الفتح ضرب الخراج على الارض والجزية على الرقاب ، وراعى الخليفة الثاني حال الشام فعمل في نواحيها غير ماعمل في غيرها من البلاد التي فتحت في عهده ، راعى في كل ارض ماتحتمله وكانت الجزية في بدء الامر ديناراً في كل حول على كل جمجمة ثم وضعها عمر بن الخطاب على الذهب اربعة دنانير ، وعلى الورق اربعين درهماً ، وجعلهم طبقات لغنى الغني ، وإقلال المقل ، وتوسط المتوسط ، وقيل جعل على كل رأس موسر ثمانية واربعين درهماً ومن الوسط اربعة وعشرين درهماً ومن الفقير اثني عشر درهماً . والجزية تؤخذ من غير المسلمين . والخراج يشترك فيه كل من يملك ارضاً .

وصالح ابوعبيدة بن الجراح نصارى الشام حين دخلها على ان تترك لهم كنائسهم وبيعهم ، وعليهم إرشاد الضال ، وبناء القناطر على الانهار من أموالهم . وان يضيفوا من مرّ بهم من المسلمين ثلاثة ايام . وصالحهم عمر على ضيافة من مرّ بهم من المسلمين ثلاثة ايام مما يأكلون ولا يكلفهم ذبح شاة او دجاجة . وتبييت دوابهم على غير شعير وجعل ذلك على اهل السواد دون المدن .

ولما مسح عمر السواد وضع على كل جريب[1] عامر اوغامر يناله الماء بدلو اوبغيره زُرع او عُطل درهماً وقفيزاً[2] واحداً . وألغى عمر النخل عوناً لاهل السواد . واخذ

---

(١) الجريب عشر قصبات في عشر قصبات ، والقفيز عشر قصبات في قصبة ، والعشير قصبة في قصبة ، والقصبة ستة اذرع ، فيكون الجريب ثلاثة آلاف وستمائة ذراع مكسرة واما الذراع فسبعة أصناف وهو يختلف باصطلاح كل بلد وقطر .

(٢) القفيز مكيال ثمانية مكاكيك جمع مكوك . وفي القاموس المكوك مكيال يسع صاعاً ونصفاً او نصف رطل الى ثمان اواقي او نصف الويبة والويبة اثنان وعشرون او اربعة وعشرون مداً بمد النبي (ص) او ثلاث كيلجات والكيلجة تسع منا وسبعة

من جريب الكرم عشرة دراهم ، ومن جريب السمسم خمسة دراهم ، ومن الخضر من غلة الصيف من كل جريب ثلاثة دراهم ، ومن جريب القطن خمسة دراهم ، ثم حمل الاموال على قدر قربها وبعدها فجعل على كل مائة جريب زرع مما قرب ديناراً ، وعلى كل مائتي جريب مما بعد ديناراً ، وعلى كل الف اصل كرم مماقرب ديناراً ، وعلى كل الفي اصل كرم مما بعد ديناراً ، وعلى الزيتون على كل مائة شجرة مما قرب ديناراً ، وعلى كل مائتي شجرة مما بعد ديناراً ، وكان غاية البعد عنده مسيرة اليوم او اليومين واكثر من ذلك ، وما دون اليوم فهو في القرب ، وحمّلت الشام على مثل ذلك . وقد ذُكر عن بعض اهل المدينة واهل الشام انه تخرج زكاة الخضر من أثمانها على حساب مائتي درهم خمسة دراهم . اما المكوس على البضائع فكانت تختلف باختلاف الاعصار وكانت قليلة في العهد الاول . كتب عمر بن الخطاب الى ابي موسى الاشعري أن خذ من تجار المسلمين من كل مائتين خمسة دراهم ، وما زاد على المائتين فمن كل اربعين درهماً درهم . ومن تجار اهل الخراج نصف العشر ومن تجار المشركين ممن لا يؤدي الخراج العشر اي من اهل الحرب .

اول من وضع العشور عمر لقوله عليه الصلاة والسلام ليس على المسلمين عشر وانما العشور على اليهود والنصارى وقال : يا معشر العرب احمدوا الله الذي وضع عنكم العشور . ولا تؤخذ الصدقات الا مرة في السنة الا ان يجد الامام فضلاً . وفرض عمر سنة خمس عشرة الفروض ودون الدواوين واعطى العطايا على السابقة في الاسلام وفرض لاهل الشام الفين الفين . وكانوا يسمون ما يجمعون من الغنائم الاقباض ويقسمونها بين الفاتحين . وامر عمر عثمان بن حنيف لما ارسله لمسح السواد ان لا يمسح تلاً ولا أجمةً ولا مستنقع ماء ولا ما لا يبلغه الماء . ولما فرض على الرقاب

اثمان منًا والمنا رطلان والرطل اثنتا عشرة اوقية والاوقية استار وثلثا استار والاستار اربعة مثاقيل ونصف المثقال درهم وثلاثة اسباع درهم والدرهم ستة دوانق والدانق قيراطان والقيراط طسوجان والطسوج حبتان والحبة سدس ثمن درهم وهو جزء من ثمانية واربعين جزءاً من درهم .

وجعل على من لا يجد اي الفقير اثني عشر درهماً في السنة قال : درهم في الشهر لا يعوز رجلاً . وكان يأخذ الجزية من اهل كل صناعة من صناعتهم بقيمة ما يجب عليهم وكذلك فعل علي .

ذكروا في الفيء والخراج ان من صولحوا اذا عجزوا يخفف عنهم ، وان احتملوا اكثر من ذلك فلا يزاد عليهم ، وان تظالموا فيما بينهم حملهم امام المسلمين على العدل ، ووضع ذلك الصلح عليهم جميعاً بقدر ما يطيقون في أموالهم وأراضيهم ، ولا يطرح عنهم شيء لموت من مات ولا لاسلام من أسلم منهم ، و يؤخذ بذلك كل من بقي منهم ما كانوا يطيقونه و يحتملونه — قاله يحيي بن آدم . كتب عمر الى سعد حين افتتح العراق : اما بعد فقد بلغني كتابك تذكر ان الناس سألوك ان تقسم بينهم مغانمهم وما أفاء الله عليهم ، فاذا أتاك كتابي هذا فانظر ما أجلب الناس به الى العسكر من كُراع اومال فاقسمه بين من حضر من المسلمين ، واترك الارضين والانهار لعمالها ليكون ذلك في أعطيات المسلمين ، فانك ان قسمتها بين من حضر لم يكن لمن بقي بعدهم شيء وقد كنت امرتك ان تدعو الناس الى الاسلام فمن أسلم واستجاب لك قبل القتال فهو رجل من المسلمين له ما لهم وله سهم في الاسلام ، ومن استجاب لك بعد القتال وبعد الهزيمة فهو رجل المسلمين وما له لاهل الاسلام لانهم قد أحرزوه قبل الاسلام اه . ولما ولى عمر بن الخطاب سعيد بن عامر بن جذيم حمص وما يليها من الشام كتب اليه كتاباً يوصيه فيه بتقوى الله والجد في امر الله والقيام بالحق الذي يجب عليه و يأمره بوضع الخراج والرفق بالرعية . فأجابه سعيد بن عامر على نحو من كتابه .

ولما طُعن عمر قال : أُوصي الخليفة من بعدي باهل الأمصار خيراً . فانهم جباة المال . وغيظ العدو . وردء المسلمين . وان يقسم بينهم فيئهم بالعدل . وان لا يحمّل من عندهم فضل الا بطيب أنفسهم . وأوصى الخليفة من بعده باهل الذمة وان يوفي لهم بعهدهم وان يقاتل من ورائهم وان لا يكلفوا فوق طاقتهم . وكان كثيراً ما يصادر عماله و يجعل أموالهم في بيت المال . فممن صادر خالد بن الوليد فاتح الشام لانه أجاز رجالاً انتجعوه منهم الاشعث بن قيس أجازه بعشرة آلاف وسأله عمر من أين هذا

الثراء قال : من الأنفال والسهمان مازاد على ستين الفًا فلك فقوّم ر ماله فزاد عشرين الفًا فجعلها في بيت المال ٠

قال الصولي في أدب الكتاب : ارتفع خراج الشام على عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه خمسمائة الف دينار ٠ فلما أفضى الامر الى معاوية قطع الوظائف على اهل المدن فوظف على اهل قنسرين اربعمائة وخمسين الف دينار على الجماجم من ذلك الثلثان ٠ وعلى اهل دمشق اربعمائة وخمسين الف دينار على الجماجم من ذلك الثلثان ٠ وعلى الأردن مائة وثمانين الف دينار على الجماجم من ذلك الثلثان ٠ وعلى فلسطين مثل ذلك ٠ ثم جعل بعد ذلك يصطفي الارض الجيدة و يدفعها الى الرجل بخراجها وعلوجها والخراج على اصله لا ينقص منه شيء ٠

☆ ☆ ☆

عدل الخلفاء الراشدين } ولما رأى اهل الذمة وفاء المسلمين لهم وحسن السيرة فيهم صاروا أشداء على عدو المسلمين وعوناً للمسلمين على أعدائهم ٠ فبعث اهل كل مدينة ممن جرى الصلح بينهم وبين المسلمين رجلاً من قبلهم يتجسسون الاخبار عن الروم وعن ملكهم ٠ فكتب ابو عبيدة الى كل والٍ ممن خلفه في المدن التي صالح أهلها يأمره ان يرد ما جبي منهم من الجزية والخراج وكتب اليهم ان يقولوا لهم انما رددنا عليكم اموالكم لانه بلغنا ما جمع لنا من الجموع وانكم قد اشترطتم علينا ان نمنعكم وإنا لا نقدر على ذلك ٠ وقد رددنا عليكم ما اخذنا منكم ونحن لكم على الشرط وما كتبنا بيننا وبينكم ان نصرنا الله عليهم ٠ فلما قالوا ذلك لهم وردوا عليهم الأموال التي جبوها منهم قالوا : ردكم الله علينا ونصركم عليهم فلو كانوا هم لم يردوا علينا شيئًا ٠ واخذوا كل شيء بقي لنا حتى لا يدعوا شيئًا ٠

وقد تغير الحال على عهد الخليفة الثالث فيما يظهر لانه أعطى بعض ولاته حريتهم ٠ ومنهم معاوية بن ابي سفيان فصاروا يجمعون المال و يبذرونه ٠ وقد دفع هو الى ثلاثة انفس من قريش زوجهم بناته ثلاثمائة الف دينار فيما قال المسعودي لكل واحد مائة الف دينار وأقطع بني أمية قطائع لمصلحة تعود على المسلمين لان تلك الضياع كانت خراباً لاعامر لها فسلمها الى من يعمرها و يؤدي الحق عنها ٠ واقتني هو وجماعته الضياع

والدور وكان في نهاية الجود والبذل في القريب والبعيد فسلك عماله وكثير من اهله طريقته وتأسوا بفعله · وكان عثمان على ما يظهر على شيء من السعة قبل الخلافة ، وكثرت في ايامه أموال الأنفال والغنائم بكثرة الفتوح ·

قال الذهبي في حوادث سنة ٣٢ : ان الدنيا اتسعت على الصحابة حتى كان الفرس يشترى بمائة الف ، وحتى كان البستان بالمدينة يباع باربعمائة الف ، وكانت المدينة عامرة كثيرة الخيرات والأموال والناس ، يجبى اليها خراج الممالك وهي دار الأمارة وقبة الاسلام ، فبطر الناس بكثرة الأموال والخيل والنعم وفتحوا أقاليم الدنيا واطمأنوا وتفرغوا اه ·

وأراد الخليفة الرابع ان يرجع في معاملة العمال الى طريقة الشيخين ابي بكر وعمر الا انه لم يوفق الى ذلك · واستأثر معاوية بأمارة الشام عشرين سنة وبالخلافة عشرين سنة · وما كان لعلي بل ولا لعثمان حكم على هذه الديار مع معاوية الداهية الذي دعي بكسرى العرب لكثرة أبهته ونفقته · وكان يبذل المال لمن وافقه ولمن خالفه · فأنشأ للأمويين ملكاً بالشام توارثوه ، وبنوا القصور والمصانع والمرافق · وهذا لا يكون بالطبع الا بتوفر الجباية والتطلع ولو ببعض الشيء الى ما في ايدي الناس من الأموال ، والاغضاء عن بعض الحقوق ، ولا مجال للانكار ان من خلفاء الأمويين من كانوا يجورون على الرعية ومنهم من كانوا يقطعون أنفسهم او بعض أبناء بيتهم او خاصتهم الأقطاعات الكثيرة ·

والجباية كانت تكثر في عهد العادلين اكثر من زمن الجائرين · وما نقص من مال السلطان زاد في مال الرعية · والأقطاع أقطاعان أقطاع تمليك وهو موات وعامر ومعادن ، وأقطاع استغلال وهو عشر وخراج · واللقاح البلد الذي لا يؤدي الى الملوك الأربان والأربان هو الخراج وهو الإتاوة · قال مكحول : كل عشري بالشام فهو مما جلا عنه اهله فأقطعه المسلمون فأحيوه وكان مواتاً لا حق فيه لاحد فأحيوه باذن الولاة · واول من أقطع الأرضين وباعها عثمان ولم يقطعها ابو بكر ولا عمر ولا علي ·

اوصى الخليفة الرابع احد عماله باهل عمله فقال : اذا قدمتَ عليهم فلا تبيعن لهم

كسوة شتاءٍ ولا صيفاً ، ولا رزقاً يأكلونه ولا دابة يعملون عليها ، ولا تضرب احداً منهم سوطاً واحداً في درهم ولا تُقمه على رجله في طلب درهم ولا تبع لاحد منهم عَرَضاً في شيءٍ من الخراج ، فانما أُمرنا ان نأخذ منهم العفو . وكتب للاشتر النخعي : وتفقد امر الخراج بما يصلح اهله ، فان في اصلاحه وصلاحهم صلاحاً لمن سواهم ، ولا صلاح لمن سواهم الا بهم ، لان الناس كلهم عيال على الخراج واهله ، وليكن نظرك في عمارة الارض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج ، لان ذلك لا يدرك الا بالعمارة . ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد وأهلك العباد ، ولم يستقم امره الا قليلاً ، فان شكوا ثقلاً او علة او انقطاع شرب او بالة او إحالة ارض اغمرها غرق او أجحف بها عطش ، خففت عنهم بما ترجو ان يصلح به امرهم ، ولا يثقلن عليك شيء خففت به المؤونة عنهم ، فانهم ذخر يعودون به عليك في عمارة بلادك وتزيين ولايتك ، مع استجلاب حسن ثنائهم ، وتبجحك باستفاضة العدل فيهم ، معتمداً فضل قوتهم بما ذخرت عندهم من إجمامك لهم والثقة منهم بما عودتهم من عدلك عليهم ورفقك بهم ، فربما حدث من الامور ما اذا عولت فيه عليهم من بعد ان احتملوه طيبة انفسهم به ، فان العمران محتمل ما حملته وانما يؤتى خراب الارض من إعواز اهلها وانما يعوز اهلها لاشراف أنفس الولاة على الجمع وسوء ظنهم بالبقاء وقلة انتفاعهم بالعبر اه .

وقد كانت نفوس العمال الذين ولاهم عمر بن الخطاب على مثاله من التقشف والزهد في المال . رُزق عياض بن غنم حين ولاه جند حمص كل يوم ديناراً وشاة ومداً . ولما قدم عمير بن سعيد امير حمص على عمر قال : مامعك من الدنيا فقال : معي عصاي أتوكأ عليها واقتل بها حية ان لقيتها ومعي جرابي احمل فيه طعامي ومعي قصعتي آكل فيها وأغسل فيها رأسي وثوبي ومعي مطهرتي أحمل فيها شرابي ووضوئي للصلاة . فما كان بعد هذا من الدنيا فهو تبع لما معي . فقال عمر صدقت رحمك الله .

* * *

أحكام عمر بن عبدالعزيز العادلة — هكذا كان قانون الخلفاء الراشدين وسيرتهم الصالحة مع عمالهم وما كانوا يدخرون مالاً للامة ولا لانفسهم الا ان الأمويين الذين قلبوا الخلافة الى ملك عضوض كانوا

يهتمون بتوفير الجباية ليتمكنوا من أعمال العمران التي أقاموها وإطعام الجيوش التي فتحوا بها القاصية . وكانت الجباية تقل عندما ينكسر الخراج فلا يحمل شيء كثيرمنه لقحط او زلزال او وباء . ولقد كان عمال معاوية يحملون اليه هدايا النيروز والمهرجان فيحمل اليه في النيروز وغيره وفي المهرجان عشرة آلاف الف . وهدايا النيروز والمهرجان مما رده عمر بن عبد العزيز كما رد السخرة والعطاء وورث العيالات على ما جرت به السنة غير انه اقر القطائع التي أقطعها اهل بيته والعطاء في الشرف لم ينقصه ولم يزد فيه وزاد اهل الشام في أعطياتهم عشرة دنانير ثم رأى ان ينكثها وسماها مظالم. وكتب الى عماله عامة : « اما بعد فان الناس قد أصابهم بلاء وشدة وجور في احكام الله وسنن سيئة سنتها عليهم عمال السوء قلما قصدوا قصد الحق والرفق والاحسان » . وبقي العطاء على حاله حتى نقص يزيد بن الوليد الناس من عطائهم فسمي يزيد الناقص .

وبينما كان عمر بن عبد العزيز يقول لأسامة بن زيد وكان على ديوان الجند بدمشق لما بعثه سليمان بن عبد الملك على مصر يتولى خراجها : ويحك يا أسامة انك تأتي قوماً قد ألح عليهم البلاء منذ دهر طويل فان قدرت ان تنعشهم فانعشهم. كان سليمان يقول لعامله أسامة : إحلب حتى ينفيك الدم فاذا نفاك فاحلب حتى ينفيك القيح لا تبقيها لاحد بعدي . فعمل أسامة في مصر أعمالاً جائرة حتى استخرج من أهلها اثني عشر الف الف دينار .

اما عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة جعل لا يدع شيئاً مما كان في ايدي اهل بيته من المظالم الا ردها مظلمة مظلمة . خطب على المنبر ذات يوم فقال : اما بعد فان هؤلاء يعني خلفاء بني أمية قد كانوا أعطونا عطايا ما كان ينبغي لنا ان نأخذها منهم وما كان ينبغي لهم ان يعطونا إياها واني قد رأيت الآن انه ليس عليّ في ذلك دون الله حسيب وقد بدأت بنفسي والأقربين من اهل بيتي ، اقرأ يا مزاحم ، فجعل مزاحم يقرأ كتاباً كتاباً فيه الاقطاعات بالضياع والنواحي ثم يأخذه عمر بيده فيقصه بالجلم اي المقراض .

ولقد اجتمع اليه بنو أميه لما عزم عمر بن عبد العزيز على اخذ مافي ايديهم من حقوق الناس ورده على اهله وكلموه فقال : انكم أعطيتم في هذه الدنيا حظاً فلا تنسوا

حظكم من الله وانى لاحسب شطر أموال بني الدنيا وأمة محمد في ايديكم ظلماً والله لا تركت في يد احد منكم حقاً لمسلم ولا معاهد الا رددته . وقال لبني مروان : أدوا ما في ايديكم من حقوق الناس ولا تُلجؤني الى ما اكره فأحملكم على ماتكرهون فلم يجبه احد منهم . فقال : اجيبوني فقال رجل منهم : والله لا نخرج من اموالنا التي صارت الينا من آبائنا فنفقر ابناءنا ونكفر آباءنا حتى نزايل رؤوسنا فقال عمر : اما والله لولا ان تستعينوا عليَّ بمن اطلب الحق لهم لأضرعت خدودكم عاجلاً ولكنني أخاف الفتنة ولئن أبقاني الله لأردن الى كل ذي حق حقه ان شاء الله . وكان عمر اذا نظر الى بعض بني أُمية قال : اني اري رقاباً سترد الى اربابها .

قال ابن سعد : لما ولي عمر بن عبد العزيز وضع المكس عن كل ارض ووضع الجزية عن كل مسلم وأباح الأحماء كلها الا النقيع . وفرض عمر بن عبد العزيز للناس الا للتاجر لان التاجر مشغول بتجارته عما يصلح المسلمين وسوى بين الناس في طعام الجار . وكان اكثر مايكون طعام الجار اربعة ارادب ونصف لكل انسان . وكتب الى احد عماله ان استبرئ الدواوين فانظر الى كل جور جاره من قبلي من حق مسلم او معاهد فردها عليه فان كان اهل تلك المظلمة قد ماتوا فادفعه الى ورثتهم . ومازال عمر بن عبد العزيز يرد المظالم من لدن معاوية الى ان استخلف وقد اخرج من ايدي ورثة معاوية و يزيد بن معاوية حقوقاً . وكتب عمر بن عبد العزيز الى عدي بن أرطاة ومن قبله من المسلمين والمؤمنين : اما بعد فانظر اهل الذمة فارفق بهم واذا كبر الرجل منهم وليس له مال فانفق عليه فان كان له حميم فمر حميمه ينفق عليه وقاصه من جراحه كما لو كان لك عبد فكبرت سنه لم يكن لك بدٌّ من ان تنفق عليه حتى يموت او يعتق . وكتب اليه : ضع عن الناس المائدة والنوبة والمكس ولعمري ما هو المكس ولكنه البخس الذي قال فيه الله ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الارض مفسدين . فمن أدى زكاة ماله فاقبل منه ومن لم يؤد فالله حسيبه . وحرم عمر بن عبد العزيز الكلأ في كل ارض . وان عمر بن عبد العزيز لم يزل رأيه والذي يشير به على من ولي هذا الامر من اهل بيته توفير هذا الخمس على اهله فكانوا لا يفعلون ذلك فلما ولي الخلافة نظر فيه فوضعه مواضعه الخمسة وآثر به اهل الحاجة من

الاخماس حيث كانوا ، فان كانت الحاجة سواءً وسع في ذلك بقدر ما يبلغ الخمس ، وانه ربما اعطى المال من يستألف على الاسلام وانه اعطى بطريقًا الف دينار استألفه على الاسلام . وامر ان لا يؤخذ من المعادن الخمس ، وتؤخذ منها الصدقة ، وأنكر التسخير في سلطانه ، وضرب احدهم اربعين سوطاً لانه سخر دواب النبط . ومما كتبه الى احد عماله : اما بعد فخل بين اهل الارض وبين مبيع ما في أيديهم من ارض الخراج ، فانهم انما يبيعون فيء المسلمين والجزية الراتبة . وكتب باباحة الجزائر وقال انما هو شيء أنبته الله فليس احد أحق به من احد .

دخل عامل لعمر بن عبد العزيز عليه فقال : كم جمعت من الصدقة فقال : كذا وكذا قال فكم جمع الذي كان قبلك قال كذا وكذا فسمى شيئًا كثيراً من ذلك فقال عمر : من اين ذاك قال : يا اميرالمؤمنين انه كان يؤخذ من الفرس دينار ومن الخادم دينار ومن الفدان خمسة دراهم وانك طرحت ذلك كله قال : لا والله ما ألقيته ولكن الله ألقاه . وكتب : اني ظننت ان جُعل العمال على الجسور والمعابر ان يأخذوا الصدقة على وجهها ، فتعدى عمال السوء ما أُمروا به . وقد رأيت ان أجعل في كل مدينة رجلاً يأخذ الزكاة من أهلها فخلوا سبيل الناس في الجسور والمعابر . وكتب الى عامله ان لا تقاتلن حصنًا من حصون الروم ولا جماعة من جماعاتهم حتى تدعوهم الى الاسلام ، فان قبلوا فاكفف عنهم ، وان ابوا فالجزية فان ابوا فانبذ اليهم على سواء .

وفي عهد عمر بن عبدالعزيز وقد أصبحت عادة للخلفاء « اذا جاءتهم جبايات الامصار والآفاق يأتيهم مع كل جباية عشرة رجال من وجوه الناس وأجنادها فلا يدخل بيت المال من الجباية دينار ولا درهم حتى يحلف الوفد بالله الذي لا اله الا هو ما فيها دينار ولا درهم الا أُخذ بحقه ، وانه فضل أعطيات اهل البلد من المقاتلة والذرية ، بعد ان اخذ كل ذي حق حقه » اي فضل أعطيات الأجناد وفرائض الناس . قال ابن ابي الحديد : رد عمر بن عبدالعزيز المظالم التي احتقبها بنو مروان فأبغضوه وذموه وقيل انهم سموه فمات . اما من جاؤا من قبل ومن بعد من بني أمية فكانوا أشكالاً ومشارب منهم الجمّاعة ومنهم المبدد . فقد كان في بيت مال الوليد يوم قتل سنة ١٢٦ هـ سبعة وسبعون الف الف دينار ففرقها يزيد عن آخرها . وذكر المؤرخون ان الوليد بن

عبدالملك بن مروان أقطع جند أنطاكية ارض سلوقية عند الساحل وصير اليهم الفلثر بدينار ومُدّي قمح فعمّروها واجرى ذلك لهم وبني حصن سلوقية · والفلثر مقدار من الارض معلوم كما يقول غيرهم الفدّان والجريب · وأقطع عبد الملك بن مروان ضيعة بزملكا لحفص بن عمر بن سعيد الأزدي وذلك انه قال يوماً لعبد الملك : ياامير المؤمنين ان في غوطة دمشق قرية يقال لها زملكا ، ولي فيها بنو عم وسألوني الاشراف عليهم ، وليس لي في الموضع شيء · فقال له عبدالملك : سل هل لنا في تلك القرية شيء ، فنظروا فاذا فيهـا ضيعة من صوافي الروم فأقطعه إياها ، وكتب له عبد الملك بذلك كتاباً يقول فيه بعد البسملة : هذا كتاب من عند عبدالله عبد الملك بن مروان اميرالمؤمنين لحفص بن عمر بن سعيد بن عبد العزيز الأزدي اني انطيتك بقرية زملكا كذا وكذا فداناً واشهد على نفسه اخويه محمداً وعبد العزيز وقبيصة بن ذؤيب وروح بن زنباع · أوردناه مثالاً من منحهم الاقطاعات ·

* * *

العباسيون والجباية ومساحة الشام

وكذلك كانت سيرة العباسيين بعد · فقد اخذ المنصور أموال الناس حتي ماترك عند احد فضلاً ، وكان مبلغ ما أخذ لهم ثمانمائة الف الف درهم · وعدّل ابوجعفر المنصور ارض الغوطة غوطة دمشق فجعل كل ثلاثين مداً بدينار بالقاسمي وكان أداء النـاس على ذلك · وكان الخلفاء من بني العباس يعمدون الى إبطال الرسوم عندما يتجلى لهم ضررها ولا يقطعون امراً بدون اخذ آراء جلة الفقهـاء في عصرهم · فقد امر المعتضد سنة ٢٨٣ بالكتابة الى جميع البلدان ان يرد الفاضل من سهام المواريث الى ذوي الأرحام وأبطل ديوان المواريث · وخلف المعتضد هذا في بيوت الأموال تسعة آلاف الف دينار ومن الورق الف الف درهم · ومن خلف هذه القناطير المقنطرة من الذهب لا بد له ان يظلم أمته وان لا يصرف أموالها في وجوه مصالحها ، وقد كنت ترى في ايام العباسيين عدلاً شاملاً لامثيل له حيناً وتجد ظلماً شائناً في دور آخر ، فعهد الرشيد والمأمون والمهدي والظاهر والمتوكل كان عجباً في العدل وانتظام الجباية · فقد كتب المأمون سنة ٢١٨ الى اسحق بن يحيي بن معاذ عامله على جند دمشق في التقدم الى عماله في حسن السيرة

وتخفيف المؤونة وكف الاذى عن اهل عمله قائلاً ، فتقدم الى عمالك في ذلك اشد التقدمة ، واكتب الى عمال الخراج مثل ذلك . وكتب الى جميع عماله في أجناد الشام جند حمص والأردن وفلسطين بمثل هذا .

والمهدي مثلاً افتتح امره بالنظر في المظالم وبسط يده في العطاء فأذهب جميع ماخلفه المنصور وهو ستمائة الف الف درهم واربعة عشر الف الف دينار سوى ماجباه في ايامه . والمأمون العباسي أقام سنة بدمشق (٢١٤) لمساحة اراضي الشام واجتلب لتعديله مساح العراق والأهواز والري وكان جده ابو جعفر المنصور تشبث بذلك فلم يتم له فبعث بقية بن الوليد ليمسح اراضي دمشق كما كان بعث اسماعيل بن عياش العنيسي الحمصي الى دمشق فعدل ارضها الخراجية وعدّل احمد بن محمد ارض دمشق والأردن وكان على ديوان الخراج سنة ٢٤٠ وحمل كل ارض ما تستحقه . وقال المسعودي : احتال كتاب الدواوين على المتوكل لخوفهم منه وقالوا ان البلد يحتاج ان يعدل ولا يقوم بالتعديل الا من ولي ديوان الخراج فتوجه سنة ٢٤٠ يعدل دمشق والأردن .

والخلفاء الأول من بني العباس كانوا أقرب الى الرفق بالرعية فقد كان اسماعيل ابن صبيح الكاتب يحدث عن الرشيد انه قال للحسن بن عمران يوم أُدخل عليه في الحديد: وليتك دمشق وهي جنة تحيط بها غُدُر ، تتكفأ أمواجها على رياض كالزرابي ، واردة منها كفايات المؤن الى بيوت أموالي ، فما برح بك التعدي لارفاقهم فيما امرتك حتى جعلتها أجرد من الصخر وأوحش من القفر . قال : والله يا اميرالمؤمنين ماقصدت لغير التوفير من جهته ، ولكن وليت أقواماً ثقل على أعناقهم الحق فتفرقوا في ميدان التعدي ، ورأوا المراغمة بترك العمارة أوقع باضرار الملك وأنوه بالشنعة على الولاة ، فلاجرم ان اميرالمؤمنين قد أخذهم بالحظ الاوفر من مساءتي اه . وفي ايام الرشيد رفضت ضياع في فلسطين وتركها أهلها فوجه الرشيد هرثمة بن اعين لعمارتها فدعا قوماً من مزارعيها وأكرتها الى الرجوع اليها على ان يخفف عنهم من خراجهم وتلين معاملتهم فرجعوا ، فأولئك أصحاب التخافيف ، وجاء قوم منهم بعد فردّت عليهم أرضوهم على مثل ما كانوا عليه ، فهم أصحاب الردود .

والمهدي اول من نقل الخراج الى المقاسمة وكان السلطان يأخذ عن الغلات خراجاً

مقرراً ولا بقاسم وجعل الخراج على النخل والشجر · وأعاد الظاهر بامر الله سنة ٦٢٢ سيرة العمرين · قال ابن الاثير فلو قيل انه لم يل الخلافة بعد عمر بن عبدالعزيز مثله لكان القائل صادقاً فانه أعاد من الأموال المغصوبة في ايام ابيه شيئاً كثيراً وأطلق المكوس في البلاد جميعها وامر باعادة الخراج القديم وان يسقط جميع ماجدده ابوه، وكان كثيراً لايحصى، وفي ايام ابيه خربت العراق وتفرق اهله في البلاد ·

خربت العراق وما اليها من الأمصار والأقطار للشدة في تقاضي الجباية والتفنن في الضرائب وعدم إطرادها على وتيرة واحدة · كتب علي بن عيسى الى عامل ديار ربيعة وقد ورد الحضرة قوم من أهلها يتظلمون من حيف لحقهم في معاملتهم : « بسم الله الرحمن الرحيم · في علمك اكرمك الله بما أمر الله به من العدل والاحسان، ونهى عنه من الجور والعدوان، وعاقب به الظالمين في سالف الأزمان، غنىً لك عن التنبيه والتوقيف، والوعظ والتخويف، وفيما رسمته لك مشافهة ومكاتبة، في انكار الظلم وإزالته، وإظهار العدل وإفاضته، كفاية وبلاغ · وقد ورد الحضرة اكرمك الله، جماعة من وجوه التُنّاء والمزارعين بديار ربيعة، متظلمين مما عوملوا به في سني ثلاث عشرة وثلاثمائة، من إكراههم على تضمين غلات بيادرهم بالحزر والتقدير، وإلزامهم حق الأعشار في ضياعهم على التربيع، واستخراج الخراج منهم على أوفر عبرة، قبل إدراك غلاتهم وثمارهم، وإكراه وجوههم وتجارهم على ابتياع الغلات السلطانية باسعار مسرفة مجحفة، فأقلقني ما أفاضوا فيه من الشكوى، وآلمني ما انتهوا الى وصفه من عظيم البلوى، ووجدته مع قبح ذكره وعظيم وزره، عائداً بخراب الضياع ونقصان الارتفاع، فينبغي اكرمك الله، ان تجري سائر رعيتك على المعاملات القديمة، وتحملهم على الرسوم السليمة، حتى يعودوا الى أفضل حال عهدوها، وأجمل سيرة حمدوها، وتزيل السنن الجائرة وتبطلها، وتقطع أسبابها وتحسمها، وتكتب اليَّ بما يكون منك في ذلك، فانني على اهتمام به ومراعاة له ان شاء الله » ·

ولو رجعت الى كتب التاريخ والسير لرأيت شيئاً كثيراً من هذا القبيل · وفي الكتاب الذي كتبه الامام ابو يوسف صاحب الامام ابي حنيفة الى الخليفة هرون الرشيد صورة جميلة من تلطف العلماء في نصح الملوك والخلفاء · وكتابه دستور في

الجباية تستدل به على ترقي العقول في عصره · وماخلا عصر من علماء ينعون على العمال أعمالهم ، ويقبحون تجانفهم عن طرق الحق في معاملة الامة ، وقلما كانت المواعظ تفعل الا في المستعدين للخير من الخلفاء فمن دونهم ·

☆ ☆ ☆

الذميون وتجارهم

وكثيراً ما كان الناس يعذَّبون في الخراج ، وقد وقع ذلك في أوائل دولة الأمويين بالشام ، فأخذ جباة الجزية يعذبون بعض أهل الذمة ، ويجعلونهم في الشمس ساعات عقوبة لهم ، فنهى عن ذلك الفقهاء وبطل تعذيب المكلفين من ذاك اليوم · ونص الفقهاء انه لا يؤخذ شيء من نصراني اتجر في بلاده من اعلاها الى اسفلها ولم يخرج منها ، واذا خرج من بلاده الى غيرها من بلاد المسلمين تاجراً لم يوخذ منه مما حمل قليل ولا كثير حتى يبيع · وقال مالك في النصراني يكري إبله من الشام الى المدينة : أيؤخذ منه في كرائهم العشر بالمدينة قال : لا · فان اكرى من المدينة الى الشام راجعاً يؤخذ منه· و يؤخذ من اهل الحرب ماصالحوا عليه في سلعهم و يؤخذ من عبيدهم كما يؤخذ من ساداتهم· ذكروا ان عمر بن الخطاب قال لاهل الذمة الذين كانوا يتجرون الى المدينة : ان اتجرتم في بلادكم فليس عليكم في أموالكم زكاة وليس عليكم الا جزيتكم التي فرضنا عليكم وان خرجتم وضربتم في البلاد وادررتم أموالكم اخذنا منكم وفرضنا عليكم كما فرضنا جزيتكم فكان يأخذ منهم من كل عشرين نصف العشر كلما قدموا من مرة ولا يكتب لهم براءة مما اخذ منهم كما تكتب للمسلمين الى الحول فيأخذ منهم كلما جاؤا وان جاؤا في السنة مائة مرة ولا يكتب لهم براءة بما اخذ منهم ·

زاد الاجحاف بحقوق الرعية لما توزع ملوك الطوائف البلاد واخذ كل مليك او امير يستولي على اقليم صغير من الارض و يجنف على الناس في الجباية ويسمي نفسه ملكاً من ذلك بنو حمدان في حلب ومااليها فانهم كانوا على جانب من البطش والظلم فقد لجوا في الاستئثار بالاموال وكانت فتنهم مع الروم لاتنقطع فاستأثر القضاء بهلاك العباد وخراب البلاد على ايدي المدافعين والمهاجمين · ولي خلافة الراضي سنة ٣٢٤ فبطلت الدواوين والوزارة فكان كل من تولى إمرة الامراء تحمل اليه الأموال

فيتصرف فيها جميعاً كما يريد ويطلق للخليفة ما يريد وبطلت بيوت الاموال وكانت الشام اذ ذاك في يد محمد بن طغج . وبينا كانت الشام تدافع القرامطة وتشتغل بفتن بني حمدان لتقع في ايدي الإخشيدية أصحاب مصر كانت بغداد في شغب وتعب واذ كانت هي العاصمة فأحرِ بالاطراف ان تكون اسوأ حالاً .

* * *

نعي المعريّ على ظلم الناس

وهكذا اختلت احوال المملكة العربية وطرق الجباية فيها لما نال الناس من المغارم والمظالم ، والحكومات لا تعرف واجبها ولا تدري ان الجباية في الدولة اجرة الحماية ولذلك تأفف ابو العلاء المعري في النصف الاول من المئة الخامسة من ملوك عصره فقال :

واري ملوكاً لا تحوط رعية ... فعلام تؤخذ جزية ومكوس

وقال : عجم وعرب دائلون وكلنا ... في الظلم اهل تشابه وجناس

وقال : ارى امراءَ الناس يمسون شرهم ... اذا خطفوا خطف البزاة اللوامع

وفي كل مصر حاكم فموفق ... وطاغ يحابي في اخس المطامع

وقال ايضاً: يقولون في المصر العدول وانما ... حقيقة ما قالوا العدول عن الحق

ولست بمختار لقومي كونهم ... قضاةً ولا وضع الشهادة في رق

وقال : بكل ارض امير سوءٍ ... يضرب للناس شرّ سكة

وقال : ان العراق وان الشام مذ زمن ... صفران ما بهما للملك سلطان

ساس الانام شياطين مسلطة ... في كل مصر من الوالين شيطان

من ليس يحفل خمص الناس كلهم ... ان بات يشرب خمراً وهو مبطان

وقال : وجدت غنائم الاسلام نهباً ... لاصحاب المعازف والملاهي

وقال : مُلّ المقام فكم أعاشر أمة ... امرت بغير صلاحها امراؤها

ظلموا الرعية واستباحوا كيدها ... فعدَوْا مصالحها وهم اجراؤها

ومن قوله :

فشأن ملوكهم عزف ونزف ... واصحاب الامور جباة خرج

وهمُّ زعيمهم إنهاب مال ... حرام النهب او إحلال فرج

الجباية في الدولتين الأموية والعباسية

وبعد فقد استقر خراج فلسطين على عهد معاوية على اربعمائة وخمسين الف دينار ، واستقر خراج الأردن على مائة وثمانين الف دينار ، وخراج دمشق على اربعمائة الف وخمسين الف دينار وخراج جند حمص على ثلاثمائة وخمسين الف دينار ، وخراج قنسرين والعواصم على اربعمائة وخمسين الف دينار . وفعل معاوية بالشام والجزيرة واليمن مثل مافعل بالعراق من استصفاء ما كان للملوك من الضياع وتصييرها لنفسه خالصة وأقطها اهل بيته وخاصته وهو اول من كانت له الصوافي في جميع البلاد . قال البلاذري : وكانت وظيفة الأردن التي أقطعها معاوية مائة الف وثمانين الف دينار ووظيفة فلسطين ثلاثمائة الف وخمسين الف دينار ووظيفة دمشق اربعمائة الف دينار ووظيفة حمص مع قنسرين والكور التي كانت تدعى بالعواصم ثمانمائة الف دينار و يقال سبعمائة الف دينار . وكان ارتفاع الشام سنة ٢٠٤ ﻫ وهي اول سنة وجد حسابها بالدواوين بالحضرة ثلاثمائة الف وستين الف دينار وارتفاع قنسرين والعواصم وارتفاع جند حمص مائتي الف وثمانية عشر الف دينار وارتفاع جند دمشق مائة الف وعشرة آلاف دينار وارتفاع جند الأردن مائة الف وتسعة آلاف دينار وارتفاع جند فلسطين مائتي الف وتسعة وخمسين الف دينار .

قال اليعقوبي : ان خراج دمشق سوى الضياع يبلغ ثلاثمائة الف دينار، وخراج جند الأردن يبلغ سوى الضياع مائة الف دينار ، و يبلغ خراج جند فلسطين مع ما صار في الضياع ثلاثمائة الف دينار، وخراج حمص سوى الضياع ايضاً مائتي الف وعشرين الف دينار . وكان خراج الاردن زمن عبد الملك بن مروان مائة وثمانين الف دينار ، وكان خراج قنسرين على عهد المأمون اربعمائة الف دينار ، ومن الزيت الف حمل، وخراج دمشق اربعمائة الف دينار وعشرين الف دينار، وخراج الأردن سبعة وتسعين الف دينار، وخراج فلسطين ثلاثمائة الف دينار وعشرة آلاف دينار ، ومن الزيت ثلاثمائة الف رطل .

ولما تغلب الموالي من الاتراك وتناثر سلك الخلافة وبقيت الدولة العباسية في الترف وقوي عامل كل جهة على مايليه ، كثرت النفقات وقلت المجابي بتغلب الولاة

على الاطراف . قال المقدسي : كانت الضرائب ثقيلة على قنسرين والعواصم زمن سيف الدولة بن حمدان فكان خراج هذا الاقليم ثلاثمائة الف وستين الف دينار ، وعلى الأردن مائة الف وسبعون الف دينار، وعلى فلسطين مائة الف وتسعة وخمسون الف دينار ، وعلى دمشق اربعمائة الف ونيف .

وانت ترى ان الجباية في الشام كانت تختلف باختلاف العصور والادوار والتقلبات الجوية . ومن الاراضي الخراجية والعشرية التي تدفع العشر لانها مما فتحه المسلمون عنوة قال ابو يوسف : كل ارض اقتطعها الامام مما فتحت عنوة ففيها الخراج، الاان يصيرها الامام عشرية ، والشام في ذلك كمصر والعراق ، ولانها كلها فتحت عنوة . وفي التتارخانية ان السلطان اذا دفع اراضي لا مالك لها وهي تسمى الاراضي المملكة الى قوم ليعطوا الخراج جاز . وطريق الجواز احد شيئين اما اقامتهم مقام الملاك في الزراعة واعطاء الخراج او الاجارة بقدر الخراج . ويكون المأخوذ منهم خراجاً في حق الامام اجرة في حقهم . وقال ابن عابدين : ومن هذا القبيل الاراضي المصرية والشامية ويؤخذ من هذا انه لاعشر على المزارعين في بلادنا اذا كانت اراضيهم غير مملوكة لهم لان ما يأخذه منهم نائب السلطان وهو المسمى بالزعيم اوالتيماري ان كان عشراً فلا شيء عليهم غيره وان كان خراجاً فكذلك .

✡ ✡ ✡

الاموال في رأي الغزالي وتقسيم المقريزي لها

قال الغزالي : ان الأموال المنصبة الى الخزائن المعمورة اربعة أصناف : الصنف الاول ارتفاع المستغلات وهي مأخوذة من أموال موروثة له . والصنف الثاني أموال الجزية . والصنف الثالث أموال التركات . والصنف الرابع أموال الخراج . فهذه هي الاموال المأخوذة وأخذها جائز ويبقى النظر في مصارفها وهي مع اختلاف جهاتها تحويها اربع جهات وفيها تنحصر مصالح الاسلام والمسلمين . الجهة الاولى المرتزقة من جند الاسلام . الجهة الثانية علماء الدين وفقهاء المسلمين القائمون بعلوم الشريعة فانهم حراس الدين بالدليل والبرهان ، كما ان الجنود حراسه بالسيف والسنان . والجهة الثالثة محاويج الخلق الذين قصرت بهم ضرورة الحال وطوارق الزمان عن اكتساب قدرالكفاية .

الجهة الرابعة المصالح العامة من عمارة الرباطات والقناطر والمساجد والمدارس · وهذا وجه الدخل والخرج ·

ولم تكثر الأقطاعات الا في القرون الوسطى قال المقريزي : وكانت عادة الخلفاء من بني أمية وبني العباس والفاطميين من لدن امير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ان تجبى أموال الخراج ثم تفرق من الديوان في الامراء والعمال والأجناد على قدر رتبهم وبحسب مقاديرهم ، وكان يقال لذلك في صدر الاسلام العطاء ، ومازال الامر على ذلك الى ان كانت دولة العجم ، فغير هذا الرسم ، وفرقت الأرضون أقطاعات على الجند ، وأول من عرف انه فرق الأقطاعات على الجند نظام الملك وزير السلجوقيين ، وذلك ان مملكته اتسعت فرأى ان يسلم الى كل مقطع قرية اوا كثر او أقل على قدر أقطاعه ، فعمرت البلاد وكثرت الغلات ، واقتدى بفعله من جاء بعده من الملوك من أعوام بضع وثمانين واربعمائة الى أوائل القرن التاسع ·

* * *

الاقطاعات وضررها

وكانت أقطاعات الشام اقل من أقطاعات مصر في القرن الثامن والتاسع ، وليس في الشام من يبلغ شأو أكابر الامراء المقدمين بالديار المصرية الا نائب الشام فانه يقارنهم في ذلك · ولخاصة الأمراء المقدمين أنواع من الانعامات ماعدا المقررات من المشاهرات والاكل والعليق والكساوي كالعقار والابنية الضخمة التي ربما أنفق على بعضها فوق مائة الف دينار · قال التاج السبكي المتوفى سنة ٧٧١ : ومن قبائح ديوان الجيش إلزامهم الفلاحين بالاقطاعات بالفلاحة ، والفلاح حر لا يد لآدمي عليه وهو امير نفسه · وقد جرت عادة الشام بان من نزح من دون ثلاث سنين يلزم و يعاد الى القرية قهراً ، و يلزم بشد الفلاحة ، والحال في غير الشام أشد منه فيها ، وكل ذلك لا يحل اعتماده ، والبلاد تعمر بدون ذلك ، بل انما تخرب البلاد بذلك ، لانهم يضيقون على الناس ·

وما عدا الأرض التي كان الملوك يوغرونها اي التي يدفع عنها اربابها قدراً من المال مرة واحدة فتعفى من الخراج ، وما خلا الأقطاعات التي يستأثر بها اصحابها من أرباب الدولة ولا يؤدون عنهـا خراجاً وعدا ضياع كثيرة تعفي من الضرائب وعدا

الصوافي، واحدها صافية، وهو ما يستخلصه السلطان لخاصته او هي الاملاك والأرضون التي جلا عنها اهلها او ماتوا ولا وارث لها — ماعدا هذا كان هناك نوع من الارضين يسمى الجاءِ اي يلجأ صاحب الأرض الى بعض الكبراء فيسجل ضيعته باسمه ، تعززاً به من عمال الخراج حتى لا يجوروا عليه ، فتصبح الضيعة مع الزمن ملكاً لذاك الكبير .

قال ابن ابي الحديد : ان من اهل الخراج من يلجئ بعض أرضه وضياعه الى خاصة الملك وبطانته لاحد امرين ، اما لامتناع من جور العمال وظلم الولاة ، وتلك منزلة يظهر بها سوء اثر العمال وضعف الملك وإخلاله بما تحت يده ، واما للدفاع عما يلزمهم من الحق والتيسير له ، وهذه خلة تفسد بها آداب الرعية و ينتقص بها أموال الملك . وكان العادلون من الملوك يعاقبون الملجئين والملجأ اليهم ، ولكن الناس يلجئون املاكهم عند ارباب الصولة . وكم من مرة خربت الشام او صقع كبير من أصقاعها بظلم ظالم من عمالها . ذكروا ان الخليفة الحاكم أعفى ولاية حلب من الخراج سنة ٤٠٧ لانها كانت ضعفت بالفتن المتواصلة . وان الب أرسلان لما ولي امرة حلب رفع عن اهلها الكلف التي كانت مجددة عليهم وان نجم الدين ايلغازي بن ارتق (٥١٤) رفع المكوس عن اهل حلب والمؤن والكلف وأبطل ماجدده الظلمة من الجور والرسوم المكروهة . و بالغ الامير حصن الدولة معلى بن حيدرة بن منزو الكتامي الذي ولي دمشق سنة ٤٦١ في المصادرات وارتكاب المظالم فلم يلق اهل البلد من التعجرف والظلم والعسف بعد جيش ابن الصمصامة في ولايته مالقوه من ظلمه وسوء فعله ، فخربت اعمال دمشق وجلا عنها اهلها وخلت الاماكن من قاطنيها ، والغوطة من فلاحيها .

* * *

تحري العدل في الدولتين النورية والصلاحية والغالب ان المكوس والضرائب كثرت أواخر حكم العباسيين والعبيديين في الشام . وبقي في البلاد رسوم كثيرة حتى ابطلها نور الدين ، وابطل ابق الصوفي الاقساط في دمشق وما كان يؤخذ في الكور من الباعة جملة . وابطل صلاح الدين مكس مكة وعوض اميرها بجلاب غلة تحمل اليه كل سنة وتعيين ضياع موقوفة عليها بالديار المصرية . قال ابن ابي طي : ان الذي أسقطه السلطان صلاح الدين والذي سامح به لعدة سنين

آخرها سنة اربع وستين وخمسمائة مبلغه عن نيف الف الف دينار والفي الف اردب ، سامح بذلك وأبطله من الدواوين وأسقطه من المعاملين ، وكذلك فعل اخوه ابو بكر ابن ايوب فانه أبطل كثيراً من المظالم والمكوس وطهر بلاده من الفواحش والخمور والقمار ، وكان الحاصل من ذلك بدمشق خصوصاً مائة الف دينار ، الا ان المكوس عادت فأحدثت . ولما دخل صلاح الدين دمشق سنة ٥٧٠ أزال المكوس وكانت الولاية في اهلها قدساءت وأسرفت ، واليد المعتدية قدامتدت الى أموالهم وأجحفت . قال العماد : اقتصر صلاح الدين في جميع البلاد على الرسوم التي يبيحها الشرع وهي الخراج والاجور والزرع . وكذلك كانت من قبل سيرة نور الدين محمود بن زنكي فانه منع ما كان يؤخذ من دمشق من المغارم بدار البطيخ وسوق الغنم والكيالة وغيرها . وكان والده زنكي ينهي اصحابه عن اقتناء الأملاك و يقول مهما كانت البلاد لنا فأي حاجة لكم الى الاملاك ، فان الأقطاعات تغني عنها ، وان خرجت البلاد من أيدينا فان الأملاك تذهب معها ، ومتى صارت الأملاك لأصحاب السلطان ظلموا الرعية وتعدوا عليهم وغصبوهم أملاكهم .

قال ابو يعلى : تجمع قوم من السفهاء العوام وعزموا على التحريض لنورالدين على إعادة ما كان أبطل وسامح به اهل دمشق من رسوم دار البطيخ وعرصة البقل والاثمار ، وصانهم من إعنات شرار الضمان وصولة الاجناد ، وكرروا لسخف عقولهم الخطاب ، وضمنوا القيام بعشرة آلاف دينار بيض ، وكتبوا بذلك حتى أجيبوا الى ما راموا ، وشرعوا في فرضها على أرباب الاملاك من المقدمين والاعيان والرعايا ، فما اهتدوا الى صواب ، ولا نجح لهم قصد في خطاب ولا جواب ، وعسفوا الناس بجهلهم بحيث تألموا واكثروا الضجيج والاستغاثة الى نورالدين ، فصرف همه الى النظر في هذا الامر ، فنجحت له السعادة وايثار العدل في الرعية الى إعادة ما كان عليه ، فأمر باعادة الرسوم المعتادة الى ما كانت من إماتتها ، وتعفية اثر ضمانها ، وأضاف الى ذلك تبرعاً من نفسه إبطال ضمان الهريسة والجبن واللبن ورسم بكتب منشور يقرأ على الناس كافة بابطال هذه الرسوم جميعها وتعفية ذكرها . قال السبكي : وقد علم ان المكوس حرام فان ضم الوزير الى أخذها الاجحاف في ذلك وتشديد الامر فيه والعقوبة عليه ، فقد ضم حراماً الى حرام .

ومع كثرة احتياج البلاد للمال زمن نور الدين وصلاح الدين للاستعانة به على قتال الصليبيين ، كانت الجباية الى الرفق في الجملة ببلاد الشام ، فأطلق نور الدين المكوس والضرائب واكتفى بالخراج والجزية . وأسقط صلاح الدين فريضة الاتبان المقسطة على أعمال دمشق وضياع الغوطة والمرج وجبل سنير وقصر حجاج والشاغور والعقيبة ومزارعها ، ولما فتح حلب أطلق المكوس والضرائب وسامح باموال عظيمة « ومنها ماهو على الأثواب المجلوبة ، ومنها ماهو على الدواب المركوبة ، ومنها ماهو في المعايش المطلوبة » ومما كتب عنه من منشور « إن أشقى الامراء من سمن كيسه وأهزل الخلق ، وأبعدهم من الحق من اخذ الباطل من الناس وسماه الحق » . وكان هذان الملكان من أزهد الناس في المال فلم يخلفا في خزائنهما الا التافه .

كتب القاضي الفاضل الى صلاح الدين لما عزم على الحج وأراد صرفه عنه : « يامولانا مظالم الخلق كشفها أهم من كل مايتقرب به الى الله ، وما هي بواحدة في أعمال دمشق من المظالم من الفلاحين ما يستغرب معه وقوع القطر ، ومن تسلط المقتطِعين على المقتطَعين ما لا ينادى وليده ، وفي وادي بردى والزبداني من الفتنة القائمة ، والسيف الذي يقطر دماً ، ما لا زاجر له ، وللمسلمين ثغور تريد التحصين والذخيرة ، ومن المهمات اقامة وجوه الدخل وتقدير الخراج بحسبها ، فمن المستحيل نفقة من غير حاصل ، وفرع من غير اصل اه » .

وخلف الملك الأفضل ستمائة الف الف دينار عيناً ، ومائة وخمسين اردباً دراهم نقد مصر ، ومائة مسمار من ذهب وزن كل مسمار مائة مثقال ، في عشرة محابس في كل محبس عشرة مسامير ، وصندوقين كبيرين فيهما ابرذهب برسم الجواري والنساء ، عدا الثياب والطرائف والقطعان والخيل والبغال والرقيق . وهذا مالايمكن ان يحوزه ملك صغير الا بالضغط على الرعية ولو قليلاً ، لاستخراج هذه الأموال والتوقف في صرفها على مصالح الامة ومرافقها . وقد استعمل ملوك الطوائف الشدة في تكثير الجباية ، وكان ينال المنكر لها من العلماء اذىً من ذلك ان فخر الدين بن عساكر انكر على الملك المعظم تضمين المكوس والخمور فعاقبه بان انتزع منه المدرسة التقوية والصلاحية بدمشق . وقد فعل عكس ذلك الاتابك طغرل الظاهري صاحب حلب ، فقد امر

سنة ٦١٨ برفع الجبايات ومحو اسمها وإهراق كل خمر في المدينة ورفع ضمانها وكتب الى النواحي . قال القفطي : وكان المحصول من ضمان ما أطلق ما مقداره مائتا الف درهم في السنة وان أضيف اليه مايستغل في السنة الآتية من رخص الكروم وتعطيل ضماناتها وقلة دخلها بهذا السبب كان الف الف درهم او ما يقارب بها .

☆ ☆ ☆

موازنة حلب وهي وحيدة في بابها } لم نعثر لدمشق عاصمة البلاد على ارتفاع لها خاصة وقد قال ابن ابي طي : حدثني كريم الدولة بن شرارة النصراني وكان مستوفي دار حلب يومئذ انه عمل ارتفاع سنة تسع وستمائة في الايام الظاهرية ، دون البلاد الخارجة عنها والضياع والاعمال ، فبلغ ستة آلاف وتسعمائة الف واربعة وثمانين الفاً وخمسمائة درهم قال : ومما أحطت به علماً في ايام الملك الناصر ان ارتفاعها على القاعدة في الارتفاع في آخر دولته مع حلوله بدمشق وخلوها منه ، كان على ما يفصل . ثم فصل الارتفاع فكان ستة واربعين صنفاً وسطر المجموع بـ ٧٫٣٠٥٫٠٠٠ درهم . وكان مسافة ما بيد مالك حلب في ايامه وهو الملك العزيز محمد بن الملك الظاهر غازي من المشرق الى المغرب مسيرة خمسة ايام ومن الجنوب الى الشمال مثل ذلك وفيها ثمانمائة ونيف وعشرون قرية ملك لاهلها ليس للسلطان فيها الا مقاطعات يسيرة ونحو مائتي قرية ونيف مشتركة بين الرعية والسلطان .

قال ياقوت الحموي : أوقفني الوزير الصاحب القاضي الاكرم جمال الدين ابو الحسن علي بن يوسف بن ابراهيم الشيباني القفطي أدام الله تعالى ايامه ، وختم بالصالحات أعماله وهو يومئذ وزير صاحب حلب ومدبر دواوينها على الجريدة بذلك وأسماء القرى وأسماء املاكها ، وهي بعد تقوم برزق خمسة آلاف فارس مزاحي العلة موسع عليهم . قال لي الوزير الاكرم أدام الله تعالى علوه : لو لم يقع إسراف في خواص الامراء ، وجماعة من أعيان المفاريد ، لقامت بأرزاق سبعة آلاف فارس لان فيها من الطواشية المفاريد ما يزيد على الف فارس يحصل للواحد منهم في العام من عشرة آلاف درهم الى خمسة عشر الف درهم ، ويمكن ان يستخدم من خواص الامراء الف فارس ، وفي أعمالها احدى وعشرون قلعة يقام بذخائرها وأرزاق مستحفظيها خارجاً عن جميع

ما ذكرناه وهو جملة أخرى كثيرة ثم يرتفع بعد ذلك كله من فضلات الأقطاعات الخاصة بالسلطان من سائر الجبايات الى قلعتها عنباً وحبوباً مايقارب في كل يوم عشرة آلاف درهم ، وقد ارتفع في سنة ٦٢٥ من جهة واحدة وهي دار الزكاة التي تجبى فيها العشور من الفرنج والزكاة من المسلمين وحق البيع سبعمائة الف درهم . وهذا مع العدل الكامل ، والرفق الشامل ، بحيث لا يرى فيها متظلم ولامتهضم ولا مهتضم ، وهذا من بركة العدل وحسن النية اه .

✲ ✲ ✲

الضرائب زمن الأتراك والشراكسة } ولماقبض الأتراك والشراكسة على زمام الاحكام في الشام في القرن السابع والثامن والتاسع كانت المكوس كثيرة جداً وزادوها هم وتفننوا في ضروبها حتى صعب احصاؤها وحفظها ، وكانت الخمور في سنة ٦٤٣ مضمنة والمكوس شديدة وكان الصاحب امين الدولة في مدة وزارته للملك الصالح اسماعيل حصل له أموالاً عظيمة جداً من اهل دمشق وقبض على كثير من أملاكهم . وأبطل الملك الظاهر بيبرس سنة ٦٦٥ ضمان الحشيشة وامر باحراقها . والغالب ان بعض الملوك لم يكونوا يستنكفون من اخذ الضرائب عن الخمور والمكيفات ، بل تعدوا ذلك في تلك الحقبة من الزمن الى اخذ الرسوم عن البغايا والمواخير . فقد ابطل الظاهر برقوق في جملة ماابطل من المظالم والمكوس في الشام ضمان المغاني اي المغنين والمغنيات في الكرك والشوبك . وضمان المغاني كان معروفاً في مصر فأبطل سنة ٧٧٨ زمن الاشرف قلاوون ابطله من جميع أعمال مملكته وكان عبارة عن مال كثير مقرر على المغاني من رجال ونساء يؤدونه كل سنة الى الخزانة . وأبطل الناصر قلاوون ضمان المغاني ايضاً وهو عبارة عن اخذ مال من النساء البغايا وذلك انه لو خرجت اجل امرأة تقصد البغاء ، ونزلت اسمها عند امرأة تسمى الضامنة ، وأقامت بما يلزمها من القدر المعين عليها ، لما قدر اكبر من في مصر ان يمنعها عن البغاء وعمل الفاحشة ، وكان يتحصل من ذلك جملة كثيرة من المال .

لا جرم ان دولة الترك والشراكسة في مصر والشام تشبه في كثير من الوجوه دولة الترك العثمانيين التي جاءت بعدها ، وكانت مراسيم ملوكها تصدر الحين بعد الآخر

بابطال بعض الرسوم والضرائب ، ولكن مع هذا تجد من الامراء من كانوا يصادرون على ملايين من الدنانير، دع سائر اسباب الثروة من ناطق وصامت . والدولة التي تخفف عن رعاياها بالأقوال ، والأفعال على خلاف ذلك ، هي دولة سيئة ادارتها المالية . فقد كان الملك المؤيد شيخ كثير المصادرات للرعية ، وهو الذي قطع دابر النواب العصاة الذين أخربوا غالب البلاد الشامية ، واحدث في ايامه اشياء كثيرة من ابواب المظالم لما كان يخرج الي التجاريد . والخروج الى التجاريد او الحملات كان من جملة الاسباب التي تتهيأ لملوك الشراكسة ليسلبوا الناس اموالهم ولا تكلف التجريدة اقل من نصف مليون دينار . فاذا جرد السلطان في حياته عشرين تجريدة كان المصروف من ذلك في هذا السبيل عشرة ملايين لا تصل الي خزانة السلطان حتى يجبى مثلها من الرعايا المساكين .

***

إبطال المظالم ايام الشراكسة

وفي سنة سبعمائة استخرجت الحكومة مالاً عظيماً من جميع الأملاك والأوقاف بدمشق وظاهرها ، فكان من داخل دمشق حق اربعة اشهر ، واخذوا من الغوطة من كل قرية تكثر اموالها ثلث ضمانها واخذوا من القرى التي لزراعة القمح والشعير والقطن والحبوب على نسبة مغل سنة ثمان وتسعين وستمائة ، فعظم ذلك على الناس وهرب خلق كثير واستخفى جماعة ، والذين وقعوا بايديهم قطعوا أشجار الباقين وأباعوها حطباً بحيث أباعوا القنطار الدمشقي بثلاثة دراهم . فكان خراب الغوطة بهذا السبب ، ومن شدة الطلب وكثرة الظلم والجور .

وفي سنة ٧١٤ أصدر الملك المؤيد صاحب حماة امراً الي جميع نوابه ان لا يقبل احد حماية لأحد ، بل الكل متساوون في الحقوق ودفع ما عليهم ، وذلك لان الاسماعيليين كانوا في مصياف لا يدفعون لسلفه اموالاً بدعوى الحماية فأخذت الأموال من الجميع . وفي سنة ٧٢٤ برزت المراسيم الشريفة الى نائب حلب بان يروك البلاد الحلبية اي يمسحها ويعين عليها مالاً كما فعل في البلاد الشامية فراكوا جميع البلاد الحلبية وجميع البلاد الشامية والحلبية والمصرية في الروك الناصري ،

وابطل في هذه السنة مكوس الغلة بالشام ، وكان مبلغاً عظيماً يؤخذ من ثمن الغرارة ثلاثة دراهم ونصف .

ومن جملة ماابطلوه في ادوار مختلفة من الرسوم ، وهو مانورده مثالاً من حالة تلك الأيام ، ماابطله برقوق مما كان متقرراً على البردارية في كل شهر من المال ، وما كان يأخذه السماسرة على الغلال والكيالة ، وعن الملح في عين تاب وعلى الدقيق في البيرة ، وما كان مقرراً لنائب طرابلس عندما يتولى على كل قاض من قضاة البر والولاة بغلة او ثمنها خمسمائة درهم . وابطل المنصور قلاوون من جملة ماابطل من المظالم وظيفة ناظر الزكاة ، وهو ان يؤخذ ممن عنده مال زكاته ، فان مات الرجل صاحب المال او عدم ماله يبقى ذلك القدر المقرر عليه في الدفاتر ، يؤخذ من اولاده او من ورثته او من اقاربه ولو بقي منهم واحد . وفي سنة ٧٩٦ ابطل الامير احمد اليغموري ناظر الحرمين الشريفين ونائب السلطنة بالقدس الشريف ، المكوس والمظالم والرسوم التي احدثها قبله النواب بالقدس ، ونقش بذلك رخامة أُلصقت على باب الصخرة . وابطل الاشرف صلاح الدين ما كان يؤخذ على كل حمل يدخل باب الجابية بدمشق من القمح خمسة دراهم من المكس ، بل ابطل المكوس والضرائب عن سائر اصناف الغلة بجميع الشام ، وكان ذلك جملة تخرج عن الاحصاء .

وتجد الى اليوم على السواري الاربع القائمة في مدخل جامع بني أُمية بدمشق من الغرب اربع وثائق في ابطال المكوس كتبت كل وثيقة على سارية . تاريخ الاولى سنة ٨٦٣ على عهد قايتباي الحمزاوي كافل المالك الشامية ابطل بها الرسم المقرر على الأسواق والطواحين وغيرها من المكوس بدمشق . والثانية كتبت سنة ٨١٥ وهي مما امر به الظاهر جقمق بابطال المكوس على الاقمشة الحمصية وفروع الاردية وفروع القطن وغيرها . والثالثة بتاريخ سنة ٨٥٢ تقول بانه ورد مرسوم شريف من مولانا السلطان الملك الظاهر ابوسعيد جقمق بابطال بعض المكوس ومنها التمر والعفص والسمك البوري والحنا والقماش المصري . قال — وهذا في صحائف الدولة العادلة ! والرابعة فيها ذكر القلي والخروع والقلقاس وجلود الجاموس والماعز .

* * *

أسلو بهم في نشر الاوامر السلطانية } وكانت العادة ان تنقش على الرخام صورة الامر الصادر من الملك في رفع مثل هذه المظالم ، فقد نقش الملك الظاهر ابو سعيد ططر رخامة وألصقها على باب الجامع الأموي في هذه المدينة بابطال ما كان لنائب الشام على المحتسب في كل سنة ، وكذلك ابطل في القدس ما كان يجبي لنائب القدس في كل سنة من المال ، ونقش ذلك على رخامة والصقها بباب الجامع الأقصى . وفي سنة ٧٤٦ كتب على باب قلعة حلب وغيرها من القلاع مامضمونه : مسامحة الجند بما كان يؤخذ منهم لبيت المال بعد وفاة الجندي وذلك احد عشر يوماً وبعض يوم في كل سنة ، وهذه مسامحة بمالٍ عظيم ، وكتب بالمسامحة بمثل ذلك على حائط قلعة طرابلس ، وهذا التفاوت ايام الدوران ما بين السنين الشمسية والقمرية .

وكثيراً ما كان يصدر الامر في زمن الشراكسة بجمع الذهب اذا قلّ اوالفضة وتسليمها الى الملك ليضرب بها سكة ونقوداً ، وكثر في ايامهم غش الفضة حتى كان سعر الدرهم ينزل كثيراً ، ويصاب الناس في الشام ومصر بخسائر فادحة ، وكثيراً ما كانوا يخسرون ثلث اموالهم لان بعض ملوكهم كانوا يغشون الفضة وينزلون عيار الذهب ، فكانت المصيبة بالفضة والذهب لعهدهم كالمصيبة بالاوراق النقدية لعهدنا ، كل يوم في ارتفاع وانخفاض . ولا عجب فقد كانت الدول بعد عصر صلاح الدين وآله في هذه الديار تتخبط بدون قاعدة مستقرة ، والدول التي ينصب لها ملك وهو لم يبلغ الحولين ، ويتولى المماليك امره لا يصدر منها اكثر من هذا ، كما وقع في سلطنة الملك المظفر ابي السعادات احمد بن الملك المظفر فأركبوه فرس النوبة وهو ابن سنة وثمانية اشهر وسبعة ايام وهو يزعق من البكاء ، ومشت قدامه الامراء حتى دخل القصر الكبير ، وهو في حجر المرضعة ، وقبلوا الارض أمامه ، ولما دقت الكوسات بهت الطفل وصار احول العين .

* * *

غنى الشام في القرون الوسطى

وكانت ايام الشرا كسة فريدة بثروة عمالها والغالب ان الواحد منهم كان يأخذ رزق مئة الف او مئتي الف انسان على نحو ما كانت الحال في مصر قبل خمسين سنة ولكن الثروة كانت شيئاً كثيراً في تلك الايام محصورة في الافراد . فقد اخذ تيمور من دمشق لما جاءها سنة ٨٠٣ عدا المأكول والمشروب وغيره الف الف دينـار فقام بها اهل دمشق من غير مشقة فلم يرض تيمور بذلك وقال ان المطلوب بحساب بلاده وهو عشرة آلاف الف دينـار او الف تومان والتومان عشرة آلاف دينار من الذهب ، فنزل بالناس باستخراج هذا منهم ثانياً بلاء عظيم . ولما حمل الى تيمور قال هذا المال لحسابنا انما هو ثلاثة آلاف الف دينار وقد بقي عليكم سبعة آلاف الف دينار وظهر لي انكم عجزتم . ثم اخذ اموال المصر بين حكام البلاد والتجار الغائبين عن دمشق وافرد على كل رأس من كبير وصغير عشرة دراهم شامية . وأفرد على اوقاف الجوامع والمساجد اجرة ثلاثة اشهر ، فتزايدت البلايا وكانت دمشق يومئذٍ احسن مدن الدنيا وأعمرها على ما قال ابن تغري بردي ولذلك هان عليهـا ان تجمع بضعة ملايين دينار وهو اذا قيس اعتباره بنسبة هذه الايام لا يقل عن مئتي مليون ليرة .

* * *

المكوس على التجار

وكانت المكوس على البضائع الصادرة والواردة تؤخذ في الحدود بين الشام والروم ، وكثيراً ما كان الروم اذا قويت شوكتهم في الشام يقيمون في حلب رجلاً منهم لاخذ مكس البضائع كما جرى في القرن الرابع . وكان للصليبيين في الحروب الصليبية على المسلمين ضريبة يؤدونها في بلادهم ، وتجار النصارى يؤدون في بلاد المسلمين على سلعهم ، وبعد المعاهدات التي عقدت بين سلطان مصر والشام قلاوون وابنه خليل كثر مجيء البنادقة والجنوية الى سواحل الشام في التجارة ، وتكاثر كما قال صالح بن يحيي حضور مراكب الفرنج . وكانت تؤخذ ضرائب الصادرات والواردات ببيروت ، وهي جملة مستكثرة ، وكان على باب الميناء دواوين وعامل وناظر ومشارف وشادّ ، يوليهم نائب دمشق والمتوفر عن المرتبات يحمل الى دمشق ، ولم يذكر المؤرخون مقدار هذه الضرائب .

رسوم غريبة

رجع الى الرسوم والمكوس في القطر الشامي ، فقد تنوعت أنواعها في عهد الشراكسة ومنها ما كان الخلف يلغيه على غير ارادة السلف ، ففي سنة ٨٢٤ امر الناصر بابطال مكس القمح ببلاد الشام كلها وكان يؤخذ على كل اردب ثلاثة دراهم وكان المتحصل عن ذلك في كل سنة الف الف ومائتي الف درهم نُقرة وأزيد . ونودي في المحرم سنة ٨٣٧ برسوم السلطان بان يبطل طرح السكر وان ينقش ذلك في الجامع الأموي والقلعة ودار السعادة قال الاسدي : فنقش ذلك وعلى الظن الغالب انهم لا يفون بذلك لما علم من عادة السلطان. وترى الى اليوم في جامع حلب الكبير عدة سوار في إلغاء الرسوم فالسارية الاولى كُتب عليها ان الملك دمرداش أبطل سنة ٨١١ مكس البيض من المملكة الحلبية . الثانية أُبطل فيها الملك جقمق سنة ٨٥٢ ما كان يؤخذ ظلماً من الدلالين في سوق الحراج . الثالثة في سنة ٨٤٦ بابطال الملك الظاهر جقمق مكس الكتان . الرابعة سنة ٨٤٦ بابطال ما كان يؤخذ من اهل سرمين . الخامسة بتاريخ سنة ٨٥٧ بابطال مكس الزيتون من قرى عزاز . السادسة سنة ٨٦٤ بابطال ما تجدد على المصبغة بقلعة القصير عن كل خابية عشرة دراهم ، وان لا يؤخذ سوى درهم واحد عن كل خابية . وغيرها بابطال مكس السلاح في جميع سوق السلاح ، ومنها ما كتب سنة ٨٨٢ بابطال مكس الملح الداخل مدينة حلب ، ومنها بابطال ما على الدباغين بدير كوش من المكس ، ومنها ما صدر سنة ٨٩٣ بابطال ما كان يأخذ ناظر الجنة من سوق الحناوية، ومنها ما صدر سنة ٩٠٢ بابطال ما كان يؤخذ من مكس القطن ، ومنها ما صدر سنة ٩٠٢ بابطال مكس المسك والزعفران ومنها بابطال مكس السماق ، ومنها ابطال ما هو معين عن ختم القماش العراقي والدمشقي والقدسي . ومعظم هذه الاوامر مسطورة على الاعمدة مشفوعة بجملة ملعون ابن ملعون من جددها او اعادها الى غير ذلك من استجلاب اللعنات على من يجددها ، ومنها كان الله ورسوله خصمه يوم القيامة الى غير ذلك من القيود والعقود .

ويحق لنا ان نستنتج مما تقدم ان المكوس كانت تختلف باختلاف البلاد ، فما كان في طرابلس لا يجبى مثله في حمص ، وما كان في القدس لا عهد لحلب به ، وما في

دمشق لامثيل له في المدن الاخرى ٠ وهاك أمثلة أخرى من هذا القبيل ففي مدخل جامع طرابلس امر بابطال المظالم المحدثات على اهل طرابلس من التحجير على قوت العباد من القمح واللحم والخبز والفراخ وغير ذلك ، وذلك في ايام ابي النصر شيخ سنة ٨١٧ وفي مدخل هذا الجامع امر من صاحب طرابلس بابطال منع استيفاء رسم الدخان ، ومايستأديه من يكون متكلماً في ديوان الحجوبية الكبرى واستادارية الديوان الشريف من سكر وخل وغير ذلك ، ومن طرح الصابون والزيت والبلس (البوتاس) ومن جميع مايحدث من ديوان النيابة والديوان الشريف وغيرها ومن جميع الكلف والمخادم الجارية بها العادة قديماً والحادثة مستقبلاً ، وعلى حائط مدرسة الشمسية امر كتب سنة ٨٢٦ بابطال الملك الاشرف برسباي ما على البلاد الطرابلسية من الخيل بالبريد ورسم الملك الاشرف بابطال التحكير بالخانات والمكوس على الحطب والتبن وغيره وجهر بالنداء بذلك بدمشق بالجامع الأموي ونقش به رخامة ٠ وابطل المقر السيفي نائب السلطنة بحمص سنة ٨٤٤ جميع ما أحدث في حمص من ظلامات الحرير والصوف والبز والخبز والزيت وكتب على باب جامع سيدنا خالد بن الوليد وصية بذلك وفيها اسم السلطان جقمق ٠

وفي سنة ٨٤٦ سومح عوام القدموس بما على أنوال الحياكة وخراج الكروم بالقدموس مسامحة مستمرة على الدوام ونقش رخامة على حائط الجامع الكبير ٠ وفي سنة ٨٥١ أبطل ماتجدد على عوام القدموس والكهف والمينقة والعليقة والخوابي من الاعمال الطرابلسية من الثياب الخام ودورة الاستادار ٠ وفي سنة ٨٥١ ابطل الظاهر المظالم من القدس ونقش بذلك بلاطة وألصقت بحائط المسجد الغربي عند باب السلسلة وابطل الظاهر خشقدم المظالم من القدس ونقش بذلك رخامتين وجهزهما الى القدس في أواخر عمره وألصقتا بحائط المسجد الأقصى (توفي سنة ٨٧٢) ٠

وفي مدرسة طرابلس رسم بابطال ما على النخيرة (المسلخ) بطرابلس من الموجب لديوان النيابة وقدره في كل يوم ثمانون درهماً ، وبابطال معلوم كتابة السر احد وعشرون درهماً ، ومعلوم الحجوبية ثلاثة عشر درهماً وفي حائط تلك المدرسة ايضاً كتابة بتاريخ ٨٨٨ بابطال المظالم وهي الطروحات التي كانت تطرح على التجار

والمتسببين بمدينة طرابلس وذلك عن الصابون والكرم والزيت وغير ذلك . وفي سنة ٨٨٨ أُبطل مكس الدواليب الحرير والقصابة بالكهف والقدموس وأُبطل مكس نحيرة البقر والجاموس وقطع الضأن وقرم الاساكفة بالقدموس والخوابي وعلى ذلك الحائط كتب سنة ٩٠٩ بابطال المظالم والحوادث عن فلاحي الوقف وان لا يكرّبوا فلاحي الوقف الا الجزية الشرعية والمال المقرر وفي سنة ٨٢١ أُبطل ضمان المكس بسوق العطارين بطرابلس وكتب على حائط مدرسة الرفاعية سنة ٨٧٠ ان لا يؤخذ من تجار حماة وغيرها من السمسرة والترجمة الا ما جرت به العادة القديمة وهي على الالف عشرة دراهم لاغير وان لا يتناول الاجرة الا من باشر العمل بنفسه من أبناء السبيل ، ومنع النصارى من الترجمة والسمسرة ، وان لا يؤخذ شيء ممن باع سلعته بغير دلال . والغى قانصوه الغوري المكس عن حاكة حمص .

* * *

وبذلك رأينا ان الغاء المظالم والمغارم كان على اشده في آخر ايام الشراكسة وكان من اسوإ ملوكهم	تفنن الشراكسة في اقتضاء الأموال

شعبان قال المؤرخون فيه انه كان متطلعاً الى جمع المال وفتح باب قبول البدل في الأقطاعات والوظائف وجعل لذلك ديواناً قائماً بالذات وكان يعين البدل في المناشير وهو مبلغ ثلاثمائة درهم فما فوقها . والخلاصة فان الشراكسة تفننوا في طرح المكوس . ومن غريبها في ايامهم مكس القرعان وذلك ان شخصاً من المماليك الشراكسة كشف رأسه في سنة ٨٣٠ بين يدي السلطان فاذا هو أقرع فضحك منه السلطان فقال ذلك المملوك : اجعلني والي القرعان يا مولانا السلطان ، فأجابه السلطان الى ذلك وأخرج له مرسوم سلطاني به وان يكون شيخ القرعان وخلع عليه خلعة فصار يدور في الأسواق والحارات ويكشف رؤوس الناس ، فمن وجده أقرع يأخذ منه ديناراً حتى أعيان الناس فضج الناس منه وشكوه للسلطان فضحك ونادى بالامان للقرعان وان كل شيء على حاله وكسب ذلك الرجل في هذه الحركة مالاً عظيماً .

قال الاسدي في القرن التاسع ويكشف في كل سنة مقدار الارتفاع ومقدار المصروف ، ومهما توفر بعد ذلك رفع علمه للمسامع الشريفة فيرفع منه ما يرفع محمولاً

للخزائن الشريفة بالديار المصرية ، و يرفع منه ما يدخر في القلاع الحصينة لما يحتاج اليه عند حوادث الزمان . وكان يتحصل من كل مملكة من المال (اي من ممالك الشام) ما يوفي بمصروف ذلك العمل ، و يبقى من بعد ذلك ما يرفع للمصالح عند الاحتياج اليها . قال : وقد وجب في الشريعة المطهرة على الامام انه يأمر بتحصيل ماوجب استخراجه من المال الحلال على وجهه ، وانه يصان عن التدنس بالحرام ، لان المال الحلال محل للخير ، لما يوجد من حلول آثار البركة فيه ، والمال الحرام مفسد للمال الحلال ولا خير فيه . فاما المال الحلال فهو ما يؤخذ بحقه ويصرف على مستحقه من خراج الارضين والبلدان ، بعدما يجب من العمارة وتأمين الرعايا ، وقسم الغلال بالحق واستخراج الزكاة والجوالي والعشر والخمس بالشرع ، وكذلك ما يجب استخراجه من زكاة الأموال والبهائم والثمار والأصناف المعين فيها وجوب الزكاة ، وكذلك ماوجب فيه الحق من الركاز والمواريث والغنائم والفيء وغير ذلك مما يحمل لبيت المال من الأموال الواجبة والمباحة . واما المال الحرام فهو مااستخرج بخلاف ذلك على غير وجه الحق حسبما وضعوه من الرسوم والخدم الموضوعة في كل ديوان ، ومارتبوه واجروا به العوائد مثل الموجبات التي لا حق فيها والمكوس التي هي محرمة على مستخرجيها وآكليها ، وما يرتكب في أبواب الحكام من وجوه التبعات والمظالم وضروب الحوطات على أموال الناس التي هي لهم بالحق وأخذها منهم بوجوه المغارم . قال : وفي الظاهر ان هذه الأموال المحصلة بهذه الوجوه الخبيثة مصالح للسلطان ، ومعونة للأعوان ، وفي الباطن انما هي فساد وظلم ، وتخريب وفسوق ، وعصيان وعوائد رديئة ، قد ظهرت واستمرت وصارت من القواعد لتخريب البلدان .

* * *

الأموال أوائل العهد العثماني { انتهى دور الشراكسة المحزن المرمض ، وأمّلت الامة بدخولها في حوزة الترك العثمانيين ، ان ترى ايام رغد وسعادة ، لانها دولة جديدة تتحامى ماأمكن الأغلاط التي وقعت فيها الحكومة قبلها ، ولكن جاء الامر على العكس من ذلك على ماتراه . لما فتح السلطان سليم العثماني الشام ومصر قال وقد ملأ خزائنه من أموال الشراكسة بعد ان كان في ضائقة شديدة

اضطر معهـا الى الاستدانة من بعض التجار : اني ملأت الانابير بالذهب ، وكل من يستطيع من أخلافي ان يملأها دراهم فليختم عليها بطابعه ، والا فتبقى الخزينة السلطانية مختومة بطابعي . هذه كانت وصيته ولذلك كانت خزينة «الاندرون» مختومة بخاتم سليم . لا جرم ان اكثر فتوح السلاطين العثمانيين كان السائق اليها حب الغنائم والنهب ، ولذلك كانوا يرجحون فتح البلاد في جهات اوربا على الفتح في آسيا لان تلك كانت أغنى في نظرهم ، وعلى شيء من الانتظام في الجملة ، تسد مغانمها نهمة جيوشهم وخواصهم ، وفيها من الجمال مايكافيء الاتعاب فيتمتع السلطان واهل دولتهم بمن شاؤوا من بنات المغلوبين وبنيهم ، ولذلك جاء النسل التركي في الاستانة فقط مزيجاً من الروم والكرج والبشناق والارناؤد والرومان والصرب والبلغار والمجر والطليان والروم والبولونيين وغيرهم من أمم اوربا .

ولما فتح السلطان سليم دمشق (٩٢٢) فوض نيابتها وما اليها من بلاد الشرق الى عريش مصر الى جان بردي الغزالي على مال معين قال ابن طولون قيل قدره مائتاالف دينار وثلاثون الف دينار . وذكر النجم الغزي ان هذا السلطان تفنن في ضرب المكوس ومن جملتهـا المكس على المومسات فتأسف العقلاء واكبر الامر اهل الدين والورع . ومن وصل به الطمع في مال الامة الى هذه الدرجة وهو في مبدإ تغلبه على البلاد ، يجب عليه ان يريها شيئاً من العدل ينسيها مظالم الدولة الشركسية ، فحدث ما شئت ان تحدث عما أحدثه أخلافه من البدع في الارتفاعات بعده حتى قال مؤرخو الترك انفسهم : ان خراج ايالة الشام كله كان يعطى للمرأة السابعة من نساء السلطان ابراهيم وكان الجابي يأتي دمشق فيجبيها بنفسه ، لان نساء القصر لم يكنّ يأمنّ احداً من الولاة والمتصرفين على جبايتها من الأمة . فتأمل أيالة بل مملكة كهذه تعطى جبايتها لامرأة واحدة من نساء القصر تنفقها على زينتها وأزيائها ، كيف تكون مجابيها عادلة مصروفة في سبلها .

* * *

الخراج والعثمانيون والسخيف من ضروبه } وذكر مؤلفو الترك ان أقطاع الشام كله كان مسانهة مليون اقجه[1] ولامير لوائهـا من مئتين الى ثلاثمائة الف اقجه وفيها ١٢٨ زعامة و٨٦٦ أقطاعًا وعدد جندها ٢٦٠٠ من الفرسان . وكانت ايالة طرابلس وارتفاعها السنوي خمسة يوكات[2] ولديوان الخاص من ٢١٠ الى ٣٩٠ الف اقجه وحاميتها من الفرسان ١٤٠٠ وأيالة حلب وخراجها ثمانمائة وسبعة عشر الف اقجه وديوانهـا الخاص يرتفع من ٢٠٠ الى ٥٠٠ الف اقجه وفي هذه الأيالة ١٠٤ زعامات و٧٩٩ أقطاعًا وحاميتها ٢٥٠٠ فارس يخرج منها عشرة يوكات كان يدفعها اولاد رمضان حكام إذنة . وكانت الدولة تستوفي نصف ايراد الشام على عهد السلطان سليمان الاول اعني في سنة ٩٩٩ هـ ١٥٥٣ م ٢٠٠٠٠٠ دوكا والدوكا عشر اقجات والبارة ثلاث اقجات وتصرف الباقي على وقاية البلاد ومحافظتها ، وكذلك كانت تفعل في مصر تأخذ نصف ريعها وتصرف النصف الآخر في حمايتها .

وما برحت الحال المالية في هذه الدبار في إدبار ، وهي تبع للوالي الذي يتولى زمام الحكم . فقد ذكروا ان والي الشام رفع في سنة ٩٩٤ المظالم وأبطل المكوس الزائدة ،

(١) كل ثلاث اقجات بارة وكل ٤٠ بارة قرش والكيس خمسمائة قرش ذهبًا او فضة . وذكر لامنس ان القرش كان يساوي في القرن الثامن عشر في الشام نحو خمسة فرنكات وفي منتخبات الجوائب ان نقود الدولة العثمانية كانت قبل القرن الحادي عشر للهجرة من صنف الدوكات المنسوبة الى البندقية التي كانت مملكة عظيمة مستقلة وكان وزن كل مائة دوكات ذهبًا ١١٠ دراهم اما نقود الفضة فكانت من صنف الريال الجرماني الذي كان يجلب من المانيا وكان وزنه تسعة دراهم وقيمته ٨٠ اقجه . واول من استعمل الاقجه السلطان بايزيد الاول وذلك في سنة ٧٩٢ هـ (١٣٩٠ م) اما استعمال البارة فاشتهر في سنة ١٠٦٦ هـ وفي سنة ١٠٩١ قر الرأي ان كل ٤٠ بارة تحسب قرشًا وكانت البارة تساوي ثلاث اقجات اما الكيس الذي كان يساوي ٥٠٠ قرش ذهبًا او فضة على حساب المعاملات فكان يساوي الف دوكات .

(٢) اليوك مبلغ خمسمائة الف قرش .

فأُبطل مكس الخمارات ، وكان هذا المكس لكل من كان حاكماً على بر الشام ، ثم أُبطل اليسق من باب صاحب الشحنة . واليسق كبير الانكشارية يلتزم هذه الوظيفة بمال كبير يدفعه للآغا وللباشا ويكون في باب صاحب الشحنة ، يقطع الجرائم ، ويدفع المال عن اربابه ، يربح ديناراً عثمانياً كل يوم ، فاذا كانت الجريمة خمسين ديناراً مثلاً دفعها عمن أُلزم بها ، وله ربحها في كل يوم خمسون عثمانياً ، فاذا بقيت عليه اياماً حتى يسعى في تحصيلها تضاعفت عليه ، حتى لا يقدر على الوفاء والتخلص منها ، فان كان له أسباب او عقار او وقف او غير ذلك باعها او ملّكها لذلك اليسق كيفما أراد ، فأدى ذلك الى تمول الانكشارية وتملكهم كثيراً من الأملاك ، وأبطل اليسق من باب القاضي ، ورتبت الانكشارية مالاً على البضائع المجلوبة ، وأبطلت المكوس التي كانت تؤخذ على اللبن الداخل الى دمشق وعلى الموازين .

وفي سنة ١٠٠٤ طالبت الحكومة الرعايا بعوارض سنتين جديدة وعتيقة ، وطالبوا الاسرائيليين بمال عظيم . ومثل هذا كثيراً ما كانت تعمد اليه حتى الى عهد قريب ، تطلب المال قبل استحقاقه ، وتسلب أموال الصيارف والمرابين ، بحجة الاستدانة منهم ، وحدث ان بعض الامراء والملوك صادروا النصارى واليهود خاصة كما فعل الملك الأشرف قايتباي فصادرهم مرتين في ايامه . وغرّم احمد حافظ باشا سنة ١٠١٨ وكان كافل الشام أموالاً طائلة ، وصادر جماعات في دمشق واخذ اموالاً منهم بغير حق ، ولذلك كانت المصادرة عامة تتناول من كان في صندوقه مال اياً كان مذهبه .

وفي سنة ١٠٠٨ تولى السيد محمد باشا ولاية دمشق وامر بتغيير المعاملة فيها ، وجعل كل سلطاني بثمانين قطعة جديدة ، زنة كل قطعة قيراطان ونصف قيراط ، وهبطت الاسعار وحصل الرخاء . وذكر بعضهم ان فخر الدين المعني كان يجبي تسعمائة الف ليرة ويزيد ذلك بزيادة التجارة ، فكان دخل صيدا يأتي الدولة سنوياً بمائتي الف ليرة . ويدفع من جبايته للسلطان ثلاثمائة واربعين الف ليرة فقط ، وكان الامير بشير كالامير فخر الدين يحب البذخ ، وقد ضاعف خراج لبنان اربعة أضعاف .

ولا نعتقد ان جباية الامير المعني قد بلغت هذا القدر ، فقد ذكر في كتاب صادر عن احمد بن محمد المولى بنابلس سنة ١٠٣٠ (جمادى الآخرة) ان يتصرف خوشخبر

اغا المستحفظ بمدينة نابلس ولوائها في جميع متحصلات القري والخرب الكائنة بالجبل القبلي والشامي وبني صعب والقرى والخرب المقاطع عليه سابقاً ، من شتوي وصيفي وزيتون وخرنوب وعداد ورجالية وخراج واعشار واغفار وسائر المتحصلات الشرعية والعرفية العائد جميع ذلك للخزينة العامرة بدمشق الشام على الامانة وان يحضر للخزينة العامرة سبعة آلاف سلطانياً ذهباً . فاذا كانت بلاد نابلس يضمن خراجها وضرائبها بهذا القدر وهي ماهي من الخصب واتساع الرقعة فمن الصعب ان تجبى من بلاد ابن معن جباية كبيرة كالتي ذكرت واكثرها جبال قاحلة .

مثال آخر من قلة الجباية لنقر البلاد : في سنة ١٠٣٥ طلب المال من الأمير يونس الحرفوشي امين بعلبك عن سنة ١٠٣٣ و١٠٣٤ فقال ان المطلوب من مقاطعة بعلبك عشرة آلاف سكة حسنة ، وانه لا يستطيع ضمانها الا بعشرة آلاف قرش فبالنظر لاداء نفقات الحج الشريف ومال العلوفة أُعطيت له المقاطعة بعشرة آلاف قرش عن سنة ٣٤ ولكن لم يتحصل منها سوى سبعة آلاف قرش . اما سنة ٣٣ فلا يمكن تحصيل شيء منها لان ابن معن خرب تلك الولاية كما يؤخذ من السجلات الرسمية في تلك الايام .

* * *

تفنن الجزار في اخذ المال وطريقة العثمانيين

وهكذا انقضى القرن الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر في سلسلة مغارم ومظالم ، فقد تولى احمد باشا الجزار دمشق لاول مرة سنة ١٢٠٠ وكانت مدة حكمه فيها خمس سنين لم يرتح شهراً واحداً من طلب المال ظلماً ، ومن طرح النقود وطرح البضائع المتنوعة ، ينهبها من جهات و يطرحها على أُخرى باسعار زائدة . ومن مظالمه انه اذا وجد قتيل في احد الأنهار يلحقون جميع القرى التي تشرب من ذاك النهر ، و يأخذون منهم مالاً غزيراً ، وكان لا عمل له الا القبض على الاغنياء ومصادرتهم على أبشع صورة فصدق فيه قول الشاعر :

قد بلينا بامير ظلم الناس وسبح
فهو كالجزار فيهم يذكر الله و يذبح

قال ابن آق بيق في حوادث سنة ١٢١٧ شغل الشام بالظلم واكرامية الباشا من البلاد ، واشتغل حسن آغا بالظلم في دمشق وإرهاق القرى بالطروحة والاكراميات واقراض الذخائر ومعاونة الجردة وغير ذلك من المظالم التي لم يسمع لها اثر في السابق . وفي سنة ١٢٤٧ كانت محاولة سليم باشا والي الشام وضع «مصريتين» ضريبة على كل سكرة اي عقار في دمشق من جملة أسباب قتله حرقاً مع جماعته .

وقال ابن عابدين : ان غالب الغرامات الواردة على القرى في هذا الزمان (اي في أوائل القرن الثالث عشر) ليست لحفظ أملاك ، ولا لحفظ أبدان ، وانما هي مجرد ظلم وعدوان ، فان غالب مصارف الوالي وأتباعه ، وعمارات منزله ومنزل عساكره ، وما يدفعه الى رسل السلطان الواردين باوامر ونواهٍ وأمثال ذلك كله يأخذه من القرى ويسمون ذلك بالذخيرة ، تؤخذ في بلادنا في السنة مرتين ، ويزيد فيها دراهم كثيرة رشوة لأعوانه وحواشيه من أعيان البلدة ، وقد جرت العادة بقسمة ذلك كله على عدد فدن القرية ، وتارة يقسمونه على مقدار حق الشرب بالساعات الرملية ، فمن كان له فدان مثلاً يؤخذ منه ما يخصه او من له ساعة يؤخذ منه ما يخصه سواء كان رجلاً او امرأة او صبياً ، وكذا يجعلون منها على رقاب الرجال الساكنين في القرية الذين لا ملك لهم فيها .

ومما اخترعه العثمانيون «الزعامة» وهي عبارة عن قرى يقطعها من يعطاها وتخمن على الاقل بعشرين الف درهم عثماني كل سنة ، واخترعوا العوارض وهي مظلمة سلطانية تؤخذ من البيوت في الشام في كل سنة . و يقال انها من محدثات الملك الظاهر بيبرس أشار اليها الاكرمي بقوله :

لحا الله ايام العوارض انها ... هموم لرؤياها تشيب العوارض

يضيق لها صدري واني لشاعر ... ضليع وبيتي ما عليه عوارض

قلنا وهذا من جملة الدواعي التي انتقلت بها في القرن الماضي قرى ومزارع كثيرة في سهول الشام وجباله الى ارباب النفوذ ، فخرج اهلها عن ملكها ، ورضوا بالاستعباد على ان يكونوا أحراراً مالكين . وذلك فراراً من ظلم الحكومة وتخلصاً من الضرائب الثقيلة التي لا تحملها نفس بشرية . ولطالما قصّ الشيوخ علينا قصة الطبلة يوم تدق

في قريتهم ، و يجيءُ أعوان الظلمة لأخذ المظالم من أهلها ، وهناك كنت تسمع من المؤلمات وضروب الظلم في طرق الجباية ما تسأل الله معه السلامة ، وتستغرب كل الغرابة من جنس هذا الناطق المتمرد ، ومن طرز إدارة العثمانيين التي تعرف كيف تستنزف دماء الامة وأموالها ، وقلما فكرت فيما يجلب لها الثروة ، و يحفظ عليها الحق و يقيم بينها قسطاط العدل . وكان الامراء اذا خرجت لاخذ الصدقة تضرب الطبول عادة لهم قديمة .

* * *

الجباية على عهد المصريين والمقابلة بين طريقتهم وطريقة العثمانيين

ولما فتح جيش محمد علي باشا المصري بلاد الشام كان الاجنبي اذ ذاك يعطي رسوم كمارك وضرائب اقل مما يدفع الوطني بكثير ، ولذلك اضطر بعض التجار الى ابتياع حماية الأجانب حتى يستطيعوا ان يتجروا ، وهذا كان مبدأُ اشتداد الامتيازات الاجنبية . كتب اللورد دوفرين الى حكومته سنة ١٨٦٠ يقول : في مقدمة اسباب ضعف الادارة العثمانية في الشام ، ان الباب العالي كان يعتبر هذه الولاية منذ بضع سنوات كأيالة أجنبية يقتضي الانتفاع منها ما امكن ولذلك طرح منصبها في المزاد ولم يول عليها الا الزائد الأخير . ومن الطبيعي ان كل والٍ جديد لم يكن يفكر الا في تعويض مادفعه من المال ، و بجمع الثروة ، فيسلب اهالي ولايته لدن وصوله ، مبتزاً منهم الأموال ، ومثقلاً كاهلهم بالضرائب الجديدة . وبعد ان ذكر كيف كان الوالي يرشي جماعة الاستانة لتستقيم له الولاية مدة ، يواصل فيها استنزاف الأموال واملاء جيوبهم بها قال : فنشأ عن ذلك مظالم لا تطاق ، وابتزاز اموال لا تحصى ، وتعاقب على الأيالة ولاة غير اكفاء للمنصب ، جائرون مرتشون طماعون في جمع المال ، لا تشبع بطونهم ، خالون من ادنى اهتمام بالمصلحة العامة اه .

تبدلت الأوضاع الإدارية في هذا القطر مرات على عهد العثمانيين وفي سنة ١٢٧٢ هـ كانت تقسم الى أيالتين أيالة دمشق وأيالة صيدا ، ودخل الاولى التي هي عبارة عن دمشق ومرج الغوطة ووادي العجم ووادي بردى وجبل قلمون وحماة وحمص

وبعلبك ومعرة النعمان وعجلون والبقاع وحاصبيا وراشيا وحوران وجبل الدروز وحصن الاكراد والقنيطرة وايكي قبولي ، من الخراج والأعشار والبدل العسكري والرسوم المختلفة ٤١٨٠٥ أكياس يضاف اليها ٩٠٠ كيس كانت تدفعها الخزينة الى الأوقاف وذلك عدا ما كان يؤخذ من حماة وحوران وحمص وجبل الدروز وحصن الاكراد ومعرة النعمان وعجلون عيناً من الأعشار والرسوم ، وهو ١٨٧٥٩ اردباً من القمح و٢٥٨٨٤ اردباً من الشعير و ٩٥١ من الذرة و١٣٣٩٣ اوقة سمن و ٣٢٠ اوقة حرير و١٣٠٠ رأس غنم . وكان دخل أيالة صيدا وقائم مقاميتي لبنان الدرزية والمسيحية و يدخل فيها بيروت وطرابلس واللاذقية ونابلس وعكا وحيفا وساحل عتليت والاقضية الشمسية ٣١١٥٤ كيساً ماعدا المستوفى عيناً من القمح والشعير والذرة والكرسنة والسمسم والعدس والسمن والزيت والفيالج والقطن . وكان مجموع دخل ايالة دمشق ١٨٥ الف ليرة على ذاك العهد وايالة صيدا ٥٠ الفاً وكان لبنان يؤدي للدولة سنوياً ٣٥٠٠ كيس جزية وخراجاً .

* * *

رأي انكليزي في اعنات البلاد بالضرائب } كتب المستر برانت قنصل انكلترا في دمشق الى سفير دولته في الاستانة عن حالة أيالة دمشق في ١٤ حزيران ١٨٥٨ من كتاب ما يأتي : « ان الضرائب كانت باهظة على عهد الحكومة المصرية ، على ان استتباب الأمن وعدم بخل الحكومة على الشعب كانا يكفيان لاقناعه ان في وسعه تحمل وقرها دون ان يرزح تحتها ، وكان الدخل يدار بنزاهة واقتصاد ولدى الحكومة المصرية جيش وافر العدد وتقوم بكل نفقات إدارة الايالة المتوقع ازديادها تدريجاً ، اما حالة اليوم (اي على عهد الحكم التركي) فهي على عكس ما تقدم من جميع الوجوه فالضرائب عبء ثقيل لا يطاق [1] مع انها أقل من

(١) قال بيريه ان الضرائب التي وضعها ابراهيم باشا المصري على الشاميين كانت شديدة وما كان القوم يتحملونها لو لم يكونوا من عناصر واديان مختلفة . قلنا ومن حسنات ابراهيم باشا انه أبطل الرشي والاصطناع وأبطل المصادرات وقرر حق التملك .

قبل والأمن مفقود والدخل يقلّ كل يوم لاهمال القرو بين حراثة الارضين ، وكل مايتم جمعه ينفقه باسراف او يسرقه ، الموظفون والأموال اللازمة لادارة الحكومة تطلب من الاستانة ، وصار من الجلي ان المالية تزداد اختلالاً وفساد الادارة مستمر .

« كانت حكومة محمد علي فرضت على كل ذكر ساكن في المدينة ضريبة جديدة تدعى ضريبة الفردة تختلف بين ١٥ قرشاً الى ٥٠٠ قرش ، حسب حالة كل انسان ، وكان مجموعها يبلغ عشرين الف ليرة انكليزية . ولما عاد الأتراك الى البلاد لقوا مقاومة شديدة في جبايتها ، فأبدلوها بضريبة على البيوت تستوفى دون حدوث اضطراب كبير او قتال ، على ان مجموعها لا يتجاوز العشرة آلاف ليرة انكليزية ، وقد جرت بعض احتكارات وفرضت ضرائب جديدة على البنايات المحدثة ، للاستعاضة عن الدخل الذي أسرفوا به ، وكانت الحكومة المصرية تستوفي نحو ٥٥ الف كيس ولا يتأخر لها بارة ، وهذا المبلغ يساوي ٢٧٥ الف جنيه فهبط الدخل اليوم الى ٣٥ الف كيس قيمتها ١٤٣ الفاً وخمسمائة جنيه ، يجبى منها عشرة آلاف كيس و يبقى زهاء ٤١ الف جنيه في ذمة الاهالي ، وهذه يتعذر جباية قسم منها .

* * *

رأي مدحت باشا في مظالمهم } هـذا ما قاله رجل غريب عن البلاد وأصرح منه ما كتبه مدحت باشا ايام كان والياً على الشام بتاريخ ١٧ آذار ١٢٩٥ شرقية من لائحة في سياسة الشام وأموالها ومما قاله : ان الاوامر التي تصدر من الاستانة الى الشام محصورة في طلب المال والجند فقط ، وبذلك بطل العمل بالقانون والاصول المرعية ، وفتحت ابواب سوء الاستعمال ، وماعدا بعض الرجال من الموظفين أصبح كبار العمال وصغارهم لا يلتفتون الى غير مصالحهم ، فطرأ على المعاملات خلل ، و بسوء تأثير ذلك فسدت أخلاق النـاس ، و كثر القتل والنهب والغارة على الأموال والعروض في كل مكان ، واختل الامن كل الاختلال . قال واذا ألقينا نظرة على واردات الدولة نرى الخراج والأموال قد نزل ارتفاعها الى النصف ، وخربت مسائل الأعشار البلاد ، وقلّ البدل العسكري ، وحدّث

ما شئت عن بلية « القائمة[1] » فمن اجل سقوط أسعارها نزلت الواردات في العام الماضي الى النصف ، وبقي النصف الآخر في باب النفقات بدون تسديد .

وكلام مدحت باشا يشمل ولايتي سورية وبيروت لان الولايتين في عهده كانتا ولاية واحدة فكلامه يتناول معظم سورية وفلسطين ، وبالطبع كانت فلسطين اقصى الجنوب وحلب في اقصى الشمال على هذه الصورة او أشد ، لان روح المملكة كانت واحدة ، وهي المركزية الشديدة ، وكانت في الدور الذي سلف لامركزية ولكنها أشبه بالفوضى . ولم تتغير الحالة المالية عن عهد مدحت باشا بل ظلت تعسة الى آخر سقوط الشام ورحيل الأتراك عنها ، وان كانت الارتفاعات زادت في العقود الاربعة الأخيرة ، لانتشار الأمن في الجملة ، بتأسيس المحاكم النظامية التي قضت على الاشقياء بعض الشيء ، وكفت البادية عن العيث في البلاد القريبة من المعمور ، بعد ان كانت تأتي لاخذ الخوة من القرى القريبة من الحواضر الكبرى ، ولزيادة النفوس بقلة الاوبئة وتخفيف بعض البطائح . وسد العجز المالي ، ولاسيما في الساحل بما ادخله المهاجرون الى اميركا وغيرها من أبناء الشام ، فكانوا وما زالوا يحملون الى هذه الديار مبالغ طائلة تدخل في تحسين الزراعة والصناعة وتزاد بها الحركة التجارية . وكانت الدولة العثمانية كلما سلخت عنها الولايات النائية تزيد في مقدار الجباية والمظالم على بلادها ، فالدخل ينقص على الدوام بسلخ الممالك من جسمها ، والخرج يزيد لان اهل الاستانة عالة على اهل الولايات ، يشقى هؤلاء لينعم اولئك ، ويبنوا القصور ويتمتعوا بالحور والولدان .

* * *

الاشتطاط في الاعشار والقسط في الجباية

ولم يكف الحكومة العثمانية زيادتها في العشور حتى بلغت ثلاثة عشر الا ربعاً في المئة ، تؤخذ من الحاصل والمحصول عدا مايلحقها من ظلم الملتزمين والعشارين ، وهو قد يبلغ عشرين

---

(١) الورق النقدي الذي أصدرته الدولة في حرب روسيا وكانت سبب ابتزاز قسم عظيم من ثروة الامة .

في المئة او اكثر من ذلك في بعض الانحاء ، ولم يكفها زيادة الأموال والضرائب الأخرى الى ضعفين بل الى أضعاف ما كانت قبل عشرين سنة ، بل زادت في العشر والخراج زيادة مهمة مدة الحرب العامة ، دع ما أحدثته من التكاليف الحربية واستلبته من أموال الفلاحين وعروضهم ومواشيهم ، ولولا ارتفاع الأسعار ودخول ملايين من الليرات التي اقترضتها الدولة من المانيا لتنفقها على الجيش الذي جمعته وجلبته من القاصية ، لولا ذلك لبقي عشرة في المئة فقط من قرى هذا القطر عامراً ، ولآضت الحال أنعس مما كانت قبل ستين او سبعين سنة ، ايام كان الفلاحون لا يستطيعون زراعة اراضيهم لقلة الأيدي العاملة ، فيجلبون أناساً من العبيد يستخدمونهم في الحرث والكرث .

وبعد الحرب كثرت الجباية والمغارم في بلاد الشام خصوصاً لقلة الذهب في الأيدي والاستعاضة عنه بالورق النقدي ، فزادت الجباية في بعض الحال اربعة أضعاف ، فعلت الشكوى ، وأخذت أسعار البياعات تعلو وتسفل في المدة القليلة ، والمقرر على الرعايا ينزل و يرتفع على تلك النسبة ، فتضرر الناس من هذا وكان البلاء في ذلك عاماً في كل البلاد التي لم يستقر سعر ورقها المالي على وتيرة واحدة ، او لم توازِ قيمته قيمة الذهب ، واضطرت حكومات الشام الى الإنفاق اكثر من قبل على صغار عمالها وكبارهم ، لئلا تترك لهم مجالاً الى الرشى والتلاعب بحقوق المساكين والضعفاء ، وان تقوم ببعض الأعمال اللازمة في الحكومات المتمدنة ، فانفرجت مسافة الخلف بين الدخل والخرج ثم تعادلا واخذت الحكومة تفكر في إلغاء طريقة الأعشار والاستعاضة عنها بمال مقطوع وزادت الضرائب على العقارات بنسبة اجورها .

* * *

خراج الارض والعقارات[1] } هذه الضريبة من التكاليف غير الشرعية التي أُحدثت أواخر ايام سلطنة السلطان بايزيد الثاني العثماني ، وكانت المرتبات التي تقطع على كل بلدة من البلدان توزع بمعرفة لجنة مؤلفة من الوالي

(١) كتب هذا الفصل المالي المحقق السيد رفيق الحسامي .

او المتصرف او المتسلم ورجال الشرع الشريف ووجوه البلدة وأعيانها يُراعى فيها عدد النفوس المذكور ، او الدور الموجودة في كل بلدة . وكان هذا التوزيع يسجل في المحاكم الشرعية ، وكان كل فرد يخضع لذلك التوزيع ، ويدفع مايصيبه مرتاحاً بحيث لا يبقى منه شيء في ذمم المكلفين . وقد دام الحال على هذا المنوال مدة اربعة او خمسة عصور .

ولما تسرب الخلل الى القوانين الموضوعة وأعلنت التنظيمات الخيرية ، كان من جملة الاصلاحات التي تذرع بها السلطان محمود الثاني وأقرها السلطان عبد المجيد تسجيل الأرضين والعقارات كافة في عامة البلدان والقرى ، وذلك بتقدير قيم لها ، واستيفاء الضريبة على نسبة قيمتها . وكانت هذه الضريبة تجبى بمعرفة المختار في المدن والقرى (شيوخ الصلح او شيوخ القرية) . وهذا بموجب تذكرة إجمالية « طوپ مركى » تدفع الى المختار فيجبي مايصيب كل شخص من المكلفين ، و يدفع المجبيُّ في كل اسبوع او خمسة عشر يوماً او شهر بحسب مقدار ما يجبي او بحسب تعقيب الحكومة او إهمالها .

ولما رأت الحكومة بأخرة ان بعض المختارين يتلاعبون بهذه الأموال ، وكثيراً ما كانوا يفرضون على الاهلين فرائض تربو على مايصيبهم من التكاليف بدعوى النقص في الأموال حتى آضت الحال الى تعذر الجبايات — منعت المختارين من معاملة الجباية وألفت لجاناً خاصة ، وأنشأت ترسل لكل مكلف تذكرة باسمه حاوية مقدار ما أصابه من الضريبة في كل سنة . ويجبي جابي الفرع المقيم به المكلف بموجبها ، والذي يتأخر عن دفع دينه نجوماً (تقاسيط) معينة تنذره رسمياً حتى اذا لم يبادر في عشرة ايام من تاريخ تبليغه الانذار الى دفع ذمته ، تحجز امواله المنقولة او غير المنقولة فيما اذا لم يكن له أموال منقولة واذا كان ممن لا يملك شيئاً غيرها يحبس احد وتسعين يوماً ، اذا ثبت اقتداره على الوفاء .

وفي سنة ١٩٢٥ اصدرت الدولة قانوناً للجباية لم يخرج بجوهره عن النظام السابق الا ما كان من الاكتفاء بحبس المدين شهراً واحداً بدلاً من احد وتسعين يوماً على ما كان

في النظام السابق الى غير ذلك من العقود الشرعية التي لا علاقة لها بجوهر هذا النظام القديم ولا يزال التعامل جارياً على هذا النمط ·

☆☆☆

رسم المواشي } هذا الرسم من الأوضاع الشرعية وكان يتقاضى اوائل عهد الحكومة العثمانية عيناً وهو غنمة واحدة من كل عشرة اغنام ولا يُتقاضى شيء من بقية الحيوانات ، ثم طبق هذا القانون على اصول التلزيم · وفي سنة ١٠٤٠ أُلغي اصول التلزيم وأُخذوا يستوفون الرسم بتقدير قيمة للمواشي واستيفاء بارة عن كل قرش من قيمتها · وفي سنة ١٢٤١ أُعيد استيفاؤها عيناً · وفي سنة ١٢٥٥ عندما أُعلنت التنظيمات الخيرية كان يقدر نتاج كل دابة ، واخذت الرسوم تستوفى على نسبة عشرة في المئة من ذلك النتاج بحيث صار يستوفى عن كل رأس من الغنم والماعز اربعة قروش ، وعن الجاموس والإبل عشرة قروش · وبدأت تترقى هذه الرسوم بنسبة اسعار المنتوجات الى ان أَصبحت ثمانية قروش عن كل رأس من الضأن والماعز ، وعشرين قرشاً عن كل رأس من الإبل · وهذه الرسوم على قسمين كان قسم منها يستوفى عند العد وقسم بعد ذلك · اما القسم الذي يستوفى عند العد فهو ما كان للتجار وعابري السبيل ممن لا تعرف اماكن سكناهم · واما القسم الثاني فهو ما كان يُستوفى من الشتاء سكان القرى والعربان ·

☆☆☆

الأعشار } العشر من التكاليف الشرعية القديمة وكان يُنفق على عهد الأقطاع في تموين الجنود وزعمائهم · وقد اصبح في سنة ١١٠٠ يحال لسنة واحدة اوسنين متعددة على بعض الصيارف المتمولين · وفي سنة ١٢٥٦ اخذوا على عهد اعلان التنظيمات الخيرية يستوفون الأعشار على طريق الأمانة اي على ذمة الحكومة بمعرفة جباة خصوصيين وبعد ذلك اي في سنة ١٢٥٨ أُعيدت اصول التلزيم واخذ يباع عشر كل قضاء عن سنتين من الملتزمين · وفي سنة ١٢٦٣ تقرر اجراء معاملة الاحالة لرجال السلطنة وخدامها وبعض ذوي اليسار والسعة من التبعة العثمانية منفردين ومجتمعين لخمس سنين وذلك باخذ متوسط بدلات الثلاث السنين التي

تقدمت السنة المذكورة ، على ان يضاف على البدل المتوسط المنوه به في السنة الثانية التي تتلو سنة التلزيم واحد بالمئة وثلاثة بالمئة ، على بدل كل من السنة الثالثة والرابعة والخامسة ، بحيث تصبح الإضافة عن السنة الخامسة عشرة بالمئة ٠

ولما نشبت حرب القريم في سنة ١٢٦٩ أعيدت اصول الأمانة لضمان تموين الجيش ، وظل الحال على هذا المنوال لغاية سنة ١٢٧١ ٠ وفي سنة ١٢٧٢ رجعوا الى اصول التلزيم ايضاً فأخذت تباع اعشار القرى في مجالس الأقضية قرية قرية وفي مجالس الألوية والولايات قضاءً قضاءً على ان لاتحال أعشار لوائين لاحد الملتزمين مجتمعين ٠ ولما أعلن القانون الأساسي في سنة ١٢٩٣ أعيدت اصول الامانة ٠ وفي سنة ١٢٩٧ وضع نظام التخميس وذلك بحساب بدلات كل من سنة ١٢٨٩و١٢٩٠ و١٢٩١ و١٢٩٢ و١٢٩٣ واخذ متوسطها ، على ان يوزع ما يصيب كل قرية على حساب الدونمات ٠ وفي سنة ١٣٠١ أعيدت اصول الأمانة ايضاً ٠ وفي سنة ١٣٠٢ عادوا الى طريقة التلزيم ايضاً على اساس القرى لا القضاء او اللواء كما كان آنفاً ٠ وظل الحال على ذلك الى سنة ١٣٣٠ اي سنة اعلان النفير العام وفي خلال ذلك وضعت اصول التخمين موضع الاجراء وظلت الى سنة١٣٣٣ حتى اذا كانت سنة١٣٣٤ طبقت اصول الامانة وبعد مغادرة الحكومة العثمانية هذه الديار أعيدت اصول التلزيم ايضاً ٠ وفي سنة ١٩٢٥ م وضعت اصول التربيع وذلك باخذ متوسط بدلات كل من سنة ١٩٢١ و١٩٢٢ و١٩٢٣ و١٩٢٤ واتخاذها اساساً لوضع بدل معين على كل قرية من القرى ٠ ولم تبرح هذه الاصول معمولاً بها ٠ اما اصول جبايتها فهي تابعة لقانون الجباية حرفياً اي أصبحت تجبى على نحو ما تجبى الضرائب ٠

* * *

رسوم الجمرك ان اصل هذا الرسم يرجع الى الزكاة التي هي من جملة التكاليف الشرعية ، وكان يجبى من التجار الوطنيين على نسبة واحد من اربعين ومن التجار الأجانب على نسبة واحد بالعشرة من مجموع أموالهم ٠ وظل الحال على ذلك من اول تأسيس الدولة العثمانية الى الزمن الذي عقدت فيه المعاهدة التجارية مع الدول الغربية فأنشأوا يستوفونه على الصورة التالية :

اولاً — رسم الواردات عن البضائع التي ترد براً و بحراً الى البلاد العثمانية .
ثانياً — رسم الصادرات عن البضائع التي تخرج من البلاد العثمانية الى البلاد الاجنبية
ثالثاً — رسم التصدير عن البضائع التي تستهلك في الداخل كالدخان والأسماك .
رابعاً — رسم المرور (ترانسيت) عن البضائع التي تمر بالبلاد الأجنبية عن طريق البلاد العثمانية ولا تستهلك فيها .

وأخيراً قسمت هذه الرسوم الى قسمين داخلي وخارجي . اما الرسم الخارجي فيتقاضى وفقاً لاحكام المعاهدات التي عقدت مع الدول المجاورة بحسب العلائق التجارية . واما الرسم الداخلي فيستوفى وفقاً لاحكام المقررات الخاصة التي كانت تقررها بحسب الاحوال وعلى نسبة التعرفة المخصوصة . ولما كانت علاقة الاجانب بالتجارة الخارجية تتوقف على رخصة خاصة كسائر المسائل كان يمنح الاجانب حق تعاطي التجارة في البلاد العثمانية على انه كان ذلك بامتياز خاص بالمتجر . ولما كانت المواد التي تقضي المعاهدات بايرادها وإصدارها تذكر في تلك المعاهدات نوعاً فنوعاً أصبح ذكر تلك المواد يدل على منع سواها ، ولما زادت الصلات التجارية مع الاجانب قبلت بادئ بدء حرية التجارة الى حد محدود وبعد ذلك بدأت بالتوسع فأعطي على عهد السلطان محمد الفاتح الامتياز المعلوم للبنادقة وصادق السلطان يا.ز سليم على المعاهدة التي وقع عليها ملك مصر . وفي عام ٩٧٠ عقدت المعاهدة المعلومة مع النمسا . وفي سنة ٩٨٣ مع حكومة البندقية . وفي سنة ٩٨٤ مع حكومة النمسا ايضاً . وفي سنة ١٠٨٤ اي في سلطنة محمد الرابع عقدت معاهدة مع ملك فرنسا جاءت مؤيدة للمعاهدات السالفة التي كانت ترمي لاستيفاء رسم الكمرك على نسبة ٣ بالمئة بدلاً من الخمسة ماخلا رسم التصدير .

ولما عقدت المعاهدة الجمركية بين فرنسا وانكلترا في سنة ١٢١٦ اشتركت الحكومة العثمانية معهما بتلك المعاهدة التي كانت عبارة عن تجديد نصوص العهود القديمة . وفي سنة ١٢٥٤ عقدت معاهدة تجارية مع فرنسا كان من جملة أحكامها التوسع في معاونة التجار الفرنسيين وشركاتهم وما الى ذلك ، على ان يتناول ذلك عامة البضائع والمتاجرات وقد تضمنت هذه المعاهدة فيما تضمنته استيفاء رسم الواردات على نسبة ٥ بالمئة ورسم الصادرات ١٢ بالمئة ورسم المرور (ترانسيت) ٥ بالمئة من مجموع

قيمة البضائع والسلع وبقيت المعاملات السابقة بحالها على ان تعدل مرة في كل سبع سنين ·

ولما نشرت نظام التنظيمات الخيرية انشأوا يستوفون هذه الرسوم بطريق الامانة اي على ذمة الحكومة ثم اخذوا يحيلونها الى بعض الصيارف والملتزمين ودام ذلك الى سنة ١٢٧٤ · وفي سنة ١٢٧٥ وضع نظام خاص جامع لجميع المقررات التي قررت من بداية التنظيمات الخيرية الى ذاك العهد وجرى تطبيق ذلك على جميع ما يتقاضى منه رسم الجمرك ما خلا رسم مواد البناء والدخان والسعوط والمسكرات · وجرى في عام ١٢٧٧ و١٢٧٨ تعديل ذلك بعد عقد المعاهدات مع بلجيكا والدانيمرك وفرنسا وانكلترا وايطاليا وهولاندة والنمسا وروسيا والسويد واسبانيا واميركا ، وكان من جملة أحكام تلك المعاهدات إبلاغ رسم الواردات الى ٨ بالمئة وتنزيل رسم الصادرات الى ٨ بالمئة ايضاً على ان ينزل من اصله واحد بالمئة في كل سنة الى ان يصبح واحداً في المئة فقط · وقد اعتبر رسم المرور اثنين في المئة على ان ينزل في ثماني سنوات تبدأ من تاريخ العقد الى واحد بالمئة فقط ·

وبعد ذلك وقع التذرع كثيراً لتعديل هذه الرسوم وصورة جبايتها فلم يأت تذرعهم بثمرة تذكر بيد انه أُضيف في سنة ١٣٢٣ على رسم الواردات ثلاثة بالمئة بموافقة جميع الدول العظمى بحيث أصبح احد عشر بالمئة على ان يؤخذ خمسة وعشرون بالمئة من الزيادة التي عينت لتسديد الديون العامة وخمسة وسبعون بالمئة لتسديد ديون الولايات الثلاث الخ ·

* * *

الجمارك الشامية ووجوه نفقاتها وتوزيعها } كان محصول الرسم الاصلي الذي هو ٨ في المئة حتى يوم ١ كانون الثاني سنة ١٩٢٦ يوزع بين الدول الشامية الموضوعة تحت الانتداب الفرنسي ، وكان الرسم الاضافي ثلاثة بالمئة يدفع لحساب الدين العام العثماني · وقد صدر قرار في ٣ نيسان سنة ١٩٢٤ يقضي برفع الرسوم الجمركية من ١١ الى ١٥ بالمئة ابتداءً من شهر ايار سنة ١٩٢٤ وقضى القرار المؤرخ في ٢٣ شباط سنة ٩٢٦ بان الأموال الناتجة من تحصيل ضمائم الرسوم الجمركية

من ١ ايار سنة ٩٢٤ حتى ٣١ كانون الاول سنة ١٩٢٥ (٦٢ مليون) تؤلف مبلغاً مشاعاً يؤخذ منه ما تستلزمه الضرورة والمبالغ الخاصة لسد جميع النفقات المترتبة من الثورات التي نشبت في الدول الموضوعة تحت الانتداب · على ان يجري توزيع ذلك فيما بعد بصورة قطعية وتقرر في ٢٥ ايار سنة ١٩٢٦ رفع رسوم الواردات اعتباراً من ١ حزيران سنة ١٩٢٦ الى ٢٥ في المئة ·

ومازال محصول الرسم الاصلي ١٥ في المئة المخصص للدين العام باقياً الى أن يجري اتفاق مع حاملي الاسهم بشأن عملة الدفع ·

ويتضح من تعليمات المستشار المالي في المفوضية العليا انه يمكن ان يلاحظ لعام ١٩٢٧ ما يلي :

١٢٥٠٠٠٠٠٠	فرنك محصول الجمرك من الوسم الاصلي ١٥ في المئة ·
٦٠٠٠٠٠٠٠	فرنك ضمائم ١٠ في المئة ·
١٨٥٠٠٠٠٠٠	المجموع

وتوزع كما يلي :

٨٥٠٠٠٠٠٠	فرنك لدائرة الدين على ان تجري التنزيلات التي يقبل بها حاملو الأسهم ·
٥٠٠٠٠٠٠٠	فرنك نفقات جيش الشرق ·
٥٠٠٠٠٠٠٠	فرنك يقتضي توزيعها بين الدول ·

ومن الممكن ان ينزل الرسم ٢٥ في المئة لانه اذا كان قد طبق هذا الرسم لاحوال استثنائية فلا يكون اليوم الا عثرة في سبيل تنمية اقتصاديات البلاد ·

* * *

ضريبة التمتع { يرجع تاريخ إحداث هذه الضريبة الى قسمين : القسم الاول ما أُحدث قبل التنظيمات الخيرية وكان اصلها رسم الاحتساب الذي أحدثه السلطان محمود سنة ١٢٤١ وهو عبارة عن ضريبة تؤخذ باسماء متنوعة تسمى يومية الدكاكين وشهرية الدكاكين ورسم المأكولات والمستهلكات والذهب والفضة والجوهرات والمنسوجات وما شابه ذلك ·

ثم بناءً على الامر السلطاني الصادر في ١٦ جمادى الاولى سنة ١٢٥٤ أُلغي رسم الاحتساب ونشر نظام مؤرخ في ١٩ ذي القعدة سنة ١٢٥٤ يقضي بتوزيع التكاليف على الاهالي عن طريق تعيين مقدار الأملاك والارضين والحيوانات ، وربح التجار والأصناف السنوي ، غير انه لم توضع ضريبة مخصوصة على الأرباح السنوية بل وضعت موحدةً على الثروة الذاتية المقدرة لكل فرد على نسبة أملاكه وأراضيه وأمواله وحيواناته وأرباحه ٠

والقسم الثاني ما وضع بعد التنظيمات الخيرية وظلت هذه الضريبة تعد من الضرائب الموحدة من سنة ١٢٥٥ — ١٢٧٥ وقد أصبحت اذ ذاك تؤخذ على نسبة ثلاثين بالألف من مجموع الربح السنوي ٠ وبناءً على القرار المؤرخ في ٥ ربيع الاول سنة ١٢٩٧ الصادر بشأن الاملاك والاغنام والاعشار بلغت اعتباراً من ذلك التاريخ الى اربعين في الالف ٠ وفي عام ١٣٠٣ أبلغت الى خمسين وشملت أصحاب الرواتب والمشاهرات ايضاً ، ولما كان الاجانب غير مرخص لهم بتعاطي التجارة داخل البلاد العثمانية كان هذا الرسم محصوراً بالعثمانيين لا يتناول احداً من الاجانب ٠ ولما جرى الاتفاق على قبول إقامة الاجانب في البلاد العثمانية وتعاطيهم التجارة أُلفت لجنة مختلطة في نظارة الخارجية في سنة (١٨٨٠ م) ونظمت لائحة تتضمن حمل الاجانب على اداء الضريبة المذكورة أُسوة بالعثمانيين ٠ فقاوم سفراء الدول هذه الفكرة مقاومةً حالت دون تطبيقها الا على رعايا صربيا وبلغاريا ورومانيا والجبل الاسود واليونان وايران ٠

وفي عام ١٣٢٣ أُحدث نظام خاص يقضي باستيفاء الضريبة المذكورة على قسمين: مقطوع ونسبي وخصصت به من يجب تكليفه بالضريبة المقطوعة ومن يجب ان تتقاضى منه الضريبة النسبية من ارباب التجارة والصناعة ٠ وفي عام ١٣٣١ أُلغت القانون السابق وأحدثت قانوناً جديداً أُلغت به الامتيازات الاجنبية بتمامها فقضي على جميع رعايا الدول اداء الضريبة المذكورة أُسوة بالعثمانيين بدون تفريق بينهم على ان تطرح هذه الضريبة على ثلاثة اوجه نسبي ومقطوع ومتحول ٠

٭ ٭ ٭

الضريبة النسبية { يحقق هذا القسم من الضريبة بالنظر الى الايراد غير الصافي المقدر للمحل الذي يشغله المكلف وجعل هذا القسم على ستة أنواع كل منها يحتوي على قسم من أنواع التجارة والصناعة ومقدار نسبة الضريبة التابعة لها . فالنوع الاول تدخل فيه اصحاب المصارف ونسبة ضريبتهم عشرون بالمئة من الايراد غير الصافي المقدر للعمل المتخذ مصرفاً . والنوع الثاني يحتوي على شركات النقل والمشتغلين بالاوراق المالية والمتوسطين في إجراء البيع والشراء والمتعهدين والاطباء والمهندسين ووكلاء الدعاوي وأمثالهم من اصحاب الصناعات والاعمال العلمية ونسبة ضريبتهم خمسة عشر في المائة من الايراد المذكور .

ويشمل النوع الثالث التجار البائعين بالجملة والصيارفة والخياطين و باعة الاقمشة وخاطتها و باعة الاحجار الثمينة وأمثالها ونسبة ضريبتهم ١٢ في المائة . والنوع الرابع يتناول بائعي الألبسة والأقمشة والأدوية والعطور وأشباه ذلك من عامة المعمولات والمصنوعات ونسبة ضريبتهم عشرة في المائة . والنوع الخامس يدخل فيه ارباب الصناعة كالنجار والحداد والخياط ومن يبيع حبوباً ومأكولات واخشاباً واشياء حديدية واصحاب الفنادق والقهاوي والألعاب وامثالها ونسبة ضريبتهم ثمانية في المئة .

* * *

الضريبة المقطوعة { يحتوي هذا القسم على من لم يتخذ محلاً مخصوصاً لممارسة الصنعة من متعهدين وأطباء ومهندسين وأمثالهم فاعتبرت ضريبتهم مقطوعة وجعلت خمسة اقسام باعتبار نفوس البلدة فقط . فالنازلون في العاصمة من القسم الاول وضريبتهم ٣٠٠ قرش والنازلون خارجها من الصنف الثاني مكلفون بـ ٢٥٠ والثالث بـ ١٥٠ والرابع ٧٥ والخامس ٥٠ قرشاً .

وكذلك الحال في ذوي الصناعة من معمارين ورؤساء اشغال وعملة قد كلف كل منهم حسب بلده ومكانة صناعته بمقدار معلوم ومسطر في جدول مخصوص من القانون المذكور تبتدئ ضريبتهم من خمسة عشر قرشاً الى ثلاثمائة قرش .

* * *

الضريبة المتحولة } ان هذه الضريبة جعلت قسمين القسم الاول يطرح على أصحاب المحال التجارية والصناعة لاستفادتهم من خدمة العاملين عندهم والمعاونين فتبتدئ الضريبة من ستة قروش الى مائة قرش بحسب صنوف البلدة ونوع التجارة وعمل العامل ، اما اصحاب الرواتب فقد كلفوا بموجب المادة السادسة بثلاثة قروش في المئة من مجموع ايرادهم السنوي ان كان زائداً عن الفي قرش ديناري ومن لم يزد ايراده عن ذلك فهو مستثنى من الضريبة . والقسم الثاني يطرح على حسب الوسائط العائدة لإجراء الصنعة كعجلات الركوب والنقل والحيوانات والآلات التجارية وجعلت درجات باعتبار صنعة البلد ونوع تلك الوسائط وكذلك الشركات فقد كلف كل منها بنسبة معينة في المادتين الرابعة والخامسة وقد ألفت لجان للنظر في الاعتراضات بدايةً واستئنافاً وتمييزاً ، وبقي معمولاً به من السنة المذكورة الى يومنا هذا . اما التعديلات التي طرأت عليها من ذلك التاريخ حتى الآن فلم يكن من شأنها ان تغير هذه الأسس ، بل انها محصورة في بعض المعاملات الفرعية التي لا علاقة لها بهذا البحث انتهى كلام السيد الحسامي .

* * *

الرأي في الجباية والنفقات } لاجرم ان الأموال اذا جبيت كما تجبى في البلاد المتمدنة بالرفق ، و بحسب طاقة المكلفين ، يتوازن مع الزمن الدخل والخرج ، بل قد يزيد الاول على الثاني اذا وقع الاقتصاد في وجوه النفقات ، كأن تكتفي الشام بما تخرجه لها ارضها و يفيض عليها ما تصرفه على الخطوط الحديدية ورصف الطرق وتعبيدها في المدن وبين القرى ، وعلى الاسلاك البرقية والكهربائية والهاتفية ، وتجفيف البطائح واصلاح طرق الري ، واقامة معالم العلم ودور التهذيب .

وكل مملكة تسد عجزها بالاقتراض ، ولا تستثمر بايدي رجالها ما في سطحها وبطنها من الخيرات ، يكون مصيرها الى الاستعباد الاقتصادي ، وهو ابشع ضروب الاستعباد في هذا العصر . وما لا تستطيع ان تعمله لنفسك ليس في مكنة غيرك ان يحمله اليك . وكل امة لا تفرض الجباية بالعقل ، ولا تجبيها بطرق العدل ، ولا تبذل على المرافق العامة منها الفضل ، تنحل بل تضمحل .

الاوقاف

منشأ الوقف

من أهم القوانين الاجتماعية التي أثرت في عمران هذه الديار وأخلاق اهلها قانون الوقف ، وهو حبس العقار او الارض عن البيع وحصر مغلها في يد شخص او أشخاص على مقصد معين . كان الوقف معروفاً عند الرومان ومنه الخاص والعام وكذلك هو معروف عند الامم المسيحية لعهدنا وكان اهل الجاهلية من العرب لا يعرفونه . قال الشافعي : لم يحبس اهل الجاهلية فيما علمت وانما حبس اهل الاسلام . فاستنبط الرسول صلوات الله عليه الوقف لمصالح لا توجد في سائر الصدقات ، فان الانسان ربما يصرف في سبيل الله مالاً كثيراً ثم يفنى فيحتاج اولئك الفقراء تارةً أخرى ، ويجيء أقوام آخرون من الفقراء فيبقون محرومين ، فلا أحسن ولا انفع للعامة من ان يكون شيءٌ حبساً للفقراء وابناء السبيل ، تصرف عليهم منافعه ويبقى اصله على ملك الوقف . وقد وقف رسول الله بعض ما ظهر عليه من الارضين فلم يقسمها وقد قسم بعض ما ظهر عليه ، ووقف ثمانية عشر سهماً من خيبر لمن نزل برسول الله صلى الله عليه وسلم من الناس والوفود وما نابه من نوائب الناس . وفي صحيح مسلم ان عمر أصاب ارضاً بخيبر فأتى النبي صلى الله عليه وسلم يستأمره فيها فقال : يا رسول الله اني أصبت ارضاً بخيبر لم أصب مالاً قط هو أنفس عندي منه فما تأمرني به ، قال : ان شئت حبست اصلها وتصدقت بها . قال : فتصدق بها عمر انه لا يباع اصلها ولا يبتاع ولا يورث ولا يوهب قال : فتصدق عمر في الفقراء وفي القربى وفي الرقاب وفي سبيل الله وابن السبيل والضيف لا جُناح على

من وليها ان يأكل منها بالمعروف ويطعم فقيراً غير مشمول فيه ، وفي رواية غير متأثل مالاً . قال بعض الفقهاء : انما وقف عمر بن الخطاب رضي الله عنه سواد الكوفة لانه ليس مما حازه المسلمون حين ظهروا عليه ، ولو كانوا حازوه وجمعوا ما فيه من السبي والأموال كان غنيمة ليس للامام ان يقفه حتى يخرج منه الخمس لله ثم يقسم اربعة أخماسها بين الذين حضروا فتحه .

وذكروا ان احد شهداء أُحد واسمه مخيريق عهد الى الرسول قبل قتله ان يضع أمواله حيث أراد فحبسه على سبعة حوائط وهي كروم النخل في المدينة فأصبحت الأموال المحبوسة من ذاك العهد لا تشرى ولا تورّث ولا توهب واخذ بعض الناس يحبسون أموالهم على أعقابهم وأعقاب أعقابهم . وغزوة أُحد كانت في السنة الثانية للهجرة وغزوة خيبر في السابعة فيكون وقف مخيريق اول وقف في الاسلام . وقد تصدق النبي بسبعة حوائط في المدينة ، ووقف الصحابة وغيرهم اوقافاً . قال زيد بن ثابت : لم نر خيراً للميت ولا للحي من هذه الحُبُس الموقوفة ، اما الميت فيجري اجرها عليه ، واما الحي فتحبس عليه ولا توهب ولا تورث ولا يقدر على استهلاكها .

✲ ✲ ✲

تعريف الاوقاف وطرقها } قالوا ان ولاية الاوقاف من باب التعاون على البر والتقوى ، ولا ينهض بحملها الا الأمين القوي ، فان أبوابها متسعة ، وأربابها متنوعة ، وشعابها متفرعة ، فانهم أصناف مختلفون ، وطوائف موصوفون ، فمنهم الأشراف المتصلون بالرسول ومنهم الهاشميون والعباسيون والعلويون والحسنيون والحسينيون وغيرهم ، ومنهم الفقهاء الشافعية والحنفية والمالكية والحنابلة وغيرهم ، ومنهم الصوفية والفقراء والقراء والاضراء والاسرى وابناء السبيل والمرضى والمجانين ، ومنها تكفين الموتى واصلاح أسوار الثغور وقناطر الطرقات وعمارة المساجد ومصابيحها وأئمتها ومؤذنوها وقومتها ومصالح المدارس واقامة وظائفها ، وكذلك الرُبط والخوانق والمشاهد ومواطن العبادة الى ماسوى ذلك من وقف على تعليم اليتامى الخط ، ووقف على من انكسرت له آنية لا يقدر على عوضها وغير هذا من أبواب الطاعات وجهات الخيرات ، فهذه الوقوف العامة جميعها على اختلاف مصارفها وتباين

جهاتها مشتركة في ان المقصد بها التقرب الى الله تعالى فانها معدودة من الصدقات ، داخلة في باب القربات ، فيجب اتباع شروط واقفيها والعمل بها .

وما برحت الاوقاف تنمو في بلاد المسلمين بنمو الثروة والتبسط في مناحي الملك ، وامتداد السلطة بامتداد الفتوح ، حتى تكاملت اجزاؤها ، وتكاثرت موادها ، في صدر الخلافة العباسية وخصوصاً على عهد الخليفة المأمون فانه وقف الاوقاف الكثيرة في العراق وغيرها على العلماء ودور العلم والجوامع والمباني العامة ، لتبقى دائمة الانتفاع على الدهر وتكفي العلماء مؤونة قرع أبواب الملوك والامراء ، والمحاويج واصحاب الزمانات والعاهات من التكفف والاستجداء ، فمن ثم كثرت الأوقاف النافعة كثرتها في الولايات المتحدة الاميركية لهذا العهد ومعظمها على دور العلم والبائسين .

* * *

اول اوقاف الشام وسوء استعمالها واول وقف حبس في بلاد الشام فيما بلغنا اراضي بطارقة الروم فيها ممن فروا من جيوش الاسلام او قتلوا في الحرب وكانوا قواد جندالروم ، فأصبحت أملاكهم شاغرة فأوقفها الفاتحون على بيت المال ، وكان العمال يقبلونها اي يضمنونها ويضيفون دخلها الى بيت المال ، وكان من العمال من يحبس القرى على مصالح المدينة ومرافقها ، قاصداً بذلك عمارتها ، وكان من البلاد المفتحة عنوةً ما ليس يملكه السلطان فيباع « لانه فيء للمسلمين يقوم مقام الوقف على جميعهم » قال القاضي ابو يعلى في الاحكام السلطانية : ان ارض السواد صيرها عمر وقفاً بنفس الفتح ، والارض لا تصير وقفاً حتى يقفها الامام ، فعلى هذا يجوز له بيعها اذا رأى بيعها أصلح لبيت مال المسلمين ، ويكون ثمنها مصروفاً في عموم المصالح وفي ذوي الحاجات من اهل الفيء واهل الصدقات . وقد قال احمد في رواية عبد الله : الارض اذا كانت عامرة هي لمن قاتل عليها الا ان يكون وقفها من فتحها من المسلمين كما فعل عمر بالسواد فاعتبر ايقافه .

ومن أحسن القوانين الصريحة عند المسلمين أحكام المواريث فانها تقضي على المورث ان لا يوصي بغير الثلث من ماله في وجوه المبرات وان يبقي الثلثين لوارثيه يستمتعون به استمتاعه من قبل ، ولذا لم يكن الا في الوقف مندوحة في خرق هذه

القاعدة ، فتوسع القوم فيها لا سيما ما كان منها اهليًا حتى كاد ينقلب الخير الى شر ومحال ايجاد الخير المحض . فان الواقف يقف املاكه او شطراً منها لتكون من بعده وسيلة الى التعارف والتعاطف بين الذراري والأعقاب ، فما هو الا جيل او جيلان حتى تغدو اوقافه ذريعة للتقاطع والتدابر ، فتقوم نائرات الخصومات بين الأمرات ، للاستئثار بادارة الوقوف واقتسام مَغلها ، خصوصاً عند كثرة المستحقين وقلة الانصبة ، وربما تكاثرت ذرية الواقف بعدُ حتى يصيب الفرد من الدخل بضعة قروش . ولا تسل كيف تكون حال تلك العقارات والارضين الموقوفة من العمران ، ففي تعدد الموقوف عليهم تعدد للمناحي وتباين في الآراء . وربما استأثر بالوقف فرد واحد يكون أشد المستحقين مراساً ، فيغصب حقوق الآخرين . من اجل هذا ترى الغاصبين وفي مقدمتهم المتولي او الناظر يقضون حياتهم على دكات المحاكم الشرعية مدافعين ذوي الحقوق بالحق والباطل ، حتى جرى في حكم الأمثال قولهم « نصف الاوقاف موقوفة على الحكام » .

* * *

شرط الواقف وخراب أوقاف الشام بالغ المتأخرون في احترام الاوقاف اهلية كانت او عمومية حتى قالوا : ان شرط الواقف كنص الشارع ، ولو كان فيما هو ظاهر ضرره ومكروه عند العارفين . وعُدت الاوقاف على طول الزمن من أعظم القُرُبات حتى قالوا انّ من لم يمت عن وقف فكأنما مات ميتةً جاهلية . وقد ردّ ابن قيم الجوزية قول من قال ان شرط الواقف كنص الشارع فقال : ان شرط الله أحق وأوثق ، بل يقولون ههنا نصوص الواقف كنصوص الشارع وهذه جملة من أبطل الكلام ، وليس لنصوص الشارع نظير من كلام غيره ابداً ، بل نصوص الواقف يتطرق اليها التناقض والاختلاف ، ويجب إبطالها اذا خالفت نصوص الشارع وإلغاؤها ولا حرمة لها حينئذ البتة . ويجوز بل يترجح مخالفتها الى ما هو أحب الى الله ورسوله منها وأنفع للواقف والموقوف عليه . وقال علماء الحنفية ان قولهم شرط الواقف كنص الشارع لا في وجوب العلم به والاثم بتركه بل بالاخذ بمفهومه وانه لا يستحق المعلوم اذا خالفه .

وقال ابن القيم ايضاً عند كلامه على الحيل الجديدة في مسائل الوقف : ومن الحيل الباطلة تحيلهم على ايجار الوقف مائة سنة مثلاً ، وقد شرط الواقف ان لا يؤجر اكثر من سنتين او ثلاثاً ، فيؤجر المدة الطويلة في عقود متفرقة في مجلس واحد ، وهذه الحيلة باطلة قطعاً ، فانه انما قصد بذلك دفع المفاسد المترتبة على طول الاجارة فانها مفاسد كثيرة جداً ، وكم قد ملك من الوقوف بهذه الطرق وخرج عن الوقفية بطول المدة ، واستيلاء المستأجر فيها على الوقف هو وذريته وورثته سنيناً بعد سنين وكم فات البطون اللواحق من منفعة الوقف بالايجار الطويل ، وكم اوجر الوقف بدون اجارة مثله لطول المدة وقبض الاجرة وكم زادت اجرة الارض او العقار أضعاف ما كانت ولم يتمكن الموقوف عليه من استيفائها . الى ان قال : اللهم الا ان يكون فيه مصلحة الوقف بأن يخرب و يتعطل نفعه فتدعو الحاجة الى ايجاره مدة طويلة يعمر فيها بتلك الاجرة ،- فهنا يتعين مخالفة شرط الواقف تصحيحاً لوقفه واستمراراً لصدقته ، وقد يكون هذا خيراً من بيعه والاستبدال به ، وقد يكون البيع والاستبدال خيراً من الاجارة والله يعلم المصلح من المفسد اه .

و بهذا النقل رأيت ان الوقف يصح بيعه واستبداله اذا كان هناك مصلحة ، وان تلاعب المتلاعبين أدى الى تبدل الاوقاف وجعلها حرة تباع وتشرى منذ المئة الثامنة او من قرن قبله ، ولولا ذلك لأصبحت هذه البلاد الا جزءاً قليلاً منها أوقافاً كلها بمرور الايام ووقفت بالوقف حركة العمران وقوفاً هو الجمود بعينه . وفي الجمود الموت والفناء . ولكن المولى تعالى أرفق من ان يسلب منافع الارض مخلوقاته ، و يجعلها خاصة بفئة معينة لا تنقطع عنهم مادتها ، ولولا ذلك لكان ابن الغني غنياً على الدهر وابن الفقير كذلك ، وابطل هذا النظام الطبيعي لذي لا تقوى القوانين على تغييره .

قالوا ان الامير جكم العرضي المتوفى سنة ٨١٠ الذي تسلطن بحلب والشام أخرب غالب البلاد الشامية ، وأخرج اوقاف الناس في ديار الشام وفرقها أقطاعات بمثالات على جماعته . وفي سنة ٨١٢ أخرج الملك شيخ الاوقاف التي بدمشق وجعلها أقطاعات وفرقها بمثالات على عسكره . وفي ايام الملك الناصر فرج بن برقوق المتوفى سنة ٨١٥

خرجت غالب أوقاف الناس في البلاد الشامية والحلبية . فاستدللنا بذلك ان الاوقاف لم تلزم حالة واحدة ، والرأي في تعطيلها لصاحب القوة اياً كان .

كان اكثر العمال وأصحاب الأموال في عصور المصادرات يقفون الاوقاف على الجوامع والمدارس والرُبط والمستشفيات وغيرها فراراً باموالهم من مصادرات الملوك اذا غضبوا عليهم ونحوهم عن وظائفهم ، او قضوا نحبهم فطمعوا في وَفرهم ، وهذا كان الشأن مع الاقوياء والامراء وارباب الاقطاعات . ومن الاوقاف مامنحه الملوك بعض عمالهم وحاشيتهم ليستمتعوا بها ما داموا أحياءً على سبيل الاقطاع فما عتّم المنعَم عليهم ان جعلوا ذاك العقار او تلك القرية بواسطة القضاة واهل الحكم اوقافاً شرعية يتناولها أعقابهم من بعدهم فتتوزع عليهم بعد ان يكونوا ألفوا الاتكال ، وانقطعت أيديهم عن الاعمال ، الا من بسطها لتناول ريع اوقافهم الحقيرة . واذا كان بعض الواقفين توقعوا من اوقافهم ان تقي أبناءهم وأحفادهم عوادي الفاقة ، فان اعتماد انسالهم على ما خلفه لهم آباؤهم قد يرميهم فيما كانوا يحاذرونه من الفقر ، وذلك لتوزع الوقف بتعدد الأنصبة ، ولان المستحقين لمغل الوقف يعتمدون على ريع اوقافهم التي تأتيهم بلا عمل غالبًا ، وينسون ان الثروة هي العمل وان من لا يعمل لا يثري ولا يتنعم سنة الله في خلقه .

* * *

ولقد تفنن القوم في أنواع الاوقاف حتى لا يكاد يخطر ببالك خاطر في الوقف الا وتجد من سبقك اليه مما أوشكت ان تكون معه معظم بلاد الاسلام موقوفة وكاد يصبح نصف اراضي المملكة تقريبًا من نوع الوقف ، وكانت ثلاثة ارباع الاملاك في البلاد العثمانية وقفًا على الجوامع والمساجد . والاحباس والاوقاف عامة وخاصة فالعامة هي ماجعل عينها وريعها بدون قيد ولا شرط وقفًا على أعمال الخير والبر او على المصالح العامة . والخاصة هي التي جعل واقفوها حق الاستمتاع بريعها الى وارثيهم مباشرةً ولا تؤول الى الاوقاف الا بانقراض نسل الواقف . قلنا ومن العادة في معظم البلاد الاسلامية ان يشترط الواقفون في أواخر صكوكهم شروطاً منها ان الوقف اذا انحل بفقد الذرية

(التفنن في الاحباس والتلاعب بالموقوف)

وانقراض المستحقين يعود بجملته الى الحرمين الشريفين ومن الناس من يقفون عليهما مباشرةً فلهذا كثرت اوقافهما كثرة زائدة ٠

لما ولي علي بن عيسى الوزارة للمقتدر العباسي فشت صدقاته ومبراته ووقف وقوفاً كثيرة من ضياع السلطان وأفرد لها ديواناً سماه ديوان البر جعل حاصله لاصلاح الثغور وللحرمين الشريفين ٠

وفي صك وقف الملك سيف الدين بلبان لزور بالحسين في شيزر من عمل حماة سنة اربع عشرة وسبعمائة : « انه وقفه وقفاً صحيحاً شرعياً على نفسه الزكية الطاهرة الرضية مدة حياته أحياه الله الحياة الطيبة ثم من بعده على أولاده ذكوراً واناثاً على الفريضة الشرعية للذكر مثل حظ الانثيين ثم على نسله وعقبه قرناً بعد قرن وجيلاً بعد جيل على الشرط المزبور على ان من مات منهم عن ولد او ولد ولد اونسل وعقب كان نصيبه لولده ثم لولد ولده ثم لنسله وعقبه يقدم الاقرب فالاقرب ومن مات ولا ولد له ولا نسل ولا عقب كان نصيبه للاقرب فالاقرب لمن هو في درجته وذوي طبقته فاذا انقرضوا باجمعهم وخلت الارض منهم ذكرهم وانثاهم رجع هذا الوقف باجمعه على الفقراء والمساكين والايتام والأرامل والمنقطعين المجاورين بالحرمين الشريفين بمكة والمدينة الطيبة ٠٠٠ » وشرط ان لا يؤجر جميعه ولا شيء منه في عقد واحد اكثر من ثلاث سنوات ولا يستأنف عقد حتى تنقضي مدة عقد الاول ٠ وعلى هذا جرت عادة الواقفين باتباع هذه الشروط وسطروا وقفياتهم عليه ٠ ومن الوقفيات الغريبة التي اطلعنا عليها حجة نقلت حوالى المئة العاشرة عن حجة كتبت سنة ثمان وسبعمائة للهجرة جاء فيها ان « الست الجليلة صالحة خاتون ابنة الامير الكبير صلاح الدين بن بهلوان ابن الامير الكبير شمس الدين الاكري الآمدي وقفت وحبست وابدت ، في صحة منها وسلامة وجوازامرها ، جميع الضياع الخمس المتلاصقات المعروفات بوادي الذخائر عمل دمشق المحروسة وتعرف احداهن بالبويضا والثانية بالبريصا والثالثة بالحميرا والرابعة بديرعطية والخامسة بالحمرا » وقد تغيرت معالم هذا الوقف ولا يعرف بهذه الاسماء غير ديرعطية والحميرا في تلك الجهة وانتقلت القريتان الى ايدٍ أُخرى ٠

وتفنن الواقفون في صدقاتهم ومبراتهم في الشروط التي شرطوها ، وفي كتاب

وقف الوزير لالا مصطفى باشا ووقف زوجته فاطمة خاتون بنت محمد بك بن السلطان الملك الاشرف قانصوه الغوري ، وكتب الاول سنة اربع وثمانين وتسعمائة والثاني سنة اربع وسبعين وتسعمائة ، مثال من هذا التفنن . ووقف الاول على منزل في قرية القنيطرة للمترددين بين مصر والشام وزائري القدس ومشهد الخليل وجامع قرية الشعراء من عمل القنيطرة ومكتب على الصبيان وعمارة على الضيفان الى غير ذلك من ضروب البر ، وفي هذا الكتاب كلام على المتولي ووظيفة الواقف وأولاده والبنات منهم او انقراضهم ، وجباة الوقف ووظيفتهم وخطيب الجامع والامامين ورئيس الحفاظ والقراء والمؤذنين ووظيفة ثلاثين قارئاً ومفرّق الاجزاء ومن يقرأ سورة يس وعم والنصر وتبارك ومعلم الكتاب وخليفته والمبخر ، والمشروط لثمن القناديل والزيت ووظيفة الشعال والبواب والقيم والكناس والفراش ومعاونه والبواب بالحوش ، وشيخ العمارة ونقيب اللحم والخبز ووكيل خرج العمارة والكيلاردار ومعاونه وحافظ الغلال والخباز وتلميذه والطباخ وتلميذيه ومن يغسل الصحون وينقي الارز ودقاق الحنطة والبناء والبستاني ومصلّح الصحون وكناس منازل المسافرين والذاكرين في مسجد القنيطرة والمؤذنين بجامع الأُموي بدمشق ، والمشروط لحصير المكتب بالقنيطرة ، ووظيفة من يرمم الموقوفات ورئيس الشواة ، وشرط الواقف في الاطعام ومدة إقامة المسافرين الى غير ذلك من الشروط والقيود ما لا يصدر الا عن أُناس ذاقوا طعم الحضارة وأُشربت نفوسهم محبة الخير . ولهذا من الامثال في البلاد مئات والوف وقد بلغ ريع الاوقاف التي استصفتها الحكومة في الشام وأُدخلتها في موازنتها بضع مئات الالوف من الليرات وقد اكل اكثر منها ولو صرفت على ما وضعت له لما بقي في القطر جاهل ولا معوز الا قليلاً . وفي وقف تكية السلطان سليمان بدمشق المؤرخة سنة ٩٦٤ غرائب من شروط البر مالا يخطر في الفكر . منها إطعام ثمانمائة فقير في كل غدٍ وعشية وأن يكون الخازن على غلاله حفيظاً فظاً غليظاً حتى لا يني في توزيع الغلال وأخذها منه . وكان الواقفون يعينون على الاكثر المبالغ التي تعطى للمباشرين لخيراتهم من العلماء وغيرهم ؛ كما عينوا نوع الصدقات ومقدارها ففي كتاب وقف المدرسة الدلامية بدمشق ان صاحبها رتب بها اماماً وله من المعلوم مائة درهم ، وقيّماً وله مثل

الامام ، وستة انفار من الفقراء الغرباء المهاجرين لقراءة القرآن ولكل منهم ثلاثون درهماً في كل شهر ، ومن شرط الامام الراتب ان يتصدى لاقراء القرآن للمذكورين وله على ذلك زيادة على معلوم الإمامة عشرون درهماً وستة ايتام بالمكتب الذي على بابها ولكل منهم عشرة دراهم في كل شهر ايضاً . وقرر لهم شيخاً وله من المعلوم في الشهر ستون درهماً ، وعاملاً وله من المعلوم كل سنة ستمائة درهم ، ورتب المرتب في كل عام مثلها ، وللسبع ولقراءة البخاري والتواريخ مائة درهم ، ولارباب الوظائف خمسة عشر رطل من الحلوى ، ورأسي غنم أضحية ولكل من الايتام جبة قطنية وقميص ... وتاريخ هذا الوقف ٨٤٧ هـ .

ومن غريب الاوقاف وأجملها قصر الفقراء الذي عمره في ربوة دمشق نور الدين محمود بن زنكي . فانه لما رأى في ذلك المتنزه قصور الاغنياء عزّ عليه ان لا يستمتع الفقراء مثلهم في الحياة فعمر القصر ووقف عليه قرية داريا وهي أعظم قرى الغوطة وأغناها . وفي ذلك يقول تاج الدين الكندي :

ان نور الدين لما ان رأى … في البساتين قصور الاغنيا
عمّر الربوة قصراً شاهقاً … نزهةً مطلقةً للفقرا

وذكر القرماني ان داريا كان وقفها لعامة فقراء دمشق تفرق عليهم غلاتها ، وما برحت كذلك وقفاً الى القرن الحادي عشر كما قال كاتب چلبي .

ولقد أخر الاستكثار من الاوقاف سير الشرق في محجة الترقي ولا يزال مؤخراً لها وكم في البلاد من آثار ودور وقصور ومحال عامة هجرت وتعطلت بضياع أوقافها وكثرة المتنازعين عليها ، وكان من الاوقاف ان اضرت بالجباية التي تصرف في مصالح الدولة قال بلوك : ان العقار الموقوف على الاعمال الخيرية عند المسلمين لا يعفى من الضرائب فقط بل انه لا يباع ، وهو امتياز انتفع به كثير من رؤساء البيوت واستخدموه في تدبير ثرواتهم ، ولذلك كثرت الاوقاف كثرة زائدة فأضرت كل الضرر بالمصلحة العامة ، وذلك لان إعفاء الاحباس من الخراج يسلب الحكومة جزءاً مهماً من ريعها وارتفاعها . وحظر بيع الوقف يعبث بريعه على وجه الاجمال ، لان اموال الاوقاف وعقاره لا تستثمر استثماراً جيداً .

ولقد شدد الواقفون في شروط أوقافهم خصوصاً اذا كان عليها مسحة الاوقاف المسبلة على المصالح العامة ، ومع هذا انتهبتها أيدي الضياع ، وسطت على ريعها وأعيانها مخالب السارقين والمزورين . وهذه مدينة دمشق كان في واديها في القرن التاسع زهاء الف وخمسمائة مسجد وجامع ، وليس فيها اليوم مائتان وخمسون ، وكان فيها أوائل القرن العاشر ثلاثمائة وعشرون مدرسة ورباط وخانقاه وتكية ومستشفى وليس فيها اليوم من كل ذاك الإرث القديم خمس مدارس وربط يصح ان يطلق عليه اسم مدرسة او رباط اللهم الا من باب التجوز ، وقد بدلت أعيانها كلها واختلست أحباسه ، ومنها ما لا تزال قائمة أوقافه مزبورة على أحجار أبوابها حتى الساعة تقرأ بلسان عربي مبين ، على كثرة ما بدل المبدلون وتلاعب المتولون والمستحقون ، وهكذا قل عن مدارس القدس فانا اكثرها مما عبث به النظار والمتولون ومثل ذلك قل في مدارس حلب وهي تعد بالعشرات كمدارس العاصمة وربطاتها وزواياها وجوامعها فانها أصبحت وأوقافها أثراً بعد عين ولم يكتب البقاء الا لبضع منها .

* * *

اوقاف نورالدين وصلاح الدين ومن تقدمها وخلفها	راجت أسواق الاوقاف على عهد صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله وآل

بيته ، فان حاشيته وأولاده اكثروا من أعمال الخير اقتداءً به حتى وقف عبيد دولته ورقيقاته وأبناؤه وأحفاده وبناته اوقافاً جمة على الخيرات في بلاد الشام وغيرها . وكان ريع اوقاف نورالدين في الشام سنة ٦٠٨ تسعة آلاف دينار صورية كل شهر ليس فيها غير ملك صحيح شرعي ظاهراً و باطناً .

وفي الروضتين تقدم نور الدين باحصاء ما في محالّ دمشق فأناف على مائة مسجد فأمر بعمارة ذلك كله وعين له وقوفاً . وقد وقف نور الدين وتصدق في سبيل الخيرات ، ووجوه البر والصدقات ، ماتقدير ثمنه مائتا الف دينار ، وتقدير الحاصل من ارتفاعه في كل سنة ثلاثون الف دينار ، من ذلك ماوقفه على المدارس الحنفية والشافعية والمالكية والحنبلية وأئمتها ومدرسيها وفقهائها ، وما وقفه على دور الصوفية والرُّبط والجسور والبيمارستانات والجوامع والمساجد والأسوار ، وما وقفه على أبناء السبيل في

طريق الحجاز ، وما وقفه على فكاك الأسرى وتعليم الايتام ، وقصر الغرباء وفقراء المسلمين ، وما وقفه على الأشراف العلويين والعباسيين ، وما ملكه لجماعة من الاولياء والغزاة والمجاهدين . هذا عدا ما أنعم به على اهل الثغور من أملاكهم فانه يضاهي هذا المبلغ وزيادة . ولهم أوقاف على فكاك الأسرى ومنها وقفان سجلا على الحجر بالحرف الكوفي في مدينة بصرى في حوران تاريخ احداهما سنة ٥٦١ ووقف جاولي اربعة حوانيت ووقف آخران فرناً وداراً على من لا يكون له اهل ولا يقدر على فكاك نفسه .

قال ابن جبير من اهل القرن السادس عند كلامه على مشاهد دمشق : ولكل مشهد من هذه المشاهد اوقاف معينة على بساتين واراض بيضاء ورباع ، حتى ان البلد تكاد الاوقاف تستغرق جميع ما فيها ، وكل مسجد يستحدث بناؤه او خانقة يعين لها السلطان اوقافاً تقوم بها وبساكنيها الملتزمين لها ، وهذه ايضاً من المفاخر المخلدة ، ومن النساء الخواتين ذوات الأقدار من تأمر ببناء مسجد او رباط او مدرسة وتنفق فيها الأموال الواسعة وتعين لها من مالها الاوقاف ، ومن الامراء من يفعل مثل ذلك . وذكر ابن بطوطة المتوفى سنة ٧٧٧ في رحلته كلاماً يقرب من كلام ابن جبير قال : والاوقاف بدمشق لا تحصر أنواعها ومصارفها لكثرتها ، فمنها أوقاف على العاجزين عن الحج لمن يحج عن الرجل كفايته ، ومنها اوقاف على تجهيز البنات الى أزواجهن ، وهن اللواتي لا قدرة لاهلهن على تجهيزهن ، ومنها أوقاف لفكاك الاسرى ، ومنها أوقاف لابناء السبيل يعطون منها ما يأكلون ويلبسون ويتزودون لبلادهم ، ومنها أوقاف على تعديل الطرق ورصفها ومنها أوقاف لسوى ذلك من افعال الخير . قال : مررت يوماً ببعض ازقة دمشق فرأيت بها مملوكاً صغيراً قد سقطت من يده صحفة من الفخار الصيني ، وهم يسمونها الصحن ، فتكسرت واجتمع عليه الناس فقال له بعضهم : اجمع شقفها واحملها معك لصاحب أوقاف الاواني فجمعها وذهب الرجل معه اليه فأراه إياها ، فدفع له ما اشترى به مثل ذلك الصحن . قال : وهذا من أحسن الأعمال فان سيد الغلام لا بدّ له ان يضربه على كسر الصحن او ينهره ، وهو ايضاً ينكسر قلبه ويتغير لاجل ذلك ، فكان هذا الوقف جبراً للقلوب جزى الله خيراً من تسامت همته في الخير الى مثل هذا اه .

انما الدنيا هبات وعوار مستردّة شدة بعد رخاء ورخاء بعد شدة

تكاثر الاوقاف ومضار الجمود — استولى الخراب على البلاد بعد تخريب تيمور دمشق أوائل المئة التاسعة ولكن عاد الى الشام رونقه ، فتجدد على عهد الدولة الشركسية ، فلما جاء العثمانيون اخذت البلاد تتراجع حتى بلغت هذه الدركة من الانحطاط الذي نراه وليس في البلاد جزء صغير من ذاك العمران المستبحر وقد نال الاوقاف مانال غيرها من التشتت ، وكأن يد القدرة قضت ان لا تدوم سعادة السعيد ولا شقاء الشقي ، ولو دامت مثلاً تلك الحركة المباركة التي كان الناس او اهل الثروة منهم يقلد فيها بعضهم بعضاً من إنشاء معاهد الخيرات والصدقات على اطراد واتصال ، لاصبحت بلاد الشام بأسرها لعهدنا مجموعة اوقاف يتناول ريعها الاشراف والاجلاف ، واصبحت سائر الامة خدمة وأجراء .

ولذلك كان العقلاء على مثل اليقين ان الاوقاف التي وقفها بعض ابناء الطائفة المارونية في جبل لبنان وبلغت لعهدنا نحو ربع الجبل على ما يؤكد بعضهم يتصرف فيها بطاركهم و ينفق من مستغلها على بعض الاديار والبيع ، لا تلبث ان يقوى عليها أصحاب القوة والمكنة و يتخذون من القانون حجة لبيعها او يعرض لها عارض آخر — كما وقع في فرنسا على عهد ثورتها الاولى أواخر القرن الثامن عشر في استصفاء الحكومة أموال البيع والاديار والجمعيات الدينية — فتتمزق الاوقاف وتعود الى الامة ، لان مثل هذه الاوقاف التي حبسها اهل الخير على أعمال البر في الغالب لم تنفع ابناء تلك الطائفة في زمن المحنة اي في الاربع سنين الاخيرة على عهد الحرب العامة ، ولو صح الاجتهاد وأظنه يصح في مثل هذه المواقف لانه هو المعقول ، والشرائع تسير على المعقولات ، لكان على شمامسة الموارنة وقساوستهم وأساقفتهم وبطاركهم ان يعمدوا الى بيع تلك الاوقاف او رهنها على الاقل ليصرفوا ثمنها على إطعام أبناء طائفتهم ولو فعلوا لما مات جوعاً في لبنان من الموارنة الوف .

* * *

تأثير الوقف في العمران — رأينا في ايامنا مزارع ومنها البعيد عن المدن ، المتعذر استثماره بحسب العرف ، قد أصبحت حدائق غلباً بفضل توفر أربابها على تعهده ، وطول آمالهم في تحسينه ، ارادة ان يستمتعوا به هم وأولادهم

من بعدهم ، ولو كانت من نوع الوقف لخربت و بارت ، ولأعرضوا عن تعهدها كل الإعراض كما هو المشاهد في القرية الموقوفة . ولكم رأينا الداثر الغامر الى جانب الزاهر العامر . وحالة المسقفات او العقارات كحالة المستغلات أدهى وأمرّ . وكذلك الحال في الاناسي الذين يعيشون من اوقافهم ومن يعيشون من زراعتهم او صناعتهم اوتجارتهم ، فتجد في الاولين انكالاً مجسماً وهماً متراخية ، وفي الآخرين مضاءً وعزماً وشمماً وحسن ثقة بانفسهم . وعندي ان من وقفوا الاوقاف وحبسوا الاحباس لابنائهم ومن يجيء بعدهم قد أضروا بهم اكثر مما نفعوهم ، والرزق كالحياة لاطاقة لصغير او كبير ان يضمنه لنفسه فكيف به لغيره ، والمرء لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً .

كانت الاوقاف نافعة في الصدر الاول لقلتها بالنسبة لمجموع البلاد ، ولانها محبوسة على وجوه البر وعلى البائسين خاصة . فقد سأل عمر بن الخطاب شيخاً عاجزاً من اهل الذمة فقال له : ما انصفناك اخذنا منك الجزية زمن شبابك ، ولم نكفك مؤونة التكفف ايام عجزك ، وامر له من مال الصدقة بما يكفيه . من اجل هذا كانت الحبس على هذه الغاية الشريفة مما لا يسع عاقلاً انكار نفعه . ولكن الملوك ومن بعدهم من رجال الدول انشأوا يجعلون من أموال المغارم اوقافاً ، وقلما تشاهد المخلص فيما حبس ووقف .

☆ ☆ ☆

الاوقاف عند قدماء العثمانيين } فقد كان ملوك بني عثمان في مبدإ امرهم تغلب عليهم البداوة والسذاجة والتدين ، ولذلك ملأُوا بروسة وادرنة والاستانة وكوتاهية وازنيق باوقافهم ومدارسهم ، وكذلك فعل وزراؤهم وكانوا يتناولون أرزاقهم من مقاطعات يقطعهم إياها سلطان الوقت . فلما غلبت عليهم الحضارة وفتحوا مصر والشام في عهد سليم وتكاملت فتوحهم في عهد السلطان سليمان أصبحوا يتفننون في ضرب الضرائب على الرعية وقد غدا دخلهم لا يوازي خرجهم كما كان سابقاً ، وأمسى رجال الامر فيهم يسيرون على سيرة ملوكهم يَعرقون لحم الامة ليجمعوا أموالاً ربما وقفوا بعضها على الأعمال الخيرية ، فكانوا كالتي تزني وتتصدق ، وما كانت صدقاتهم في الحقيقة الا فراراً بأموالهم من المصادرات ، لأن مصادرة

الوزراء والامراء بعد المئة العاشرة أصبحت في الدولة العثمانية مورداً من الموارد التي تعيش بها الدولة ، بعد ان كانت لاول امرها تقتصر في دخلها على الجزية الشرعية والخراج الذي كانت تتقاضاه من ملوك النصرانية وأعشار الاملاك السلطانية وريع الجمارك والملاحات والخمس الشرعي من أموال الغنائم ·

واذا كان عمال الدولة لا يأخذون الاموال الا من حلها كيف استطاع مثل سنان باشا فاتح اليمن ان يصرف على خيراته ما يربو على مليوني ليرة بسكة زماننا ، ولو قدر هذا المال بقيمته العرفية اليوم لبلغ عشرة او عشرين مليوناً · لاجرم انه لم يختجن هذا المبلغ الذي تعجز أمة من الامم الراقية اليوم عن المناداة به الا بارتكاب ضروب المظالم والمغارم · ولوفتح هذا الفاتح مابين المشرقين وارتكب مثل هذه المنكرات في أموال العباد ما نفع شيئاً في قرباته وصدقاته ·

واذا كان مثل جنجي خوجه من مشايخ السلطان ابراهيم وهو من ارباب الخرافات والخزعبلات بالطبع ، قد جمع من الرشاوى والهدايا والاوقاف ما يربو على مائة الف كيس والكيس خمسمائة قرش يوم صودر واخذ خطه بها ، فكيف حال من يقبض على زمام الامر من الوزراء والولاة ويظل مدةً في منصبه ثم هو يظن ان أنشأ مدرسة او جامع مما يبرر أعماله ويكفر عن سيئاته ، وان ذراريه بمأمن من الفقر لان الملوك في الغالب كانوا يتركون لهم العقارات والارضين ويكتفون بمصادرة الاموال فقط ·

✲ ✲ ✲

الوقف من مال غير محلل } قال في « نتائج الوقوعات » : ومؤلفه من وزراء السلطنة في عهد السلطان عبد العزيز في الرد على من قال ان الاسلاف لم يحبسوا ماحبسوه الاخوف المصادرة وارادةَ ان يتركوا لاولادهم وأحفادهم مورداً يعيشون به : اذا كان من الواقفين من هم على هذه الصفة فان اكثرهم على خلاف ذلك لا محالة ، وقد رأينا في صكوك أحباسهم انهم وقفوها على الجوامع والمدارس والكتاتيب والخانات والحمامات وعلى إنشاء القلاع وإعاشة القائمين عليها من المرابطين وعلى أبناء السبيل · اذا عرفت هذا وشاهدت مابقوه من هذه الآثار الجسيمة النافعة التي ساعدوا بها على نشر المعارف والعلم وعمروا بها البلاد ، فليس من الانصاف ان

تقدم الاصل على الفرع وتذهب الى سوء الظن فيهم . قال : واذا جئنا نبحث عن المبالغ التي أُنفقت على هذه الاوقاف وهل اكتسبت من وجوه محللة ، فانا معك بان كل هذه الخيرات لم تتم بالمال الطيب ، اما وقد جمعت تلك الاموال بصور مختلفة فان انفاقها بما ينفع العامة من الاعمال الصالحة أزين في العاقبة وأدعى الى المحمدة من صرفها في الإسراف والسفاهة ، وحابسها يذكر بالرحمة ، ويستفيض اسمه المسجل في عداد المتصدقين .

هذا ما رتآه الوزير التركي وفي كلامه نظر عند العقلاء اذ اي طاعة تثبت في جنب تلك المعاصي . ولعمري متى ساغ للمرء ان يأكل أموال الناس بالباطل ، ثم يتصدق بها او ببعضها ويحمد الخالق والخلق أثره . وقد أحسن هذا الوزير بقوله ان صرفها في هذه السبيل اولى من غيره على كل حال .

قال حجة الاسلام الغزالي : ارباب الاموال والمقترون منهم فِرَق ، ففرقة يحرصون على بناء المساجد والمدارس والرباطات والقناطر وما يظهر للناس كافة ويكتبون اساميهم بالآجر عليها ليتخلد ذكرهم ، ويبقى بعد الموت اثرهم ، وهم يظنون انهم قد استحقوا المغفرة بذلك ، وقد اغتروا فيه من وجهين : احدهما انهم يبنونها من أموال اكتسبوها من الظلم والنهب والجهات المحظورة ، فهم قد تعرضوا لسخط الله في كسبها وتعرضوا لسخطه في إنفاقها وكان الواجب عليهم الامتناع عن كسبها ، فاذاً قد عصوا الله بكسبها فالواجب عليهم التوبة والرجوع الى الله تعالى ، وردها الى مُلاَّكها اما باعيانها او برد بدلها عند التعذر ، فان عجزوا عن الملاك كان الواجب ردّها الى الورثة ، فان لم يبق للمظلوم وارث فالواجب صرفها الى أهم المصالح .

نعم نحن على رأي صاحب « نتائج الوقوعات » من ان جميع الواقفين لم يكونوا على نسبة واحدة في تحصيل الثروة ، وقوله ان اكثرهم صالح يحتاج الى نظر بليغ ، بل الاولى ان يقال ان منهم الصالح الذي جمع أمواله من طرق مشروعة وجعلها قربة لمولاه لما اقترب من لقائه ، كأن يدخر المال ويقتصد فيه ويكون أقطاعه اوراتبه عظيماً او يرث من آبائه او غيرهم او يتجر ويزارع الى غير ذلك من وسائط الاغتناء

المشروع ، وفي سير بعض الامراء والعلماء وبعض صدور الناس حوادث كثيرة تؤيد هذه القضية .

* * *

مضار الأوقاف وكيفما دارت الحال فان الاوقاف على الصورة التي وصلت اليها في هذه الديار عامة كانت او خاصة قد حملت في مطاويها من المضار، أضعاف ماتوقع واقفوها منها من المنافع ، وخصوصاً الاوقاف الاهلية فانها ضارة من كل وجه ، اما الاوقاف على وجوه البر والتقوى فليس في استطاعة احد منعها ما دام المرء حراً بماله يصرفه كما يشاء .

وقد أدرك العثمانيون في العهد الاخير مضار الاوقاف الاهلية فقضوا بقسمتها اذا كانت صالحة للقسمة او ببيعها وتقسيم ثمنها بين الشركاء ان لم تكن كذلك بمجرد طلب احد الشركاء ، وبذلك تخف مضرتها . على ان اوقاف الجوامع والمدارس وسائر القربات ايضاً قد تخلص من ربقة الوقف بحيل يسمونها شرعية واخترعوا لها اسماء كالتحكير والاحترام والاجارتين والمرصد واخرجوها بهذا العمل عن ملك الوقف الى ملك خاص .

وبهذا تقل الاوقاف حيناً وتكثر تارة أخرى ، وفي حلب اليوم الف واربعمائة وقف ينظر فيها ديوان الاوقاف ويبلغ ريعها مليوني قرش ما عدا الاوقاف الاهلية وكذلك الحال في دمشق والقدس واوقاف كل بلد بحسب غناه ونفوسه .

* * *

منافع الاوقاف ان إخراج الزكاة عند المسلمين في القرون الاولى للاسلام ، ثم إنشاء المعاهد الدينية وغيرها في القرون الوسطى ومابعدها ، وحبس الاموال لإطعام الفقير والزَّمِن والعاجز عن الكسب ، قد خفف ولا شك من شرور المجتمع العربي بعض الشيء ، وان كان فيه من جهة أخرى تحبيب التوكل والتواكل الى بعض الناس . ولم نر في بلادنا ، وتحصيل الرزق فيها أهون منه في اوربا مثلاً ، ما نسمع به من ضروب الشقاء الذي يسوق هناك الى الانتحار والى ارتكاب الفظائع . وبعض الامم المتمدنة اليوم تفكر في قتل العجائز لقلة

فائدتهن في المجتمع ، والابقاء على الكلاب وهذا من أغرب ماسمع . اما المجتمع العربي فلم يعهد فيه شيء من هذا بفضل ما حبسه المتصدقون على ضروب البر ، وان كان هذا الإفراط والتضامن ، والافضال على العاجزين عن الكسب ، قد يورث الخمول ويقعد بالهمم عن الكدح والانكماش .

الى اليوم لم ينشأ للبشر مجتمع كامل في عامة صفاته على كثرة ماجاءه من الشرائع وسن لاجله من القوانين ، والسعادة لم يمسها الناس بايديهم وكأنها محالة الآن . وما ندري ان كانت أسبابها تتم في مستقبل الدهور والعصور ، فلا الواقف وقى الناس من الفقر ولا عدمه أنقرهم . هذه القوانين قد تلطف من شرّة الشر ، ولكنها لا تستأصله من جذوره ، لان لذلك اسباباً أخرى لم ترسخ قواعدها في المجتمعات ، ولعله لا يتم المطلوب قبل انقضاء أيام وليال ، وانضاء آجال وأجيال ، والله يحكم لا معقب لحكمه .

* * *

تقسيم الاوقاف وإصلاحها يقسم[1] الوقف الى خيري وأهلي ، وينقسم الخيري الى ديني محض كحبس المساجد والمعابد ، والى ديني دنيوي وهو يشمل جميع أنواع الوقوف الخيرية كوقف مدارس العلم ودور الصناعات ورباطات المجاهدين ، وفنادق أبناء السبيل ، ومستشفيات المرضى ، ومقابر الموتى ، ونحو ذلك من وسائل الارتفاق العام ، ومثله ماتحبس عينه لينتفع بريعه مصارف الصدقات الشرعية سواء أكان الحبس على جميع المساكين ام على فئة مخصوصة منهم .

واما القسم الثاني وهو الاهلي فينقسم الى طائفي وذرّي ، والاول ماحبسه الواقف على طائفة مخصوصة من الناس . والثاني ماحبسه على ذريته من بعده . وهذه الاقسام تبع لانقسام الوقف باعتبار المتعلق ، لانه ينقسم باعتبار متعلقه وعوارضه الى أقسام

(١) اقترحنا على صديقنا الشيخ سعيد الباني من علماء دمشق ان يكتب لنا رأيه في الاوقاف وطرق إصلاحها فكتب كتاباً سماه « الكشاف عن أسرار الاوقاف » وهو لايزال مخطوطاً فاقتبسنا منه ماهو بمثابة تتمة لما كتبناه في الفصل السابق .

كثيرة ، فالمتعلق الموقوف له كالعبادة التي وقفت لاجلها المعابد ، والثاني الموقوف عليه وهو المخلوقات التي تتمتع بنعمة ماحبس عليها ، والثالث الأعيان الموقوفة . واما العوارض فهي كالصحة او عدمها من الوجهة الشرعية ، وكالضبط او الالحاق من الوجهة الادارية ، وقد يتداخل بعض هذه الاقسام مع فروعها فيقال مثلاً وقف خيري صحيح مضبوط .

ولانقسام الاعيان الى ثابتة ومنقولة انقسم الوقف باعتبار هذا المتعلق الى وقف الأموال الثابتة ووقف الأموال المنقولة ، فالثابتة كارض الزراعة المملوكة الرقبة والحوائط والبساتين والعرصات والعقارات المسقوفة . وهذا النوع لا خلاف بين جمهور علماء المسلمين بصحة وقفه . واما الأموال المنقولة صامتة كانت او ناطقة ، فقد اختلف الفقهاء بصحة وقفها ، والمعتمد الصحة وفقاً لما جرى عليه تعامل المسلمين في القديم والحديث من وقف المصاحف والكتب والجنازة ونحو ذلك ، و بالاولى معدات الجهاد كالسلاح والكراع .

والارض الأميرية سواء اكانت عشرية ام خراجية لا يصح وقفها الا اذا كانت مملوكة الرقبة ، فاذا ملكها السلطان ملكاً شرعياً فله ان يقفها على من يشاء كتصرفه ببقية أمواله المملوكة . والواجب اذاً تقييد وقف السلاطين الارض الاميرية بالاوقاف الاهلية اذ لا يسوغ للسلطان ان يفرز مزرعة من ارض بيت مال الامة العام و يخصها بفئة من الناس على سبيل الحبس والتأبيد ، كما فعل السلطان سليم الاول العثماني حينما استولى على الشام بافرازه كثيراً من المزارع بدون تملك رقبتها ، ووقفها على ارباب الزعامة الدينية وذراريهم . والعشر الذي تتقاضاه اليوم البقية الباقية من الذرية او ادعياء النسب المندسون بها هو ضرب من السحت يجب ان يتحول مجراه عن هذه الحلمات الطفيلية الى مصالح الامة ومرافقها الخيرية العامة .

وخلاصة القول ان هذا النوع من الاوقاف السلطانية غير صحيح ، و بالأخلق وقف الوزراء وعمال الولايات . ولو اقترن بموافقة سلطانهم الأعظم ، لان عمال القرون المظلمة في عهد الحكم الأقطاعي كانوا يقترفون في أيالاتهم ما شاؤا وشاءت أهواؤهم فيقتلون البررة والابرياء ، ويعفون عن الجناة وقطاع السابلة الاشقياء ، ويصادرون اموال من يشاءون ، ويصلون بها من يشاءون . فاذا كان الموت والحياة

بين شفتيهم ، وحقوق العباد الخاصة أُلعوبة بين ايديهم ، وأموال الرعية مباحة لديهم ، فأُخلق بهم ان يعبثوا بالحقوق العامة كأرض بيت المال الشائعة الانتفاع بين أفراد الامة فراغاً بالبيع او انتقالاً بالارث ، او إحياءً بالعمل مقابل البدل . فقد كان هؤلاء الظلمة يضعون ايديهم على ما يختارونه من ارض أيالتهم الاميرية المملوكة الانتفاع فضلاً عن الشاغرة (وهي ماتدعى بمصطلح قانون الارضين بالمحلولات الاميرية) ويتملكون هذا الحق بالتفويض من انفسهم لانفسهم ؛ لانهم الكل بالكل لا يسألون عما يفعلون ، ما داموا يشترون الولاية على الأيالة بثمن مقطوع ، يؤدونه مسانهة الى سلطانهم او أعوانه ، وبعبارة ثانية يفهمها عوام الموظفين الحكوميين ، ما دام الولاة يلتزمون الولاية على الأيالة من أعوان السلطان بالمزايدة حتى تصل الى بدلها اللائق او الفاحش ، ويقع عليهم المزاد الأخير وتحال الى عهدتهم إحالة قطعية .

وكل وقف من أوقاف السلاطين يتحول من منفعة خاصة الى مصلحة عامة فهو صحيح والعكس بالعكس . وحكمة ذلك سد الذرائع بوجه الوزراء و ال الايالات الظالمين الذين كانوا يطوقون بنفوذهم الارض الشاغرة ، ويغتصبون المملوكة وينتفعون بحق قرارها ثم يحتالون بوقفه خشية المصادرة . وقد مهد لهم سبل الاحتيال المتفقهة المصانعون ، فأفتوهم بصحة الوقف على النفس الذي يروى القول بصحته عن بعض علماء السلف لمصلحة عامة ، وهي ترغيب الناس بالوقف لان مصيره بعد موت الواقف وانقراض ذريته الى جهة لا تنقطع وهي الفقراء والمساكين الذين لا تخلو منهم الارض في كل عصر وقطر . لكن متفقهة السوء قلبوا هذه المصلحة مفسدة فأعانوا الظلمة بهذه الفتوى وأضرابها على إفراز المزارع من ارض بيت المال ، وحبس حق قرارها على انفسهم في حياتهم وعلى ذرياتهم من بعد مماتهم .

هذا رأي نبديه من الوجهة الفقهية النظرية ولا نفتي ولا نقضي به من الوجهة الشرعية العملية ، وان كان مناطه المصلحة العامة التي ترمي اليها الشريعة السمحة الواسعة ما لم تتفق عليه كلمة اهل الحل والعقد من علماء الشريعة الاسلامية لان الفرد يخطيء و يصيب . لكن الذي نقطع باجحافه من الوجهة القانونية هو مصادرة حق قرار الارض من المتصرف بها بمجرد تعطيلها ثلاث سنوات عن الحرث والزرع بدون

معذرة شرعية ، لان المتصرف بالمنفعة لم يملكها الا باسباب شرعيـة ، وكل ما يملك بسبب شرعي لايجوز نزعه من مالكه الا باسباب شرعية ·

***

ضروب الحيل وانتهاك حرمة الارقاف } الناس محتاجون بسائق الاضطرار الى البيع والابتياع والمقايضة والمقاسمة ، ما دام الانسان مدنيًا بالطبع مضطراً الى التعامل بالتبادل الذي هو محور دائرة المنفعة الاقتصادية وهي دعامة العمران · وقد أورث تهافت السلف على الوقف اصطدام سكونه المؤبد بحركة التعامل الاقتصادي الضروري الاستمرار ، لان التصرف بالعقارات الموقوفة بيعًا او شراءً ممنوع شرعًا ، وبواعث العمران والاقتصاد تقتضي هذا التصرف طبعًا ، درءً لخطر الآفات الاجتماعية ، والأزمات الاقتصادية ، التي تودي بحياة العباد ، وخراب البلاد ·

ولذا اخترعوا — والحاجة أم الاختراع — انتزاعًا على مايقولون من قواعد ناصر السنة الامام احمد بن حنبل ، نضر الله وجهه ، ما يدعى في الديار الشامية بالمرصد · وهو الدَّيْن الذي على ذمة العقار الموقوف او الاستيفاء من أجرته بعد استيفاء المتولي عليه مقداراً ماليًا معجلاً من المستأجر يسمى « خدمة » وفرض مقدار معجل عليه يستوفى منه مسانهة يسمى دينًا مؤجلاً ، بشرط ان يكون المستأجر على الموقوف لعمارته او ترميمه دينًا بذمة شخصه ، فاذا أيسر فللمتولي ان يؤدي الى صاحب المرصد ما كان له على رقبة الوقف ليعيدها الى جهته طوعًا او كرهًا · ومرمى هذا المخرج ومغزاه تحرير العقارات الموقوفة بالجملة بمنح التصرف بها بيعًا وشراءً مراعاةً للمصلحة الاقتصادية ، مع تقدير مرتب مقابل هذا المنح ، ومع الاحتفاظ بحق الرجوع بعد اداء الدين حرمة للاحكام الشرعية ، وبنسبة تكاثر العقارات الموقوفة بدمشق مثلاً تكاثرت المراصد·

هذا فيما يتعلق بالعقارات المسقوفة ، واما الارضون الصالحة للزراعة فقد اخترعوا لمنح التصرف بها ، فراغًا اوانتقالاً ، مخرجًا آخر وهو سراية « شد السكة » من الارض الاميرية الى الموقوفة · ومعناه استحقاق الحراثة في الارض التي ليست مملوكة الرقبة للحرث مقابل أداء العشر او الخراج ان كانت اميرية ، واداء مرتب الوقف ان كانت

موقوفة الرقبة بعد أداء حق قرارها . وقد أضحت قضية ارض الزراعة الموقوفة في الشام ذات غموض عظيم في زماننا ، لاختلاط الموقوفة بغيرها ، واختلاط الموقوفة وقفاً صحيحاً لتملك رقبتها بالموقوفة وقفاً غير صحيح لعدم تملك الرقبة ، وكذلك لاختلاط ذات الوقف الاهلي بذات الوقف الخيري فضلاً عن ضياع وقف أغلبها واندثاره بتقادم العهد ، ما عدا الارضين التي صانت الحكومة وقفها وضبطته ، مقابل إفراز العشر والاعتراف باستحقاقه لجهة الوقف سواء أكانت خيرية ام اهلية ، وسواء أكان الوقف صحيحاً ام غير صحيح .

واذا كانت قضية الارض الاميرية باعتبار ذاتها من أشكل المشكلات لما طرأ من التبديل على الخطة التي رسمها سيدنا عمر رضي الله عنه بعد فتح الشام ، فكيف بما عرض لها من عوارض الوقف المختلفة الأنواع التي استترت على ابناء هذا الزمان ، ما لم يتح لهم الاطلاع على كتب الواقفين ، ومناشير السلاطين المصونة بيد المستحقين او المتولين ، و يندر ان يطلعوا عليها احداً لعبثهم بشروط الواقفين من الوجهة الخيرية ، واختلاسهم حقوق المستحقين من الوجهة الاهلية . على ان أغلب ارض الزراعة الموقوفة لا تختلف أحكامها في عهدنا وربوعنا عن بقية الارضين من وجهة الفراغ والانتقال .

ونحن مع اعترافنا بضرورة اختراع هذا المخرج لعلمنا بيسر الشريعة واتساعها وملاءمتها لمقتضيات الزمان والعمران لا يسعنا انكار ما نجم عن اختراعه من اندثار الاوقاف الاسلامية وانهيار معالمها ، لانه فسح مجالاً لابتداع الحيل التي مهدت السبل لاختلاس الاوقاف وطمس معالمها ، ودرس معاهدها . ولما أدرك أرباب الطمع ان المرصد يملكهم العقار الموقوف ملكاً باتاً لان لمتولي الوقف الرجوع على صاحب المرصد متى أدى اليه دينه على الوقف ، كادوا للاوقاف الاسلامية بحيل ابتدعها بعض متفقهة القرن الوسطى ، ما عرفها الشرع ولا عرفته ووضعوا أسماء لهم سموها ما انزل الله بها من سلطان وهي : القيمة . الجدك (الكدك) . الخلو . القميص . الحكر . الاحترام . ويشمل هذه الانواع ما يسمى حق [1] القرار في البلاد الشامية والكردار

(١) هو غير حق القرار بالاراضي الاميرية المراد به التمتع بحق حراثتها وزرعها .

في بلاد خُوارزم ، وهو غير حق القرار في الارض ، بل يريدون به تجوزاً الاعيان القائمة سواءٌ أكانت متصلة كالجدران والسقف ، ام منفصلة كالآلات والعدد . وتختلف اسماؤها باختلاف ماحلت به من الامكنة ، فان حلت في البساتين والحدائق فاسمها في ديارنا «قيمة» والمراد بها جدران البستان (الدكوك) ومايشتمل عليه من جذور نجمه . وبمصطلح العامة (شروش الفصة ومجن مشمشه) وبمصطلح العامة (جرن معك مشمش القمر الدين) وقمامته (المزبلة) . وان وجدت في الحمامات فالمراد بها الفرش والاثاث كالسجاد والوزرات والطاسات . وان كانت في الحوانيت فتسمى جدكاً وهو مايضعه المستأجر متصلاً كالأبواب والرفوف . اما اذا كان منفصلاً كعُدد المقاهي وآلات الحلاقة فيسمى خلواً او حق السكنى . ويغلب على الظن ان هذا غير الخلو الذي اصطلح عليه متفقهة القطر المصري بل الارجح انهم يعنون بالخلو ما يدعوه متفقهة الشام بالمرصد ، ويقرب منه ما يدعوه متفقهة بلاد الروم بذي الاجارتين وهو بلا ريب غير الخلو المراد به وضع اليد والقدم .

ثم ان هذه الاعيان اذا كانت في المطاحن فانها تسمى قميصاً ، والمراد به آلات الطحن كالقطب وحجري الرحى ونحو ذلك من آلات الطحن المقولة . واذا كانت مادة بناءٍ قائم في عرصة موقوفة فتسمى حكراً . وصورة احتكارها ان يأذن متولي الوقف للمستأجر بالانشاء في العرصة الموقوفة على ان يكون ما يبنيه ملكاً له ، بعد ان يؤدي الى المتكلم على الوقف مقداراً معجلاً يسمى خدمة ، ويتعهد باداء مقدار مؤجل يؤدى مسانهة يسمى ديناً مؤجلاً . وان كانت غراساً فيسمى غرسها احتراماً . وصورته ان يأذن المتولي على ارض موقوفة — ماعدا ارض الزراعة — بغرسها لانسان على ان مايغرسه يكون ملكه او ان يكون البعض ملكه والبعض الآخر ملك جهة الوقف على سبيل التابعية للارض بعد ان يؤدي الى المتكلم على الوقف مقداراً معجلاً يسمى ايضاً خدمة ، و يتعهد بمقدار مؤجل يؤدى مسانهة يسمى ايضاً أجرة او ديناً مؤجلاً — هذا ملخص ما نص عليه المتفقهة المتأخرون .

* * *

مصائب الاوقاف { ان غلو الواقفين بالتهافت على الوقف ، واتخاذ الظلمة المتجرين بالدين الوقف دريئة لصيانة اموالهم المغصوبة من المصادرة ، وتحريج أئمة الحرج الذين سماهم بذلك الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهم المتفقهة المتنطعون ، وتشديدهم على الناس او تضييقهم ما وسع الله تعالى على عباده ونساهل متفقهة السوء بابتداع حيل الاوقاف لافعام جيوبهم وإشباع بطونهم النهمة التي لا تشبع بالقليل لانهم يأكلون بسبعة امعاء — كل ذلك كان من اعظم البواعث على إضاعة الاوقاف الاسلامية في قطر الشام ، لان اغراق الاسلاف المتقدمين بالتهافت على الوقف ضيق على الذين يلونهم من الأخلاف المتأخرين سعة الارض الحرة بالحبس عن التصرف بيعاً او ابتياعاً او مقايضة او مقاسمة الى آخر ما هنالك من ضروب التصرف المدني . على حين مبنى الشرائع الآلهية كما قال ابن القيم على الحكم والمصالح ، وكلها رحمة وحكمة ، ومصلحة وعدل ، وكل قضية خرجت عن الرحمة الى النقمة ، وعن الحكمة الى العبث ، وعن المصلحة الى المفسدة ، وعن العدل الى الظلم ، فليست من الشريعة وان أدخلت فيها بالتأويل . وارى ان كل ما كان كذلك فهو من الشرع المبدّل .

أضاع هؤلاء الجامدون حكمة الوقف ومصلحته ، وحالوا دون نمو ريع العقارات الموقوفة لحرصهم على شرط الواقف وصفته ، ولو اقتضت منفعة الوقف التغيير والتبديل . وقد نجم عن التهافت على الوقف غلو في الدين او اتجار به ، وعن تشديد المتفقهة على الناس ابتداع الحيل التي أودت بالاوقاف ، فطفق الناس يتملكون العقارات الموقوفة تملكاً محضاً وان ظلت عليه شية من مسحة الوقف باسم الحكر او القيمة او القميص ونحوها من الحيل الكردارية التي جرأت الظلمة فيما بعد على اختلاس المساجد والمدارس والمقابر مباشرة مع عقاراتها الموقوفة عليها بدون التذرع بهذه الحيل في زمن آثر كثير من ابنائه الدنيا على الدين لفرط جشعهم . فانفجر بركان الجرأة على الشريعة لتضييق أئمة الحرج ، وفجر المتأخرون لغلو المتقدمين بالتهافت على الوقف . ولم يجد اختراع مخرج المرصد نفعاً لصيانة العقارات الموقوفة . اذ لم نسمع ولم نشهد ان المتكلم على وقف ادى الى صاحب المرصد ما كان له ديناً على رقبة الوقف واسترجعها

الى جهته ، بل نمي الينا عكس ذلك وهو ان أصحاب المراصد كانوا يرشون المتكلمين على الاوقاف ليغضوا الطرف عن انتقال العقارات من الوقف المرصد الى الملك الحر ، و يرشون ايضاً مفوضي تمليك العقارات ليسجلوا العقار الموقوف ملكا صرفاً ، بل ان بعض المتولين انفسهم كانوا يخونون الوقف باتخاذهم مخرج المرصد حيلة ، اذ يتذرعون به بدون اضطرار اليه لتحويل العقار من الوقف المحض الى المرصد ، اقتاماً للجيوب و يرشون قضاة السوء ليثبتوا اضطرار الوقف الى الدين والاستدانة .

* * *

اوقاف الذرية — قوام الوقف ركنان وهما الحبس والتأبيد ، فمتى حبس الواقف العين عن التمليك وأبد الحبس بالتقييد الى جهة لا تنقطع أصبح الوقف مبرماً وأضحت العين محبوسة شرعاً . ولا يمكن تحريرها من قيد الوقف ، ورجوعها ملكاً صرفاً كما كانت البتة ، لان الشرع صانها للجهة الموقوف عليها من تصرف الانتقال والتمليك . ولخوف الواقف من سفه ذريته ، وتبديدها الثروة من بعده ، او لخوفه من المصادرة او لغير ذلك من الاسباب المختلفة باختلاف النيات ، لجأ الى الوقف وقيده بقيود وشروط تلائم رغائبه ، وأبده بالتقييد الى جهة لا تنقطع بعد انقراض الذرية لئلا يفقد الوقف احد ركنيه . وما التجاء الواقف الى الوقف الا التجاء الى كنف الشريعة التي شرعت الوقف وصانته باحكامها . وغير خفي ان حامي حمى الشريعة امام المسلمين المكلف برعاية احكامها ، والنائب عنه من هذه الوجهة وزارة الاوقاف في العاصمة ودوائرها الفرعية في الأيالات وملحقاتها . والشريعة لا ترد اللاجئ الى حماها بالطرق الشرعية . ولهذا لم تفرق قواعدها وأحكامها بين الاوقاف الخيرية والاهلية بالمناعة والصيانة ، فكل من النوعين منيع مصون بنظر الشريعة . واللاجئ الى الشريعة لاجئ طبعاً الى المكلف بحمايتها ورعاية احكامها ، فكان حقاً على إمام المسلمين والنائبين عنه من الوجهة الوقفية ، صيانة الاوقاف الاهلية كحرصهم على صيانة الاوقاف الخيرية . فهذه القواعد منشأ سيطرة دوائر الاوقاف الحكومية على الاوقاف الاهلية المحضة ، ولا سيما ان الوقف الاهلي الصرف يحتمل ان ينقلب خيرياً محضاً في أقرب وقت ، بانقراض الموقوف عليهم ، لان مآل الاهلي

الى الخيري بالعاجل او الآجل ، لتقييد الوقف بالتأبيد الى جهة لا تنقطع · وكل ما يعود الى هذه الجهة فهو من الاوقاف الخيرية فحق على دوائر الاوقاف ان تكون في كل آن واقفة بالمرصاد أمام تصرف نظار الاوقاف الاهلية · على ان اغلب من تذرعوا بالوقف الاهلي لصيانة الثروة ، ولاسيما الوزراء وعمال المقاطعات ، كانوا يتبرعون بالاوقاف الخيرية ليوطدوا الاولى بالثانية ، و يعهدوا بالولاية على الجميع الى الارشد من ذريتهم · فرعاية لشروط الواقفين لا تنتزع دواوين الاوقاف الولاية من المتولين على الاوقاف الخيرية المتحدة بالولاية على الاهلية ما دام المتولي يؤدي دفتر المحاسبة نقياً من الشوائب · واذا كان الامر كذلك لا يسوغ لديوان الاوقاف ان يضبط الوقف بل يذره ملحقاً ، لكن يحق له ان يجبر المتولي ان يؤدي حساباً عن الوقفين الخيري والاهلي لتداخلهما وان لم ترفع اليه شكوى من أرباب الاستحقاق ·

☆ ☆ ☆

الاوقاف في العهد العثماني الاخير } لهذا العهد ثلاثة أدوار الاول دور السلطان عبد الحميد الثاني · الدور الثاني دور اخيه محمد رشاد الخامس · الثالث دور اخيهما وحيد الدين محمد السادس خاتمة ملوك بني عثمان · ولم تكن دوائر الاوقاف في الشام على العهد الحميدي أقل من بقية الدوائر الحكومية من وجهة تخلل الفوضى والاختلاس وقلة النظام والانتظام ، بل كانت اكثر اختلالاً من غيرها لان لها وجهة دينية ذات اتصال بمشايخ الدين الحشو يين او الدجالين الذين هم أبعد الناس عن النظام والانتظام ، فكانت الشؤون الدينية في عهد عبد الحميد مسرح الفوضى لتهاونه بالدين واكتفائه على الجملة بالتمسك بشعائره الصورية ورسومه الرسمية ، وكان أعوانه يبيعون على مسمع ومرأى منه الوظائف الدينية كالقضاء الشرعي والفتيا والتدريس العام والوعظ والإرشاد · ومن جملة ما يبيعون وظيفة مدير الاوقاف التي كانت تكد وتجد وتبذل الجهد في جباية أموال الاوقاف ، لتبعث بها بعد السلب والنهب وانقاسمة الى العاصمة ، فيفيض السلطان من هذه الاموال على الدجالين من مشايخ الطرق وعلماء الرسوم والرتب والاوسمة باسم (إحسانات او صدقات سلطانية او فدية عن عافية ذاته الملوكية) و يكزّ يديه بالصرف على علماء

الدين العاملين فساءت لذلك حال أئمة المساجد وخطباء المنابر والسدنة والمؤذنين والواعظين لفرط التقتير عليهم حتى انحصرت هذه الاعمال في البائسين والكسالى والزمنى ·

تنقسم الاوقاف الى خيرية واهلية · وتنقسم الخيرية الى مضبوطة وملحقة ، تناط الاولى بدائرة الاوقاف مباشرة · وتركت الثانية لنظارها مع احتفاظ ديوان الاوقاف بالنظارة العامة عليها ، وللدولة حق السيطرة على الاوقاف الاهلية ولاسيما اذا كانت مختلطة بالخيرية · وهي تنقسم الى جلية وخفية · فالاولى من متعلقات الاوقاف الخيرية المضبوطة ، وهي نفقات ارباب الشعائر الدينية والاختلاس منها تافه جداً بالنسبة الى نفقات تنوير المساجد والمعاهد وابتياع مايلزم من الاثاث ، وهو ايضاً حقير بالنسبة الى ترميمها وترميم الاعيان الموقوفة عليها · واما الانشاء المحدث او المجدد فلم يكن معهوداً في ذاك العهد لان ديوان الاوقاف يجبي الأموال من الشام لتبعث بها الى العاصمة ·

وبالجملة لم تكن وسائل الاختلاس الجلية شيئاً مذكوراً قياساً مع الوسائل الخفية وهي عديدة : اولها ان كثيراً من المساجد والمدارس والزاويات (زوايا مشايخ الطرق الصوفية او المتصوفة) والمعاهد الخيرية كالمستشفيات او مطاعم الفقراء (التكايا) ونحوها من الأمكنة المضبوطة أوقافها ، كانت مهجورة او مقفلة الابواب لكونها في القرى او في أحياء منزوية عن المدينة ، فكان ديوان الاوقاف يحسب عليها جميع ماتحتاج اليه من النفقات أضعافاً مضاعفة كما لو كانت عامرة آهلة مفتحة الابواب ، في حين انها لا تنفق عليها شيئاً سوى مقدار زهيد لقاء تطبيق المعاملة على الاصول المرعية الاجراء ، بالحصول على وثائق وصول النفقات الى البائسين المستعارين الذين يستعيرهم الديوان مقابل توقيع الوقائع والاسناد الكاذبة · والوسيلة الثانية أشد خفاء من الاولى ، وهي مواطأة دائرة الاوقاف مع نظار الاوقاف الملحقة الغزيرة الريع على اكل أوقاف المسلمين الكثيرة العدد وهي مما حبسه السراة والامراء والوزراء الاسبقون على ذراريهم ، وعلى المعاهد الخيرية والمعابد ، وجعلوا الولاية عليها في الارشد على ذريتهم · وذلك ان هؤلاء النظار نظار الاوقاف الخيرية الملحقة كانوا يتقاضون أعشار القرى المضبوطة الوقف من الخزانة العامة باسم الاوقاف الاهلية والخيرية ، على حين درس جل بل كل المدارس والمساجد وأصبحت اسماء لامسميات لها ، درست

وانقلبت حوانيت وفنادق ودوراً وقصوراً ، وسجلت في سجلات التمليك ملكاً حراً لهؤلاء النظار المختلسين ، ثم انتقلت لورثتهم ولمن ابتاعها منهم . وكانوا يتقاضون أموال العشر الخاصة لهذه المعاهد ، و يدرجون بكل قحة وجرأة مبلغاً وافراً باسم النفقة على تنويرها وترميمها وفرشها وإقامة شعائرها ، ثم يتغاضى ديوان الاوقاف عن محاولة النظار تحويل الاعيان الجارية بملك الوقف الى مرصد او كردار بدون سبب قوي ثم إغضاؤ هذا الديوان عن تحويل الاعيان الموقوفة من الوقف المحض او لمرصد الكردار الى الملك الصرف ، ثم تسجيل العقارات الموقوفة على المعابد والمدارس ملكاً صرفاً للنظار المختلسين الى غير ذلك من انواع المواطآت بين ديوان الاوقاف والنظار عليها ، وكلها ترجع الى اختلاس الريع وتغيير الاعيان الموقوفة . وكان ديوان الاوقاف يكتب من حين الى آخر الى وزارة الاوقاف في العاصمة بانه ضبط مدرسة كان بعض الأشرار اتخذها سكناً فأرجعها معبداً تقام فيه الشعائر والصلوات والاوراد والاذكار والأدعية للخليفة الخ .

اما القلب وأعني به مجلس إدارة الاوقاف الاعلى فقد كان على جانب عظيم على الضعف ، وفقاً لمقتضيات العهد الحميدي التي يرومها عباد المنافع الخاصة واعداء المصالح العامة . واذا كان القلب الذي هو مصدر الحياة ضعيفاً بتعفن جيرانه المنبعث عن تغلب الجراثيم الذريعة الفتك ، فكيف تكون حالة شرايين الجثمان وأعضائه ودورة دمه . لا ريب انها تكون كحال هيكل ديوان الاوقاف وإدارتها ، مادام أعضاؤها عاطلين من الاهلية علماً وخلقاً ، ولا كثرهم علائق بوقف خيري او اهلي ، مما هو مخالف للقانون . فهم لا علم ولا نزاهة ولا غيرة . اما نظار الاوقاف الاقوياء بالجد الكاذب ، فقد كانوا يتصرفون تصرف الملاك بالاعيان الموقوفة الريع على المعاهد الدينية والخيرية وعلى ذرية الواقفين فضلاً عما يختلسونه من المدارس وأفنية المساجد يتخذون جميع ذلك دوراً وحوانيت وحدائق و ينقلونها في سجلات التمليك من الوقف المحض الى الملك الصرف . واذا طالب بعض ارباب الغيرة باعادة الاوقاف الى حالها وإجراء امورها على حقيقتها تقام عليهم الدعاوي المزورة ؛ وتنصب لهم المكايد واشراك الانتقام . وكأن لسان حال ديوان الاوقاف ومجلس إدارتها ورئيسه يقول لنظار الاوقاف

المختلسين (سكتنا عنكم لتسكتوا عنا) لان جميعهم باستنزاف الاموال وسحق الضعفاء سواء ٠

ولقد انتظم ديوان أوقاف الشام في الجملة بعد إعلان القانون الاساسي (١٩٠٨م) وتسرب اليها شيء من الإصلاح بفضل الخطط التي رسمها وزير الاوقاف العثمانية العربي خليل حمادة باشا ، وتناقص النهب والاختلاس بالنسبة الى العهد المنصرم ، غير ان معاهد البلاد ومعابدها لم تنل حظاً من زيادة الواردات ، لانها كانت تنفذ الى العاصمة فتنفق كغيرها من واردات أوقاف الايالات العثمانية كإنشاء فنادق كبرى للوقف في الاستانة ٠ وظلت قوانين الاوقاف كما كانت في عهد السلطان عبد الحميد حبراً على ورق ٠ ومما يسجل من أعمال الدولة في الحرب العالمية انها انتهكت الحرمات باسم الجهاد المقدس وذلك باتخاذ المعابد وفي مقدمتها الحرم النبوي الشريف ، والمدارس والمعاهد الخيرية وملاجئ الاسعاف العام ثكنات لمأوى الجنود واصطبلات لربط الخيول ، وحبس الانعام ، ومستودعات لادخار أنواع الذخيرة وضروب الميرة ٠ ولما انجلى الترك آخر الحرب الكبرى عن ربوع الشام ، أغاروا على سجلات الاوقاف ووثائقها وأوراقها الخطيرة ونقودها كما أغاروا على وثائق اغلب الدواوين وسجلاتها ونهبوا نقودها وفي عدادها اموال اليتامى وامانات المصارف الزراعية فأُصيبت دواوين الاوقاف من اجل هذا بمصيبة عظيمة ٠

* * *

الاوقاف بعد العهد التركي والى اليوم — وفي عهد الحكومة العربية الفيصلية أُلف ديوان الاوقاف تأليفاً جديداً ، ولم تلبث ان فاضت واردات الاوقاف عن نفقاتها لان المبالغ الباهظة التي كانت ترسل الى العاصمة التركية ظلت في خزانة الدائرة التي شرعت توسع على ارباب الشعائر وتحدث كثيراً من الوظائف ٠ واخذت ترمم المساجد والمدارس والاعيان الموقوفة وتنشئ المعاهد كالمدرسة السميساطية بدمشق التي نقضت من أساسها وأُنشئت خلقاً جديداً — ومثل ذلك الإصلاح الذي تم في ترميم الاعيان الموقوفة او إنشاء الجديد منها في حلب وغيرها — حتى اذا تقلص ظل سلطان الملك فيصل واحتلت الجيوش

الفرنسية داخلية بلاد الشام أُصيب ديوان الاوقاف بتبلبل مالي ، وذلك لاستبدال الورقة السورية بالمصرية ، واتخاذ القرش السوري محور التعامل وحظر التبادل بالنقدين الذهب والفضة قبضاً وصرفاً ، في حين ان الورقة السورية كميزان الحرارة لا تثبت على حالة واحدة في اليوم الواحد ، فارتبكت معاملات دواوين الاوقاف بهذا التبلبل وزاد في نضوب خزائنها على الرغم مما زاده القائمون بادارة شؤونها من زيادة الضمائم الفاحشة على الديون المؤجلة ٠

وقضت إرادة المفوض السامي الاول الجنرال غورو ان يتدخل المنتدبون في الشؤون الاسلامية المحضة وذلك بالاشراف على اوقاف المسلمين دون اوقاف اليهود والنصارى ، في حين ان الدولة العثمانية الاسلامية لم تتدخل بشؤون اوقاف اليهود والنصارى المنضوين تحت لوائها سواء أكان ذلك إبان قوتها ، ام ايام ضعفها ، وتركت إدارتها الى المجالس الطائفية كما ان الدولة البريطانية لم تتدخل في مصر بشؤون الاوقاف الاسلامية فاستثنت وزارة الأوقاف المصرية من سيطرة الاستشارة وسلطة المستشارين وتركتها مناطة بشخص عزيز مصر مباشرة ٠

وقد نهجت ايضاً هذا النهج في فلسطين فتركت إدارة اوقاف المسلمين وجميع شؤونهم الدينية كتقليد القضاء الشرعي والفتيا والوعظ والإرشاد والخطابة والامامة الى مجلس ينتخب اعضاءه المسلمون يدعى بالمجلس الاسلامي الاعلى ٠ اما في البلاد المشمولة بالانتداب الفرنسي فقد أُنشئت المراقبة العامة على شكل مبتدع بين الاشكال الحكومية ، ووضع غريب غير معهود بين الأوضاع الإدارية ٠ وكذلك يقال في مجلس الاوقاف الاسلامية التي قضت بتأليفه ففصلت بذلك دواوين الاوقاف الاسلامية عن الحكومات المسلمة الأهلية ، ووصلتها مباشرةً بالمفوضية العليا ، وجعلت لها مستشاراً غير مسلم يتصرف في شؤونها الإدارية والمالية بسلطة واسعة ٠ وكان من إحداث مراقبة الأوقاف إرهاق خزائنها بالرواتب المستحدثة العظيمة ، ولم تأت بعمل يذكر مجاراةً لمقتضيات العمران والترقي الحديث استناداً الى قواعد الشريعة العامة التي يحظرون الاستنباط منها ، ذلك لان معظم اعضاء مجلس الاوقاف من اعداء التجدد وعشاق الاحتفاظ بالقديم وإبقائه على قدمه ، فقد نقضوا قرار مجلس رياسة العلماء

المنطوي على ضرورة التذرع باستبدال المساجد الخربة التي لم تعد صالحة لإقامة الصلوات مع استناده الى مذهب الامام ابن حنبل بالشروط المنصوص عليها ·

✲ ✲ ✲

وسائل اصلاح الاوقاف } ضيق بعض متفقهة القرون الوسطى دائرة الشريعة الواسعة ، وقلبوا يسرها عسرا ، ومرونتها صلابة ، وصوروها عقبة كؤوداً في سبيل الارتقاء والعمران ، بما ابتدعوه من القيود المنبعثة عن الجمود ، وبما أقاموه من السدود المنيعة دون دخول منافذ ينابيع العلم ، وما سدلوه من الحجب الكثيفة على نوافذ نور العقل · كما ان فريقاً منهم احتالوا على الشريعة فاختلقوا باسمها حيلاً تقلبها رأساً على عقب ، انقياداً لاهواء العلماء والاغنياء بسائق الجشع وحب الجاه ، وافتاتوا على دين الفطرة بحشو او دس ما تنبو عنه حكمته واصوله وفروعه التي ترمي جميعها الى السعادة البشرية في الدارين · فقد قيد المتنطعون بالتحريف والتشديد الوقف بقيود وشروط وحدود ، حالت دون ارتقاء الاوقاف وعمرانها ونمو ثروتها ، وقضت على حكمة الوقف وإرادة الواقفين ، كما ابتدع المحتالون حيلاً نجم عنها ضياع الاوقاف كالمرصد وضروب الكردار حتى آل حال الاوقاف الى ما آل من المصير الفاجع ·

وبعد فالواجب الآن على اهل الحل والعقد تأليف لجنة مختلطة من علماء الشريعة المجددين وعلماء الحقوق والإدارة والاقتصاد ، ليدون اعضاؤها مجموعة لاحكام الاوقاف الشرعية على نسق جديد ، مغترفين من بحر الشريعة المحيط ، ومن كل مذهب من مذاهب الائمة المجتهدين ، ما هو أصلح وأضمن لسعادة الاوقاف وارتقائها وإثرائها وصيانتها من عبث العابثين ، واعتداء المعتدين ، وجمود الجامدين ، وماهو اكثر ملاءمة لروح الزمان ، ومقتضيات العمران ، وفقاً لما يرمي اليه الشرع وقواعده العامة من انتقاء الأصلح وترجيح الأحسن ·

ثم ان الملحق بالشعائر الدينية نوعان وهما التدريس الخاص بالمدارس الدينية ، والإرشاد الدقيق في الزوايا الصوفية · اما الاول فهو تعليم العلماء تلامذتهم العلوم الدينية ووسائلها ؛ وجل هؤلاء ان لم نقل كلهم متبرعون فلا نعلق والحال هذه

لدواوين الاوقاف بهم . وانما التـذرع باصلاح أساليب تعليمهم واستئصال الفوضى الضاربة أطنابها في هذه المدارس وهذا شأن من يتولى شؤون العلوم الدينية كرئيس العلماء او شيخ الاسلام مثلاً . اما اذا وجدت وظيفة تدريس خاص باحد العلوم في احدى المدارس باجر رتبه الواقف ، وكان صاحب هذه الوظيفة يتقاضى الراتب من خزانة الاوقاف ، فان للدائرة حق النظر فاذا كان صاحب الوظيفة غير قائم بها لعدم اهليته فانه يعزل ، وان كان غير قائم بهـا كسلاً فانه ينذر . اما النوع الثاني وهو الارشاد الدقيق فقد أجدبت الزوايا الصوفيـة من التصوف بمعناه الصحيح ، وأقفرت من المرشدين الكاملين والمريدين الصادقين ، وأضحت مقر المشايخ الدجالين المعطلين، والمريدين الكسالى العطلين . فأمثال هؤلاء يجب طردهم من الزوايا التي لم ينشئها الواقفون ليأوي اليها الضالون المضلون باسم التصوف والطرق الصوفيـة ، واذا كان لهم اوقاف يجب تحويلها الى مصارف البر والاحسان والاسعاف العام .

أشرنا الى ماانتاب الاعيان الموقوفة من الدرس والطمس والاختلاس سواء أكانت معابد ام مدارس ام مقابر ام ملاجئ اسعاف ام عقـارات موقوفة الريع . وهذا النوع الاخير أضحى من المتعسر ان لم نقل من المتعذر انقاذه من الاختلاس بعد مرور الزمن وعدم دلالة الظاهر عليه كدار كانت جارية بملك الوقف ، ثم لعبت بها الايدي ، فانتقلت من ملك الوقف الصرف الى ملك مختلسها المعتدي الاثيم . اما اذا لم يمض عليها مرور الزمن ، وكانت معلومة الحدود والبقعة ، فيجب حتماً على دواوين الاوقاف إقامة الدعوى على المختلس او ورثته ، كما يجب عليها التنقيب على ما كان من هذا القبيل . والمرجع فى الاهتداء هو سجلات المحاكم الشرعية وكتب الواقفين . والواجب على دواوين الاوقاف الايعاز الى نظار الاوقاف الأهلية والخيرية الملحقة بابراز كتب الواقفين فيما اذا لم يعثر عليها بين سجلات المحاكم الشرعية وانذارهم بوضع اليد على الوقف اذا أبطأوا بالابراز . اما النوع الاول فهو أسهل انقاذاً من العقارات الموقوفة الريع ، لان ما اختلس من نحو المساجد او المدارس اوالمقابر وانقلب حوانيت او دوراً او حدائق او غير ذلك وأضحى ملكاً صرفاً للمختلسين اوورثتهم او المبتاعين منهم مطموسة ، لتبدل شكل المدرسة مثلاً بعد اختلاسها وطمس معالمها ، فان كانت

آثارها لاتزال قائمة كالقباب والقبور والمحاريب فعلى دائرة الاوقاف التذرع بالوسائل القانونية لإنقاذها من المختلسين ، وان تبدل شكلها ومحي رسمها ، وجهلت حدودها ، ومضى عليها مرور الزمن ، وانقطع الامل من إرجاعها فهي برقبة مختلسيها . ومصباح الهداية المنير الى المعابد والمعاهد المختلسة والمدارس الدارسة والمقابر المندرسة ، هو كتب تواريخ المدن الشامية والرسائل والاسفار الموضوعة في الخطط والآثار .

وما دعا الى هذا العبث باعيان الاوقاف وريعها الا فقدان وازع يزع القائمين بهم ، او موءثر أدبي يردعهم ، او رأي عام يكبح جماحهم ، او موءاخذة حكومة تضرب على أيديهم . ولم نسمع ولم نشهد في ربوعنا ان ناظر وقف خائن مختلس عوقب بسجن او تعزير وتشهير او بتضمين ومصادرة ، بل جل ماشهدناه في عصرنا الحاضر ان الناظر الضعيف اذا ظهر اثناء محاسبته أدنى شبهة اوخيانة ينحى عن العمل و يساق الى المحكمة الشرعية ، وهي اما ان تحكم بعزله ، واما ان تبريء ساحته وهوالأغلب ، لانموءثرات الشفاعة والحنان ونحوهما تعمل عملها . واما الناظر القوي فلا يسأل عما يفعل . وربما أُعين على ظلمه وخيانته واختلاسه مع التبجيل والتوقير !.

واذا كتب لدواوين الاوقاف حظ من التجدد والاصلاح فالواجب ان تشرع بمحاسبة النظار ، تناقشهم الحساب ، فتبدأ بالاقوياء منهم ، وتغلظ عليهم ، وتكرههم على إبراز كتاب الواقف الاصلي المسجل بحكم الحاكم الخالي من شائبات التحريف والتبديل ، الحالي بتوقيع او خاتم القاضي الحاكم بصحته ، فيما اذا فقدت سجلاته ، وان لاتعتبر الصورة المنقولة عن اصله لانها عرضة للتحريف والتبديل كما يقع ذلك من النظار الخائنين . واذا ابرزالناظر على وقف كتاب الوقف الاصلي يعثر ديوان الاوقاف في الأغلب على موارد اموال غزيرة مختلسة ، وعلى مساجد ومعاهد دارسة ومدارس مندرسة ، كما يعثر عرضاً واتفاقاً من يحفر بئر ماء على كنز ثمين او ركاز دفين ، واذا امتنع الناظر من إظهار كتاب الوقف يستفيد ديوان الاوقاف من اعتبار الوقف من قبيل ماانقطع ثبوته ، واشتبهت مصارفه ، وجهلت شرائطه ، لعدم وجوده في سجلات القضاة ، وما كان كذلك يتحول الى الإسعاف العام ما لم يبرهن المرتزقة على استحقاقهم باثبات الوقف وشروط الواقف ونسبتهم اليه او الى الطائفة الموقوف عليها .

وارى ان تتخلى المفوضية العليـا في بلاد الانتداب الفرنسي من التدخل باوقاف المسلمين بواسطة مستشارها الفرنسي المستمد منها نفوذه مباشرةً ، فانه لا فرق بين هذا التدخل وبين التدخل بشؤون الصلاة والزكاة والصيام والحج لان الولاية على الاوقاف الخيرية ولاسيما الدينية المحضة هي من القضايا الشرعية الصرفة ، فلا فرق والحال هذه في الحظر بين إمامة النصراني المسلمين بالصلاة ، وبين ولايتـه على اوقاف مساجدهم ومعابدهم . وهذا الحظر غير محصور على الاسلام بل هو من ضروريات جميع الديانات فان النصرانية مثلاً تحظر ان يتعاطى أحبار المسلمين ومشايخهم ما يتعاطاه أساقفة النصارى وقسيسوهم من التعميد والتكاليل والتكريس والحرمان والغفران ، كما تحظر ولاية المسلمين الموحدين على أوقاف كنائس النصارى المثلثين وأديارهم . وهذا سر إحجام الدولة العثمانية المسلمة عن التدخل باوقاف اليهود والنصارى من رعاياها وتركها ادارة أوقافهم والولاية عليها لمجالسهم الطائفية . فالواجب على حكومة الجمهورية الافرنسية الفخمة ان تترك المسلمين في هذه الديار طلقاء التصرف في أوقافهم وتقتصر عنايتها على الإرشاد في الشؤون المدنية .

ولا أجنح بتة الى رأي من يقول بالغاء دواوين الاوقاف الحكومية وإناطة الولاية على الاوقاف الاسلامية بمجلس اسلامي أهلي ينتخبه الاهلون على منوال مجلس أوقاف فلسطين ، لان المجالس الاهلية مهما بلغت من النظام والانتظام لا تضـارع دواوين الحكومة المسؤولة والمؤاخذة قانوناً على الكبيرة والصغيرة . وليسع الشـام مايسع مصر والعراق . ومن رأيي ان تربط ادارة الاوقاف بالحكومات المحلية ويجعل لها ديوان خاص يعد في جملة دواوينها . اما أوقاف فلسطين فقد قضت الضرورة إناطة إدارتهـا بالمجلس الاسلامي الأهلي . لان البلاد محكومة حكماً مباشراً ، بيد انه قد نشأ من إنشاء هذا المجلس من الشقاق والتخاذل بين الفلسطينيين ما انقسم الناس في الحكم عليه الى مادح وقادح بدافع المؤثرات الحزبية المتضـاربة . اما شرقي الأردن او حكومة الشرقي العربي فانها مليئة باوقافها التي انتابهـا ماانتاب أوقاف بقية الأقاليم من الاختلاس في القرون المظلمة ، ولعل الحكومة تؤسس فيها ديوان أوقاف يشرف على مافي صقعها من معاهد وقف ووقوف محبوسة الريع اهـ .

الحسبة والبلديات

العرب دعاة مدنية

لم تقصر العرب في شأن من شؤون المدنية بالنسبة لأعصارهم، فاستنبطوا بعقولهم، وطبقوا على شعر يعتهم، كل ما يعلي امرهم، ويدفع عادية الفوضى عن مجتمعهم . وكلما ارتقت حضارة الغرب، وتوفر العاملون من أبنائه اليوم على استخراج دفائن هذه المدنية العربية الاسلامية، تتجلى لنا امور ما كنا نحن أصحاب تلك المدنية نعلمها ونعمل بها من قبل . انتقلت المدنيـة الى العرب من الفرس واليونان والهند . ولكن جاء الاسلام بما فيه من العوامل القوية، والنظام المدني البديع الذي استخرجه اهل الصدر الاول من روح الكتاب والسنة، باجمل مدنية عرفهـا البشر اذ ذاك، وما نظنه مهما ارتقى في الأزمان التالية يخرج عن حدّها كثيراً . ونظام العقل نظامه في كل دور وطور .

لم يترك العرب باباً من أبواب المدنية الا طرقوه، ولا علماً من علوم الصناعات الا برزوا فيه وعانوه . ولقد تجلت مدنيتهم باجلى مظاهرها في فارس والعراق ومصر والشام والاندلس أكثر من غيرها من الاقطار التي هذبها الاسلام، وكانت العرب أساتذة أبنائها . والغالب ان قيام دول عظمى اسلامية في تلك الاقطار، على أسس مدنيات قديمة كان من أول الدواعي الى تجويد مدنيتهم، ورفع شأنها بين الأمصار على اختلاف القرون والاعصار، وللاقاليم وطبيعته دخل كبير في تثقيف العقول، ونبذ الجمود ومنابذة الخمول، وتعويد القرائح الإبداع والاختراع .

ضاعت او كادت وآ اسفاه أوضاع مدنيتنا القديمة ومشخصاتها ، لان العرب تمزقوا وتفرقوا بعد استيلاء أُناس من الفاتحين على بلادهم ، كانوا دونهم في سلامة الذوق وجودة الفطرة ، فأفسدوا أخلاقهم بما حملوه اليهم من عاداتهم وتقاليدهم المختلة ، حتى أوصلوهم الى درجة من الجهالة لو لم يتداركها في القرن الماضي محمد علي باشا في مصر وخيرالدين باشا في تونس ومدحت في الشام والعراق لاضمحل عمرانهم و باد سلطانهم الا قليلاً ٠

* * *

تعريف الحسبة

وبعد فان الناظر في اصول الحسبة في الحكومات الاسلامية السالفة ، يعلم ان أجدادنا هيأوا لمدنهم وسكانها جميع ضروب الراحة والهناء ، وحاولوا ان يبعدوا عنها ماأمكن الجور والشقاء ٠ والحِسبة بالكسر الاجر وهو اسم من الاحتساب اي احتساب الاجر على الله ، تقول فعلته حسبة واحتسب فيه احتساباً ، والاحتساب طلب الأجر ٠ وكانت الحسبة وظيفة دينية من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو فرض على القائم بامور المسلمين ، يعين لذلك من يراه أهلاً له ، فيتعين فرضه عليه ، ويتخذ الأعوان على ذلك ، ويبحث عن المنكرات ، و يعزر ويؤدب على قدرها ، و يحمل الناس على المصالح العامة في المدينة ، مثل المنع من المضايقة في الطرقات ، ومنع الحمالين واهل السفن من الإكثار في الحمل ، والحكم على اهل المباني المتداعية بهدمها ، وإزالة مايتوقع من ضررها على السابلة ، والضرب على أيدي المعلمين في الكتاتيب وغيرها ، من الإبلاغ في ضربهم للصبيان المتعلمين — قاله ابن خلدون ٠

وقال ابن تيمية : وبنو آدم لا يعيشون الا باجتماع بعضهم مع بعض ، واذا اجتمع اثنان فصاعداً فلا بد ان يكون بينهما ائتمار بامر ، وتناه عن امر ، واولوالامر أصحاب الامر ، وذوو القدرة واهل العلم والكلام ٠ فلهذا كان اولو الامر صنفين العلماء والامراء ، فاذا صلحوا صلح الناس ، واذا فسدوا فسد الناس ٠ كما قال ابو بكر الصديق رضي الله عنه للاحمسية لما سألته ما بقاؤنا على هذا الامر قال : ما استقامت

لكم أئمتكم . ويدخل فيهم الملوك والمشايخ واهل الديوان وكل من كان متبوعاً فانه من اولي الامر .

وقال ابن الأخوة : الحسبة من قواعد الامور الدينية ، وقد كان أئمة الصدر الاول يباشرونها بانفسهم لعموم صلاحها ، وجزيل ثوابها ، وهي امر بالمعروف اذا ظهر تركه ، ونهي عن المنكر اذا ظهر فعله ، واصلاح بين الناس ، والمحتسب من نصبه الامام او نائبه للنظر في أحوال الرعية ، والكشف عن امورهم ومصالحهم ، وبياعاتهم ومأكولهم ومشروبهم وملبوسهم ومساكنهم وطرقاتهم ، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر .

وكانت الحسبة (المقتبس م٣ ص٥٣٧ و٦٠٩) في الحكومات العربية وحكومات الطوائف ضرباً من ضروب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر . ولا يكون من تسند اليه الا من وجوه المسلمين ، وأعيان المعدلين ، ولا يحال بين المحتسب وبين مصلحته اذا رآها ، والولاة تشد معه اذا احتاج الى ذلك . وقد قسمت الحسبة الى ثلاثة أقسام : احدها مايتعلق بحقوق الله تعالى ، والثاني مايتعلق بحقوق الآدميين ، والثالث مايكون مشتركاً بينهما . ويمكن ان تقسم الحسبة الى دينية ومدنية ، فالديني منها بطل من بلاد الاسلام منذ أصبحت حكوماتها لا تحافظ على جوهر الدين بالذات . والمدنية أستعيض عنها في القرن الماضي في البلاد العثمانية بالمجالس البلدية ، وبقيت الحسبة معروفة في مصر الى أواسط القرن الثالث عشر . ومصر آخر ما اضمحل من أقطار العرب واول من نهض .

* * *

الحسبة تجمع الشرطة والصحة والبلدية وعملها

فالحسبة والحالة هذه أشبه بديوان الشرطة والصحة والبلديات لعهدنا ، وكان المحتسب او صاحب الحسبة يشرف على المعاملات المنكرة في الدين ، ويجازي عليها في الحال ، فينكر ما يجده مثلاً من المنكرات في الأسواق ، ويشدد على السوقة والباعة في صحة القناطير والأرطال والمثاقيل والدراهم والموازين والمكاييل والاذرع ، ويجري قواعد الحسبة على الطحانين والعلافين والفرانين والخبازين والشوائين

والنقانقيين[١] والكبوديين والبواريين والجزارين والرواسين والطباخين والشرايحيين والهراسين وقلائي السمك والزلابية والحلاويين والشرابيين والعطارين والشماعين واللبانين والبزازين والدلالين والحاكة والخياطين والرفائين والقصارين والحريريين والصباغين والقطانين والكتانيين والصيارف والصاغة والنحاسين والحدادين والاساكفة والبياطرة وسماسرة العبيد والجواري والدواب والدور والحمامات والسدارين[٢] والفصادين والحجامين والاطباء والكحالين والمجبرين ومؤدبي الصبيان والقومة والمؤذنين والوعاظ والمنجمين وعلى أصحاب السفن والمراكب وباعة قدور الخزف والكيزان والفاخرانيين والغضاريين[٣] والابارين والمسلاتيين والمرادنيين[٤] والحناويين والامشاطيين وعلى معاصر السيرج والزيت الحار والغرابليين والدباغين والبطاطيين[٥] واللبوديين والحصريين والتبانين والخشابين والقشاشين والنجارين والنشارين والبنائين الى غير ذلك مما يقصد منه منع غش المبيعات ، وتدليس ارباب الصناعات والبياعات .

* * *

الحسبة قانون مدني } وكانوا يختصون المحتسب بالنظر في امور احداها إراقة الخمور كلها وكسر المعازف وإصلاح الشوارع ، وذلك باب كبير فيه مسائل احداها امر الميزاب والاوحال والارداغ والدكانجة (؟) على الباب ، ومنع جلوس الباعة عليها ، ومنع سوق الحمر والبقر للخشابين والآجريين ونحوهم ، ومنع ربط الناس دوابهم فيها ، ومنع عمارة الحيطان في شيء من الشوارع ، ومنع شغل هواء الشوارع بالجناح و يسمى (بروں دشت) ، ومنع

(١) النقانقيون هم الذين يعملون النقانق اي المصير المحشو باللحم والقلوب .
(٢) السدارون الذين يطحنون السدر وهو من المطهرات كالصابون اذا غش يضر ولا ينفع . (٣) الفاخرانيون والغضاريون وهم الذين يصنعون الصحاف (الزبادي او السلطانيات) . (٤) المرادنيون الذين يعملون المرادن ، آلات الغزل القديمة ، تعمل من خشب الساسم او من السنط الاحمر . والمسلاتيون صناع المسلات . (٥) البطاطيون كأنها نسبة الى بطة والجمع بطط وبطة الدهن قارورته .

المبرز في الجوار ، بحيث تكون ازالة النجاسة منه بالوقوف في الشارع ، ومنع الظلمة الى غير ذلك من المصالح ، مثل النظر بين الجيران في التصرفات المضرة ، كالنظر وسد الضوء الا فيما يرجع الى الملك ، كغصب قطعة من الارض ، ومنع اسبال الازار ونحوه على الكعبين ، وزجر الرجال عن التشبه بالنساء ، ومنع النساء عن التشبه بالرجال ٠

وامر التنبولين[1] بطهارة مائهم وتنقية نُورتهم عن الحصاة ، ومنع الناس عن تطهير الحمام ، ومنع البغايا وتعزيرهن ، ومنع أوليائهن ومواليهن وأزواجهن ، وامر غير المسلمين بتطهير الأواني التي يبيعون فيها المائعات كالدهن واللبن ، وامر الغسالين باقامة السنة واجتناب البدعة في غسل الموتى ، وحفر القبور والحمل ، وزجرهم عن الغلاء في اخذ الاجرة ، ونصب الصلحاء وذوي الخبرة بهذه الامور ، وتفحص الجامع يوم الجمعة ، والمصلي يوم العيدين ، وإخلاؤهما عن البيع والشراء ، ومنع الفقراء عن التخطي ، ومنع القصاص عن القصص المفتراة ، ومنع النساء السائلات عن الدخول في المصلى ، ومنع الصبيان والمجانين منه ، ودفع الحيوانات المؤذية عن العمرانات كالكلاب العقور ، والنهي عن النجس والامر بالتنظيف ، ومنع الناس عن الوقوف في مواضع التهم كتحدث الرجال مع النساء في الشوارع ، ومنع النقاشين والصباغين والصواغين عن اتخاذ تماثيل ذوات الروح[2] وكبر الصور ، ومنع المسلمين عن الاكتسابات الفاجرة كاتخاذ الأصنام والمعازف والصنج وبيع النبيذ والبختج[3] ٠

ومنع الناس عن اتخاذ القبور الكاذبة ، وخروج الناس الى زيارة بعض المتبركين او بعض المساجد ، على مشابهة الخروج الى الحج ، ومنع النساء عن التبرج والتفرج بالخروج الى النظارات وزيارة القبور ، ومنع الناس عن التصرفات في المقابر بلا ملك ،

---

(١) التامول التانبول ضرب من اليقطين الهندي طعم ورقه كالقرنفل يمضغونه بقليل من كلس وهو مشهٍ مطرب باهي مقوٍ للثة والمعدة والكبد وهو خمر الهند يمازج العقل قليلاً ٠ والتنبولي بائع التنبل ٠ ولكن لا معنى للنورة مع التنبول ٠ (٢) المنهي عنه الصور المجسمة للتعظيم اما الصور النصفية فلا مانع منها ٠ (٣) البختج كقنفذ عصير مطبوخ واصله بالفارسية ميبختة ٠

ومنع المطلسمة والسحار والكهان عن بدعهم ، ونهي أصحاب الحمامات عن منكراتهم ، بتطهير المياه وإخلاء الحمام عن المرد ودخول العراة فيه ، وأمرهم باتخاذ الحجب بين الرجال والنساء ، ومنع الناس عن تعلم علم التنجيم مما لايحتاج اليه في الدين ، وتصديق الناس الكهان والمنجمين ، ومنع الناس عن بدعة ليلة البراءة ، ومنع الناس اللعابين بالنرد والشطرنج ، وتفريق جمعهم واخذ بساطهم وتماثيلهم ، ومنع القوابل عن إسقاط جنين الحوامل ، ومنع الجراحين عن الجب والخصاء في الناس ، ومنع الناس من الاقامة في المساجد ووضع الأمتعة فيها ، ومنع الذي أصابه اللمم عن التكلم بالغيب ، واجتماع الناس عنده زاعمين انه صادق في إخباره بالغيب ، ومنع الخطاط ومعلم القرآن ومعلم النحو بأجر عن الجلوس في المساجد ، ومنع المعلم عن اخذ شيء باسم النيروز والمهرجان ، وينذر المحتسب معلمي الكتاتيب ان لا يضربوا الصبيان ضرباً مبرحاً ولا في مقتل ، وكذلك معلمو العلوم بتحذيرهم من التغرير باولاد الناس ، ويقفون من كان سيء المعاملة فينهونه بالردع والأدب .

* * *

عمل المحتسب بحسب البلد

وكانت وظائف المحتسب تزيد وتنقص بحسب البلد ، ولا يعدو عمل المحتسب الامور المشتركة بين اهل كل مجتمع . فالمحتسب في بيروت يقضي عليه ان ينظر في امور لا ينظر فيها محتسب دمشق مثلاً . ففي بيروت يُعنى المحتسب بالاحتساب على السماكين والملح والصير والبوري وقلائي السمك والطيور وصياديها ، ونجاري المراكب وتقديرات المراكب . وجميع المدن مشتركة مثلاً في الحسبة على الصيادلة والعقاقير والأشربة والمعاجين والقلانسيين والخرازين وصناع الشراك والأساكفة وصناع الخفاف وصنعة السرابات والزفاتين والنحاتين والدهانين وغشهم والاكارين وغشهم وكساحي السماد وحمالته والغرابيل ومناخل الشعر والوراقين والمبهرجين ، وفيمن يكتب الرسائل على الطرق والرقاع والدروج وكتاب الشروط ، والولاة والقضاة وتدليسهم ، والميازيب ومضرتها والمراصد والمراقب وطباخي الولائم والمحامل وصناعها والروايا والقرب الى غير ذلك مما كان يستدعيه مجتمعهم ودينهم وعاداتهم ومدنيتهم .

وذكر السبكي ان على المحتسب النظر في القوت وكف غمة المسلمين فيما تدعو حاجتهم اليه من ذلك والاحتراز في المشروب ، فلطالما اوهم الخمار انه فقاعي او اقسماوي[1] والمالول ، وطالما أوهم الطباخ ان لحم الكلاب لحم ضأن فليتق الله ربه ولا يكن شيء في إدخال جوف المؤمنين ما كرهه الله لهم من الخبائث ، ويحرم عليه التسعير في كل وقت على الصحيح ، وقيل يجوز في زمن الغلاء وقيل يجوز اذا لم يكن مجلوبا ، بل كان يزرع في البلد وكان عند الشتاء . واذا سعر الإمام انقاد الرعية لحكمه ، ومن خالفه استحق التعزير . ومن مهمات المحتسب ولاسيما في بلاد الشام امران ارتبطا به احدهما النقود من الذهب والفضة المضروبين . ولا يخفى ان في زغلها هلاك أموال البشر فعليه اعتبار العيار في محك النظر والتثبت في سكة المسلمين ، وثانيهما المياه فعليه الاحتراز في سياقها وقد جرت عادة أناس في الشام ان يشتري بعضهم قدراً معلوماً من نهر ثورا و باناس مثلاً ويتحيل لصحته بان يورد العقد على مقره بما له فيه من حق الماء وهو كذا أصبعاً ، ثم يسوقه و يحمله على مياه الناس يرضي طائفة يسيرة منهم . وكان الشيخ الامام رحمه الله يشدد النكير في هذا وله كتاب فيه سماه (الكلام على أنهار دمشق) . والحاصل ان الخلق في أنهار دمشق سواء يقدم الاعلا منهم فالاعلا ولا يجوز بيع شيء من الماء ولا مقره ولا يفيد رضى القوم ولا كلهم لانهم لا يملكون الا الانتفاع ، بل ولا رضى اهل الشام بجملتهم لان رضاهم لا يكون رضا من بعدهم ممن يحدث من الخلق اه .

* * *

ثلاثة آراء في الحسبة

وليس هذا كل ما يُطلب من المحتسب فقد كان يطلب منه ان يسيطر على العقول ايضاً . ذكر ابن الاثير في المثل السائر من تقليد أنشأه لمنصب الحسبة : .... واعلم ان الناس قد أماتوا سنناً وأحيوا بدعاً ، وتفرقوا فيما أحدثوه من المحدثات شيعاً ، وأظلم منهم من أقرهم على أمرهم ، ولم يأخذهم بقوارع زجرهم ، فان السكوت عن البدعة رضا بمكانها ، وترك النهي عنها

(١) الاقسماوي بائع السويق او المثلجات ولم نعرف المالول .

كالامر باتيانها ، ولم يأت بنا الله الا ليعيد الدين قائماً على اصوله ، صادعاً بحكم الله فيه وحكم رسوله ، ونحن نأمرك ان تتصفح أحوال الناس في أمر دينهم ، الذي هو عصمة مالهم ، وامر معاشهم الذي يتميز به حرامهم من حلالهم ، فابدأ اولاً بالنظر في العقائد ، واهد فيها الى سبيل الفرقة الناجية الذي هو سبيل واحد ، وتلك الفرقة هي السلف الصالح الذين لزموا مواطن الحق فأقاموا ، وقالوا ربنا الله ثم استقاموا ، ومن عداهم شعب دانوا أدياناً ، وعبدوا من الاهواء أوثاناً ، واتبعوا مالم ينزل به الله سلطاناً ، ولونشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول والله يعلم أعمالكم ، فمن انتهى من هؤلاء الى فلسفة فاقتله ولا تسمع له قولاً ، ولا تقبل منه صرفاً ولا عدلاً ، وليكن قتله على رؤوس الاشهاد ، مابين حاضر وباد ، فما تكدرت الشرائع بمثل مقالته ، ولا تدنست علومها بمثل أثر جهالته ، والمنتمي اليها يعرف بنكره ، و يستدل عليه بظلمة كفره ، وتلك ظلمة تدرك بالقلوب لا بالابصار ، وتظهر زيادتها ونقصها بحسب ماعند رائيها من الأنوار ، وماتجده من كتبها التي هي سموم ناقعة ، لاعلوم نافعة ، وافاعي ملفقة ، لاأقوال مؤلفة ، فاستأصل شأفتها بالتمزيق ، وافعل بها مايفعله الله باهلها من التحريق ، ولا يقنعك ذلك حتى تجتهد في تتبع آثارها ، والكشف عن مكامن أسرارها ، فمن وجدت في بيته فليؤخذ جهاراً ، ولينكل بها إشهاراً ، وليقل هذا جزاء من استكبر استكباراً ، ولم يرج لله وقاراً ....

ومن أجمل التقاليد تقليد رشيد الوطواط في الحسبة وفيه ان اولى الامور ان تصرف أعنة العناية الى ترتيب نظامه ، وتقصر غايات الهمم عن تنمية إتمامه ، امر يتعلق به ثبات الدين ، و ينعطف عليه صلاح المسلمين ، وهو أمر الاحتساب فان فيه تثقيف الزائفين عن الحق ، وتأديب المنهمكين في الفسق ، وتقوية أعضاد أرباب الشرع وسواعدها ، واجراء أعمال الدين على قوانينها وقواعدها ، و ينبغي ان يكون متقلد هذا الامر موصوفاً بالديانة ، معروفاً بالصيانة ، معرضاً عن مراصد الريب ، بعيداً عن مواقف التهم والعيب ، لابساً مدارع السداد ، سالكاً مناهج الرشاد .... وامرناه ان يجعل الزهد شعاره ، والتقوى دثاره والعلم معلمه والدين مناره ، ثم يأمر بالمعروف و ينهي عن المنكر ، و يقيم حدود الشرع على موجب النصوص والاخبار ، ومقتضي السنن والآثار ، من غير ان يتسور الحيطان ،

و يتسلق الجدران ، و يرفع الحجب المسدولة ، و يكسر الابواب المسدودة ، و يسلط الاو باش على دور المسلمين وحرم المؤمنين ، حتى يغيروا على أموالهم ، ويمدوا الايدي الى عوراتهم وأطفالهم ، و يظهروا ما أمر الله بستره وإخفائه ، ونهى عن اشاعته وافشائه ، فان عبادة الاوثان خير من ذلك الاحتساب ، والعقوبة الابدية أولى بمباشره من الاجر والثواب ٠

وقال ابن فضل الله في وصية محتسب : وقد ولي امر هذه الرتبة ، ووكل اليه النظر في مصالح المسلمين حسبةً لله ، فلينظر في الدقيق والجليل ، والكثير والقليل ، وما يحصر بالمقادير وما لا يحصر ، وما لا يؤمر فيه بمعروف او ينهى عن منكر ، ومايشترى و يباع ، ومايقرب بتحريره الى الجنة و يبعد عن النار ، ولو لم يكن قد بقي بينه وبينها الا قدر باع اوذراع ، و كل مايعمل من المعايش في نهار اوليل ، ومالا يعرف قدره الا اذا نطق لسان الميزان اوتكلم فم الكيل ، وليعمل لديه معدلاً لكل عمل ، وعياراً اذا عرضت عليه المعايير يعرف من جار ومن عدل ، وليتفقد اكثر هذه الاسباب ، و يحذر من الغش فان الداء اكثره من الطعام اوالشراب ، وليتعرف الاسعار و يستعلم الاخبار ، في كل سوق من غير اعلام لاهله ولا اشعار ، ليقيم عليهم من الامناء من ينوب عنه في النظر ، ويطمئن به وان غاب اذا حضر ، و يأمره باعلامه بما أعضل ، ومراجعته مهما أمكن فان رأي مثله أفضل ، ودار الضرب والنقود التي منها تنبث ، وقد يكون فيها من الزيف مالا يظهر الا بعد طول اللبث ، فليتصد لها بصدره الذي لايحرج ، وليعرض منها على المحك من رأيه ما لا يجوز عليه بهرج ، ومايعلق من الذهب المكسور و يروبص من الفضة و يخرج ، وما اكلت النار كل لحامه ولا بعضه و يقيم عليه من جهته الرقباء ، وليقم على شمس ذهبه من يرقب منه ماترقب من الشمس الحرباء ، وليقم الضمان على العطارين والطرقية في بيع غرائب العقاقير الا ممن لا يستراب فيه وهو معروف و بخط مطبب ماهر لمريض معين في دواء موصوف ، والطرقية واهل النجامة وسائر الطوائف المنسوبة الى ساسان ، ومن يأخذ أموال الرجال بالحيلة و يأكلهم باللسان وكل انسان سوء من هذا القبيل هو في الحقيقة شيطان لا انسان ، امنعهم كل المنع واصدعهم مثل الزجاج حتى لا يجبر له صدع وصبّ عليهم النكال والا فماتجدي في تأديبهم أداة التأديب والصفع ، واحسم كل هذه المواد الخبيثة واقطع مايجر ضعفاء الناس من هذه الاسباب الرثيثة ، ومن وجدته قد غش مسلما اواكل بباطل

درهما ، اوأخبر مشترٍ بزائد اوخرج عن معهود العوائد ، أشهره في البلد واركب تلك الآلة قفاه حتى يضعف منه الجلد ، وغير هؤلاء من فقهاء المكاتب وعالمات النساء وغيرهما من الانواع ممن يخاف من ذئبه العائث في سرب الظباء والجآذر ومن يقدم على ذلك ومثله ومايحاذر ، وارشقهم بسهامك وزلزل أقدامهم باقدامك ، ولاتدع منهم الا من جربت أمانته واختبرت صيانته ، والنواب لا ترضِ منهم الا من يحسن نفاذا ويحسب لك اجر استنابته اذا قيل لك من استنبت فقلت هذا . وتقوى الله هي نعم المسالك ، ومالك في كل ما ذكرناه بل اكثره الا اذا عملت فيه بمذهب مالك اه .

* * *

الحاجة والحسبة امس واليوم — ولقد حدثنا التاريخ ان النـاس كانوا يتولون الحسبة بانفسهم عنـدما تضعف الحكومات لان مصلحة اهل كل بلد لا تتم الا بدفع الاذى بعضهم عن بعض والتواصي بالحق والجاهل في ذمة العالم والضعيف من حصة القوي . واهل البلد الواحد متضـامنون معنىً وضمناً اذا لم يتضامنوا هلكوا وهيهات ان تتم للفرد فيه سعادة لا تتناول المجموع . والغـالب ان قانون الاحتساب كان يسد حاجات المجتمعات في هذه الديار . نعم ان تلك الاوضاع قد بلغت عند غيرنا في هذا العصر مبلغاً عالياً من الرقي بفضل قاعدة توزيع الاعمال ، وكثرة الاختصاصيين في كل فرع من الفروع التي تشتد حاجة المدنية اليها ، ولكن ديوان الحسبة وحده كان يقوم باكثر هذه المقومات في المدن الفاضلة فكانت الحسبة آخذة برقاب المنافع ، داقة أعناق المضار . ومن الغريب ان عصرنا على رقيه لم يصل في بلادنا الى بعض ما كان يتمتع به أهلها في القرون الوسطى وهذا سرّ الفرق بيننا فسبحان الملهم العظيم .

* * *

تأسيس البلديات (١) — يبدأ عهد الاصلاح في الدولة العثمانية من تاريخ اعلان المنشور السلطاني الصادر في غرة جمادى

(١) كتب فصل البلديات بقلم الاداري القانوني السيد امين الحُشيمي .

الآخرة سنة ١٢٧٢ وفيه القواعد الأساسية التي بني عليها ذلك الاصلاح في الشؤون المختلفة ، وفي جملة المعاهد التي أنشئت ، المجالس البلدية التي أحدثت عقب صدور المرسوم المذكور ووضع لها نظام خاص جرى فيه تعديل بحسب الاحوال ·

فان النظام المؤرخ بيوم ٢٣ ربيع الاول سنة ١٢٨٤ الذي يحوي في مطاويه اصول تأليف المجالس البلدية في مراكز الولايات والألوية والاقضية ، قد جرى تعديله فيما بعد كما هو مصرح بذلك في الفصل السابع من قانون ادارة الولايات العمومية المؤرخ بـ ٢٩ شوال سنة ١٢٨٧ و٩ كانون الثاني سنة ٢٨٦ ويقضي هذا القانون باحداث مجلس بلدي في كل مركز من مراكز الولاة والمتصرفين وقوام المقامات مؤلف من ستة أعضاء ومن رئيس ومعاون ومن طبيب البلدة والمهندس بصفتهما عضوين مشاورين وكاتب ومحاسب موظفين · وينص بان هيآت المختارين (العمد) والشيوخ في المراكز المبحوث عنها هي التي يحق لها انتخاب الاعضاء للمجالس البلدية من ذوي الكفاءة باتفاق الكلمة او باكثرية الآراء ، وان الحكومة المحلية تصادق على انتخابهم ونصبهم · اما نصب الرئيس فيجب ان يقرّه المتصرف والوالي ايضاً ، واما الرئيس والاعضاء فيخدمون مجاناً بلا راتب ، والكاتب والمحاسب يخصص لهما راتب من ريع البلدية ويربط المحاسب بكفالة معتبرة ·

وان المجلس يجتمع مرتين في الاسبوع وينظر في وظائفه المعينة في القانون وأهمها القضايا المتعلقة بانشاء الابنية وفتح الطرق وتوسيع الجادات والأزقة والشوارع وتنظيف البلدة وتنويرها ومراقبة الأوزان والمكاييل وتعديل الاجور والأسعار وتنظيم مجاري مياه الشرب وقنوات المياه المالحة وغير ذلك من الشؤون التي تنفع البلدة في عامة شؤونها ·

ثم صدر قانون البلديات المؤرخ في ٢٧ رمضان سنة ١٢٩٤ فعدّل كثيراً من مواد الأنظمة السابقة وزاد في اختصاص المجلس والرئيس وغيّر طريقة الانتخاب فبعد ان كانت منحصرة في الهيآت المؤلفة من المختارين وأعضاء مجالسهم أصبحت شاملة أفراد الامة الذين توفرت فيهم الشروط القانونية وأصبح لكل واحد منهم حق

الاشتراك في الانتخاب بحيث يمكنه ان يكون ناخباً او منتخباً حسب الشروط المتوفرة فيه وزاد في تحسين حالة الدخل وتوفير منابعه وانتظام جبايته ·

ومنح هذا القانون مجالس الادارة في المدن الكبيرة حق تقسيم هذه المدن الى دوائر متعددة بحسب سعتها ووفرة سكانها وتأليف مجلس بلدي في كل دائرة منها على ان يراعى عدد السكان فلا يقل عن اربعين الفاً في كل دائرة · وأناط بالبلدية وظائف عديدة فوق تلك الوظائف فعهد اليها إصلاح المدينة وترقية شؤونها من كل الوجوه العمرانية والصحية والأخلاقية ·

وأوجب الزيادة في عدد الاعضاء فجعلوا اثني عشر عضواً بعد ان كانوا ستة أعضاء فقط على ان تكون تلك الزيادة بنسبة عدد السكان واتساع المحل · وخوّل الحكومة المحلية حق تعيين الرئيس من الأعضاء المنتخبين براتب يتقاضاه من واردات البلدية واما الأعضاء فيبقون بلا راتب كما في السابق على ان يبدل نصفهم في كل سنتين · ثم جرى تعديل هذه المادة بشأن الرئيس فتقرر ان تختار الحكومة لرئاسة البلدية من شاءت من ذوي المقدرة واللياقة سواءٌ كان من الاعضاء المنتخبين او من غيرهم ولكنها بعد التجربة عدلت عن هذه الطريقة وأُرجعت المادة الى أصلها ·

وفي قانون البلديات ان كل فرد من أفراد الدولة اذا كان يؤدي مائة قرش خراجاً وهو في سن العشرين وغير محكوم عليه بجناية يحق له ان يشترك في انتخاب أعضاء البلدية · واذا كان يدفع مائة وخمسين قرشاً خراجاً وكان عمره خمساً وعشرين سنة وكان غير محكوم عليه بالحبس مدة سنة او بجزاء آخر يعادله وغير تابع لحكومة أجنبية او مستخدم عند احد او في مجلس بلدي آخر او متعهد او كفيل للمتعهدين في دوائر البلدية وكان غير جندي او حاكم في المدينة او القصبة فيحق له ان ينتخب عضواً في البلدية ·

وفي هذا القانون ان واردات البلدية عبارة عن الرسوم والضرائب المخصصة لها باذن سلطاني وعن أثمان الفضلات الحاصلة من توسيع الطرق وفتح الشوارع وغيرها وعن الرسوم التي يجب استيفاؤها من أصحاب الاملاك الذين يستفيدون من فتح الجادات والشوارع بسبب التحسن والترقي في عقاراتهم وأملاكهم من شرف الموقع

وإحداث البنايات وفقاً لأساليب العمران على الطرز الجديد ومن الجزاء النقدي ورسوم القنطار والكيل والوزن ورسوم الذبحية ورسم المقاولات المعقودة بشأن الايجار والاستئجار ورسوم الحيوانات المباعة ضمن حدود البلدية ٠

وقد خُصص للتنوير والتنظيف عشرون في المئة من خراج العقارات والمسقفات وعشرة في المئة من التمتع وهناك رسوم أخرى للبلدية مثل رسم الرخصة عن الأبنية المنشأة حديثاً او المراد تعميرها وترميمها وعن الألعاب المرتبة في المقاصف ومحلات اللهو والطرب ومثل رسم العجلات والدواب المعدّة للركوب والنقل وغير ذلك من الرسوم المتروكة للبلدية ، ومن الهبات والتبرعات ايضاً ٠ وأهم الرسوم المخصصة للبلدية رسم الدخولية المعروف برسم (الاوكتروا) فانه بالنظر لتنوع موارده يكاد يكون الدعامة القوية في اصلاحات البلدية ٠

ونص قانون البلديات المنوه به على وجوب مراقبة الدخل والصرف وتنظيم الموازنة العمومية في كل سنة بصورة سالمة من الشوائب والنواقص ، وقضى بتأليف لجنة من أعضاء المجلس الإداري وأعضاء المجلس البلدي مرتين في السنة تحت عنوان الجمعية البلدية ٠ ويحتم على الجمعية المذكورة ان تلتئم في نيسان من كل سنة فتنظر في نفقات البلدية عن السنة السابقة وفي حساباتها وأعمالها العامة ثم تصادق عليها وان تجتمع مرة أخرى في تشرين الثاني من تلك السنة فتنظم الموازنة العامة للسنة القادمة وتدقق في الأعمال والشؤون التي يجب اجراؤها في السنة المذكورة ٠ ومنح الجمعية المبحوث عنها حق التعديل في أنظمة البلدية والتدقيق في أحوالها العمومية على ان ترفع مقرراتها بما يتعلق بالتعديل والاصلاح الى المجالس العمومية في مراكز الولايات ٠

ولما كان توسيع الطرق وتعبيدها وفتح الجادات والشوارع واحداث الأرصفة واصلاح مجاري المياه والجداول وتنظيمها وانشاء المدارس والمستشفيات العمومية والثكنات والمعاقل والقيام بجميع الأعمال المفيدة التي يشمل نفعها السكان على اختلاف طبقاتهم يتوقف على اطلاق يد البلدية في استملاك الأراضي والبنايات اللازمة للإصلاحات المنوه بها فان قانون الاستملاك المؤرخ في ٢١ جمادي الاولى

سنة ١٢٩٦ والمعدل بقوانين وأنظمة أخرى قد منح البلديات حق الاستملاك في جميع الاراضي والعقارات بمقابل بدلات معتدلة تقدرها لجان مؤلفة من مخمنين محلفين من ذوي الخبرة والنزاهة تبعًا لاصول نص عليها القانون المذكور . وهذه الواسطة قد زادت أعمال البلديات تحسينًا واتقانًا وأكسبتها رونقًا وبهاء فأصبحت موافقة لأساليب العمران ومنطبقة على قواعد الهندسة والفن وحفظت لاصحاب الأملاك والاراضي حقوقهم من الضياع أيضًا .

* * *

النظام الجديد — وأخيراً وضع رئيس الدولة السورية قراراً مؤرخًا في ١٠ حزيران سنة ٩٢٥ بشأن تأسيس البلديات في المدن التي لا يتجاوز عدد أهاليها عشرة آلاف شخص فغيّر هذا القرار بعض أحكام القوانين السابقة . وقد نصّ فيه على ان المدن التي يتجاوز عدد أهاليها مئة الف نفس تؤلف مجالسها البلدية من عشرة أعضاء ينتخبهم الاهالي وعضوين يعينهما وزير الداخلية باقتراح الوالي او المتصرف . وان المدن التي يبلغ عدد أهاليها بين خمسين الفًا ومئة الف ، تؤلف مجالسها من ثمانية أعضاء ينتخبهم الاهالي وعضوين يعينهما وزير الداخلية باقتراح الوالي او المتصرف . والمدن التي لا يتجاوز عدد سكانها خمسين الفًا تتألف مجالسها من ستة أعضاء منتخبين واثنين ينصبهم وزير الداخلية .

ونصّ ايضًا على ان المجلس البلدي يجتمع حتماً يوم الخميس من كل اسبوع ويجتمع فوق ذلك بدعوة من ممثل الدولة المنتدبة او رئيس الحكومة السورية او وزير الداخلية او مستشار البلدية وفي الأحوال المستعجلة يجتمع بدعوة من رئيس البلدية او بطلب من نصف أعضاء المجلس بالأقل .

ونصّ على كيفية عقد الجلسات والمذاكرة بشأن القضايا المحالة الى المجلس البلدي وتدوين المقررات الصادرة منه بذلك الخصوص وقد منح مستشار البلدية او المفتش حق حضور الجلسات وابداء رأيهما اثناء المذاكرة وجعل اللغتين العربية والافرنسية رسميتين وأوجب تسطير المحضر باللغة العربية و باللغتين معًا كلما سمحت الأحوال .

وأجاز هذا القرار لرئيس الدولة حل المجلس البلدي بقرار منه و باقتراح وزير

الداخلية واشترط موافقة المفوض السامي على ذلك الحل ثم ذكر الاسباب الموجبة للحل كما يأتي : (١) اهمال المجلس واجباته المنصوص عليها في القرار المذكور بعد ان يمر على تبليغه (٤٨) ساعة · (٢) مخالفته أحكام المادة ٢٣ من هذا القرار التي تحظر عليه المذاكرة في موضوع خارج عن سلطته او في موضوع لم يذكر في برنامج أعمال الجلسة · والمذاكرة ايضاً في قضية عقد عليها قرار يتعلق بمصلحة بعض الأعضاء الذين اشتركوا في الجلسة ، والمذاكرة باذاعة نشرات اوخطب وابداء أمانٍ لها صبغة سياسية او دينية تتعلق بالادارة العامة · (٣) اهماله المناقشة في احدى القضايا المسجلة بصورة نظامية في بيان أعمال الجلسة الاولى خلال اربع جلسات متوالية · (٤) نقص عدد الأعضاء الى درجة لم يتمكن معها في اربع جلسات متوالية من ادراك النصاب القانوني ·

ونص القرار على تأليف لجنة خاصة بقرار من رئيس الدولة تضم خمسة أعضاء للقيام بوظائف المجلس الذي يكون حله قد تم وفقاً للأحكام السابقة ، وصرّح بانه يجوز تعيين اثنين أجنبيين من دافعي الضرائب في اللجنة المذكورة ، وان هذه اللجنة تقوم بعامة وظائف المجلس ، وانه يُشرع بانتخابات جديدة متى ساعدت الحال على ذلك ، ويُعين تاريخ اجرائها بقرار من رئيس الدولة ·

ونص القرار على وظائف المجلس البلدي فجعل انفاذ المقررات المتضمنة للوظائف المذكورة متوقفاً على تصديق وزارة الداخلية وانفاذ غيرها من المقررات مناطاً بوضع اشارة عليها من المستشار · والوظائف المهمة هي : تنظيم الموازنة والتعديل في تقدير الرسوم ومشترى عقارات يزيد مجموع قيمتها عن عشر واردات البلدية ووضع ضرائب استثنائية وعقد قروض (لا بد في هذه من الحصول على اذن المفوض السامي) وبيع أملاك البلدية او مبادلتها وترتيب درجات الشوارع والساحات وتزيينها ، وتحديد الاماكن العامة وتوسيعها او إبطالها ، وإحداث ساحات للاسواق وللصيد والسباق في المواسم وغير ذلك ·

وصرح بان هذه المقررات ترفع الى وزارة الداخلية ، فاذا لم يُبدِ الوزير رأيه

بشأنهـا خلال ثلاثين يوماً من تاريخ الوصل المعطى منه يحق حينئذ للمجلس البلدي انفاذ أحكامها واذا رفض الوزير الموافقة عليها خلال تلك المدة فان للمجلس البلدي حق تمييزها الى مجلس الشورى ويكون قراره بشأنها مبرماً ·

وقد نص ذلك القرار على انه يعين عضو من أعضاء المجلس البلدي رئيساً للبلدية بقرار من رئيس الدولة و بالاستناد الى اقتراح وزير الداخلية ·

ثم ان القرار يصرح بان الرئيس يُعين لمدة سنة وانه يمكن تجديد تعيينـه لسنة أُخرى بعد انقضاء مدة الرئاسة · وانه اذا تغيب الرئيس او وجد سبب آخر يمنعه من الحضور فان اكبر الاعضـاء سناً يقوم مقامه في جميع وظائفه ، واذا تجـاوزت مدة غيابه او مدة السبب المانع من حضوره خمسة عشر يوماً فيعين حينئذ وكيل الرئيس بقرار من رئيس الحكومة بناءً على اقتراح وزير الداخلية · واما عزل الرئيس او تنحيتـه عن العمل فلا يكون الا بقرار رئيس الدولة مبني على اقتراح وزير الداخلية ومصادق عليه من المفوض السامي بشرط ان يحوي الاسباب الموجبة للتنحية او منعه ·

ويتقاضى رئيس البلدية تعويضاً شهرياً يعين بقرار من وزير الداخلية ويتناول الاعضاء في نهاية كل شهر تعويضاً عن الجلسات التي حضرها كل منهم خلال ذلك الشهر على ان لا يتجاوز مجموع التعويض لكل عضو عشرين ليرة سورية صافية ·

وقد صرّح القرار بوظائف رئيس البلدية فاذا هي أوسع نطاقاً من الوظائف التي خصته بها القوانين السابقة · وتبين ان قرارات رئيس البلدية في دائرة سلطته الخاصة او بالاستناد الى مذاكرات المجلس البلدي ، تعرض فوراً على وزير الداخلية ولا توضع موضع الانفاذ الا بعد مرور خمسة عشر يوماً على تسليمها للوزارة المشـار اليها ولكنه يجوز لوزير الداخلية ان يأمر بتنفيـذها فوراً في الأحوال المستعجلة فقط اما المقررات التي تتضمن تسوية وقتية فانه تنفذ حالاً بعد نشرها او تبليغها · وفي كل حالـ لا تسري أحكام القرارات على ذوي العلاقة بها ان لم تنشر وتذع ، هذا اذا كانت أحكامها عامة وعلى وجه الانفراد فيما اذا كانت خاصة ·

✡ ✡ ✡

تأثير البلديات في العمران } للبلديات تأثير عظيم في عمران المدن والقصبات على اختلاف درجاتها لاسيما اذا عهد بادارة البلدية الى رجال كفاة يحسنون العمل ، و يسلكون طريق النزاهة والنشاط ، ومع ان بلدية دمشق مثلاً و بها نمثل وكلامنا فيها يصدق على اكثر مدن الشام لم تحصل على هذا الشرط الاساسي في ترقية شؤونها الا بعض الاحايين فان تأثيرها في عمران المدينة ظاهر محسوس لا ينكره احد ومنه اتساع الشوارع والجادات وانتظامها و يستثنى من ذلك الأزقة التي ما برحت ماثلة للعيان على الطراز القديم لا يتخللها الهواء ولا ينفذ اليها النور الا قليلاً . ولو أتيح للمدينة حكام وللبلدية رؤساء في الزمان الغابر يقدرون الضرر العظيم الذي يطرأ على الصحة العامة بسبب ضيق المنافذ للهواء والنور لأزالوا تلك الموانع تدريجاً فوسعوا جميع الطرق والأزقة الضيقة وخدموا بذلك عمران المدينة أجل خدمة كما فعل مدحت باشا في سوقه الشهير وكما فعل جمال باشا في زمن الحرب فانهما فتحا الشوارع الكبيرة ومهدا سبل الاصلاح في المدينة وكما يفعل الآن رجال السلطة العسكريين فانهم قد باشروا العمل نفسه بجد ونشاط .

ومن ذلك إحداث المجاري للمياه القذرة وتنظيمها بدرجة تمنع اختلاطها بالمياه الصالحة للشرب . وهذا العمل من أعظم الأعمال المفيدة التي أدخلتها البلدية في برامج إصلاح المدينة ، وصيانة الصحة العامة من الأمراض السارية ، ويليه جر المياه من عين الفيجة بقساطل مستورة لتسلم من جراثيم الأمراض . وإحداث البنايات والأسواق على النمط الجديد مما زاد في رونق المدينة و بهائها ، ووضع الخرائط والمصورات التي قيدت أرباب المساكن والبيوت بانشائها وفقاً للفن والهندسة وتوسيع الأزقة تدريجاً ومنع البناء بغير الحجر والآجر . ومنها : إنارة الأزقة والشوارع والساحات العامة وتسهيل المرور ليلاً ورفع المحاذير التي يكثر حدوثها تحت ستار الظلام كالسرقات وغيرها . ولا يزال التنوير مفقوداً في بعض الأزقة ولا سيما الضيقة منها . ومنها ايجاد وسائط للنقل في المدينة مثل قاطرات الترام فانها سهلت انتقال السكان من أقصى المدينة الى أقصاها بالسرعة المعتدلة و باجور خفيفة ووفرت

عليهم الوقت ايضاً · ومن ذلك انشاء المستشفى العام ومدرسة الصناعة ودار الأيتام والعجزة وغير ذلك من المعاهد النافعة التي زادت في تحسين حالة البلدة من الوجهة الصحية والأخلاقية والوجهة العمرانية ايضاً ·

ذكرنا أُمهات المنافع والفوائد العامة التي حصلت في المدينة بتأثير البلدية وهناك فوائد أُخرى ايضاً لا تخفى على ذوي الألباب ·

* * *

رأي في اصلاح البلدة } ان قوانين البلدية وأنظمتها التي وضعت في زمن الأتراك واستمر العمل بموجبها مع تعديل وتغيير في بعض موادها بحسب الأحوال وافيـة بالحاجة لادارة الشؤون · ولذلك اري ان اصلاح البلديات يجب ان يقوم على أساسين متينين يكفيان لتشييد بنيانه : توفير دخلها وحسن جبايته وانفاقه في سبيل العمران ·

ودخل البلدية الآن في دمشق مثلاً وافر لا يستهان به · وكل بلد من بلاد الشام ولاسيما الامهات منها قد زادت مع الزمن وارداتها · وبعض البلديات لا تقوم مداخيلها بنفقاتها المتنوعة من فتح الجادات وتعمير الطرق وتوسيعها فان ريع الفضلات الحادثة من فتح الشوارع وتوسيع الطرق يكفي لتأدية بدلات الاستملاك الى أصحاب الأبنية التي يجب هدمها من جرّاء ذلك الاصلاح ومع هذا فانه يمكن زيادة الايراد بطرق عديدة · اما الرسوم فانها تباع بطرق الالتزام وتجبى بدلاتها وفقاً لنظام الاعشار بنفقات معتدلة وفي زمن قصير · وهذا هو المطلوب في جباية الضرائب ولذلك لا تكلفها الجباية نفقات باهظة والسلطة المخولة للمجلس البلدي في جبـاية الرسوم وتحصيل الديون تكفي لحفظ حق البلدية من الضياع والضرر ·

بقي علينا صرف الواردات وانفاقها في سبيل العمران واحياء المدينة · فهذه القضية لها علاقة كبرى بانتخاب الرئيس وأعضاء المجلس البلدي لان الايراد مهما كان وافراً فانه لا يفيد شيئاً اذا لم تكن الأيدي المسيطرة على شؤون البلدية أمينـة على العمل منقطعة اليه متقنة اياه ·

الثاني : يجب ان يكون الرئيس موظفاً تنصبه الحكومة و يشترط ان يكون من

ذوي الدربة والحنكة ومن حاملي الشهادات العالية او المتعلمين بدرجة لا تقل عنها سواء كان منتخبًا او غير منتخب ، وان يخصص له راتب وافر لينصرف بكليته الى ايفاء الوظيفة وليحفظ مكانته ووقاره لدى كل الطبقات في المدينة التي يمثلها ٠

واما الأعضاء فيشترط في انتخابهم ان يكونوا متعلمين بدرجة مماثلة لحاملي الشهادات من المدارس التجهيزية و يرجح انتقاؤهم من أصحاب اليسار ومن ذوي المكانة ليكونوا في غنى عن تناول الاجور التي يخصصها لهم المجلس البلدي لقاء الكشف والتحقيق عن القضايا المودعة اليهم وينجم عنها ما يسيء سمعتهم و يخل بمكانتهم بعض الاحيان ٠

وعندي ان حجر الزاوية في اساس الاصلاح انتقاء الرئيس والاعضاء من خيرة الرجال واطلاق أيديهم في العمل ووجود الكفاة في الوظائف مع غل أيديهم لا يفيد شيئًا ٠ ويصح تطبيق هذه القاعدة في مراكز الألوية والأقضية مع التعديل فانه يختار فيها المتعلمون والمهذبون من ذوي الشأن وأصحاب اليسار والنزاهة والا فان تزييد الواردات لا يكفي للاصلاح ، والمعول على الأيدي العاملة النزيهة النشيطة ٠ والله الموفق للصواب اه ٠

الترع والمرافئ والطرق (١)

ترعة السويس

ينقسم هـذا الموضوع الى ثلاثة أقسام : المرافئ والخطوط الحديدية والكهربائية والطرق المعبدة ،

ولما كان افتتـاح ترعة السويس بين البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط من أهم الحوادث التاريخية ، ومن أعظم العوامل التي أثرت تأثيراً كبيراً في سير المواصلات البحرية ، وتقريب المسافات الشاسعة بين الشام والبلاد الشرقية الاخرى كفارس والهند والصين ، وخصوصاً بين الشـام وأمها جزيرة العرب ، فضـلاً عما أحدثته من تسهيل نقل الحجاج المسلمين الى البلاد الحجازية المقدسة — رأيت ان أفتتح الكلام في القسم الاول بهذه الترعة وبما يتعلق بها من الشؤون الفنية والتاريخية والاقتصادية فأقول :

المواصلات بين البحر المتوسط وبين البحر الأحمر قديمة العهد ، تبدأ من المصريين القـدماء على عهد امبراطوريتهم الوسطى اي منذ الفي سنة قبل الميلاد تقريبـاً . فالمسألة اذاً عريقة في القدم ، وقد عرفت لاول مرة قبل اربعـة آلاف سنة على التقريب . وما كانت هذه المواصلات القـديمة بين البحرين الا من قبيل المصادفات ولم تكن غاية ما كان يرمي اليه القدماء . وما كان هؤلاء يتطلبون سوى الحرص على المواصلات بين البحر الاحمر ونهر النيل ليتمكنوا من وصل أهم طريق لديهم وهوالنيل

---

(١) كتب هذا الفصل المهندس الباحث السيد عبد الوهاب المالكي .

باعظم طريق بحري يؤدي الى آسيا وبلاد الحبشـة وهو البحر الأحمر . ولذلك قام الفراعنة بتخطيط طريق لا شك انها من أهم طرق ذلك العهد ، بين المكان الذي قامت فيه الآن مدينة القاهرة وبين السويس ، ليسهل عليهم نقل بعض الأحجار والمعادن القيّمة من جهة سيناء كالفيروز والنحاس والمغنيز يا فحفروا اول قناة بين النيل وبين البحر الأحمر .

ولما كان النيل يصب في البحر المتوسط أصبح من الممكن إذ ذاك مرور المراكب بين البحرين الأحمر والمتوسط . ولا تعرف اليوم تلك القناة الصناعيـة ولا ذلك الفرع الذي حفرته يد الانسان ، ولا شك انه كان ثمة فرع طبيعي لنهر النيل العظيم جف ماؤه منذ العصور الجيولوجية اي قبل ظهور الانسان . ويؤكد بعض المؤرخين ان هذا الفرع كان في زمن رعمسيس الثاني وكل من ينظر الى خريطة مصر يتمثل لعينيه هذا الوادي القديم وادي تومات ، وفيه قسم من الاراضي الخصيبة المنبتـة يقطعه الخط الحديدي بين الزقازيق والاسماعيليـة وهذا الوادي هو الفرع القديم الجاف لنهر النيل وهو موضع القناة القديمة . فمجرى هذه القناة يتقارب جداً من القناة الحالية التي تجري فيها المياه العذبة لإرواء الاراضي الواقعة بالقرب من ترعة السويس . ويظهر ان سلسلة البحيرات المتقطعة الواقعة على طريق ترعة السويس كانت قديماً متصلة بخليج السويس الطويل وكان يجري اليـه فرع النيل الشرقي القديم المبحوث عنه .

ويظهر من درس الاراضي والارتفاعات والمستحاثات ان أحجار البسوط قد ارتفعت قليلاً ولا ريب ان المواصلات كانت على أتمها زمن الامبراطورية الوسطى وفي عهد الامبراطورية الجديدة . فكانت القنـاة الاولى تصل نهر النيل ببحيرة التمساح ، وذلك في عهد الأسرة الثانيـة عشرة الى التاسعة عشرة اي منذ الفين الى الف ومائتي سنة قبل الميلاد . وان قناةً ثانيةً من عهد الفراعنة ايضاً وفي زمنهم الأخير المعاصر للفتوحات الفـارسية اي منذ خمسمائة وخمس وعشرين سنة قبل الميلاد ، كانت تصل نهر النيل ببحيرة المرة الكبيرة بواسطة وادي تومات وهذه هي القناة التي قام بحفرها واصلاحهـا بسامتيك ونيخاووس من السلالة السادسة والعشرين وذلك

بين سنة ٦١٠ و٥٩٤ قبل الميلاد . وكان مشروعه يقضي بتجديد الفرع القديم لنهر النيل المنفصل عنه في منطقة بوباشيس والمار في وادي تومات . ان هذا العمل الذي ذهب بحياة مائة وعشرين الف عامل كما ذكر ذلك المؤرخ الشهير هيرودوتس خلال رحلته الى مصر (اي بعد سنة اربعمائة وتسع واربعين ق م) لم ينجح وتُرك قبل إتمامه لانه أُوحي الى الملك نيكو على ما يقال بان عمله خدمة للبرابرة اي الفرس ولذلك لم تتم هذه القناة الا بعد مائة سنة أنشأها الملك داريوس الاول الفارسي . على ان القناة القديمة كانت أوسع من هذه القناة الحالية . وقد ظهرت آثار القناة القديمة المندرسة في سنة ١٧٩٨ وتظهر الآثار الآن في أماكن عديدة . وقد استعمل قسم منها لمجرى القناة الجديدة المستعملة لإسالة الماء العذب وقد عرفنا من الجدران المائلة والمرتفعة ومن الأحجار المنحوتة ان عرض القناة القديمة كان خمسة واربعين متراً في عمق خمسة أمتار . وذكر المؤرخ هيرودوتس ان طولها اربعة ايام وقد كانت معدة اذ ذاك لسير السفن . وتكريماً لانجاز عمل القناة أقام داريوس عدة مسلات تذكرة ومفخرة .

وجاء بعد ذلك البطالسة وقاموا بجهود عظيمة لتجديد عمل هذه القناة وأخذوا يقاومون الطبيعة في العصر الرابع والثالث والثاني والاول ق م . وكانوا يرمون الى المحافظة على طريق نهر النيل الى البحر الأحمر من البحيرة المرة وجعله ابداً صالحاً لمرور الزوارق فيه . كلفهم ذلك جهوداً عظيمة وقاموا باعمال صناعية دقيقة كالسدود والأحواض وأعمال أخرى كان القصد منها دفع المياه المالحة عن النيل وعن الاراضي المصرية ثم أُهمل شأنها في القرن الاول ق م .

وبعد فان تاريخ هذا العمل العظيم اي قناة السويس القديمة ينتهي في عهد الرومانيين . وقد كان آخر من قام بحفر هذه القناة القديمة التي امتلأت بالرمال الامبراطور تراجان الروماني بين سنة ٩٨ و١١٧ بعد الميلاد وقد فتح على عهده نهر تراجان الذي كان يبتدئ بالقرب من القاهرة ويمتد الى خليج السويس في البحر الأحمر ولا شك ان هذا النهر هو القناة المبحوث عنها آنفاً . ولكن طمت الرمال

هذه القناة بعد ذلك وارتفع مستوى الارض فضاع أعظم أثر من آثار القدماء وهو يعد من بدائع القرون الغابرة ٠

ولما افتتحت العرب مصر سنة ٦٤٠ بعد الميلاد لم تكن اذ ذاك قناة النيل والبحر الأحمر الا عبارة عن ذكرى قديمة العهد جداً ٠ ومع هذا يرجع الفضل والشرف في احياء هذه الذكرى القديمة منذ اثني عشر قرناً للعرب الفاتحين وهم آخر من أحيى هذه الذكرى قبل اهل المدنية الحاضرة ٠ وأعظم من هذا انهم هم اول من فكر بالطريقة الحديثة لايجاد قناة بين البحرين المتوسط والأحمر ٠ وذلك لان مملكة العرب كانت متسعة الارجاء وتحتاج للمواصلات في كل الجهات على العكس في مملكة الفراعنة الذين لم يفكروا الا بما يفيد مصر وحدها ٠ فالحاجة عند العرب كانت ماسة لربط الصلات والمواصلات بين جزيرتهم وما افتتحوا من الممالك الاخرى ٠ وقد قام بهذه المهمة عمرو بن العاص أحسن قيام وتبعه في ذلك الخليفة العباسي هرون الرشيد ٠ ولعدم وسائطهم الفنية الحديثة لم يتمكنوا اذذاك من فتح ترعة عظيمة كالترعة الحالية وان كانوا فكروا بها ملياً ولما أشكل عليهم الامر لم يحجموا عن جعل النيل واسطة الاتصال بين ممالكهم ٠ وكان القصد من استعمال النيل هذه المرة الوصل بين البحر المتوسط والبحر الأحمر ٠ وعلى هذا قاموا باصلاح قناة الأقدمين التي تبتدئ من الزقازيق على النيل ٠ و كانوا يأتون في سفنهم من الشمال و يدخلون في بحيرة المنزلة ثم في النيل ومن هناك يتبعون القناة التي أصلحوها الى ان يدخلوا البحر الأحمر ومنه يتجهون نحو جزيرة العرب ٠ وكانوا بهذه الصورة ينقلون من مصر ما يحتاجونه من الحنطة الى جزيرتهم ٠

ويحدثنا التاريخ ان عمرو بن العاص استعمل هذه الترعة لنقل الحنطة من الفسطاط الى القلزم (السويس) ومن هناك الى جزيرة العرب عن طريق البحر الأحمر ٠ وقد بقيت القناة صالحة للسير مدة من الزمن حتى جاء الخليفة ابو جعفر المنصور العباسي وقام بطم هذا الطريق المفيد مخافة ان تنقل الذخائر الى القائم بالحجاز اذذاك من ارض مصر وذلك في سنة ٧٥٥ ميلادية ٠ وعلى هذه الصورة فقد انقطع حبل الوصل للمرة الاخيرة بين البحرين مدة الف سنة ونيف ٠ على ان فكرة اتصال البحرين

ما زالت باقية منذ ذلك العهد تلك الفكرة التي لم يسبق العرب احد اليها · وكانت من الاعمال التي لا مندوحة للمدنية من تطبيقها · وجاء البنادقة وقد فكروا مرات بفتح ترعة لان تجارتهم تضررت كثيراً من افتتاح الطريق البحري طريق رأس الرجاء الصالح ولكنهم لم يفلحوا · وفي سنة ١٦٤١ عرض لايبنيس العالم الرياضي الشهير على ملك فرنسا لويس الرابع عشر أقوى ملك في عصره بان يؤلف جيشاً لافتتاح مصر وكان من جملة ماطلبه فتح هذه الترعة سنة ١٦٧٦ للوصول منها الى الهند ولكن لم يتم شيء من هذا كما وقع ذلك للسلطان مصطفى الثالث العثماني الذي فكر ايضاً بفتحها وكان الامر كذلك مع علي بك زعيم المماليك الذي لم يكتب له النجاح ايضاً · وقد ارتأى فتحها ايضاً كولبر الشهير وكثير من وزراء لويس الخامس عشر ولويس السادس عشر ·

ويظهر مما تقدم ان من حاولوا ربط البحرين كلهم افرنسيون او أصدقاء لفرنسا ، وكلهم متفقون على هذا الامر للفت في عضد انكلترا التي كانت تحصر طريق رأس الرجاء الصالح · ولما جاء نابوليون مصر نظر في الاعمال الاولى سنة ١٧٩٨ · وقد قام لوپير مهندس بونابارت بدرس هـذا المشروع وعمل المصورات اللازمة عملاً باشارة سيده غير انه أخطأ في حسابه خطأ عظيماً اذ وجد ان مستوى الماء في البحر الاحمر اعلى من مستواه في البحر الابيض بنحو تسعة أمتار وتسعين سانتيماً في حين انه لا يوجد فرق بين مستوى البحرين وبذلك كان لوپير السبب في تأخير هـذا العمل مدة طويلة · بقيت المواصلات مقطوعة بالفعل بين السويس والبحر المتوسط مدة الف ومائة سنة اي منذ سنة ٧٥٥ الى سنة ١٨٥٤ ميلادية او من عهد ابو جعفر المنصور الى الزمن الذي قام به بحفر الترعة الحاليـة فرديناند دليسبس الذي برهن على عكس ما ادعاه مهندس نابوليون · وقد قام المهنـدسون لينان بك واستيفانسون ونيكر يللي وبوردالو بمساحات دقيقة بين سنة ١٨٤٨ و١٨٤٧ وأثبتوا بصورة نهائية خطأ المهندس لوپير ·

أقنع دليسبس الخديوي محمد سعيد بفـائدة الترعة وأحرز في سبعة أيام موافقتـه على ذلك · وصدر المنشور الخديوي بفتح الترعة يوم ٣٠ تشرين الثـاني سنة ١٨٥٤ · فعارضت بريطانيـا في فتح الترعة مدعية انهـا تريد المحافظة على

كيان الدولة العثمانية من الاخطار التي ستحدثها هذه الترعة المشؤومة · ولم يرجع دليسبس عن مشروعه فأسس شركة وعرض في ٥ تشرين الثاني سنة ١٨٥٨ أسهمها للبيع · وكان عدد هذه الاسهم (٤٠٠٠٠٠) سهم بيع منها (٢٠٧٠٠٠) سهم في فرنسا واشترك في شراء هذه الاسهم جميع الطبقات · اما ما بيع في البلدان الاخرى فلم يتجاوز الثلاثة بالمائة · واكتتب الخديوي محمد سعيد باشا لنفسه بما بقي من الاسهم اي بنحو خمسة واربعين بالمائة من مجموعها ووضع تحت إدارة القائمين بالاعمال خمسة وعشرين الف عامل باجرة زهيدة جداً · وأسست هيأة إدارية للقيام بهذا المشروع وجرى الاحتفال بالموضع الذي أُنشئت فيه بورسعيد في ٢٥ نيسان سنة ١٨٥٩ وذلك قبل ان تتم موافقة الباب العالي وقبل ان تضع المعارضة البريطانية سلاحها · ومع هذا كانت أعمال الحفر تتقدم بوسائط ابتدائية · وكانت تنقل أتربة الحفريات على ظهور الحمير ولنا ان نقدر الصعوبات التي اقتحمها القائمون بالعمل اذا فكرنا بان ما كان يحتاجه العمال من الماء للشرب كان ينقل على ظهور الإبل وكان يكلف هذا النقل مبلغاً قدره ستة وخمسون الف فرنك في الاسبوع حتى انتهى عمل القناة المعدة لإسالة الماء العذب ·

وفي ١٨ تشرين الثاني سنة ١٨٦٢ جرى فتح أول قطعة من الترعة وقد ترأس هذا الاحتفال الفخم دليسبس مؤسس هذا المشروع · وحُطِّم السد اثناء الاحتفال فدخلت مياه البحر المتوسط الى بحيرة التمساح فكان هذا الاحتفال فخماً مهيباً ·

مات الخديوي محمد سعيد باشا فأضاع دليسبس أكبر نصير له · على ان هذه المصيبة لم تمنعه من الحصول على موافقة السلطان العثماني وذلك في سنة ١٨٦٦ وجيء يومئذ بآلات الحفر الضخمة ذات قوة (٢٢) الف حصان واستغنوا عن الادوات الابتدائية ·

جرى افتتاح هذه الترعة في ١٧ تشرين الثاني سنة ١٨٦٩ فاجتمع في ذلك الاحتفال خمس وخمسون سفينة أتت من اوربا للاشتراك بانجاز هذا المشروع وممن حضره امبراطور النمسا وأولياء عهد بروسيا وهولاندا وغيرهم ·

وقد أُنفق على هذه الترعة تسعة عشر مليون ليرة انكليزية · ولما رأت انكلترا

فائدة هذه الترعة ندمت على تباعدها عن مد يد المساعدة لاول الامر وقررت ان تستعيض ما فاتها من الوقت · ففي تشرين الثاني سنة ١٨٧٥ تمكن ديزرائيللي وزير انكلترا من ابتياع مائة وستة وسبعين الف سهم التي كانت ملك الخديوي سعيد باشا وذلك بمبلغ اربعة ملايين ليرة انكليزية وفي تسعة ايام دخل ثلاثة أعضاء انكليز في هيأة إدارة الترعة وسقطت تلك المعارضة التي اشتدت بين انكلترا وبين شركة الترعة · وفي سنة ١٨٨٢ أهملت فرنسا مصالحها في مصر فعسكرت الجيوش البريطانية في القاهرة فاحتج فرديناند دليسبس على خرق حياد الترعة فلم يجد احتجاجه نفعاً ·

وفي سنة ١٨٨٥ وضعت قواعد الاتفاق الافرنسي الانكليزي لإدارة شؤون الترعة · وكان أثر هذا الاتفاق عظيماً جداً وخصوصاً ايام الحرب العامة · فكانت هذه الترعة خندقاً حصيناً بيد الحلفاء للمحافظة على مصر · ولما هاجم الترك الترعة سنة ١٩١٥ قام بالدفاع عنها الجنرال مكسويل ونجح على أيسر وجه · ولم تمض مدة قليلة من الزمن بعد الحرب حتى عادت الترعة الى ما كانت عليه قبلها وهي اليوم احدى الطرق البحرية العظيمة في العالم أجمع · وقد مر منها في سنة ١٩٢٥ (٥٣٣٧) سفينة · وكان مجموع ماتحمله هذه السفن (٢٦٬٧٦١٬٩٣٥) طناً · واليك تقسيم هذه السفن :

سفينة انكليزية	٥٩٬٩	بالمئة	من المجموع
〃 هولاندية	١٠٬١	〃	〃
〃 المانية	٦٬٧	〃	〃
〃 فرنسوية	٦٬١	〃	〃
〃 طليانية	٥٬٣	〃	〃
〃 يابانية	٤٬٠	〃	〃
〃 اميركانية	٣٬٠	〃	〃
〃 نروجية	١٬٤	〃	〃
〃 سويدية	١٬٠	〃	〃
〃 أخرى	٢٬٥	〃	〃

وغير ذلك فان كثيراً من السفن ترسي في مرفإ بورسعيد ولا تجتاز الترعة ·
ولذلك يعد مرفأ بورسعيد من اكثر مرافيء العالم حركةً واشغالاً ·

واصلاح الترعة وجعلها صالحة لسير السفن في كل الاوقات عمل شاق يتطلب جهوداً عظيمة · وكانت الترعة في باديء أمرها ذات اثنين وعشرين متراً عرضاً في القعر وثمانية أمتار عمقاً · في حين انها اليوم ذات خمسة واربعين متراً عرضاً في القعر وعشرة أمتار ونصف عمقاً · وهذا مما يدلنا على ان العمل فيها متواصل وان عرضها قد تضاعف · ثم ان عرض الترعة على مستوى سطح الماء يختلف بين المائة والعشرين والمائة والاربعين متراً وقد يبلغ المائة والستين وطولها ١٦٨ كيلومتراً ·

وتقرر مؤخراً ان يجعل عمق الماء ثلاثة عشر متراً وعرض الترعة في القعر ستين متراً · ومن جهة أُخرى فان النفقات تزداد يوماً فيوماً · وقد بلغ جميع ما صرف على هذه الترعة منذ البدء بها في سنة ١٨٥٩ الى يومنا هذا ما يقرب المليار من الفرنكات الذهبية · فكانت ميزانيات هذا العمل في اوله تظهر عجزاً بيناً · وكان ما استحصل من هذا العمل باديء بدء لا يتجاوز الستة ملايين من الفرنكات على الرغم من الرسوم الباهظة الموضوعة على التجارة والبواخر ولكن الحالة تحسنت في العهد الاخير ·

وفي سنة ١٩٢٣ بلغت الواردات غير الصافية ٤١٩ مليون فرنك وكان الصافي من الواردات سنة ١٩٢٤ (٢٦٤) مليون فرنك · ان اسم هذه الشركة هو الشركة العمومية لترعة السويس البحرية وهي بموجب نظامها شركة مصرية وبحسب اسمها شركة دولية عمومية · غير ان حقيقتها شركة افرنسية واكثرية هيأة ادارتها افرنسية ايضاً · وان رئيسها خلف دليسبس هو افرنسي ابداً · ومركز إدارتها في باريز وقد دفعت هذه الشركة عن سنة ١٩٢١ مبلغاً قدره ١٤ مليون فرنك الى الحكومة الفرنسية ضرائب عن أموالها · ومركز الادارة العامة ايضاً في باريز وتقوم بادارة الثلاث شعب الموجودة في مصر والتي يديرها موظفون افرنسيون · وهذه الشعب هي : إدارة الأشغال ، إدارة المركز ، إدارة سير السفن · ويقوم باعباء هذه الشعب الثلاث ٥٠٠ موظف وربان و ٢٥٠٠ عامل · واذا أضفنا الى هذه الارقام

عيال هؤلاء الموظفين والعمال وأولادهم بلغ عدد النفوس التي تتعلق رأساً بشركة الترعة ١٤ الف نفس ٠

* * *

الترعة العظيمة عن طريق فلسطين } قبل اتفاقية ترعة السويس التي تجعل منها ترعة على الحياد لجميع الأمم ، فكر الانكليز في فتح طريق بحري يمر بفلسطين ٠ وذلك لإضعاف نفوذ الفرنسيين في الشام ونفوذ الروس في فلسطين فارتأوا وصل البحر الابيض ببحيرة لوط ومنه الى البحر الاحمر ٠ وذلك بواسطة قناة تبتدئ من مدينة حيفا ٠ فتملأ وادي الغور الذي ينخفض ٣٩٣ متراً عن سطح البحر ٠ ثم تصل هذه القناة الى العقبة الواقعة على شاطئ البحرالاحمر بعد ان تقطع وادي العربة ٠ وبهذا يكون للانكليز طريق حربي تبلغ به الهند اذا أغلقت في وجهها ترعة السويس وينافس العمل الذي قام به دليسبس ٠

ان سهل يزرعيل لا يرتفع سوى مائة متر عن سطح البحر ٠ في حين ان وادي العربة بين البحر الميت والبحر الاحمر يرتفع مائتين واربعين متراً ٠ فلو فرضنا انه أمكن المرور من هذه السهول المرتفعة التي تتطلب أعمالاً صناعية دقيقة يتساءل المرء عما سيكون مصير الماء الجاري من البحرين الى هذه الهوة الطبيعية اي وادي الغور فانه يتبخر في الحال كما هو الشأن بماء نهر الشريعة الذي يصب في بحيرة لوط ٠ فقد حسب السير اوليفان ان حفرة الغور التي ينخفض قعرها ٤٠٠ متر تقريباً عن سطح البحر تملأ في خمس سنوات ٠ وقد قدّر علماء آخرون بان المدة اللازمة لامتلاء هذا الوادي لا تقل عن عشرة أمثال المدة التي حسبها اوليفان ٠ ومهما تكن هذه المدة اي مدة امتلاء هذه الحفرة طويلة او قصيرة ، فان عملاً كهذا سيغير اقليم فلسطين حتماً ، ويحصل من جراء هذا العمل الكبير ملجأ جيد جداً للسفن الكبيرة ، وهذا ما يستبان منه سبب تحمس الانكليز للقيام بهذا المشروع منذ اربعين سنة ٠

وطول هذه الترعة العظيمة ٤٠٠ كيلومتر من ذلك مقدار ١٩٢ كيلومتراً فقط يقتضي حفرها بعرض ٦٠ متراً وبعمق ١٢ متراً ٠ فمها تكن فكرة فتح هذه الترعة عظيمة ، ومهما تكن فكرة الاستفادة من قوة الماء الذي سينصب في وادي الغور

جيدة ، فلا يظهر ان هاتين الفكرتين يتأتى اخراجهما الى حيز العمل دع ان ثروة البلاد المعدنيـة المشهورة بجوار بحيرة لوط . يصعب ان تذهب هدراً تحت غمر المياه لها ثم ان نفقات العمل ستكون باهظة وقد قدّرها اوليفان من مليار الى مليارين من الفرنكات ، وقدّرها غيره بخمسة مليارات ، مما يجلب خسائر ولا يفيد رؤوس الأموال التي ترصد له .

* * *

الترعة بين البحر الابيض والخليج الفارسي وهنـاك مشروع آخر أشد غرابةً من هذا ألا وهو وصل البحر الأبيض المتوسط بالخليج الفارسي ، وذلك بواسطة ترعة تبتدئ من السويدية وتمر بانطاكية وحلب وباليس على الفرات . و يُصلح نهر الفرات بحيث يغدو صالحاً لسير السفن حتى شط العرب . وقد قُدرت نفقات هذا المشروع بسبعين مليون ليرة عثمانيـة ذهباً . فلو فرض بان الملايين الليرات لا شأن لها فاننا نتساءل عن فائدة هذا الطريق النهري الطويل الذي لا ينقص طوله عن طول طريق البحر الاحمر ، فضلاً عن ان ارتفاع الارض في جوار حلب هو ٤٠٠ متر ، مما يجعل هذه الفكرة بعيدة التحقيق ايضاً .

* * *

مرفأ غزة تبعد مدينـة غزة عن ساحل البحر خمسة كيلو مترات ، وترتفع عن سطح البحر ٥٥ متراً . وتفصل بين المدينة والبحر تلال قليلة الارتفاع لا يتجاوز أعلاها ١٥ متراً . والساحل مملوء بطبقات الرمل لا تتمكن البواخر من الاقتراب منه . وقد تكونت هذه الرمال بما تقذفه مياه النيل من الرمال الى البحر المتوسط فتسوقها الرياح الغربيـة الى هذا الساحل . والظاهر ان مرفأ غزة كان في معظم أدوار التاريخ دون سائر موانئ الشام ولم يكتب له ان ينتفع به حق الانتفاع الا في اوقات قليلة .

* * *

مرفأ يافا — خربت مدينة يافا في الحروب الصليبية فأضحت عبارة عن قرية تتألف من بضعة بيوت . وقد بدأت في التجدد في أواخر القرن السابع عشر . وكان المرفأ اذ ذاك غير صالح لارساء السفن كما هي حالته لهذا العهد . ولذلك كانت ترسي السفن الافرنسية في مرفأي عكا وصيدا . وحصنت يافا في القرن الثامن عشر وأخذت تزداد عمراناً الى ان جاء نابوليون بونابارت في سنة ١٧٩٩ . وازدادت مكانتها وكثر عدد سكانها لعهدنا ، وذلك لقربها من مدينة القدس ومرور الخطوط الحديدية منها ومهاجرة اليهود والالمان اليها . وكان جماع هذه الاسباب العامل الكبير في تقدم هذه المدينة . ومضت أدوار كانت كلمة الذهاب الى يافا تدل عند الغربيين على عمل مخطر . حتى ان بعض التجار كان يراهن الراحلين الى الاراضي المقدسة على ثرواتهم بمعنى ان المسافر يقبض ما يعادل ثروته من التاجر الذي راهنه اذا عاد الى بلاده سالماً . كما ان المسافر يترك كل ثروته لهذا التاجر اذا لم يعد اليها . وهذا مما يدل على ان الخطر في دخول السفن هذا المرفأ كان قاب قوسين او أدنى . وكانوا يعتقدون ان احتمال حدوث الخطر اكثر من السلامة . وتحسنت الحال قليلاً منذ ذلك العهد ، ومع هذا لم يزل تفريغ السفن في ساحل يافا من الامور الصعبة الخطرة .

ان مرفأ يافا صغير وقليل العمق مسدود بخط من الصخور البارزة عن سطح الماء وليس له سوى مدخل صغير بين الشمال والشمال الغربي من المدينة . وقد وقع توسيع هذا المدخل بالنحت ونسف الصخور بالمفرقعات . وهناك ممر آخر في جهة الشمال في عرض ٢٠٠ متر ليس بصالح للانتفاع لوجود طبقات الرمل التي تطمه . وهذه الصخور الممتدة من الساحل الى عرض البحر بمثابة سد طبيعي تكون في طول ٣٠٠ متر . ويكوّن هذا السد الطبيعي ملجأ أميناً للسفن الصغيرة الحجم ، ولكن قعر البحر يرتفع يوماً فيوماً لتكوّن جنس من الحجر المركب من الرمل والاصداف بواسطة نوع من الملاط المترسب من الماء ، فلا يوجد عمق يزيد عن الخمسة أمتار الا بعد ٥٠٠ متر من الساحل بحيث لا تتمكن البواخر الضخمة من الارساء الا بعيدة عن الساحل نحو ٧٠٠ متر مما يجعل تفريغ السفن صعباً جداً . ويكون التفريغ بواسطة

زوارق كبيرة تسيرها نواتية من اهل هذه المدينة بمهارة فائقة . وكثيراً ما يصطدم هؤلاء الربابنة بالصخور من شدة الأمواج العظيمة التي تهب بريح الشمال في فصل الصيف ورياح الغرب في الشتاء . وأصحاب هذه الزوارق يتقاضون أجوراً باهظة من الركاب لكثرة الأخطار التي تحيط بهم . من أجل هذا لا يتيسر للسفن أحياناً تفريغ بضائعها وإنزال ركابها بل تسير بهم الى مرافئ حيفا وبيروت وبورسعيد .

ثم ان قعر البحر مركب من رمال ومزيج من الحصى ومواد لزجة أخرى لا تمكن المراسي من مقاومتها عند وقوف السفن . ولذلك تبقى هذه السفن موقدةً بخارها خوفاً من مفاجأة الرياح الغربية الشديدة المزعجة . فالخطر والحالة هذه عظيم جداً في إنزال الركاب . فبناء مرفإ على الطراز الحديث هو عمل إنساني مفيد . واول من درس هذا الموضوع الدكتور زامبل ثم أهمل أمره وذلك قبل سنة ١٨٧٥ في الوقت الذي جرى فيه قلع الصخور ونسفها بالمواد النارية . وفي سنة ١٨٨٠ طلب حسن فهمي باشا وزير الأشغال العامة في الدولة العثمانية بناء سد في عرض البحر طوله كيلومتر واحد . وقد قدّر نفقات هذا المشروع باربعة ملايين فرنك . وفي سنة ١٨٩٠ كثر طلب هذا الامتياز . ومن الطالبين شركة ري بساتين البرتقال في يافا ثم شركة بلطجي وحبيب رزق الله من القسطنطينية وشركة سكة حديد يافا ، القدس . والظاهر ان فتح مرفإ جديد كبير يتطلب نفقات طائلة لا تكفي تجارة هذه المدينة لتسديد الفوائد الناتجة عن هذه النفقات .

* * *

مرفأ حيفا } تقع مدينة حيفا على خليج صغير يبعد عن عكا جنوباً ثلاثين كيلومتراً ، وكان نزلها منذ أواخر القرن الماضي نفر من الالمان ، وأسسوا مستعمرات صغيرة ، وأبنية جميلة ، فزادت مكانتها التجارية ، وزادت نفوسها ، ووفرت مرافقها ، وان المرفأ الحالي القريب من سهل كيسون وهو بطائح ومستنقعات يتجه نحو الشمال الشرقي في مأمن من الرياح الجنوبية والغربية . بجبل الكرمل الذي يمتد داخل البحر من الجنوب الى الجنوب الغربي و ينتهي فيه عمودياً . ولذلك تبتعد السفن من هذا المرفأ عند اشتداد العواصف في البحر المتوسط

اذا تعذر إرساؤها في مرفإ يافا . اما الرياح الشمالية والشمالية الغربية فشديدة جداً في هذا المرفأ ، وعمق الماء فيه لا يتجاوز الخمسة أمتار الا بعد مسافة كيلو متر واحد في عرض البحر من الساحل كما هي الحالة في جميع السواحل الشامية . ولذلك ترسو السفن الكبيرة في عرض البحر وتفرغ بضاعتها وركابها في الزوارق الصغيرة التي لا تحتاج لعمق عظيم من الماء . وخير طريقة لإنشاء مرفإ مدينة حيفا هو عمل سد في عرض البحر يبتدئ من شمالي المدينة و يتجه من الغرب الى الشرق بطول كيلومتر ونصف فيبلغ عمق الماء مقداراً كافياً لدخول السفن الكبيرة حتى تقترب من الرصيف فيمكن تفريغها على أيسر وجه و يتأتى ردم البقعة المثلثة من البحر التي تحصل بين السد وبين الساحل بحيث تكون صالحة لتوسيع المدينة وزيادة الأرصفة على عمق كاف . وقد أصبح دخول السفن الى المرإ من المدخل الشرقي سهلاً في كل وقت اذ اضحى المرفأ آمناً من العواصف والرياح الشمالية فعمل كهذا يفيد فائدة عظمى خصوصاً وان مدينة حيفا متصلة بالبلاد الداخلية بواسطة الخط الحديدي الحجازي . ونفقات هذا المشروع باهظة لا يؤمل تسديد فوائدها في بادئ الامر . وقد فكر الترك في إنشاء مرفإ حيفا بل أعطوا به امتيازاً تحضيرياً فحالت الحرب العامة دون تحقيق المشروع .

ولما دخل البريطانيون فلسطين رأوا ان ايجاد مرفإ للبلاد يجب ان يتم في اول فرصة تسنح ، وكان التنافس واقعاً بين يافا وحيفا لان بقية المرافئ كغزة وعكا وقيسارية ليست الا مرامي بسيطة . و يافا وحيفا هما أهم الموانى في فلسطين . والقسم الأعظم من البضائع التي ترد الى فلسطين تأتي عن طريقهما . ففي سنة ١٩٢٥ دخلت الموانى الفلسطينية (٢٤٧٢) سفينة حمولتها (١٨٩٥٠٤٢) طناً . وقد كان نصيب يافا وحيفا منها ما يأتي :

يافا (٧٣٤) سفينة حمولتها (١٦٤١٤) طناً و (٥٠٤) بواخر حمولتها (١١٤٣٤٠٥) أطنان . حيفا (٥٤٢) سفينة حمولتها (٧٥١٢) طناً و (٢٥٠) باخرة حمولتها (٦٨٨١٣٤) طناً . والناظر الى الأرقام يرى يافا أولى من حيفا بالمرفإ الحديث . وصقع يافا من اكثر بقاع فلسطين سكاناً وثروة . ولا ريب في ان

مستقبلها زاهر وفيها عنصر من عناصر ثروة فلسطين وهو البورتقال وهي منفذ القدس الى البحر . هذه هي كل مزايا يافا . اما عيوبها فضيق مساحتها ورداءة مينائها وتعرضها للرياح بحيث تعطل فيها أعمال الشحن من ٨٠ الى ١٠٠ يوم في العام . اما حيفا فتعد بالنسبة الى يافا مدينة جديدة فلم يكن سكانها سنة ١٩٠٤ يزيدون عن عشرة آلاف فبلغوا في سنة ٩٢٢ — ٢٥ الفاً وهم اليوم يزيدون عن ٣٥ الفاً . وتعزى هذه الزيادة الى ازدهار الصناعة في جوارها لاتصالها بدمشق و بجنوب الشام بسكة الحجاز . وميناء حيفا جيد يحميه جبل الكرمل في الجنوب من الرياح ولا ينقطع العمل فيه الا اياماً معدودة في العام . وأخيراً قررت حكومة فلسطين انشاء مرفإ في حيفا على الطراز الحديث وأخذت تضع المصورات والتصميمات ووقع اختلاف بين فريقين من المهندسين ففريق يقول بانشاء المرفإ في شمال حيفا والفريق الآخر يذهب الى انشائه في الجنوب . ولا تلبث هذه الاختلافات ان تزول و يخرج هذا المشروع الى عالم الوجود بما اقترضته الحكومة لهذه الغاية من الاموال الطائلة .

* * *

مرفأ عكا مدينة عكا مفتاح فلسطين كانت ذات مكانة حربية اعترف بها نابوليون ، وازدادت شأناً منذ فتحت قناة السويس و يرسم خليج عكا قوساً بشكل نصف قطع ناقص محوره الكبير يمر من حيفا ومن عكا . قامت المدينة في شبه جزيرة تمتد من الشمال الى الجنوب . ولئن كان البحر محفوظاً من الشمال فهو معرض لرياح الجنوب والغرب . والارساء اذاً بمرفإ حيفا أسهل منه في عكا . اما المرفأ القديم فحالته جيدة لمكان السد الممتد من الجنوب الغربي الى الشمال الشرقي . وقد امتلأ هذا الحوض بالرمال ولم يبق فيه من العمق سوى مترين فقط . ترسي السفن الكبيرة في عرض البحر ومع ذلك لا تأمن الأخطار في بعض ايام الشتاء والربيع . اما من جهة إنشاء مرفإ جديد في عكا فمما يصعب عمله . لان ذلك يقتضي نفقات باهظة لا تتناسب مع تجارة هذه المدينة .

* * *

مرفأ صور كان مرفأ صور المشهور في العصور الغابرة في جزيرة منفصلة عن الساحل اتصلت بالارض بعد ان أنشأ الاسكندر طريقاً بينها وبين الساحل ثم اتسع هذا الطريق اتساعاً كبيراً بما كان يحمله البحر من الرواسب . حتى أضحت الجزيرة جزءاً من الساحل ، ولم يبق في العهد الأخير من المدينة سوى اسمها حتى ان الرحالة المشهور هاسيل كيست السويدي لم ير في المدينة غير عشرة أشخاص في القرن الثامن عشر اي بين سنة ١٧٤٩ و١٧٥٢ وقد خربت كثيراً بزلزال سنة ١٨٣٧ وبعدئذ ابتدأت المدينة تزداد عمراناً ونفوساً. وبالقرب من المدينة وعلى بعد سبعة كيلو مترات من جنوبها خزانات قديمة من عهد الفينيقيين تسمى خزانات رأس العين فهذه الخزانات تسقي المدينة وتروي سهولها حتى ساحل البحر . وان لصور مرفأين اثنين . فالاول الصيداوي وهو الى الشمال وهو المرفأ الحالي ايضاً . والثاني المصري وهو الى الجنوب وهو اكبر من الاول . ولكنه لم يعد صالحاً لارساء السفن لامتلائه بالرمال . ويصلح المرفأ الصيداوي للسفن الصغيرة الحجم ويمكن تعميقه بنفقات قليلة . ولا يتأتى للبواخر الارساء بالقرب من ساحل البحر . وخط العمق ذوالخمسة أمتار لا يبعد كثيراً عن مدخل المرفأ الصيداوي في حين ان هذا الخط يبتعد كثيراً عن بقية نقاط ساحل هذه المدينة .

***

مرفأ صيدا طمّ الامير فخر الدين المعني مرفأ صيدا خشية مهاجمة الاسطول العثماني . ولما تولى الحكم احمد باشا الجزار في عكا وقع بينه وبين القنصل الافرنسي اختلافات عديدة اضطر الافرنسيون من سكان صيدا ان يتركوا المدينة سنة ١٧٩٠ بدون ان يتمكنوا من أخذ أموالهم ولم يمض ثمانية أعوام أخر حتى أُخرجوا منها مرة ثانية ، ومن ذلك العهد ابتدأ شأنها يتضاءل . ولقد كان لصيدا قديماً مرفآن كمدينة صور ، الاول في الشمال الغربي ، والثاني في الجنوب الغربي . ومرفأ الشمال الغربي هو المرفأ الحالي وهو ذو شكل مستطيل تحده شرقاً قلعة البحر والجسر الموصل بين هذه القلعة وبين الشاطئ . وتحيط بهذا المرفأ من الشمال والغرب سلسلة من الصخور . ومدخله الغربي المنحوت قديماً في الصخر لم

يعد صالحاً للاستعمال . اما مدخلة الشمالي فهو الذي يصلح وحده لاجتياز السفن . ولا يتجاوز عمقه الثلاثة أمتار . فلو نظف هذا المرفإ من الردم والانقاض لعاد صالحاً لارساء البواخر . والسفن الكبيرة ترسي بعيدة عن الشاطئ على مسافة ١٣٠٠ متر . والمرفأ الجنوبي الغربي معرض للرياح الجنوبية الغربية والرواسب المتجمعة من مياه النيل كالمرفإ المصري في مدينة صور .

* * *

مرفأ بيروت } يطلق الانكليز على خليج بيروت اسم سان جورج وهو يتجه نحو الشمال تأمن فيه السفن من الرياح الجنوبية والشرقية .

اما الرياح الشمالية والغربية التي لا تصادف موانع طبيعية فهي تعصف عصفاً عظيماً في الشتاء وتحدث أمواجاً هائلة . وكان الامير فخر الدين المعني ردم مرفأ بيروت اتقاء مداهمة الاسطول التركي . ولما خلفت السفن البخارية السفن الشراعية رأت البواخر صعوبة جمة في هذا المرفإ وكثيراً ما كانت تضطره للارساء في عرض البحر كما هي الحالة في بقية سواحل الشام ولقد كانت تقضي اليومين والثلاثة لتتمكن من تفريغ شحنها . وكانت العواصف الفجائية الشديدة التي تكثر في السواحل الشامية تضطر السفن على الابتعاد عن الشاطئ خوفاً من ان تحطم بصخوره . وقد استمر الحال على هذه الصورة مدة طويلة . ولم يكن الامر خلال ذلك ذا بال لانه لم يكن لمدينة بيروت مكانة في التجارة أحرزتها بعدئذ . فالعلة كانت واحدة في جميع السواحل . ولما استفاضت تجارة بيروت وزادت مكانتها بسرعة غريبة وذلك بعد سنة ١٨٤٠ اضطر ولاة الامر اذ ذاك ان يعيروا التفاتهم لمرفإها . ففي سنة ١٨٦٣ تقدمت شركة المساجيري ماريتيم بخارطات لهذا المرفإ لاحمد قيصرلي باشا حاكم مقاطعة صيدا ، وقدرت نفقات هذا العمل بـ ٦،٣٧١،٣٠٠ فرنك . ولم يسفر هذا التذرع عن نتيجة . وفي سنة ١٨٧٩ لم تتوفق بلدية بيروت التي قررت اخذ امتياز هذا المشروع لنفسها ، لان الحكومة لم تصدق على قرارها . وفي سنة ١٨٨٠ وضع وزير الاشغال العامة في الدولة العثمانية حسن فهمي باشا خارطة سنة ١٨٦٣ موضع النظر في تقريره عن الاشغال العامة ، وبالنظر لضرورة هذا المرفإ والمنافع التي ستنجم عنه والاقتصاد

الذي يتأتى من تفريغ البضائع فيه تقدم بعضهم للحصول على امتيازه · ففي سنة ١٨٨٣ ظهر ثلاثة طلاب لهذا العمل ، وفي يد كل منهم الشروط الكافية والضمانات اللازمة ، وكان يظن ان شركة طريق بيروت — دمشق ستتمكن من إجابة طلبها ، ولم تنل هذا الامتياز بل ناله يوسف افندي مطران بارادة سلطانية مؤرخة بـ ١٩ حزيران سنة ١٨٨٧ لمدة ستين سنة تنتهي في ١٩ تموز سنة ١٩٤٧ · وقد اشترط على صاحب الامتياز المباشرة بالعمل بعد سنتين وانجازه في خمس سنوات على ان يكون طول الرصيف ١٢٠٠ متر وان ينشأ سدان كبيران يحيطان بالمرفإ و يبقى بين هذين السدين مدخل في عرض ٢٠٠ متر وعمق ثمانية أمتار وان تكون مساحة هذا المرفإ السطحية على وجه التقريب ٢٣ هكتاراً · وقد يتأتى توسيعه في المستقبل ·

واحتفظت الحكومة بحق ابتياع هذا المشروع بعد ثلاثين سنة ، واشترط المنشور السلطاني على السفن الداخلة الى المرفإ أداء رسوم الدخول والرصيف او دفع نصف الرسوم اذا كانت السفن تدخل المرفأ ولا تقترب من هذا الرصيف · وبعد هذا تم الاتفاق بين شركة طريق دمشق — بيروت وصاحب الامتياز · وقد تلكأت هذه الشركة في طلبها امتياز هذا المشروع رأساً · وفي سنة ١٨٨٨ تألفت الشركة العثمانية للمرفإ والأرصفة والمخازن في بيروت برأس مال خمسة ملايين فرنك تقسم الى عشرة آلاف سهم باعتبار كل سهم بـ ٥٠٠ فرنك · وكانت هذه الشركة افرنسية بحتة فأشاع الانكليز ان هذا المشروع عقيم جداً لعدم وجود خط حديدي بين بيروت ودمشق ، وان هذا الخط لا يمكن عمله لشدة الميل في جبل لبنان والجبل الشرقي لعدم وجود خط حديدي لنقل المحصولات بين المرافئ الشامية وبيروت · وقد بوشر بالاعمال سنة ١٨٨٩ وقامت بانجازها شركة موزي وطونن بلوزي · واستخرجت مواد البناء اللازمة لهذا المشروع من نهر الموت نقلت على خط حديدي طوله ثلاثة كيلو مترات و٦٠٠ متر على ساحل البحر وسارت الاعمال اذ ذاك ببطء لمرض العمال بالمرض الوافد اذ ذاك · وأضرت الأمطار والسيول فأحدثت خسائر عظيمة · وقد جرى اتفاق جديد بين شركة المرفإ وشركة الخط الحديدي بين بيروت ودمشق وحوران سنة ١٨٩٢ على ان تقرض هذه الشركة الأخيرة خمسة ملايين فرنك بفائدة مقررة

لشركة المرفإِ . ورهنت هذه الشركة مقابل القرض جميع أبنيتها وأملاكها وآلات المرفأ وأدواته جميعها . وهنالك شروط أُخرى اشترطتها شركة الخطوط على الشركة المدينة ضمانة ، وكانت اذ ذاك شركة الخطوط تنشيءُ خطوطها مما وسع مجال الآمال في نجاح المشروعين معاً . وبعد انتهاء عمل المرفأ سنة ١٨٩٤ ومد الخطوط الحديدية لم تمض مدة وجيزة حتى ذهبت تلك الآمال فظهر نقص عظيم في تجارة بيروت . وأسباب هذا النقص عديدة ، منها الاختلافات التي وقعت بين شركة المرفأ ووزارة البحرية العثمانية على مسألة دخول البوارج الحربية العثمانية الى المرفإِ ، ومنها الاختلافات التي وقعت بين شركة المرفإِ وادارة الجمارك بشأن رسم الحمالين والمخازن وتعيين حدود منطقة لشركة المرفأ ، ومنها زيادة رسوم الدخول للمرفإِ مما دعا الى تحويل قسم عظيم من الصادرات والواردات الى بقية المرافيءُ الشامية القريبة ، ومنها بعد المسافة بين منتهى الخط الحديدي دمشق — بيروت وبين المرفأ .

دُرست مصورات هذا المرفأ سنة ١٨٨٩ على طول كيلو متر واحد من الساحل بين رأس الشامية ورأس المدور فاستطاعوا اقتطاع اراضٍ واسعة من البحر مما ساعد على إنشاء رصيف يختلف عرضه بين ١٠٠ و١٥٠ متراً . و يبدأُ احد السدين من رأس الشامية ويمتد في عرض البحر مسافة ٨٠٠ متر. و ينتهي آخره بسد صغير عمودي على هذا السد متجه نحو رأس المدور . واما السد الثاني فيبدأُ برأس المدور و يتجه نحو السد الصغير المذكور فيقترب منه على مسافة ٢٠٠ متر . و يرتفع السد الاول وهو الاعظم طولاً وارتفاعاً خمسة أمتار عن سطح البحر . واما السد الصغير والسد الثاني فيرتفعان مترين عن سطح البحر . تقدر والزاوية التي تحدث بين السد الاول واستقامة الشاطيءُ بـ ٤٥ درجة تقريباً ، واما الزاوية الكائنة بين السد الثاني وذات الاستقامة فتقدر بـ ٦٠ درجة والعمق في منتصف المدخل ١٤ متراً ويتناقص بصورة غير محسوسة من منتهى السد الاول الى مبدئه اي يتناقص من ١٦ متراً الى اربعة أمتار و يختلف العمق قرب الرصيف بين ثلاثة وخمسة أمتار . وفي قرب السد الثاني بين ثمانية واثني عشر متراً . حتى لقد تتمكن المراكب الكبيرة من الدخول الى هذا المرفأ دون ان تستطيع تفريغ شحنها على الرصيف رأساً . ومساحة

المرفأ الذي تم عمله ٢٠ هكتاراً لا ٥٣ كما جاء في شروط الامتياز ولا يستوعب سوى ١٢ باخرة كبيرة في آن واحد ·

* * *

فرضتا جونية وجبيل ان مدينة جونية على عشرين كيلومتراً تقريباً من شمال بيروت آخذة بالارتقاء وقد قامت داخل خليج كبير يصلح ملجأ للمراكب الشراعية بل للسفن الكبيرة ايام اشتداد الانواء ولهذه المدينة مرفأ صغير يمكن توسيعه بنفقات قليلة ·

اما مدينة جبيل فهي في تأخر مستمر ولكنها ذات مكانة أثرية اكثر منها تجارية وما استخرجه علماء الآثار من الغربيين من مطاوي ارضها من العاديات النفيسة دليل على ما كان لها في الاعصر الخالية من المكانة البحرية ·

وقد حاول اللبنانيون أواخر الحكم العثماني ان يجعلوا من جونية او البترون او غيرهما من المنافذ البحرية في لبنان مرفأ يستغنون به عن بيروت فلم يفلحوا · لان ما وراء هذه الموانئ الصغيرة من القرى لا شأن له في استهلاك المتاجر ولا اتصال له بمدن كبرى في الداخلية ·

* * *

مرفأ طرابلس ان مرفأ طرابلس غير صالح لارساء البواخر الضخمة لذلك تبقى فيه بعيدة عن ساحل البحر نحو ١٢٠٠ الى ٢٠٠٠ متر · وقد بنت شركة الخطوط الحديدية مرفأ صغيراً قرب المحطة محفوظاً من جهة البحر ومدت عليه خطوطها و انشاء مرفأ كبير في طرابلس من المسائل القديمة العهد · لان شكل المدينة ملائم كثيراً لهذا العمل لوقوعها على الطريق بين جبال لبنان والعلويين · تلك الطريق التي تمر منها سكة الحديد التي تصل طرابلس بحمص وداخل الشام بصورة سريعة وسهلة مما لا مثيل له في بقية السواحل كبيروت مثلاً لانها منفصلة عن الداخل بسلسلة جبال شاهقة لا ممر لها الا من شواهق عظيمة ·

تتألف مدينة طرابلس من قسمين الاول المدينة وهي تبعد عن الشاطئ ثلاثة كيلومترات والميناء وهذا هو مرفأ المدينة · والسهل بين هذين القسمين غير صحي

و يتجه مرفأ الميناء نحو الشمال . وهناك جزيرتان صغيرتان تحفظان هذا المرفأ من الرياح الغربية ، والغربية الجنوبية . والسد القديم الممتد من الشرق الى الغرب يحفظه من الرياح الشمالية ايضاً . فموقع المرفأ اذاً يوافق إرساء السفن في كل وقت واذا اشتدت الانواء تجد هذه السفن ملجأ منيعاً تأوي اليه . اما البواخر والبوارج التي تحتاج لعمق كبير فانها تضطر للارساء في عرض البحر بعيدة عن هذا الساحل .

* * *

مرفأ اللاذقية يقع مرفأ اللاذقية في سهل خصيب على مسافة نصف ساعة من البحر ، وهذا السهل غير صحي . ويتجه خليج اللاذقية نحو الجنوب فيرسم قوساً في شكل نصف دائرة وهذا القوس ينتهي من جهة الغرب بالرأس المسمى رأس اللاذقيـة . فمرفأ هذه المدينة معرض للرياح الجنوبية والغربية ، و يتأتى لهذا المرفاء ان يكون ملجأ صالحاً للسفن لو لم يكن مطموراً بالرمال ، وقد ضاق مدخله كثيراً بسبب أنقاض قصر قديم كان مشيداً هناك ، فالسفن العظيمة ترسو في عرض البحر والصغيرة التي لا تتجاوز حمولتها الـ ٣٠٠ او الـ ٣٥٠ طن تدخل المرفأ بسهولة وسط أعمدة من الرخام والمحبّب من أطلال الآثار الغابرة . ولا يأتي انشاء فرضة لمدينة اللاذقية على طراز حديث بالفائدة المتوخاة لان عملاً كهذا يتطلب نفقات باهظة ، فالرسوم التي يقتضي وضعها واستيفاؤها لتسديد فوائد تلك النفقات تكون سبباً لتحويل قسم عظيم من تجارة هذه المدينة الى المدن الأخرى المجاورة لها . وعلى هذا فبناء المرفاء يأتي بنقص كبير في تجارة المدينة ويؤدي الى عكس الفائدة المطلوبة . وكانت الحكومة العثمانية وضعت خارطة بهذا المشروع وقد عاضدها نفر كبير من الاهالي . ونرى ان انشاء طريق بين اللاذقية وحماة أجزل فائدة من إنشاء مرفاء اللاذقية .

* * *

مرفأ الاسكندرونة تضرب الامثال بقذارة مدينة الاسكندرونة ومع هذا فقد اتخذت هذه المدينة منذ القرن السابع عشر قاعدة ومرفأ لتجارة حلب وما جاورها من البلدان وذلك لاستبداد

بعض حكام طرابلس في ذلك العصر ، وليست مدينة اسكندرونة بالبلد الزراعي ولا الصناعي ويعيش الاهلون من نقل البضائع ·

يدخل خليج الاسكندرونة في اليابسة ثلاثين ميلاً في عرض عشرين ميلاً وموقعه الجغرافي يدعو الى تأسيس مرفإٍ بحري يكون من أعظم مرافئ البحرالمتوسط · فالاسكندرونة بموقعها لها محسنات عظيمة ومهما اشتدت الرياح الهوج في عرض البحر فالامواج فيها خفيفة ثم ان الرياح الغربية قليلة الهبوب لمكان الجبال المرتفعة التي تعارض هبوبها · وشكل الارض في قاع البحر ملائم لان الخطوط المنحنية التي تمر من عمق ثلاثة واربعة وخمسة أمتار تحت سطح البحر يتباعد بعضها عن بعض بميل خفيف لذلك تصلح لتوسيع اراضي المرفأ · والمسافة بين المنحني المرسوم من عمق ٥ الى ١٥ تكفي لانشاء عامة لوازم المرفأ باحسن الشروط · ومواد البناء قريبة وكثيرة في أطراف المدينة · وفي مقالع الاسكندرونة كمية عظيمة من الاحجار الصالحة لبناء الاحواض في البحر ، والمدينة قابلة على أيسر وجه ان تصبح من كبريات المدن ويصلح الجبل المجاور لها لتأسيس مصايف جميلة وهناك عيون كثيرة تفيض ثرة ويقل مثيل لها في غيرها من المصايف الجميلة ·

والاسكندرونة هي المرفأ الوحيد لمدينة حلب ، انطاكية ، كليس ، عينتاب ، مرعش ، اورفة ، البيرة ، دياربكر · ولجميع مدن شمال الجزيرة حتى مدينة الموصل · وهذا المرفأ اكبر مرفإٍ في الشام لانه يمكنه إرساء البواخر والاساطيل الضخمة · وكان وزير الاشغال العامة العثمانية حسن فهمي باشا قدم تقريراً لاصلاح هذا المرفإِ وانشائه ، وقدر النفقات بمليوني فرنك ذهبي · على ان عمل مرفأ في الاسكندرونة يقتضي إنجازه وتجفيف المستنقعات المحيطة بالمدينة معاً وكان قدر المشار اليه نفقات هذا العمل اي تجفيف المستنقعات المذكورة بنصف مليون فرنك ذهبي ·

ان انشاء مرفإٍ عظيم مجهز باحدث الآلات في مدينة الاسكندرونة لا يفيد الفائدة المطلوبة الا بربطه بخط حديدي كثير الحركة يمكن بواسطته الاتصال مع الداخل الواسع الى دياربكر فالموصل فبغداد فايران · ولذلك اقتضى ان يكون هذا المرفأ هو الطريق الطبيعي للتجارة مع اوربا والبحر المتوسط · ويقوم الخط الحديدي

الذي أنشأته شركة سكة حديد بغداد بين الاسكندرونة وطوبراق قلعة المتصل بالخط الاساسي بتسهيل المواصلات مع قليقية . وستتحول تجارة هذه البلاد عن مرسين للاسكندرونة اذا جهزت هذه المدينة بفرضتها البحرية الحديثة . وستظل المواصلات مع حلب وما وراءها صعبة لان عمل سكة حديد بين الاسكندرونة وحلب عن أقرب طريق يقتضي له المرور من أعالي جبل أمانوس وجعل الميل شديداً على مسافة طويلة . واذا أريد تخفيف الميل يقتضي اطالة مدى الطريق فلا تختلف اذ ذاك المسافة بين الاسكندرونة وحلب في هذا الطريق الجديد عن طريق طرابلس ، حمص ، حلب من حيث المسافة عدا ان هذا أسهل من الاول . بقيت هناك طريقة أخرى للقيام بهذا المشروع وهي خرق الجبال التي تفصل بين الاسكندرونة وحلب بنفق لا يقل طوله عن عشرة كيلومترات تحت مضيق مدينة بيلان (بغراس) وهذا يستلزم نفقات كثيرة ربما زادت عن الفائدة المطلوبة الا وهي ربط حلب وضواحيها بالساحل البحري عن أقرب طريق . اما اذا نظرنا الى الاسكندرونة بصفتها مرفأً خاصاً لحلب فقط بل كما ذكرنا أعلاه للعراق وايران فتكون النفقة حينئذ متناسبة مع عظمة المشروع .

* * *

الخطوط الحديدية لقيت شبكة الخطوط الحديدية الشامية بأسرها صعوبات جمة فلم يتيسر اكثار عددها والاتساع نطاقها . فسلسلة جبال لبنان تقضي باستعمال الخطوط المسننة . وهبوط اراضي الغور التي تنحدر بصورة شديدة تقرب من الشاقولية وتجعل منها حفرةً عميقة تمنع سهولة المواصلات بين الساحل وشرقي نهر الأردن . فهذه الموانع الطبيعية في صورة الجبال اضطرت القائمين باعمال هذه الخطوط ان يعمدوا الى الخطوط الضيقة ذات الميل الشديد ، مما أدى الى كثرة النفقات في الانشاء وزيادة المنفق على الاستثمار في إنشاء هذه الخطوط . فالخطوط الحديدية في الشام التي تمكنا من الحصول على بعض الوثائق عنها وعن نبذة من تاريخها والشؤون المتعلقة بها هي على الصورة الآتية :

اولاً طريق بيروت — دمشق ، وبيروت — المعاملتين ، ودمشق — المزيريب ، وزياق — حلب ، وحمص — طرابلس الشام ٠

***

خط بيروت — دمشق } لما كثرت حركة التجارة والنقل على طريق بيروت لم تعد تكفي المركبات (الكارات) ولا الحوافل (الدليجانس) مع ما هي عليه من الانتظام والسرعة فدعت الضرورة الى انشاء سكة حديد بين هاتين المدينتين ، ولكن مشروعاً كهذا يصعب تنفيذه لانه تفصل دمشق عن بيروت سلسلتان من الجبال الشاهقة لبنان الغربي ولبنان الشرقي وذلك بصورة متعامدة على الخط الواصل بين المدينتين ٠ وهذه الجبال ترتفع عن سطح البحر الى ١٤٠٠ أو ١٥٠٠ متر على الاقل وبينهما سهل البقاع الذي يرتفع هو ايضاً من ٨٠٠ الى ١٠٠٠ متر عن سطح البحر فيظهر مما تقدم شدة الصعوبات الكثيرة التي تعترض سير الخط قبل وصوله الى دمشق المرتفعة ٦٩٠ متراً عن سطح البحر اذ يقتضي على هذا الخط قطع هذه العوارض والسهول ٠ وفي حزيران سنة ١٨٩١ استحصل السيد حسن بيهم امرا سلطانياً بامتياز خط حديدي بين دمشق وبيروت ٠ وفي هذا الامتياز رخصة باستعمال بعض الاراضي مجاناً ، واعفاء جميع مواد البناء اللازمة من رسوم المكوس والضرائب بانواعها ٠ ومن جهة أُخرى فقد اشتُرط على صاحب الامتياز استعمال اللغة التركية وحدها ، واستخدام الرعية العثمانية ، وتنظر المحاكم العثمانية في كل اختلاف يحدث خلال العمل ٠ والحكومة العثمانية تحتفظ لنفسها بحق شراء هذا المشروع بعد ثلاثين سنة ، ودفع ثمنه أقساطاً على ان لا تكون قيمة القسط أقل من خمسين بالمائة من وسطي الواردات غير الصافية للخمس سنوات الأخيرة ، كما أوجبت على صاحب الامتياز ان يؤسس شركة مساهمة عثمانية خلال ستة أشهر ، وان يتفق مع شركة طريق بيروت — دمشق للتخلي عن حقوقها وان يدفع عربوناً للحكومة مقابل هذا الامتياز ٠ وفي العشر سنوات الاولى من مدة الامتياز يرجح صاحبه على سواه لانشاء ترامواي على مسافة ثلاثة كيلومترات من طرفي الخط الحديدي

او تأسيس ادارة لتسيير عجلات او سيارات بين محطات الخط الحديدي والبلدان القريبة من هذا الخط ٠

وفي ١٨ نيسان سنة ١٨٩٠ حصل يوسف افندي مطران على امتياز خط حديدي بين دمشق وحوران ٠ ولما لم يقم بتقديم مصورات المشروع خلال المدة المعينة سقط حقه من ذلك الامتياز ٠ غير انه استعاده بعدئذٍ وأسس شركة بلجيكية باسم شركة تراموای دمشق وخط دمشق — حوران برأس مال قدره اربعة ملايين فرنك ذهبي تقسم على ثمانية آلاف سهم ، سعر كل سهم منها ٥٠٠ فرنك ٠ ومن جهة أُخرى فان الشركة التي أُسست للحصول على الامتياز الممنوح للسيد حسن بيهم سميت باسم الشركة المساهمة العثمانية لخط بيروت — دمشق الاقتصادي ٠ وقد رأت هاتان الشركتان من الضرورة الماسة ان تندمجا معًا ولا سيما لما أحرزت شركة انكليزية امتياز خط حيفا — دمشق وذلك دفعًا للخطر المحتمل حدوثه من هذا الامتياز الاخير ٠ وقد طلبتا الموافقة على ذلك الاندماج من الحكومة العثمانية التي قبلت بذلك بالمرسوم السلطاني المؤرخ في ٢٢ تشرين الثاني سنة ١٨٩١ الذي مدّد مدة امتياز هاتين الشركتين الى ٩٩ سنة اعتباراً من ٣ حزيران سنة ١٨٩١ ٠ وعلى هذه الصورة جعلت مدة الشركتين واحدة ٠ وسميت الشركة الجديدة باسم شركة الخطوط الحديدية العثمانية الاقتصادية لبيروت — دمشق — حوران في سورية ٠ واعتبر تأسيسها نهائيًا في صورة عثمانية اعتباراً من ٤ حزيران سنة ١٨٩٢ ٠ وقد باعت شركة طريق بيروت — دمشق جميع حقوقها المحررة بالمرسوم السلطاني المؤرخ بـ ٢٠ تموز سنة ١٨٥٧ من هذه الشركة الجديدة ٠ وذلك بتاريخ ٢ كانون الثاني سنة ١٨٩٢ وقد خُصص لكل ذي سهم واحد في شركة الطريق سهمان في شركة الخطوط ٠ واستحصلت شركة المرفإ على مقعدين في مجلس ادارة شركة الخطوط للمنافع المتبادلة بين الشركتين ٠ وصدرت ارادة سلطانية في ٢٥ تموز سنة ١٨٩٢ بتمديد ٤٩ سنة مدة امتياز شركة المرفأ وذلك لجعل مدة الشركات الثلاث متساوية ٠ ولم تمض مدة قليلة حتى تبدل اسم الشركة للمرة الثالثة وذلك في الجلسة العامة المنعقدة في ١٣ تموز ١٨٩٣ والسبب في ذلك ان يوسف افندي مطران صاحب امتياز خط

دمشق — حوران قد حصل على امتياز جديد خط دمشق — حمص — حماة — حلب — البيرة (بيره جك) . وعرض على الشركة هذا الامتياز الذي كانت تجلم به فصدرت ارادة سلطانية في ٣٠ أيار ١٨٩٣ تمنح يوسف افندي مطران انشاء الخط المذكور واستثماره لمدة ٩٩ سنة . وعلى ذلك أصبح اسم الشركة الشركة المساهمة العثمانية لخطوط بيروت — دمشق — حوران — البيرة على الفرات وجُعلت مدتها ٩٩ سنة تنتهي في حزيران ١٩٩٢ وجرت مراسم افتتاح خط بيروت — دمشق في ٣ آب ١٨٩٥ .

هذا الخط هو من الخطوط الضيقة عرضه متر وخمسة سانتيمترات . وهو يقطع جبال لبنان بواسطة الخطوط المسننة على مسافة ٣٤ كيلومتراً ، وطوله ١٤٧ كيلومتراً اما ميله فيصل الى سبعة بالمائة أحياناً ، ويحتوي على اربعة أنفاق (تونيل) لا يتجاوز أطولها الـ ٣٥٠ متراً فاستعمال الخطوط المسننة قد أبطأ سير القطارات ابطاءً غريباً ، مما جعل السرعة الوسطية لا تتجاوز الـ ١٦ كيلو متراً في الساعة ، ويقطع قطار الركاب المسافة بين بيروت — دمشق في تسع ساعات ، وتجتاز قطارات الشحن ذات المسافة في ١١ ساعة في حين ان الحوافل كانت تجتاز هذه المسافة ايضاً بـ ١٣ ساعة . وخط بيروت — دمشق يربح نفقات الاستثمار مع فائدة رأس المال .

واليك جدولاً يحتوي اسماء المحطات ومقدار المسافات مع ارتفاع هذه الخطوط عن سطح البحر .

اسماء المحطات	المسافات كيلومتر	الارتفاعات متر
بيروت	٠	٠
الحدث	٧	١٥٠
بعبدا	٩	٢٤٢
جمهور	١٢	٣٨٠
عاريا	١٧	٣٨٠

اسماء المحطات	المسافات	الارتفاعات
	كيلومتر	متر
عاليه	٢١	٧٥٠
بحمدون	٢٧	٧٥٠
عين صوفر	٣١	١٢٩٥
« رأس جبل لبنان »		١٤٨٧
المريجات	٤٤	١١٥٠
الجديدة	٤٧	٩٥٠
المعلقة	٥٦	٩٥٠
« سهل البقاع »		٩٠٠
رياق	٦٦	٩٠٠
يحفوفا	٧٨	١٣٢٨
« رأس جبل لبنان الغربي »		١٤٠٥
سرغايا	٨٧	١٣٧٠
الزبداني	٩٨	١٢١٣
سوق وادي بردى	١١٥	١٢١٣
دير قانون	١١٩	١٢١٣
عين الفيجة	١٢٣	١٢١٣
الجديدة	١٣٠	١٢١٣
الهامة	١٣٤	٧٤٠
دمر	١٣٧	٧٢٥
دمشق — برامكة	١٤٤	٦٩٠
دمشق الميدان	١٤٧	٦٩٠

* * *

خط بيروت — المعاملتين } يسير هذا الخط الحديدي على شاطئ البحر ويمر بطريقه على بعض القرى الساحلية وأهمها بلدة جونية ، وكان القصد من انشائه وصل مدينة طرابلس ببيروت ، ولكنه لم يتم منه سوى ١٩ كيلومتراً عند قرية المعاملتين وهو ملك لشركة الترامواي اللبناني .

***

خط دمشق — حوران } جرى انشاء خط دمشق — حوران باهتمام وسرعة زائدة وقد تم عمله سنة ١٨٩٣ وبوشر باستثماره في أواسط سنة ١٨٩٤ ، ولم يصادف صعوبة عظيمة في انشائه فالـ ١٠٣ كيلومترات المتألف منها هذا الخط تمر في سهل خفيف التموج بين دمشق — المزيريب والميل الاعظم فيه لا يتجاوز الاثنين بالمئة ، وهو من الخطوط الضيقة كخط بيروت — دمشق اي في عرض متر وخمسة سنتيمترات .

وكان لا يحصل الا على نفقات الاستثمار فقط اي انه كان لا يؤدي فوائد رؤوس الاموال . ومن العوامل التي دعت الى عدم نجاحه بُعد مرفاء بيروت عن منتهى الخط الحديدي مسافة ٢٤٠٠ متر ولكن شركة الخطوط الحديدية اتفقت مع شركة المرفاء وشركة الترامواي اللبناني على وصل الخطوط الحديدية بارصفة المرفأ وذلك بتاريخ ٤ شباط ١٨٩٧ وجرى بالفعل ذلك الوصل وبوشر باستثماره في سنة ١٩٠٣ ويبلغ طول هذا القسم ٢٢٠٠ متر وهو ايضاً من الخطوط الضيقة وقد كلف عمله جهوداً عظيمة ونفقات باهظة . اما خط دمشق — المزيريب فقد اقتلعه القائد العثماني جمال باشا اثناء الحرب العامة لاستعمال قضبانه في إنشاء الخطوط الفلسطينية العسكرية ولذلك أصبح هذا الخط من الخطوط التاريخية لانه لم يجر الى يومنا هذا إرجاعه الى ما كان عليه حتى أن الشركة الفرنسية صاحبته لا تفكر بارجاعه على ما نظن . بعد ان وضعت يدها على ادارة الخط الحجازي . ولا يعقل بقاء خطين متوازيين في منطقة واحدة .

***

خط دمشق — حلب } كتب وزير الأشغال العامة في الدولة العثمانية في تقريره سنة ١٨٨٠ لوصل مدينة حلب بديار بكر بخط حديدي ماراً ببيره‌جك واورفة . وكتب المهندس برسيل ايضاً في تخطيط الطريق الحديدي ما يقرب من خطط الوزير العثماني على ان يكون في طول ٤٢٠ كيلومتراً وفي عرض (١٫٤٤) اي من الخطوط الاعتيادية . وفي تقرير الوزير العثماني ايضاً خط حديدي يبتدئ من حلب الى حماة فحمص فدمشق فحوران . وكان قدّر نفقات كل كيلو متر واحد اذ ذاك بـ ١٣٠ الف فرنك ، وطلبت امتياز هذا الخط شركة الباتينيول وأرسلت مهندسيها لوضع التصميمات اللازمة له . وفي سنة ١٨٩٢ طلبت شركة عثمانية مؤلفة من اعضاء مسلمين امتياز هذا الخط من وزارة الحربية وذلك لانشاء خط عسكري بدون ضمانة كيلومترية . ولكن صدرت الارادة السلطانيـة بتاريخ ٣١ ايار ١٨٩٣ باعطاء الامتياز ليوسف افندي مطران وكيل الشركة الفرنسية لخط بيروت — دمشق — حوران وعقدت المقاولة مع الوزير حسين توفيق باشا و يوسف افندي مطران . وقد ذكر بصراحة في اول مادة لهذه المقاولة ان القصد من عمل هذا الخط هو عسكري بحت . وعلى صاحب الامتياز ان يسير حسب ما قررته وزارة الحربية من التخطيط وان ضابطاً من اركان الحرب سيقوم بدرس هذا المشروع مع اللجنة المخصصة لدرسه . وجُعلت مدة الامتيـاز ٩٩ سنة على ان يكون عرض الخط اعتيادياً (١٫٤٤) وان يكون مفرداً و يضـاف اليـه خط ثانٍ في المستقبل . وفي الامتياز شروط أُخرى تُذكر عادةً في المقاولات من هذا النوع . كاعفاء المحروقات وادوات الخط جميعها من المكوس ووضع عربون في خزينة الدولة مقداره ٢٢٥ الف فرنك . وانه يحق للدولة اشتراء هـذا الخط ودفع ثمنـه أقساطاً على ان لا تكون قيمة القسط أقل من خمسين بالمئة من وسطي الواردات غير الصافية للخمس سنوات الاخيرة وان لا يكون المبلغ المدفوع أقل من سبعة آلاف فرنك عن كل كيلو متر واحد . وقد ذكر ايضـاً اربعة شروط أُخرى ذات مكانة عظيمة نذكرها فيما يلي :

(١) ان الشركة قد حصلت على حق استثمار المعادن الواقعة في طرفي الخط على

مسافة ٢٠ كيلومتراً من الجانبين . (٢) حصلت الشركة على ضمانة كيلومترية مضمونة باعشار البلاد التي يمر منها هذا الخط . وهذا عكس جميع الخطوط الشامية . وان لا تكون هذه الضمانة أقل من سبعة بالمئة من رأس المال الموضوع للتأسيس وان لا تكون أكثر من ١٢٥٠٠ فرنك عن كل كيلومتر واحد .

وبما ان هذا الخط الذي أُخذ امتيازه ولم يجر انشاؤه يبلغ طوله اكثر من ٥٠٠ كيلومتر فأعظم ضمانة يقتضى على الحكومة العثمانية دفعها تتجاوز السبعة ملايين و٢٥٠ الف فرنك ولما كانت النقليات قليلة على بعض نقاط هذا الخط فستضطر الحكومة لدفع هذا المبلغ برمته تقريباً .

(٣) يحق للشركة ان تمدد خطوطها الى الشمال لنقطة واقعة بين بيرهجك حتى تتمكن من وصلها بخط بغداد (المادة ٣) . (٤) تُرجح الشركة على سواها للحصول على امتيازات جميع الخطوط التي تقرر الحكومة تمديدها بين الخط الاساسي والسواحل الشامية بشروط متساوية (المادة ٣٥) . وأخيراً وضع وزير المالية مبلغ مليون و٨٠٠ الف فرنك بين يدي اللجنة الدولية للديون العامة لتأمين الضمانة الكيلومترية . وذلك في سنة ١٨٩٦ . وفي ١٢ تشرين الاول ١٨٩٦ اتفقت الشركة والحكومة العثمانية على تأجيل إنشاء هذا الخط مدة خمس سنوات . وتعهدت الحكومة بدفع تقسيط سنوي مقداره ٣٣ الف ليرة عثمانيـة ذهبـاً اي ٧٥٠ الف فرنك الى الشركة مقابل العطل الذي يصيبها من هذا التأجيل .

ومع هذا لم يتم انشاء هذا الخط الا لمدينـة حلب فقط وجرى عمله على قسمين : الاول رياق — حماة . والثاني حماة — حلب . وطول القسم الاول وهو خط رياق — حماة ١٨٩ كيلومتراً بوشر باستثماره سنة ١٩٠٢ وعرضه متر واربعـة واربعون سانتيمتراً ونصف ، وميله الاعظم اثنا عشر بالالف ، وفي رياق مخزن كبير للفحم ، ومعمل لاصلاح أدوات الخطوط والقاطرات ويعلو هذا الخط في بعلبك ١١٢٠ متراً عن سطح البحر . ثم يهبط الى حماة المرتفعة ٣٠٧ أمتـار . اما القسم الثاني وهو خط حماة — حلب فيبلغ طوله ١٤٣ كيلومتراً جري استثماره سنة ١٩٠٦ وعرضـه متر واربعة واربعون سانتيمتراً ونصف ، وميله الاعظم اثنـان في المئة . وقد كان

القصد تمديده الى مدينة بيرهجك كما تقدم ولكن اعطاء امتياز خط بغداد الى الشركة الاناضولية حال دون تمديده الى الشمال ٠

* * *

خط حمص – طرابلس } طول هـذا الخط ١٠٢ كيلو مترين ، وقد شرع باستثماره سنة ١٩١١ ، وعرضـه متر واربعة واربعون سانتيمتراً ونصف ، وميله الاعظم اثنان بالمئة ، واقتلعت قضبانه اثناء الحرب الكونية العامة واستعملت في تمديد خط بغداد — نصيبين ، وخربت كثير من المحطات وبعض الجسور خلال هذه الحرب ، وأعيد الخط الى ما كان عليه قبلاً سنة ١٩٢١ وبلغت نفقات إعادته احد وعشرين مليون فرنك ٠ وقد بلغت نفقات استثمار خطوط شركة دمشق — حماة وتمديداتها عن سنة ١٩٢٦ ، ٣٤،٧٥٩،١٤٢ فرنكاً والواردات ٥٧،٧٥٩،٣٢٥ ٠

* * *

طريق الحج وسبب إنشاء الخط الحجازي } كان المسلمون يلاقون صعوبات ومشقات في ذهابهم وإيابهم الى البلاد المقدسة لاداء فريضة الحج في كل سنة ، فكان يستغرق سفر الحاج الشامي اربعين يوماً من دمشق الى المدينة المنورة وعشرة ايام من المدينة الى مكة المكرمة ٠ خمسون يوماً يقضيها الحاج بين دمشق والمدينة فمكة وعشرون يوماً على الاقل يمضيها في القيام بالمناسك وزيارة قبر النبي المعظم صلى الله عليه وسلم ويقضي خمسين يوماً في عودته ٠ فهذه اربعة أشهر كاملة للحج الشامي ٠ اما التركي والايراني وغيرهم من اهالي الممالك الاسلامية النائية فقد كان يحول الحول على أحدهم دون الوصول الى بغيته ٠ وناهيك بما يعترض الحاج من مشاق الأسفار وأهوالها وما يضطر لصرفه من النفقات الباهظة في هذه السبيل ٠ وكان كثير من الأغنياء يتقاعسون عن القيام بهذه الفريضة لعدم توفر الوسائط اللازمة لراحتهم ٠ فعمل خط حديدي الى البلاد المقدسة كان من الضرورة بمكان ٠

كان الحجاج المسلمون يأتون الوفاً من جميع الأقطار الاسلامية الى دمشق ويجتمعون فيها انتظاراً لسفر موكب الحج وكان يتألف هذا الموكب في دمشق و يسير

منها متجهاً نحو البلاد المقدسة تحت إدارة حاكم عثماني يلقب بامير الحج · ان قافلة كهذه يصعب جداً سيرها بدون انتظام شديد وكانت تتألف من مشاة وفرسان وهجانة وحمّارة يقدر عددها بعشرة آلاف نسمة وعشرين الف دابة على الأقل · ولذلك كانت طاعة امير الحج واجبة على جميع الحجاج ليسهل عليهم قطع هذه الطريق المملوءة بالأخطار والمصاعب دون ان يتركوا احداً على الطريق اواسيراً بين ايدي البدو · وكان هؤلاء يثورون على الحكومة من وقت الى آخر ، وبواسطة الهدايا التي كان يرسلها السلطان لقبائل البدو والعطايا التي يمن بها على شيوخهم كانت أطراف دمشق آمنة سالمة ، وكان لا يخشى وقوع حوادث بالقرب منها ، ولذلك كانت القافلة غير مضمونة الانتظام الا بجوار بلدة المزيريب في حوران ·

وكانت العادة ان يرحل اميرالحج من دمشق في الخامس من شهر شوال في ركب مؤلف من جيش صغير مجهز بالاسلحة الكاملة والمدافع الصغيرة ويتبعه الحجاج زرافات ووحداناً · والدمشقيون يقومون بتشييعهم الى قبر احمد باشا في الميدان اي الى جامع العسالي ، وتجري المراسم العسكرية والاحتفالات تكريماً لهذا الركب العظيم ، وكانت الحكومة في دمشق تهتم اهتماماً زائداً بتشييعه ، ويسير الموظفون وأصحاب الرتب العالية بالبستهم الرسمية أمام المحمل الشريف تحيط بهم صفوف الجند وهجانة البدو حتى نهاية طريق الميدان ، وكانت الموسيقى تصدح اثناء الموكب والمدافع تطلق حين خروجه وعند وصوله الى القدم والكل فرحون مسرورون من هذا اليوم العظيم ·

وبعد ذلك يسير الركب من القدم الى الكسوة وهناك يجد ماءً صالحاً للشرب ثم يسير الى المزيريب فيبقى فيها اربعة او خمسة ايام وعندئذ يتألف الركب عسكرياً وعلى رأسه امير الحج فيسير قسم من الجيش في المقدمة والقسم الآخر يقوم بحفظ جناحي الركب · وفي كل صباح ومساء تطلق ثلاث طلقات نارية اعلاماً بوقت المسير والوقوف وكثيراً ما كان يبلغ طول هذا الركب ثلاثة اواربعة كيلومترات · واما الدرب الذي كان يسير عليه فهو عبارة عن عدة طرق صغيرة حفرتها ايدي الإبل والدواب طول السنين ولا يوجد طريق مرسوم على الطريقة الفنية الحديثة المعروفة اليوم ·

وكانت المسافة بين دمشق ومكة المكرمة تقدر باربعمائة وتسعين ساعة وباربعين مرحلة منها ٩٠ ساعة من المزيريب الى معان ٠

ويجتاز الركب من المزيريب الى المفرق وعين الزرقاء والبلقاء والقطرانة وهنا يشتد عليه الدرب صعوبة ويدب الرعب والخوف في قلوب الحجاج ذلك لانه كانت المضايق غاصة بعصابات من اللصوص ٠ والماء المشروب قليل ٠ وكثيراً ما كانت السيول تجرف الركب باجمعه فلا ينجو منه الا الحجاج فقط ، فاذا بلغ الركب مدينة معان يستريح فيها قليلاً ويتابع سيره فيقطع العقبات المؤدية الى النفود ، وهذا المضيق الصعب يبعد ثلاث عشرة ساعة عن معان ، فيترجل الحجاج عن دوابهم ويسيرون مشاةً أمام امير الحج الذي يصعد على رأس جبل صغير ويجلس مشاهداً الجموع تمر أمامه ٠ وبعد ذلك يسير الركب ولا يشاهد في طريقه سوى الرمال في سهل النفود القاحل حتى مدائن صالح مدة ١١٤ ساعة ٠ وكثيراً ما يشاهد الحجاج سراب هذه الرمال الجميلة عن بعد ٠ ففي هذه الطريق الصعبة وبين هذه الرمال المحرقة يسرع الركب تخلصاً من النصب والتعب ، فيوزع امير الحج على الحجاج المياه للشرب مجاناً ويستأجر مئات من الجمال لتقوم بهذا العمل الخيري ، وكل ذلك لم يكن يجدي نفعاً ٠ ولطالما حدثت اختلافات بين الامير والبدو فتقع المصيبة على رأس الحجاج والركب معاً على ما وقع ذلك كثيراً فيملأ الخوف والرعب قلوب الحجاج طول الطريق فيتحدثون بهذه الحوادث المخيفة التي وقعت في السنين الماضية ويعلم بعضهم بعضاً بمحالها ومواقعها ويذكرون ما كان يتتبعها من أعمال السلب والنهب ٠

ان مدائن صالح أخف صعوبة من البلاد التي قبلها وأقل خطراً منها ٠ وفيها كثير من الآثار القديمة النبطية ٠ فمنها يسير الركب الى المدينة المنورة وبعدها الى مكة المكرمة واكثر الاراضي الحجازية مؤلفة من جبال وأودية وقليل من الواحات فالطريق التي يتبعها الركب هي طريق صعبة ٠ وفيها آبار منقطعة وليست بجيدة ٠ وهناك ايضاً درب آخر يقال له الدرب السلطاني وهو الدرب الأقصر طولاً ولكنه أشد خطراً ٠ فالحجاج يعرضون عنه حينما تبلغهم ثورة البدو على الحكومة ٠ هكذا

كانت حالة الطريق المؤدية الى البلاد المقدسة وهذه هي المشقات التي كان يلاقيها الحجاج في طريقهم .

* * *

انشاء الخط الحجازي وهذا ما دعا الحكومة العثمانية في ضرورة اتخاذ التدابير اللازمة لإزالة هذه الصعوبات والحيلولة دون الاسباب التي كانت تقلق راحتها في الداخل وتظهرها بمظهر العاجز في الخارج أمام دول الغرب . لاسيما وان السلطان عبد الحميد الثاني كان حريصاً جداً على توسيع نفوذه المعنوي في جميع الممالك الاسلامية خدمة للاسلام وتوصلاً لغاياته السياسية لذلك فقد قرر سنة ١٩٠٠ مد خط حديدي يصل الشام بالحجاز ويسهل السفر على الحجاج ويأتي بالفوائد المادية والمعنوية على البلاد والدولة . على ان هذه الفكرة لم تكن بنت وقتها وليست وليدة رأس عبد الحميد فقد سبقه اليها الدكتور زامبل الاميركي الالماني الاصل فاقترح سنة ١٨٦٤ على الحكومة العثمانية مد خط حديدي بين دمشق وساحل البحر الأحمر .

وفي سنة ١٨٨٠ صحت عزيمة وزير الاشغال العامة في الاستانة على تمديد هذا الخط الى الاراضي المقدسة . ولكن اكثر المهندسين والجغرافيين كانوا يقولون بتعذر تنفيذ هذا المشروع . لان البلاد التي يجتازها هذا الخط ينزلها قبائل من البدو الرحالة الذين اعتادوا السلب والنهب . وسهولة المواصلات بالوسائط البحرية ورخصها اكثر من البر . وقالوا ان الربح الذي يحصل من نقل الحجاج اثناء الموسم لا يكفي للقيام بجميع النفقات السنوية لهذا الخط العظيم . ولكن كانت هذه الصعوبة في نظر السلطان عبد الحميد أخف مما يُتصور . فادارة الحج ونفقات السفر كانت تستنزف من موازنة الحكومة مبلغ ١٥٠ الف ليرة عثمانيـة على الاقل . والهدايا التي ترسل الى البدو تقوم بـ ٦٠ الف ليرة عثمانية . وكان السلطان عبد الحميد يأمل من جهة أُخرى وصول مبالغ عظيمة من الامم الاسلامية اعانة لهذا المشروع الاسلامي ولم تبدأ الحكومة بالعمل الا بعد ان أعلنت عزمها على ذلك في جميع الاقطار الاسلامية مما هو داخل تحت سيطرتها او خارج عنها . وأبانوا ما ينتج عن ذلك من التسهيل لرواد

الحج واستمطرت أكف المسلمين تعضيداً لهذا المشروع الديني المحض . فتحقق أمل السلطان وبدأت الاكتتابات ترد من جميع البلدان الاسلامية وقد افتتح هو نفسه هذه الاكتتابات بـ ٣٢٠ الف ليرة عثمانية ، وتابعه في ذلك الملوك والامراء المسلمون . فشاه العجم أرسل ٥٠ الف ليرة عثمانية وخديوي مصر تعهد بارسال كمية عظيمة من مواد البناء والانشاء . وألفت في البلاد الاسلامية الخارجة عن حدود الدولة العثمانية كثير من الجمعيات لجمع الأموال ، فألف الهنود ١٦٦ جمعية وأهالي لكنو وحدهم أرسلوا ٣٢ الف ليرة عثمانية وكذلك أهالي رانكون ومدراس ارسلوا ايضاً ٧٣ الف ليرة ، وارسل الميرزا علي احد أغنياء كلكوتا خمسة آلاف ليرة وأرسل مدير جريدة الوطن في لاهور ٥٠٠٠ ليرة وذلك من الاكتتاب الذي فتحه في جريدته واشترك فيه الهنود والترانسفاليون والصينيون . ولم تنقطع الاعانات مدة انشاء الخط مما دل على سريان روح التضامن في الشعوب الاسلامية .

والاغرب من هذا ان احد النمسويين دفع ٢١٠٠ ليرة عثمانية ليحصل على لقب (باشا). وقد جعلت شارات وأوسمة لمن يدفع الاعانات . فالدرجة الثالثة لمن يدفع من الـ ٥ ليرات الى ٥٠ ليرة . والدرجة الثانية لمن يدفع من الـ ٥٠ الى ١٠٠ ليرة . والدرجة الاولى لمن يدفع أكثر من ١٠٠ ليرة ذهبية . وهذه الطريقة كانت نافعة لولا ان هذه الرتب والاوسمة كانت تباع في الاستانة باقل عما تتقاضاه دوائر الخط الحجازي . ثم وضعت بعض الضرائب لاعانة الخط ونزل الموظفون عن راتب شهر كامل في بادئ الامر ثم أكره الموظفون على دفع عشر راتبهم الشهري في السنة مرة واحدة . واحدثت طوابع الخط الحجازي وبعض الضرائب الجمركية لمنفعة هذا الخط كما جمعت ادارة الخط جلود الاضاحي من الناس تبيعها وترتفق بثمنها . مما دعا قنصل انكلترا الى ان يصرح سنة ١٩٠٤ قائلاً : يظهر لي ان احتمال اكمال الخط الحجازي هو أعظم مما كنت أتصور قبل سنة او سنتين . والحقيقة ان أكثر الناس كانوا اذ ذاك وخصوصاً المطلعين على هذا الامر يظنون ان عملاً كهذا هو أقرب الى الخيال منه الى الحقيقة . واذا لم يتم هذا المشروع الى مكة المكرمة ووقف عند المدينة المنورة فذلك لم يكن منبعثاً من قلة المال لان المال أصبح وافراً بعدما كان يخشى من قلته و يظهر ذلك

من الاطلاع على موارد هذا المشروع · فالاخصائيون لا يظنون الآن ان النفقات العامة تتجاوز ١٢٥ مليون فرنك اي خمسة ملايين ونصف ليرة عثمانية · في حين انه كان يظهر في بادئ الامر ان هذا المبلغ هو الحد الاصغر لهذا العمل · فقد جمع من الاعانات في البلاد الاسلامية ٧٥٠ الف ليرة عثمانية اي ١٧ مليون فرنك · والضرائب التي وضعت تضمن مورداً قدره ٢٥٠ الف ليرة سنوياً · فهذا المبلغ يسد نفقات الانشاء · والاعانات تساعد على شراء المواد اللازمة اه ·

وفي الواقع انه لم يكن احد يتصور ان النتيجة ستكون قريبة التناول بهذه الصورة وان العمل سيتم على هذه السرعة وهذا النظام لطول المسافة ، وفقدان المياه ، ووعورة المسالك ، وفقر الدولة وضعفها الاداري ، ولكن المشيئة الالهية قد ذللت كل هذه الصعاب ووفقت الى إنجازه ليكون نقطة اتصال بين الاقطار العربية الاسلامية وواسطة مباركة لتوفير راحة الحجاج وتسهيل مسالك الحج والزيارة ·

كان استعمال الاعانات منظماً تنظيماً حسناً ، فقد وزعت الاجور على العمال والرواتب على الموظفين بصورة منظمة ، ودفع ثمن الادوات ومواد الانشاء في الحال · مما دعا الناس ان يؤمنوا بانجاز هذا المشروع · وقد كان سير العمل سريعاً · فكانوا يمدون مائة كيلو متر في كل عام · بيد ان احد المقربين من السلطان عبد الحميد احمد عزت باشا العابد مع لجنة الحجاز كانوا يديرون الأموال على طريقة غير مرضية فتسربت الملايين الى جيوب اللصوص والخونة ، فأدى سوء الاستعمال في مواد الانشاء لاضاعة كثير منها · وكان هؤلاء المقربون يحمون بعض رجالهم الذين يتقدمون في صورة ملتزمين وينقدونهم الأموال الزائدة و يعينون بعضهم في وظائف في الادارة ·

شرع بانشاء الخط الحجازي في شهر ايلول سنة ١٩٠٠ مبتدأً به من المزيريب لان بين دمشق وهذه القرية سكة حديد افرنسية يمكن نقل الحجاج من الشام الى المزيريب عليها لا سيما وان امتياز هذه السكة لا يجيز انشاء سكة أخرى تحاذيها ، وما كادت الحكومة تمضي في عملها حتى بدأت المنافسة تشتد بين الادارتين فشعرت الحكومة العثمانية حينئذ بشدة الحاجة الى اتصال الخط الحجازي بمدينة دمشق ·

وقررت انشاء خط درعا — دمشق وبوشر بالعمل من دمشق والمزيريب دفعةً واحدة ٠ وفي سنة ١٨٩٣ نالت الشركة الافرنسية امتيازها ولم يكن السلطان عبد الحميد الثاني يفكر في خطه المقدس ٠ ولذلك كان سمح لها بوضع سكة حديد بين دمشق والمزيريب وبوشر باستثمارها منذ سنة ١٨٩٤ فانشاء سكة حديدية موازية لخطها من دمشق الى درعا يجعل المنافسة على أشدها ولذلك احتجت الشركة على هذا العمل فتمكنت من نيل امتياز خط حلب مع الضمانة الكيلومترية وذلك في شباط سنة ١٩٠٥ ٠

وقد افتتح القسم الاول من الخط الحجازي اي دمشق — درعا في ايلول ١٩٠٣ وبعد ذلك بشهر واحد افتتح قسم درعا — عمان وتيسر لادارة السكة الحجازية في أقل من ثلاث سنين مد ٢٢٣ كيلو متراً ٠

يتجه الخط الحديدي الحجازي بعد خروجه من واحة دمشق نحو الجنوب الشرقي في استقامة سهل حوران فيمر بالمسمية أهم قرى اللجاة ثم يقطع هذا الخط سهل حوران الخصيب برمته وهو يمتد الى سفح جبل الدروز و يصل الى محطة درعا الواقعة في وسط السهل وهي على ١٢٣ كيلو متراً عن دمشق ومن درعا يتفرع فرع حيفا متجهاً صوب الغرب فيصل البحر ، واما الخط الاساسي فيبقى مستمراً في طريقه نحو الجنوب ٠

من أهم الفوائد التي جنيت من امتداد هذا الخط ان كثيراً من البدو سكنوا تلك الربوع بالقرب من مخافر الجنود العثمانيـة وامتلاك عدد عظيم من مهاجري الشركس الذين كانوا تائهين في شمالي الشام بعض الاراضي هناك وأسسوا القرى والمزارع فيها ٠ وكل هذا العمل لم يكلف أموالاً باهظة بالنسبة لغيره من المشاريع ٠ وكانت القاطرات في نهاية سنة ١٩٠٣ تسير الى مسافة ٣٠٠ كيلومتر من دمشق وبلغت اكلاف الكيلومتر الوسطي حينئذ ٢٠٠٠ ليرة عثمانية ذهبية ٠ ولما بدأت المنافسة بين السكة الحجازية والسكة الافرنسية شعر السلطان عبد الحميد ومهندسوه بشدة الحاجة الى اتصال الخط الحجازي بمرفاء بحري يستمد منه لوازمه وأدواته ويكون منفذاً للاقطار الواسعة التي سيمتد فيها فقرر انشاء خط حديدي جديد بين حيفا ودرعا ٠

والناظر الى خارطة البلاد الشامية يرى لاول نظرة مكانة خليج عكا فسلسلة الجبال الممتدة من مصب نهر العاصي الى ترعة السويس وهي بمثابة سد عظيم بين

الساحل والداخل وليس فيها سوى بعض منحدرات كسهل طرابلس وبيروت ومصب الليطاني اي القاسمية وخليج عكا . وأعظم هذه المنحدرات وأهمها الانخفاض الواقع قرب عكا . ان سلسلتي لبنان الغربي والشرقي المتوازيتين تمنعان المواصلات مع الداخل منعاً بتةً لارتفاعها . وبالطرق الفنية اتصلت دمشق ببيروت وهكذا الشأن في الانخفاض في جوار بحر لوط فانه يعوق المواصلات مع الداخل ايضاً . فلم يبق اذاً سوى سهل عكا الذي يسهل المرور منه الى الداخل . ولذلك كانت عكا وحيفا في العصور القديمة والقرون الوسطى حتى القرن التاسع عشر مرفأين طبيعيين لحوران ودمشق . وقد رأى كثير ممن يعنيهم الامر وصل دمشق وحيفا بخط حديدي لسهولة هذا الطريق كما بيناه آنفاً . وكان الانكليز أشد الناس رغبةً بنيل امتياز هذا الخط وخصوصاً بعد احتلالهم جزيرة قبرس . وقد تمكن أبناء سرسق من أعيان بيروت من استصدار منشور سلطاني يمنحهم حق انشاء خط حديدي بين عكا — دمشق . ولكنهم لم ينجحوا إذ ذاك في عملهم لتعذر معاونة أرباب الأموال في انكلترا . فخسروا العربون الذي دفعوه الى خزينة الدولة وقدره خمسون الف فرنك .

وفي سنة ١٨٨٩ طلب (م . ف . الياس) رأس المهندسين في لبنان هذا الامتياز مجدداً مع تمديد الخطوط الى حوران فلم يفلح ايضاً . وقد انقضت المدة ولم يُعمل عمل بهذا الشأن الى ان نال الامتياز المهندس اللبناني والمستر بيلنغ من التبعة البريطانية وأسسا شركة الخطوط الحديدية العثمانية للشام برأس مال قدره ٦٠٠ الف ليرة انكليزية . وبوشر بالعمل سنة ١٨٩٢ ثم توقفت الاعمال بعد الكيلومتر التاسع لان أفكار أرباب الاموال من الانكليز كانت متجهةً نحو معادن الذهب . فجاءت حرب الترنسفال وانصرفت أفكار الانكليز كل الانصراف اليها مما أدى الى ترك العمل بتةً .

فلما قرر السلطان عبد الحميد وصل الخط الحجازي بمرفإ حيفا كما ذكرنا قبلاً رأى من الضرورة استرجاع هذا الامتياز وذلك في تشرين الثاني سنة ١٩٠٢ . وتمكن مهندسو عبد الحميد من عمل خط حيفا والخط الحجازي بعد استلامهم الأعمال التي تركها الانكليز . بيد انهم لم يتخذوا الخط الانكليزي أساساً لهم بل تركوه

وشأنه وجعلوا خطهم الجديد خطاً ضيقاً كالخط الحجازي وتمكنوا من الوصول الى درعا نقطة اتصال هذين الخطين باقل من ثلاث سنوات بالرغم مما اعترضهم من الصعوبات العظيمة أثناء عملهم . وقد كلف هذا الخط من سبعة الي ثمانية أضعاف المعدل المتوسط لنفقات الخط الحجازي . وحقاً ان هذا القسم كان أهم قسم من الخط الحجازي وأحسنه من الوجهة الفنية اذ كانت تتخلله صعوبات فنية لا توجد في سواه . ويبتدئ هذا الخط من حيفا على ساحل البحر فيرتفع ٨٠ متراً في مرج ابن عامر بعد سير ٤٠ كيلو متراً . ثم يهبط من اعلى هذا السهل الي أسفل وادي الشريعة ليمر فوق جسر ينخفض مقدار ٢٤٦ متراً عن سطح البحر . وذلك بعد قطع مسافة ٤٥ كيلو متراً . ثم يعود فيصعد من جديد الى ارتفاع ٣٧٦ متراً وذلك بعد مسافة ٤٠ كيلومتراً . ثم يصل الى سهل درعا المرتفع ٥٣٠ متراً عن سطح البحر. فكل هذه التموجات من الصعود والهبوط قد اقتضى قطعها على مسافة ١٦٨ كيلومتراً. فالقضية صعبة بنفسها وخصوصاً ان وادي اليرموك الواقع في الجهة الشرقية من نهر الشريعة كان شديد الخطر وليس من ممر سواه في تلك البقاع . وبذلك تمكن السلطان عبد الحميد ومهندسوه من الخلاص من شركة بيروت — دمشق — حوران وأصبح لهم مرفأ خاص وهو حيفا التي أصبحت تبعد عن درعا ٣٢٣ كيلومتراً بالقطار. وبين درعا وحيفا ستة جسور حديدية اثنان منها بطول ٥٠ متراً والاربعة الآخرون بطول ١١٠ أمتار . ويوجد سبعة أنفاق يختلف طولها بين الـ ٤٠ والـ ١٧٠ متراً . والخط يقطع نهر الشريعة على جسر من الحجر جميل المنظر والصنع طوله ٦٠ متراً وهو ذو خمس قناطر .

وفي الوقت الذي نجز فيه خط حيفا — درعا تم القسم الثالث من الخط الحجازي الواقع بين عمان — معان . ففي اول ايلول سنة ١٩٠٤ المصادف للعيد الثامن والعشرين من الجلوس السلطاني ذهب وفد برئاسة طرخان باشا وزير الخارجية العثمانية للاحتفال بافتتاح الخط الحجازي بين دمشق ومعان وطول هذا القسم ٤٥٩ كيلومتراً . وكان هذا الوفد مؤلفاً من عظماء رجال الدولة العثمانية .

ان الخط الاساسي بعد محطة درعا يسير نحو الجنوب الشرقي ثم نحو الجنوب

مباشرةً فيمر من سهل قاحل تنزل فيه عشيرة بني صخر المؤلفة من ٢٠٠٠ بيت و٢٠ الف نسمة وبعد ان يقطع « الحماد » اي السهل المنبسط يمر بالقرب من أطلال الحصون الرومانية القديمة التي يسميها العرب اليوم قلعة المفرق وقلعة السمرة ٠

اما بقايا مدينة جرش القديمة وآثارها وسورها فتبقى في غربي الخط الحجازي ٠ وهذه الآثار هي أكمل وأعظم ما يوجد في تلك البقاع من نوعها ٠ وفي القرب من قلعة الزرقاء الرومانية يقطع الخط وادي نهر الزرقاء على جسر مرتفع جميل الصنع ٠ ثم يصعد الخط في وادي نهر الزرقاء ويصل الى عمان بالقرب من نبع هذا النهر وذلك بارتفاع ٧٣٧ متراً عن سطح البحر وعلى ٢٢٣ كيلومتراً عن دمشق ٠

وبعد الخروج من عمان يتجه الخط نحو الجنوب صاعداً سهل الصحراء المائل فيمر من نفق طوله ١٤٠ متراً ويترك بجانبه كثيراً من الآثار القديمة منها المعبد اليوناني في قصر السهل ٠ والمدينة القديمة في أُبَّن وكذلك الخزان الروماني والقصر العربي في الجيزة او قلعة الزيزاء ٠ وقبل ان يصل الخط الى قلعة ضبعة يميل نحو الشرق ويلتف باطراف وادي الموجب وبعد ذلك يتجه ايضاً نحو الجنوب فيمر من خان الزبيب وقلعة القطرانة وقلعة الحسا وجروف الدراويش التي تحتوي على قصر روماني بديع ومن قلعة عنزه التي تقطن فيها أحياناً قبيلة عنزة المؤلفة من ٧٠٠٠ نسمة ٠ وبعد قلعة الحسا تبدأُ الارضون التي تنزل فيها قبيلة الحويطات ٠ ثم يصل الخط الى معان المرتفعة مقدار ١٠٧٤ متراً عن سطح البحر ٠ وهذه المدينة هي النقطة الوسطى للخط الحجازي لانها تبعد عن طرفيه على أبعاد متساوية والمحطة تبعد كيلومترين عن مدينة معان ٠ وفي هذه المحطة أبنية عديدة للسكة الحجازية ٠ وبفضل وصول الخط الحديدي الى تلك البقاع استتب الامن فيها وبدأت الحياة الزراعية تظهر شيئاً فشيئاً ٠ وقد تحضر قسم من البدو وأصبحت تلك الديار في قبضة الحكومة العثمانية بعد ان كانت تابعة لها بالاسم فقط بحيث ان احد شيوخ البدو المدعو محمد جهل كتب الى بيير لوتي الكاتب الفرنسي المشهور سنة ١٨٩٤ « بسم الله الذي هو الكل ولا باسم سلطان القسطنطينية الذي ليس بشيء » ٠

وكان قصد القائمين بهذا المشروع الجليل انشاء فرع للخط بين مدينة معان

وهذا لا يمنعنا من البحث عن الطريق المناسب لمد الخط الحديدي بين المدينة المنورة ومكة المكرمة ، عسى ان تنهض البلاد العربية من كبوتها فيقوم ابناؤها باتمام هذا المشروع الحيوي لبلادهم المحبوبة ٠

ان الطرق الممتدة بين المدينة المنورة ومكة المكرمة التي يصلح السير عليها هي ثلاث او ثنتان اذا اعتبرنا الثالثة فرعاً للثانية ٠ فالطريق الاول هو الشرقي الذي يصل المدينة المنورة بمكة المكرمة رأساً وهو يبعد ١٥٠ كيلومتراً عن شاطىء البحر الأحمر وهو يمر من أعالي الجبال بين موانع عديدة يصعب سير الدواب المحملة عليها ولذلك فان قوافل الحجاج لا ترجح المسير عليها وان كانت أقصر الطرق ٠ واما الطريق الثانية فهي السلطاني الذي ينخفض من المدينة المنورة نحو ساحل البحر الأحمر الى مرفإ رابغ ومنه يعود فيصعد الى مكة المكرمة ٠ و يوجد طريق آخر بين المدينة ورابغ ينقص طوله ٦٠ كيلومتراً عن الطريق السلطاني و يسمى الطريق الفرعي لانه لم يخرج عن كونه قسماً من الطريق الثانية ٠

ان قوافل الحجاج ترجح السير على الطريق السلطاني لمكانته الرسمية والتاريخية ولسهولة المواصلات عليه وعلى هذا فالخط الحديدي المنوي انشاؤه بين المدينتين المقدستين لا يصلح عمله الا بالقرب من الطريق السلطاني وعلى طوله مرفأ رابغ الذي يقع على شاطئ البحر الأحمر يسكنه ٣٠٠٠ نسمة وهو على مسافة ١١٢ كيلومتراً من شمالي جدة ٠ وليس ثمة من صعوبة في انشاء هذا الخط لعدم وجود موانع طبيعية كما ان المياه غزيرة على طول الطريق على العكس في الطريق الشرقية ٠

بقي مبدأ الخط الحجازي حتى سنة ١٩٠٨ في منتهى محلة الميدان بدمشق بالقرب من قرية القدم ٠ وقد بُنيت بعد هذا التاريخ محطة القنوات الواقعة في غرب مدينة دمشق على طراز عربي حديث و بشكل جميل يتناسب مع عظمة هذا الخط المقدس ، ومهندس بناء هذه المحطة هو المهندس المعمار الشهير السيد داراندا قنصل اسبانيا وهولاندا في دمشق وهو صاحب الايادي البيضاء على تزيين المدينة وعمرانها ٠ و بالقرب من محطة القدم معمل كبير خُصص لاصلاح القاطرات والشاحنات وصب الآلات الحديدية وأعمال النجارة والتدهين ٠ فالأبنية الخاصة

بالمعمل والمخازن تشغل سطحاً من الارض تبلغ مساحته ١٠٦٠٠ متر مربع · وقد بلغت نفقات إنشاء هذه الابنية مليون فرنك · وبُنيت في محيط تبلغ مساحته ٥٣ الف متر مربع · أُنيرت جميع هذه الابنية مع الساحة بالأنوار الكهربائية ·

✡ ✡ ✡

ألخط الحجازي في عهد العثمانيين وبعدهم } كان الخط في عهد الحكومة العثمانية يدار في جميع أدواره بموازنة مستقلة عن موازنة الحكومة باعتبار انه وقف اسلامي · وكان في البدء مرتبطاً بلجنة عليا في الاستانة يرجع اليها في شؤونه العامة ، ثم طرأت على ادارته طوارئ عديدة غيرت من أوضاعه على ما عرضنا لذلك سابقاً · ثم استقر مرتبطاً بادارة الاوقاف عملاً بالقانون الصادر في هذا الشأن · اما حالته بعد انسحاب الدولة العثمانية من الشام ودخول جيوش الحلفاء فانه كان تام الاجزاء من حيث وضعه الاساسي ولم يطرأ عليه الخراب سوى في الجهات البعيدة بعض البعد عن العمران · ويمكن اعتبار مبدإ التخريب من بعد المحطات التي تلي محطة عمان جنوباً على ان هذا التخريب يكاد ينحصر في الجسور والمحطات والمصانع والمستودعات وغير ذلك من المباني والمحال التي كان يسهل نسفها · اما الخطوط الحديدية فظلت سليمة على الجملة سوى نقاط قليلة يسهل اصلاحها وتشييدها ·

هكذا كانت حالة هذا الخط عند دخول الحلفاء الشام ، واما حالته من حيث الآلات والأدوات ومعامله وقاطراته ومركباته وشاحناته وغير ذلك من لوازم التعمير ووسائط سيره فقد بلغت من الجودة درجة يندر وجود نظيرها لدى أغنى الشركات في البلاد التي خاضت غمار الحرب العامة طول هذه المدة ·

واليك مقادير الآلات والادوات المختصة بقسم السير والجر وهي ١٢٠ قاطرة بخارية و١٢٠٠ شاحنة و١٠٠ مركبة ركاب من صنوف مختلفة و٢٠ شاحنة بريد · عدا ما هنالك من عدد كبير من شاحنات الماء (الصهاريج) وأشياء فنية كثيرة · واما المعامل فمنها ما كان في القدم جنوبي دمشق وهو معمل مجهز باحدث الآلات الفنية وكذلك مستودع صغير للتعميرات وصنعها · وفي درعا مصنع صغير ومستودع وفي سمخ مستودع وفي عمان مستودع وفي معان مستودع ومصنع مختصر وفي تبوك

الخط الحجازي في المؤتمرات { عقدت معاهدة لوزان بين تركيا والحلفاء في سنة ١٩٢٣ ولم يقرر المؤتمر شيئاً في مصير الخط الحجازي لأن الافرنسيين والانكليز كانوا متفقين على تأليف لجنة ادارية عليا من المسلمين يكون مقرها المدينة المنورة تنظر في شؤون الخط وتسعى لاصلاحه . ولقد نصت المعاهدة التي عقدت بين تركيا والحلفاء في لوزان سنة ١٩٢٣ على عقد مؤتمر في الأستانة مؤلف من ممثلي الدول التي انفصلت عن تركيا ومن ممثلي مجلس الديون العامة لمعرفة واردات تلك الدول . وفي عام ١٩٢٤ عقد هذا المؤتمر فكان فيه مندوبون عن المناطق المنفصلة عن تركيا . وعند تعيين مقادير الواردات والتقاسيط السنوية تقرر تقسيم الخط الحجازي وتجزئته واعتبار كل قسم ملكاً للمناطق التي يجتازها هذا الخط . وقد ثبت الحكم المعين وفقاً لقرار جمعية الامم في جلساته الحكمية في جنيف مبدأ اعتبار واردات الخط الحديدي الحجازي على النسبة الكيلو مترية لا على نسبة ما تستفيده كل مقاطعة من الخط الذي يمر منها .

ثم ان المادة ١١٨ من معاهدة لوزان تنص على عقد مؤتمر في باريز بعد مرور شهر من صدور حكم الحكم الذي عهدت اليه جمعية الامم النظر والحكم في اعتراضات الدول ذات العلاقة بالديون العثمانية العامة . وقد ضربت الحكومة الفرنسية موعداً لعقد هذا المؤتمر في اول تموز سنة ١٩٢٥ بباريز ودعت اليه جميع الدول ذات العلاقة بالديون ودعيت الحكومة الحجازية لارسال مندوب ينوب عنها في شهود هذا المؤتمر ففعلت ذلك ولكن لتحتج على ما لحق بالمملكة الحجازية من الحيف .

***

الخط الجنوبي اليوم { بعد الحاق معان والعقبة لشرقي الاردن خلال سنة ١٩٢٥ تسلمت ادارة خطوط فلسطين الخط الحجازي الجنوبي حتى المدورة الواقعة في الكيلومتر ٥٧٧ وبما ان طول الخط الاصلي من دمشق الى المدينة المنورة عبارة عن ١٣٠٧ كيلومترات فيكون مايعود امر إدارته من هذا الخط الى الحكومة الحجازية الحاضرة ٧٣٠ كيلومتراً .

***

نفقات الخط الحجازي } بلغت نفقـات الخط الاصلي وفروعه حتى سنة ١٩١٨ وهي السنة التي خرجت الدولة العثمانية فيها من الشام ٥٫٠١٢٫٣٩٨ ليرة عثمانيـة ذهبًا ٠ فهذه القيمة قليلة جداً بالنسبة لطول الخط وللبوادي الشاسعة القاحلة التي قطعها ٠ ولولا ان الحكومة العثمانية كانت تستخدم الجنود باجور زهيدة للغـاية لما تيسر لها انشاء هذا الخط ولكانت اضطرت لإنفاق ضعفي هذا المبلغ على أقل تقدير ٠ والحق يقال ان هذا الخط مدين بانشـائه للجنود العثمانية التي بذلت في سبيله الجهود العظيمة ، بل النفوس الكريمة ، وعدا ذلك فان المبيعات المحلية والنقليات على اختلاف أنواعهـا جرت بصورة معتـدلة للغاية ٠ وكان معظم الناس يعتقدون ، وهم على صواب في اعتقادهم ، ان تقديم الاعانات الى الخط وبذل المعاونات في سبيله من أعظم القربات ٠ وبدافع هذه الثقة قدم كثيرون أشياء ثمينة ذات قيم كبيرة كالأخشاب والأحجار والاراضين ٠ فلا بدع اذا قلنا ان هذا الخط ثمرة جهود الامة الاسلامية في مشارق الارض ومغاربها ، ومأثرة غراء من مآثرها الخالدة في هذا العصر ، عصر النور والعرفان ٠

* * *

إصلاح الخط الحجازي } وخلاصة القول ان إصلاح هـذا الخط امر ضروري حيوي بالنسبة للبلاد العربية لما له من العلاقات بجميع أقطارها ٠ فمن الواجب على الحكومات العربيـة ان تسعى كل السعي لإرجاع الخط الى حالته الاولى ، وتعمل في سبيل تحسين شؤونه اكثر من قبل ٠ وهذا الإصلاح لا يتم الا بايصال هذا الخط الى مكة المكرمة عاصمة الاسلام ، و بربطه بخطوط فرعية مع السواحل كمكة المكرمة بجدة والمدينة المنورة بينبع ومعان بالعقبة فيصبح بهـذه الفروع الممتدة الى سواحل البحر الأحمر والبحر الأبيض من اكبر العوامل لانعاش التجارة في البلاد التي يمر بها ، و يتسع نطاق العمران والتحضير في الصحاري والسهول العربية ٠ ومن جهة أخرى يضمن بهذه الطريقة ايضـاً نقل الفحم الضروري لاستثمار الخط على أيسر وجه و باقل كلفة ٠ وقضية الفحم قضية ذات شأن في حياة الخط ، وكان يبلغ ما يستهلكه من الفحم الحجري مقدار ٣٠٫٠٠٠ طن في السنة ولا يبعد ان

يأتي يوم تمكن فيه الاستفادة من شلالات ز يزون وتل شهاب لتوليد الكهرباء فتسير القطارات حينئذ بهذه القوة فتقل نفقات الخط السنوية وتصبح الاجور أقل مما هي عليه الآن فتكثر المراد . وليس ذلك اليوم ببعيد ان شاء الله .

تفتقر البلاد العربية الى رجال الفن وأرباب الصنائع الاخصائية الذين يعول عليهم في إصلاح البلاد وتسيير شؤونها الفنية . في حين لا تنقص فيها المقدرة والاستعداد للقيام باصعب الامور فيما اذا قيض الله لها من أبنائها من يرشدها ويحسن إدارتها . ولقد برهنت على ذلك في كثير من أدوار تاريخها المجيد ، وخصوصاً بماقامت به أخيراً من الاعمال اثناء إنشاء الخط الحجازي ، وما بذلته من الجهود في سبيله مما جعل مدير هذا الخط المعروف المسيو ديكمان الالماني ان يصرح بشهادته الطيبة لابنائها في تقريره الذي رفعه للحكومة الفيصلية العربية : انني عاجز عن وصف سروري من الموظفين والعملة العرب الذين كانوا في إدارتي ، لما هم عليه من حب العمل والنظام وما اتصفوا به من شدة الذكاء والمقدرة ، كما شاهدت ذلك في صفوف موظفي المحطات والقطارات والسواق والسير ، وكنت أجد سروراً خاصاً عند النظر في امورهم لما هم عليه من النشاط في كل امر .

☆ ☆ ☆

الخطوط الحديدية الفلسطينية
خط يافا — القدس

كانت مدينة يافا في كل أدوارها مرفأ لانزال الزوار القاصدين مدينة القدس . ولذلك كانت فكرة انشاء خط حديدي بين المدينتين من الامور المتفق على صحتها وجلالة شأنها . ولكن بعض المشتغلين بهذه القضايا كان يعتقد صعوبة تنفيذها ، ويرجح انشاء خط ترامواي لقلة المواصلات التجارية في فلسطين . ذلك لان كثرة الزوار لا تكون الا في مواسم معينة من السنة . وكان اول تخطيط (مصور) قدم للحكومة لعمل سكة حديدية في سنة ١٨٦٤ قدمه الدكتور زامبل الاميركي الالماني . ومنح امتياز هذا الخط الى يوسف نافون افندي في ٢٨ تشرين الاول سنة ١٨٨٨ لمدة ٧١ سنة مع احتمال تمديد هذا الخط الى غزة ونابلس . ثم الى دمشق اذا دعت الضرورة الى ذلك في المستقبل . وقد باع صاحب هذا الامتياز امتيازه من شركة

الخطوط الحديدية العثمانية ليافا — القدس وتمديداتها الافرنسية المؤسسة في باريز في شهر كانون الاول سنة ١٨٨٩ بمبلغ مليون فرنك . وقد بوشر بانشاء هذا الخط في نيسان سنة ١٨٨٩ فصادف المهندسون صعوبات جمة في طريقهم ، خصوصاً في القسم الواقع بين عرتوف والقدس لان الارض صخرية جبلية وقد استغرق هذا العمل ست سنوات بالنظر لهذه الصعوبات . انتهى العمل منه في ايلول سنة ١٨٩٢ وافتتح في ٢٦ ايلول سنة ١٨٩٢ بحضور بعض الحكام العثمانيين . وطول هذا الخط ٨٧ كيلو متراً ، وهو خط ضيق منفرد وعرضه متر واحد يجتاز مائة وستة وسبعين جسراً سبعة منها حديدية . وأطول هذه الجسور لا يتجاوز الثلاثين متراً وأقصرها ستة أمتار . وقد تجنب القائمون بالاعمال فتح الأنفاق مما زاد في اعوجاج الخط وكثرة الحزيات الناشئة عن ذلك . فالخط يحاذي وادي صرار و يقطعه في محلات متعددة . واقتلعت إدارة الخطوط الحديدية العثمانية في الحرب العامة قسماً من هذا الخط بين يافا ولد اي على مسافة ١٩ كيلومتراً واستعملت قضبه في إنشاء الخطوط العسكرية التي كانت تنشأ اذ ذاك في فلسطين ولم تقتلع بقيته لانها استفادت منه ووصلته بخط العفولة — القدس من لدّ الى وادي صرار اي مسافة ١٨ كيلومتراً .

* * *

خط حيفا — دمشق ألمعت قبلاً الى ان جبال لبنان الشاهقة وماوراءها من الجبال الشرقية تمنع سهولة المواصلات بين دمشق وبيروت وتؤلف سداً منيعاً بين هاتين المدينتين ، ولذلك رأى من يعنيهم الامر منذ زمن بعيد وصل دمشق بنقطة من الساحل تكون غير مدينة بيروت . فكانت الانظار تتجه ابداً الى مدينتي عكا وحيفا . لان الخط الذي يصل دمشق بهاتين المدينتين يسهل عمله لوجود سهل يزرعيل الذي ذكرنا شيئاً عنه آنفاً . وكانت بريطانيا تحلم كثيراً بالحصول على خط حديدي يسير بين احدى الموانئ الشامية والخليج الفارسي . وخصوصاً بعد احتلالها جزيرة قبرس في البحر المتوسط . ففي سنة ١٨٨٢ نال السادة أبناء سرسق منشوراً سلطانياً يخولهم حق انشاء خط حديدي بين عكا ودمشق آملين إدخال التحسين على أملاكهم الواسعة في مرج ابن عامر راجين معاونة

البريطانيين . وكانت فكرة إنشاء خط حديدي في ذلك الحين سائدة بينهم . بيد انهم لم ينجحوا بعملهم وقد خسروا عربونهم البالغ ٥٠ الف فرنك الموضوع في خزينة الدولة العثمانية .

وفي سنة ١٨٨٩ طلب يوسف الياس افندي رأس مهندسي لبنان الى الحكومة العثمانية اعطاءه امتياز هذا الخط مع فرع الى حوران . وانقضت المدة المضروبة للمباشرة بالعمل ولم يتمكن هو ايضاً من القيام بهذا الشروع . وفي ٣٠ ايلول سنة ١٨٩١ أعاد الكرة يوسف الياس افندي ونال هذا الامتياز مجدداً بالاشتراك مع المستر بيلانغ الانكليزي . واشترطت الحكومة عليهما في هذا الامتياز إنشاء فرعين لهذا الخط الاول من قرية نوي الى بصرى في حوران . والثاني من نهر الشريعة الى حاصبيا . وبوشر بالاعمال في ١٢ كانون الاول سنة ١٨٩٢ في الوقت الذي باشرت به باعمالها شركة بيروت دمشق في ٨ كانون الاول سنة ١٨٩٢ . ولم تمض مدة حتى توقفت الأعمال على خط حيفا — دمشق ولم يتم منه سوى ثمانية كيلومترات . لان الشركة التي أُسست للقيام بهذا المشروع لم تحصل على المعاونة المالية اللازمة لها في أسواق لندن . وكانت المدة المضروبة لانهاء العمل تنتهي في شهر تشرين الاول سنة ١٨٩٥ وعلى هذا أنذرت الحكومة العثمانية الشركة في أوائل سنة ١٨٩٥ بوجوب الاسراع بالعمل وبعد إلحاح المساهمين وافقت الحكومة على تمديد المدة ثلاث سنوات أُخرى . و بالرغم من هذه التسهيلات لم تقم الشركة باتمام عملها . وفي سنة ١٨٩٦ أصبح القسم الممدد من الخط في حالةٍ يرثى لها بعد تركه طوال هذه السنين الأخيرة . ثم ظهرت فكرة انشاء الخط الحديدي الحجازي لدى السلطان عبد الحميد وربطه باحد فُرُض البحر المتوسط فقام اذ ذاك باسترجاع امتياز خط حيفا مستفيداً من ذلك التأخير الذي وقع في أعمال الشركة كما ذكرنا ذلك في عرض الكلام عن الخط الحجازي .

* * *

الخطوط العسكرية الفلسطينية } لم تحلْ الحرب العامة دون الادارة العسكرية العثمانية التي تولت السيطرة على الخط الحجازي اذ ذاك وتمديد مئات الكيلو مترات من الخطوط الحديدية بين فلسطين والحدود

المصرية داخل فلسطين ايضاً . وهذه الخطوط وان لم يكن لها شأن يذكر بجانب الخط الاصلي فقد أحببنا ان نذكر شيئاً عنها تتميماً للفائدة .

ان إدارة الخط الاصلي أنشأت لها فروعاً في سورية وفلسطين . ومنها فرع حيفا — عكا وهو ١٧ كيلومتراً وفرع درعا — بصرى وهو ٢٧ كيلومتراً وفرع العفولة — القدس الذي بوشر فيه سنة ١٩١٢ ووصل الى قرية السيله عند اعلان الحرب العامة وهو ٤٠ كيلومتراً . ومن المسائل التي تستحق الذكر ما أجرته إدارة الخط من الاعمال في اثناء الحرب العامة ذلك ان حملة السويس لما أخفقت أدركت قيادة الجيش العثماني ضرورة تمديد الخط الحديدي حتى السويس باسرع ما يمكن . وكان القائل بهذه الفكرة جمال باشا الذي تمكن على الدوام من اعطاء المال والرجال لاجراء الاعمال المطلوبة وقد جيء في ذلك الحين بميسنر باشا المهندس الالماني من بغداد لاستلام أعمال الانشاء وكان هو مهندس الخط الحجازي عند تأسيسه من سنة ١٩٠٠ الى ١٩٠٨ .

كان قسم العفولة — القدس الذي شرعت فيه ادارة الاستثمار وصل نابلس في شتاء ١٩١٤ و١٩١٥ . وكانت الفروع المصرية التي بدأت الادارة بانشائها من المسعودية في خط العفولة — نابلس تمتد وتسير في بطاح سارون حتى القدس وليس فيها كثير من الموانع والحوائل الطبيعية . ودعت الضرورة الى جعل الخط بعيداً عن الساحل ليكون بأمن من قذائف السفن الحربية . وفي شهر تشرين سنة ١٩١٥ تمكنت الادارة من انشاء ١٦٥ كيلو متراً وسلمتها للاستثمار حتى بئر السبع . وهذا العمل بالنظر لما صودف في تنفيذه من المصاعب يعد من الاعمال العظيمة .

وقد استفادت ادارة الاعمال من خط يافا — القدس الافرنسي الموجود سابقاً بين محطة لد ووادي الصرار اي مسافة ١٨ كيلومتراً كما ذكرنا ذلك آنفاً وأدخلت هذا القسم بخط العفولة — القدس الذي نحن في صدد الكلام عليه ولكنها اضطرت لتعريضه لان عرضه كان متراً واحداً فجعلته متراً وخمسة سانتيمترات كبقية الخطوط الحديدية الحجازية . وكانت الادارة لا تملك عند اعلان الحرب سوى ٣٠٠ كيلومتر من قضبه الحديدية و٥٠ كيلو متراً من العوارض الحديدية فقلعت من خط يافا — القدس قسم يافا — لد اي ١٩ كيلو متراً وخط حيفا — عكا ١٧ كيلو متراً وخط

دمشق — المزيريب ١٠٣ كيلومترات وقد أحضر قسم كبير من العوارض من أخشاب الاوكالبتوس النابتة في بطاح شارون ومن شجر الصنوبر في جبل لبنان ٠

وبدئ باتمام الخط الى السويس في قلب صحراء سينا قبل ان تم انشاء قسم بئر السبع ٠ ولكن عمليات الانشاء لم تتقدم بسرعة كما جرى في قسم مسعودية — بئر السبع لان نقل الامداد للجيش كان من الاسباب الداعية لعدم سرعة العمل ٠ ومع ذلك فقد انشئ ٦٢ كيلومتراً نحو السويس من بعد بئر السبع في صيف ١٩١٦ وكانت المحطة النهائية في القسيمة وعندما جلا الجيش الى جهة غزة في ربيع سنة ١٩١٧ اضطرت الادارة الى رفع الاقسام الجنوبية من بئر السبع ٠ ثم بدئ بانشاء فرع من التينة الى ديرسنيد — بيت حانون ومن ديرسنيد الى الهوج ومسافتها ٥٣،٥ كيلو متراً وبنيت ايضاً فروع عسكرية ليضمن معها نقل محروقات الخط وهي طولكرم — كفرفرع ٢٤ كيلو متراً ٠ وفرع جلينيا — خضرا ستة كيلو مترات ٠ وغزة — الهيشة ٢٨ كيلومتراً ٠ القصر — الهرمل ١٩ كيلومتراً ٠ ومن هذا كله يتضح انه قد انشئ في اثناء الحرب من الخطوط ٤٣٧ كيلومتراً وكانت كلها فروعاً للخط الحجازي وذلك رغم الصعوبات الكثيرة التي كانت تظهر في تدارك اللوازم الضرورية ٠

ولما سقطت جبهة غزة واضطر الجيش للجلاء حتى أواسط فلسطين تركت أقسام الخط في جنوب طولكرم في تشرين الثاني سنة ١٩١٧ في حين ان الانكليز كانت تسرع اثناء الحرب بانشاء خط ساحلي من بورسعيد الذي خصص لمدد الجيش الانكليزي ٠ ولما استولت على فلسطين شرعت بتمديد هذا الخط من فلسطين ايضاً في أيلول سنة ١٩١٨ وأوصلته الى حيفا عند جلاء الجيش العثماني عنها ٠ وبهذه الواسطة تم اول اتصال بين الخطوط المصرية والحجازية ٠ ولا شك ان هذا الاتصال يفيد البلدين فائدة اقتصادية عظيمة لانهما ما زالا منذ الازمان القديمة مرتبطين احدهما بالآخر ارتباطاً قوياً ، مادياً وأدبياً ٠

بدأ الانكليز عقبى استيلائهم على فلسطين يتحرون الوسائط والطرق اللازمة لانشاء خط كبير يخترق البلاد العربية من الغرب الى الشرق ويربط حيفا بالخليج الفارسي وسيكون طول هذا الخط تقريباً ١٥٠٠ كيلو متر ولكن بعد ان تمكنت

السيارات من اختراق الصحراء والوصول الى القطر العراقي بسهولة تأخرت فكرة انشاء هذا الخط في الوقت الحاضر .

* * *

ان مجموع الخطوط الحديدية في فلسطين وشرقي الأُردن ٧٠٨ و ١،٤٠٥ كيلومترات منها ٨٣٤ ،٧١٥ كيلومتراً من الخط العريض و ٨٧٤ ،٦٨٩ كيلومتراً من الذي عرضه ١٠٥ سانتيمترات وهذه التفاصيل :

كيلومترات		
٢٢٣	٣٧٤	خطوط فلسطين الأصلية
٤٩١	٩٨	خطوط فلسطين الجانبية (المحطات) والجوانب مقصات وتفريغ
٧١٤	٤٧٢	المجموع
٨٨٥	٢٠١	خطوط سينا العسكرية الاصلية
٢٣٥	٤١	خطوط سينا العسكرية الجانبية ...
١٢٠	٢٤٣	المجموع
٠٤٠	٢١٢	خط الحجاز في فلسطين الاصلي
٥٤٦	٣٠	خط الحجاز الجانبي ...
٥٨٦	٢٤٢	المجموع
٣٤٣	٤٣٦	خط الحجاز الشرقدني الاصلي
٩٤٥	١٠	خط الحجاز الشرقدني الجانبي ...
٢٨٨	٤٤٧	المجموع

ثم انشئ فرع جديد من حيفا خاصاً بمعمل نيشر طوله سبعة كيلو مترات .

عدد	
١٣٠	القاطرات
١٠٧	مركبات الركاب
٢٢٥٩	قاطرات وشاحنات

« الواردات عن سنة ١٩٢٥ والنفقات »

جنيه مصري	
٦٠٤٥٧٩	الواردات
٤٣٨٥٠٤	النفقات
١٦٦٠٦٥	الباقي وهو الربح السنوي

وقد اشترت حكومة فلسطين جميع الخطوط العسكرية والفرنسية وأصبحت ملكاً لها .

* * *

خط بغداد } جرى البحث كثيراً في الاندية الانكليزية منذ سنة ١٨٣٤ الى سنة ١٨٤٥ بشأن الملاحة في نهر الفرات ، فاتجهت الافكار نحو آسيا العثمانية ، وتألفت شركة في سنة ١٨٥١ لانشاء خط حديدي يبتدئ من السويدية في خليج الاسكندرونة وينتهي بالكويت في الخليج الفارسي . وكان يرأس هذه الشركة الجنرال سير فرنسيس شيزني وقد نالت الامر السلطاني بامتياز هذا الخط مع وعد الحكومة العثمانية بان تعطي الشركة ضمانة تضمن لها فائدة ستة بالمئة لرأس المال ، ولكن هذه الضمانة لم يتأكد اعطاؤها . ولما رأى الشعب الانكليزي عدم اهتمام حكومته بهذا المشروع بصورة رسمية خاف من إخفاقه فلم يكتتب باسهم الشركة . ولذلك لم تتمكن الشركة من نيل المعاونة المالية اللازمة فسقط امتيازها . وبعد سنة ١٨٦٩ راجت من جديد فكرة انشاء خط السويدية — الكويت . وفي سنة ١٨٧٢ حبذ هذا المشروع كثير من النواب البريطانيين . وكانت تقدر نفقات هذا الخط بعشرة ملايين ليرة انكليزية . ومضى زمن وفكرة هذا المشروع تتخبط الى ان حدثت امور مهمة حولت الرأي العام الانكليزي عنها بتاتاً . وبعد افتتاح ترعة السويس اقترح بعضهم وصل الاسماعيلية بالكويت بخط حديدي . ولكن هذا المشروع الجديد لم يجد أنصاراً ولم يرج الرواج المطلوب في الرأي العام الانكليزي . وبعد ذلك تألفت جماعة من الروسيين واقترحت طريقة جديدة وهي وصل طرابلس الشام بالخليج الفارسي بخط حديدي ، يتفرع منه فرع الى كربلاء ، ولكن هذه

الفكرة كانت عقيمة لا تستحق الاهتمام لان خطاً حديدياً كهذا لا يجوز تمديده في تلك الصحاري القاحلة .

و بالتزاحم الذي حدث بين الدول الغربية لنيل امتيازات في البلاد العثمانية كان الالمانيون آخر من تقدم وذلك في سنة ١٨٨٨ فجاؤوا بافكار جديدة . فكان الانكليز والفرنسيون ممن يهتمون بالخطوط الحديدية العثمانيـة . وكانوا لا يفكرون بغير وصل السواحل بالبلاد الداخلية وذلك لترويج صنائعهم وتجارتهم . لذلك لم ينشئوا سوى خطوط صغيرة كيافا — القدس — حيفا ودمشق — بيروت وطرابلس — حمص السويدية او الاسكندرونة — حلب ومرسين — أذنة واضاليا الخ . فكل هذه الخطوط كانت تبتدئ من السواحل وتنتهي بمدن الداخل . وخلافاً لهذه الخطة الغربية تقدم الالمان بطريقة جديدة تتفق مع المصالح العثمانيـة اكثر من الاولى . ففي سنة ١٨٧١ ارتأى فون برسيل المهنـدس الالماني ان يجعل الاستانة مركز الخطوط الحديدية الاوربية والآسيوية ، فبدلاً من ان يكون للبلاد العثمانيـة عشرون خطاً صغيراً لا يرتبط الواحد بالآخر اقترح ان تنشأ في البلاد خطوط أساسية تقتطعها عرضاً وطولاً فتكون واسطة جيدة بيد الحكومة من الوجهة الادارية والعسكرية . وتصل جميع الاقطار العثمانيـة بعضها ببعض واول خط من هذه الخطوط التي اقترح عملها المهندس برسيل كان خط الاستانة — بغداد .

وبناء على اقتراحه هذا ووفقاً للمخططات التي رسمهـا شرعت الحكومة العثمانية بانشاء خطها العظيم الملقب بقاطع آسيا الصغير . وكان القصد من هذا الخط ان يبتدئ من مرفإ حيدر باشا على ساحل البوسفور و ينتهي بالكويت على ساحل الخليج الفارسي ماراً بازميد مجتازاً مضـايق نهر سقاريا المعوج فيصل اسكيشهر ومنها يتجه شرقاً نحو انقرة — يوزغاد — سيواس — عربكير — خربوط — دياربكر — ماردين — الموصل — بغداد ومن هذه يسير موازياً لدجلة وشط العرب حتى خليج فارس . ودعوا هذا التخطيط بالمخطط الشمالي وكان هذا التخطيط أقصر الطرق وأقلها نفقة و يبلغ طوله ٣٥٠٠ كيلومتر . قامت الحكومة العثمانية في سنة ١٨٧١ بمد ٩٢ كيلومتراً من حيدر باشـا الى ازميد بمعرفة المهندس برسيل ولكن الثورات والحروب المتتابعة

في اوربا العثمانية وكذلك التدخلات الاجنبية قد أوقفت استمرار العمل بهذا المشروع مدة ست عشرة سنة . وفي سنة ١٨٨٨ تمكن المصرف الالماني « دو يتش بنك » من الحصول على امتياز هذا الخط حتى مدينة انقرة مع الوعد بتمديد بقية أقسامه الى مدينة بغداد بضمانة كيلومترية ١٥ الف فرنك . وقد وقعت الارادة السلطانية التي منحت امتياز الخط باسم المصرف الالماني في تشرين الاول سنة ١٨٨٨ . و باشر الالمان عملهم في شباط سنة ١٨٨٩ . وفي سنة ١٨٩١ تمكنوا من إتمام ٣٠٠ كيلومتر . وفي سنة ١٨٩٣ وصل خطهم الى انقرة اي انه مد منه ٥٧٨ كيلومتراً .

كانت مدينة أنقرة بلدة صغيرة قبل جعلها عاصمة الدولة التركية وهي واقعة باعالي الجبال ترتفع ٩٢٠ متراً عن سطح البحر . وعلى اثر وصولهم اليها طلبوا من الحكومة العثمانية امتياز الاقسام الاخرى من هذا الخط ، على ان يجري تعديل في استقامة الخط ، فبدلاً من ان يسير الخط من أنقرة الى بوزغاد وسيواس ، طلبوا تحويله من أنقرة الى قيصرية . وحصلوا في اول سنة ١٨٩٣ على امتياز قسم قيصرية اي مسافة ٣٢٠ كيلومتراً مع ضمانة كيلومترية قدرها ١٧٦٥٠ فرنكاً وقد سمي هذا التخطيط الجديد بالخط الوسطي غير ان هذا التخطيط لم يرق في عيني روسيا التي كانت تخشى تقدم الالمان في الولايات الشرقية فلعبت السياسة ألاعيبها بين لينينغراد و برلين فقبل الالمان أخيراً تغيير استقامتهم فتركوا أنقرة وشأنها وطلبوا من الحكومة اعطاءهم امتياز قسم جديد بين أسكيشهر وقونية وقد حصلوا على ذلك في سنة ١٨٩٣ وسمي هذا التخطيط بالخط الجنوبي مع ضمانة كيلومترية قدرها ١٥ الف فرنك . غير ان هذا التخطيط الأخير لم يرق ايضاً في أعين الانكليز والافرنسيين الذين كانوا يرجون نيل امتيازات في تلك البقاع التي لهم فيها مصالح وخطوط . فاحتجوا لدى الباب العالي وقدموا شروطاً أحسن من شروط الالمان وقد دعمت الحكومة الافرنسية طلب الماليين الافرنسيين وتمكنت من اخذ امتيازات الخطوط الحديدية السورية بين دمشق وحلب .

وصل الخط الحديدي الى قونية في أواخر سنة ١٨٩٥ وبعد ذلك شعر الالمان بضرورة الاتفاق مع بعض الماليين من الامم الاخرى فأشركوا معهم الافرنسيين ونالوا امتياز

خط قونية — بغداد في كانون الثاني سنة ١٩٠٢ مع ضمانة كيلومترية قدرها ١٦٥٠٠ فرنك وممن اشترك مع الالمان من الفرنسيين بهذا المشروع شركة خط ازمير — قصبة وشركة المصرف العثماني . وقد اشترط الفرنسيون مقابل دخولهم في هذه الشركة ان يكون لهم اربعون بالمئة من الاسهم واربعون بالمئة للالمان وعشرون بالمئة لروسيا وان تكون جميع الحقوق متساوية بين الالمان والفرنسيين كإدارة المشروع وتقديم الادوات ولم يتم هذا الاتفاق لاسباب سياسية ، ولذلك لم تقبل فرنسا ادخال أسهم هذا المشروع في بورصة باريز . وفي شباط سنة ١٩٠٣ كلف الالمان حكومة لندن تأليف شركة جديدة تكون الاسهم فيها متساوية بين الالمان والانكليز والفرنسيين اي ثلاثون بالمئة لكل منهم وعشرة بالمئة تبقى للروسيين او للحكومات الصغيرة كالبلجيك وهولاندة وسويسرا فلم تنجح هذه الطريقة لحل المشكلة القائمة بينهم . وبقي الالمان مدة يساومون الدول الغربية بذلك يهددون الروس تارة بتكميل مخططهم الشمالي المنتهي بانقرة ، وطوراً يهددون الانكليز والفرنسيين باتمام مخططهم الجنوبي المنتهي في قونية . وفي ٥ آذار سنة ١٩٠٣ قررت الحكومة العثمانية اعطاء امتياز خط قونية — بغداد والبصرة لشركة خطوط الاناضول . وفي ٣٠ تموز من هذه السنة صدر المنشور السلطاني بذلك . واشترط فيه إتمام هذا الخط في ثمانية أعوام اي في سنة ١٩١١ . فباشر الالمان عملهم وأتموا قسم قونية — بلغورلو وقد أمنتهم الحكومة على الضمانة الكيلومترية لهذا القسم وبعد هذا القسم تأتي جبال طوروس الشاهقة . وفي هذه الجبال وادٍ عظيم كان الطريق الوحيدة لجيوش الفاتحين من الأقدمين وهو خط الاتصال بين قليقية وصحراء الاناضول . وهذا الوادي لا يزيد عرضه عن العشرة أمتار في كثير من النقاط ، والجبال ترتفع حفافيه اكثر من مئتي متر . وكان الاسكندر الكبير والرومان والصليبيون والعرب والسلجوقيون والمصريون يقطعون هذه الجبال ويجتازون هذا الوادي . وقد فكر الالمان ان يمدوا خطوطهم على هذه الطريق بعد ان يعرضوها و يجعلوها صالحةً للسير وبعد ان يبنوا عليها الجسور اللازمة والانفاق الصغيرة . ولكنهم عدلوا عن هذه الفكرة لشدة الصعوبات في تنفيذها ولكثرة النفقات وخصوصاً نفقات الترميم الدائمة التي تكون باهظة وفوق هذا لا يكون الخط في مأمن

من الأنواء الجوية فضلاً عن ان بلدة بلغورلو ترتفع عن سطح البحر ١١٥٠ متراً والوادي المذكور يرتفع ١٤٥٠ متراً وان مدينــة أذنة هي واقعة على سفح الجبل من الجهة الثانية ولا ترتفع شيئاً يذكر عن سطح البحر . فهذه التموجات بالارتفاعات تجعل الطريق المذكورة صعبة جداً ويتعذر مد الخطوط فيها . ولذلك عوّل الألمان على درس طريق ثانية . فبعد ان بحثوا في الجبال عن أقل الطرق كلفةً وأسهلها عملاً لم يروا سوى طريقــة واحدة وهي عمل نفق حلزوني لا يقل طوله عن اثني عشر كيلومتراً ولكن عمل نفق كهذا هو ايضاً من أصعب الأعمال حتى في بلاد الغرب التي هي بالقرب من معامل الحديد ومناجم الفحم ووجود أحدث الآلات . فكيف اذاً يمكن القيام به في هذه البلاد القاحلة المتأخرة في ميدان المدنية . وبذلك تكون نفقات هذا القسم باهظة . والضمانة الكيلو مترية المقررة له وهي ١٥٥٠٠ فرنك عن كل كيلو متر لا تكفي لسد فوائد رأس المال ، ولكن مع كل ما ذكرناه من الصعوبات لم يضعف هذا من عزيمة الشركة فثابرت على عملها وافتتحت كثيراً من الانفاق في جبال طوروس وجبال أمانوس وقد كلفها ذلك مبالغ عظيمة . ولما كان عمل الانفاق أمراً شاقاً وكان يحتاج لمدةٍ طويلة من الزمن لم تر هذه الشركة بداً من ان تباشر بعملهــا ايضاً من حلب ومن نقاط أخرى . فكان الراكب الآتي من الاستانة مثلاً مضطراً للنزول من القطار في محطة بوزنتي والركوب على الدواب او بالسيارات حتى بلدة اصلاحية التي كانت اتصلت بمدينة حلب بخط بغداد الحديدي . وفي سنة ١٩٠٦ اشترت شركة بغداد خط مرسين — طرسوس — اذنة .

جاءت الحرب العامة فازدادت الشركة همةً ونشاطاً في اتمام مابقي من الخط بين بوزانتي واصلاحية وذلك بضغط الحكومة على الشركــة لانها كانت مضطرة لنقل جنودها وذخائرها وعتادها في القطارات طلبــاً للسرعة واتصال المواصلات . وقد سبب تأخير حفر الانفــاق تعذّر نقل الفحم الى الخطوط الشــامية التي كانت تستعيض عن الفحم بحطب الأشجار المثمرة فنتج عن ذلك أضرار عظيمة للشام . وتمكنت الشركة بما أبدته من النشــاط والهمة في فتح الانفاق من تسيير القطارات رأساً بين الاستانة وحلب وذلك في سنة ٩١٧ — ٩١٨ اما هذا الخط فهو من

الخطوط العريضة وعرضه متر و٤٤ سانتيمتراً ، ونصف القطر الاصغر لمنعطفات الخط خمسمائة متر في حين لا يتجاوز هذا النصف القطر الثلاثمائة متر في بقية الخطوط العثمانية ووزن القضب الحديدية اكثر من وزن قضب الخطوط الاخرى . لان القصد من ذلك تزييد السرعة على هذا الخط وجعلها ٧٥ كيلومتراً في الساعة . وتبين من الاحصاآت التي أجراها المسيو ري مدير خط سلانيك — الاستانة ان المعدل المتوسط لسعر الكيلو متر في الخطوط الحديدية العثمانية هو ١١٠،١٨٩ فرنكات يدخل في هذا المبلغ ثمن القاطرات والعجلات والشاحنات والانشاء ونفقات التأسيس وفوائد رأس المال وكل ما يتعلق بالخطوط من النفقات . غير ان هذا المبلغ قليل بالنسبة لخط بغداد لان نفقاته كانت اكثر من غيره فيقتضي والحالة هذه ان يقدر المعدل المتوسط لسعر الكيلو متر بمائتي الف فرنك اي تسعة آلاف ليرة عثمانية ذهباً .

* * *

الخطوط الحديدية بين الشام ومصر كان وصل البلاد الشامية بمصر موضوع اهتمام المفكرين في كل الأدوار ، لما بين القطرين من العلاقات المادية والمعنوية . وقد فكر في هذه القضية وزير الاشغال العامة في الدولة العثمانية وأشار اليها بتقريره لسنة ١٨٨٠ والى ضرورة تمديد خط حديدي من القدس الى العريش طوله ١٥٠ كيلو متراً ، وقدر نفقات هذا المشروع بعشرين مليون فرنك . وفي سنة ١٨٩١ طلب انطون يوسف لطفي بك الى الحكومة العثمانية منحه امتياز خط حديدي يبتدئ من العريش على حدود البلاد المصرية ويمر بغزة — يافا — حيفا — عكا — صور — صيدا — بيروت ، وينتهي بطرابلس الشام حيث يتصل بخطوط الشركة الافرنسية . وكان الانكليز يحبذون هذا المشروع ويوافقون عليه . غير انه لم يتم تنفيذه ولم تتصل بنا الاسباب التي حالت دون اخراجه الى حيز العمل .

وفي غضون الحرب العامة وبعدها ، وعقب انسحاب الأتراك من البلاد واحتلال السلطات الانكليزية والافرنسية لها ظهرت فائدة هذا المشروع وبوشر بتنفيذه

اذ ذاك حتى تم الاتصال بين حيفا والبلاد المصرية كما انه سيتم عما قريب تمديد هذا الخط حتى مدينة طرابلس فيتصل بالخطوط الافرنسية ٠

* * *

الكهرباء وخطوط الترام في دمشق } تم الاتفاق في ١٩ جمادي الآخرة سنة ١٣٠٧ وفي ٧ شباط سنة ١٣٠٥ (ش) بين وزير الاشغال العامة في الدولة العثمانية وبين يوسف افندي مطران على إنشاء خطوط ترامواي في مدينة دمشق يتفرع من مركز المدينة ويتجه نحو باب مصر (بوابة الله) في منتهى محلة الميدان والى جامع محيي الدين بن عربي في محلة الصالحية والى الباب الشرقي ومسجد الاقصاب ومن الباب الشرقي الى دوما ومن باب مصر الى المزيريب على ان تكون الخطوط الخمسة الاولى تجر مركباتها بواسطة الخيل والخط الاخير اي خط المزيريب تجر مركباته بالبخار ٠ وقد منح يوسف افندي مطران بموجب هذا الاتفاق امتيازاً مدته ستون سنة وتعهد بالمباشرة بالعمل خلال سنة اعتباراً من تصديق مقاولة امتيازه وان يتم العمل خلال سنتين ونصف ٠ وقد قبلت الحكومة باعفاء جميع الآلات والادوات والدواب ولوازم الانشاء من رسوم الجمرك اثناء العمل وأعفت الاراضي والاعمال مدة الاستثمار من الضرائب ٠ وقد أُذن لصاحب الامتياز بتأسيس شركة مساهمة عثمانية في خلال سنة اعتباراً من تاريخ صدور الامر العالي على ان تبقى جميع الخطوط والمعامل والادوات الثابتة ملكاً للدولة عند انقضاء مدة الامتياز ٠ اما الآلات والادوات المتحركة كالعجلات وماسواها فالحكومة تقوم بشرائها بواسطة مخمنين ٠

وقد اشترطت الحكومة على صاحب الامتياز تعمير الطرق التي تمر منها خطوط الترامواي بعرض تسعة أمتار وكذلك أرصفتها ومجاري المياه فيها ٠ وقد حددت اجور الركوب بثلاثة ارباع القرش الفضي للموقع الاول ونصف القرش للموقع الثاني ٠ وعلى مانعلم ان يوسف افندي مطران لم يقم بتنفيذ مقاولته هذه مدة طويلة من الزمن ٠

وبعد ذلك تقدم الامير محمد أرسلان الى الحكومة العثمانية طالباً اعطاءه امتيازاً بتوليد القوة الكهربائية واستثمارها وتم الاتفاق بينه وبين وزير الاشغال العامة بتاريخ ١٨ المحرم سنة ١٣٢١ على تنوير مدينة دمشق وضواحيها بالكهرباء اي مسافة عشرة

كيلو مترات عن المدينة لمدة تسع وتسعين سنة ، وتعهد صاحب الامتياز بتنظيم الخرائط للمشروع وتقديمها في ثمانية عشر شهراً اعتباراً من تاريخ صدور المنشور العالي و بالمباشرة بالاعمال في ستة وثلاثين شهراً بعد المصادقة على المقاولة و بانهاء الاعمال في اربع سنوات اعتباراً من تاريخ تصديق الخرائط على ان تعفى موادالانشاء واللوازم والآلات والادوات من رسوم المكس الى انتهاء أعمال الانشاء وابتداء الاستثمار وان تعفى ايضاً جميع البنايات والتأسيسات والادوات مدة الامتياز من الرسوم. و يتقاضى صاحب الامتياز أثمان التنوير بحسب التعرفة المقررة طيلة الامتياز . واما ما يتعلق بشأن التنوير العمومي للمدينة فيجب عليه ان يجري تنزيلاً يتناقص كلما زادت كمية الكهرباء المصروفة ويحسم ايضاً عشرة بالمائة لتنوير دوائر الحكومة والجوامع والكنائس والثكنات العسكرية والمستشفيات ويُسمح لصاحب الامتياز بتأسيس شركة عثمانية خلال سنتين اعتباراً من تصديق المقاولة وذلك للقيام بتعهداته وتحتفظ الحكومة بحق شراء الامتياز في كل حين بعد انقضاء ثلاثين سنة وتقوم بتخمين قيمة جميع الآلات والادوات والابنية والاراضي والمؤسسات التي دخلت في ملك صاحب الامتياز وتشتريها منه وعند انقضاء مدة الامتياز يجب على صاحبه تسليم عامة البنايات والمؤسسات والآلات والادوات بلا بدل الى الحكومة واذا لم يباشر أعمال الانشاء خلال المدة المعينة بدون ان تكون هناك أسباب قاهرة تمنعه عن مباشرة العمل او اذا لم ينجز الاعمال بتمامها او يعطل أعمال التنوير او لم يقم بتعهداته في المقاولة يسقط حقه من الامتياز وتضع الدولة يدها على الاعمال وتقوم بعمل ما يلزم من التدابير الموقتة لتأمين الاستثمار . وكذلك تعين البلدية بالاتفاق مع صاحب الامتياز عدد المصابيح ومواقعها وينحصر بيع التنوير وبيع القوة الكهربائية بصاحب الامتياز مدة امتيازه سواء كان ذلك للأفراد او لوسائط النقل العامة و يكون حق الترجيح لصاحب الامتياز بتأسيس التلفون اذا قبل بذات الشروط التي يقدمها طالبو هذا المشروع وتحدد التعرفة العظمى بثمانية قروش عن كل (كيلواتور) اي مايعادل بارة واحدة عن كل شمعة بالساعة ولا يمكن زيادة التعرفة المقررة بدون موافقة الحكومة .

وبعد ذلك توفق الامير محمد أرسلان باخذ امتياز آخر يقضي عليه بتقديم

القوة الكهربائية اللازمة لتسيير حوافل (الترام) على الخطوط الممنوح امتيازها قديماً الى يوسف افندي مطران وعلى الخطوط التي يمكن للدولة ان تمنح امتيازها لشخص آخر وذلك داخل منطقة تبعد حدودها مسافة عشرين كيلو متراً في كل جهة من وسط مدينة دمشق على ان يكون امتيازه تابعاً لقوانين الدولة · و يقضي ايضاً من جهة ثانية على صاحب امتياز الترامواي الخيلي وعلى جميع الشركات التي تؤسس لتسيير الحوافل الكهربائية داخل المنطقة المبينة آنفاً بمراجعة الامير محمد أرسلان لاستحصال القوة الكهربائية اللازمة لهم اذا أرادوا تسيير حوافلهم بالقوة الكهربائية · وقد حددت مدة هذا الاتفاق بتسع وتسعين سنة تبتدئ من تاريخ صدور المنشور العالي وأُعطيت مدة سنتين لصاحب الامتياز لتأسيس شركة مساهمة عثمانية تقوم بتنفيذ الشروط · كما احتفظت الحكومة لنفسها بحق شراء الامتياز في كل آن وذلك بعد مضي ثلاثين سنة من مدته · اما ما يحدث من الاختلافات بين الحكومة وبين صاحب الامتياز فيرجع في فصله الى مجلس شورى الدولة · وقد صدر المنشور العالي بهذا الامتياز في ٢٥ المحرم سنة ١٣٢١ وعلى ذلك فقد تأسست بتاريخ ٢٣ شوال سنة ١٣٢٢ وفي ١٧ كانون الاول سنة ١٣٢٠ (ش) و ٥ كانون الاول سنة ١٩٠٤ شركة بلجيكية مساهمة باسم الشركة العثمانية السلطانية للتنوير والجر الكهربائي بدمشق وحصلت على جميع الامتيازات المتعلقة بهذا الشأن · ومن الشروط التي تعهدت بها هذه الشركة انشاء خطوط إجبارية من دار الحكومة الى باب مصر (بوابة الله) بمنتهى محلة الميدان ومن دار الحكومة الى جامع محيي الدين بن عربي في محلة الصالحية وتنوير المدينة وفقاً لشروط المقاولات المنعقدة والمصدقة في المناشير العالية بتاريخ ١٠ رجب سنة ١٣٠٧ و ٢٧ المحرم سنة ١٣٢١ ، وكان رأس مال هذه الشركة ستة ملايين فرنك قسمت على اثني عشر الف سهم وجُعلت قيمة كل سهم ٥٠٠ فرنك · وكانت تدير أعمال الشركة لجنة منتخبة من الهيأة العامة · ومن جملة اعضاء اللجنة في السنوات الاولى عزت باشا العابد ·

و باشرت الشركة العمل باقامة الابنية والمعامل ومد خطوط الترام وأسلاك الكهرباء خلال سنة ١٩٠٤ · والخطوط التي مدتها الشركة ثلاثة يبتدئ الاول من

ساحة الشهداء (المرجة) و ينتهي في باب مصر في منتهى محلة الميدان وطوله ثلاثة كيلومترات ونصف كيلومتر وهو خط مزدوج · اما الخط الثاني فيبتدئ ايضاً من ساحة الشهداء و ينتهي في حي المهاجرين في الصالحية وطوله ثلاثة كيلو مترات ومائتا متر وهو مزدوج حتى الجسر الأبيض والباقي منه حتى المهاجرين خط منفرد · واما الثالث فيبتدئ من الجسر الابيض فالصالحية و ينتهي عند جامع محيي الدين بن عربي وطوله كيلومتر واحد وهو مزدوج وعرض هذه الخطوط متر واحد وخمسة سانتيمترات كعرض الخطوط الحديدية الافرنسية الضيقة والخط الحجازي وقد انتهت الشركة من مد الخطوط في ١٢ شباط سنة ١٩٠٧ وبدأت تسير حوافل الترام على الخطوط الممدودة وبدئ ايضاً بتنوير المدينة منذ شهر نيسان سنة ١٩٠٧ ·

جاءت الحرب العامة وقطعت المواصلات بين الغرب والبلاد الشرقية وبقيت الشركة تحت سلطة الحكومة العثمانية فانقطع ورود البترول من الخارج وأصبحت اكثر المدن في الدولة العثمانية مظلمة الا مدينة دمشق فقد ظلت تنار بمصابيح الكهرباء وذلك بفضل نهر بردى الذي لا يزال يفيض الخيرات على دمشق · ومن هذا تظهر فائدة استعمال القوى الطبيعية في البلاد · وقد كانت السلطة العسكرية تستفيد من الكهرباء في محطة اللاسلكي وفي كثير من معاملها التي كانت تشتغل في إحضار العتاد والذخائر الحربية ·

وفي ٢٩ ايار سنة ١٩٢٣ عقد اتفاق بين الشركة والمفوضية العليا حددت بموجبها أثمان القوة الكهربائية واجور الركوب في حافلات الترام وأُدخلت شروط جديدة لإصلاح الاسلاك الكهربائية ولتمديد خطوط جديدة واستمر العمل بهذا الاتفاق مدة سنتين · وفي ١٣ آب سنة ١٩٢٥ جرى تعديل مقاولة الامتياز القديمة تعديلاً مهماً وذلك بموجب البروتوكول الثاني عشر الملحق بمعاهدة لوزان واليك خلاصة ما جاء في هذه المقاولة الجديدة ·

انه يحق للبلدية ان تطلب من الشركة انشاء خطوط جديدة واذا لم يتم الاتفاق بينهما خلال سنة يحق للاولى ان تمنح الخط الجديد لشخص آخر على ان تبقى الارجحية

للشركة اذا تساوت الشروط. وقد حددت التعرفة العظمى بموجب هذا التعديل على الوجه الآتي :

« الدرجة الاولى »	« الدرجة الثانية »
الكيلومتر الاول ٣،٢٠ قرش سوري ذهب	الكيلومتر الاول ٢،١٣ قرش سوري ذهب
« الثاني ٢،٩٧ « « «	« الثاني ١،٩٢ « « «
« الثالث ٢،٧٤ « « «	« الثالث ١،٧١ « « «
« الرابع فما فوق ٢،٥٠ « « «	« الرابع ١،٥٠ « « «

على ان تضاعف التعرفات للحافلات التي تسير ليلاً . وتعفى الاراضي والأبنية والمصانع والآلات والادوات الثابتة والمتحركة مدة الامتياز من الضرائب والرسوم . وتعفى ايضاً من الرسوم الجمركية والدخولية جميع المواد اللازمة للمعامل والمصانع وترفع الاختلافات التي تحدث بين صاحب الامتياز والحكومة على تفسير مواد المقاولة وانفاذها أمام مجلس الشورى السوري . وتنتهي مدة هذا الامتياز بتاريخ ٣١ كانون الاول سنة ١٩٦٠ .

فللشركة الحق بانشاء المعامل المولدة للقوة الكهربائية واستثمارها ما أُنشئ منها وما سينشأ على نهر بردى بين التكية وعين الفيجة وبتوزيع القوة المستحصلة توزيعاً عاماً لجميع المحلات على مسافة خمسة عشر كيلو متراً لكل جهة من قلب مدينة دمشق (ساحة الشهداء — المرجة) وبتقديم القوة الكهربائية كقوة محركة لوسائط النقل العامة على مسافة عشرين كيلو متراً لكل جهة من وسط مدينة دمشق كما لها الحق ايضاً باستعمال الطرق العامة من ملك الدولة او البلديات لتتمكن من القيام بالتنوير الخاص وبتقديم القوة الكهربائية لجميع الاعمال . وقد حددت التعرفة العظمى :

البيع بالعداد للتنوير بسعر الكيلواتور ٤،٥٠ قروش سورية ذهبية
لباقي الاستعمالات « ٣ « « «

البيع المقطوع ١٥ سانتيماً من القرش السوري الذهبي عن كل شمعة في الساعة
للنقليات العامة سعر الكيلواتور ٣ قروش سورية ذهبية

ونقرر ان يحسب التنوير العمومي بالعداد مع تخفيض ٢٥ بالمئة وان يحسب كذلك

تنوير الدوائر العامة والبلدية والمعابد والمستشفيات مع تخفيض عشرة بالمئة من التعرفة وكذلك قبلت الشركة بان تنير قصر الحكومة مع دائرة البلدية مجاناً أربع مرات في السنة في ايام الاعياد التي تعينها الحكومة · وان تنير الجامع الأموي وبعض الجوامع الاخرى مجاناً ايضاً · وتنتهي مدة الامتياز بتاريخ ٣١ كانون الاول سنة ٢٠٠٢ وعند انتهاء مدته تستلم الحكومة جميع ما أنشأته الشركة بدون بدل ويحق للدولة في كل حين شراء الامتياز وذلك اعتباراً من تاريخ ٣١ كانون الاول سنة ١٩٦٥ ·

وبعد المصادقة على هذا الاتفاق اخذت الشركة تقوم بتحسين النور فبدلت المجرى الكهربائي بمجرى دائم الى مجرى متناوب وغيرت درجة التوتر في بعض الاحياء فجعلتها ١١٠ بعد ان كانت ٢٢٠ وقد أسست مراكز لتحويل درجة التوتر في كثير من الاحياء توزع منها النور على المشتركين بصورة منظمة بعد ان يكون وصل الكهرباء الى هذه المراكز بخطوط ذات توتر عالٍ تمدد تحت الارض وهي لا تزال تعمل بهذه الاصلاحات بجد ونشاط ·

* * *

ترامواي حلب الكهربائي } منحت الحكومة العثمانية امتيازاً قبل الحرب العامة لرجل يدعى عثمان بك من أتراك الاستانة لتنوير مدينة حلب بالكهرباء مع انشاء خطوط ترامواي فيها · وكانت مدة هذا الامتياز اربعين سنة · ولم يتمكن عثمان بك من القيام بتنفيذ امتيازه بسبب الحرب · وبعد الهدنة طرحت الحكومة العربية هذا المشروع في المناقصة فتقدمت في سنة ١٩١٩ شركة بلجيكية وأرسلت مندوبها الى حلب مع تقديم شروطها · فجاء هذا المندوب ودخل في مفاوضة مجلس بلدية حلب اذ ذاك · وقد نظم مشروع مقاولة وشروط امتياز على أساس الشروط والمقاولة التي منحتها الحكومة العثمانية الى عثمان بك ولم يبق لتحقيق المشروع الا تصديق هيأة ادارة الشركة عليه في بلجيكا · فرأت هذه الهيأة ان الشروط التي نظمت بمدينة حلب مجحفة بحقوقها · وعلى ذلك أرسلت تعلم بلدية حلب بعدم قبولها الا اذا زيدت التعرفة المحددة في المشروع مع زيادة مدة الامتياز · فحبط هذ

المشروع ولم يتحقق · وفي سنتي ١٩٢٢ و١٩٢٣ اي بعد دخول فرنسا الى الشام تقدمت لطلب هذا الامتياز ثلاث شركات الاولى شركة وطنية وعلى رأسها كريم افندي بالي احد تجار حلب · والثانية شركة بلجيكية · والثالثة شركة المشاريع الافرنسية · وكل من هذه الشركات قدمت شروطاً تختلف عن الاخرى · وبما ان شركة كريم افندي بالي الوطنية لم تقدم الضمان اللازم لم تنجح بطلبها · وبعد ذلك تألفت لجنة لدرس الشروط المقدمة ووضع تقرير فيها · وعقبي مذاكرة طويلة رأت هذه اللجنة ان الشروط المقدمة من الشركتين المذكورتين لا توافق مصلحة البلدية كل الموافقة وعلى ذلك نظمت شروطاً خاصة ومقتبسة من شروط الامتيازات القديمة الممنوحة من الدولة العثمانية لشركات كهربائية أخرى ومن الشروط التي قدمتها الشركتان المار ذكرهما وقد طلبت اللجنة في تقريرها أعلان ذلك ودعوة الشركات للمناقصة فلم يتقدم احد.

وفي سنة ١٩٢٤ عرض على بلدية حلب مشروع امتياز جديد من شركة المشاريع الافرنسية لا يختلف كثيراً عن مشروعها الذي قدمته للمرة الاولى وطلبت المصادقة عليه وأخيراً تمكنت البلدية من تحديد الضمانة الغير المحدودة والمطلوبة من الشركة عن الخسارة مسانهة بمبلغ ٢٠ الف ليرة سورية ورقاً · اي ان الخسارة التي تقع باكثر من هذا المبلغ المحدد تكون على الشركة · وأهم الشروط في هذا الامتياز ان مدته سبعون سنة · وان التعرفة تعين سنوياً بعد اجراء حساب الدخل والخرج والفائدة والاستهلاك · وان جميع الاراضي والمقالع اللازمة للانشاء والتأسيس تشتريها البلدية على حسابها الخاص وتسلمها للشركة · وان الخسارة اذا تجاوزت العشرين الف ليرة سورية ورقاً تكون على البلدية · وكذلك تقسم الارباح ٣٥ في المئة للبلدية وما بقي للشركة · وحق التفتيش والفسخ يرجع فيهما للمفوضية العليا ويكون جميع مأموري الشركة من السوريين ما عدا الاخصائيين الفنيين · وتحل الاختلافات التي تحدث بواسطة التحكيم · كما ان الشركة مضطرة ان تدرس على حساب البلدية مشروع جلب الماء الى حلب خلال خمس سنين على الاكثر ثم تقدمه للبلدية حتى اذا وافقها تمنح امتيازه للشركة المذكورة · وتُكره الشركة على اخذ هذا الامتياز · وقد بدأت الشركة بالعمل أوائل سنة ١٩٢٦ وأنجزت حتى الآن من

الاشغال بناء الادارة والمستودع وتركيب الآلات . وقد قلعت بلاط الطريق القديم وبدأت تمد القضب الحديدية وتفرش الزفت وبدلت البلدية البلاط الاسود به . ومدت الشركة خطين للترام ، الاول يقطع مدينة حلب من الغرب الى الشرق ويبتدئ من محطة دمشق وينتهي بمحلة القصيلة وطوله خمسة كيلو مترات تقريباً . واما الخط الثاني فيقطع المدينة من الشمال الى الجنوب ويبتدئ من محلة الحميدية وينتهي عند شارع خان الحرير وطوله ثلاثة كيلومترات ونصف تقريباً وعرض هذين الخطين متر واحد وخمسة سانتيمترات كعرض خطوط ترام دمشق .

* * *

خط الترام في طرابلس الشام	خط الترام الممتد بين مدينة طرابلس وميناءها هو خط تجر حافلاته على الخيل . والميناء هي مرفأ المدينة تبعد

عنها ثلاثة كيلومترات . وقد منح امتياز هذا الخط في سنة ١٨٧٨ لشركة وطنية برأس مال يبلغ مائتي الف فرنك اي تسعة آلاف ليرة عثمانية وهو ينقسم الى الفي سهم بقيمة مائة فرنك لكل سهم منها وقد أحسنت هذه الشركة إدارته واستثماره مما جعل الربح يختلف بين الاربعة عشر والستة عشر فرنكاً لكل سهم .

اما ما يتعلق بخطوط الترام في سائر بلاد الشام الاخرى فمن دواعي الاسف اننا لم نقف على الوثائق المتعلقة بها ولذا لم نتمكن من ذكر شيء عنها .

* * *

الطرق العامة في الشام	تتألف الشام من ثلاثة دروب موازية لساحل البحر تفصل بعضها عن بعض سلسلتان من الجبال الشاهقة

تمتد الواحدة منها من صور الى الاسكندرونة بلا انقطاع فيها الا في نقطتين . والثانية تبتدئ من الجنوب وتنتهي بالقرب من حمص فيتلاقى الدربان درب البقاع مع درب دمشق وتحصل منها سهول حماة وحلب العظيمة الممتدة حتى الفرات . فالسلسلة الاولى تتألف من جبل لبنان وتلعاته العديدة الشاهقة المرتفعة عن سطح البحر ما ينيف عن الالفي متر والحد الاعظم ٣٠٦٣ . ويمتد هذا الجبل ثلاثين كيلومتراً في الشمال الغربي لطرابلس . وهناك ينخفض عند فوهة حمص ثم يرتفع مجدداً باسم

جبل النصيرية المرتفع ١٥٠٠ متر عن سطح البحر وجبل الأقرع وجبل كاسيوس المرتفع ١٨٠٠ متر عن سطح البحر . وبعد ذلك تمتد السلسلة حتى نهر العاصي الذي يقطعها بانخفاض عظيم وبعرض قليل . ثم تمتد هذه السلسلة حتى جبل اللكام وتدخل في بلاد الترك حتى ترتبط بجبال طوروس . فهذه السلسلة تحد غرباً الدرب الاول الذي هو عبارة عن الساحل . وكثيراً ما يقرب الجبل من البحر ويسقط فيه كما هو الحال بين صور وحيفا . ولا يوجد في هذا الدرب ارضون سهلية الا بالقرب من حيفا وبيروت وطرابلس واللاذقية ولكنها قليلة المساحة . وقد أنشئت المدن المذكورة في هذه السهول . اما السلسلة الثانية الموازية للاولى فتبتدئ بجبل الشيخ (حرمون) بارتفاع ٢٨٠٧ أمتار وتتصل بالجبل الشرقي بارتفاع ٢٠٠٠ متر . وبين هاتين السلسلتين سهل البقاع الذي يبلغ عرضه ١٥ كيلومتراً ويمتد طوله بين الجبلين على مسافة عظيمة . ان هذا السهل ينحدر على طرفيه من نقطته العليا الموجودة بالقرب من شمال بعلبك ويقطع هذا السهل النهران العظيمان نهر الليطاني الذي ينبجس من بعلبك فينحدر جنوباً ثم غرباً حتى البحر . والنهر الثاني هو العاصي القريب من نهر الليطاني ينساب شمالاً ماراً بحمص وحماة وانطاكية بين جبلي الامانوس والأقرع ثم يصب في البحر المتوسط في السويدية وبشرق السلسلة الثانية يقع الدرب الثالث وهو سهل دمشق الذي تجري اليه مياه الجبل الشرقي التي تروي الصحراء . وهناك جبل حوران المعروف بجبل الدروز الممتد شرقاً نحو الصحراء وهو واقع كجزيرة منفصلة عن بقية البلاد فهذه الدروب هي التي تقع فيها جميع البلدان الشامية وليس لهذا الجبل ارتباط بالسلسلتين المذكورتين ولذلك فمسألة الطرق تنحصر في ثلاث نقاط :

(اولاً) طرق المواصلة بين المدن الواقعة في درب واحد . (ثانياً) الطرق الواصلة بين المدن الواقعة بين دربين متوازيين وذلك بواسطة طرق عرضية اي (شرقية — غربية) . (ثالثاً) الطرق المتشعبة كالشرايين في سهول دمشق وحلب . هذا هو الوضع الجغرافي للبلاد الشامية ذكرناه توطئة للبحث ومنها يتمكن القارئ من متابعته للوقوف على أكثر الطرق .

* * *

طرق الشام كانت الطرق ووسائط النقل والمواصلات مفقودة في الزمن الغابر بل وفي القرون الاخيرة في جميع بلاد الترك عموماً وفي الشام خصوصاً مما سبب تأخر دخول المدنية الغربية الى هذه البلاد مدة طويلة من الزمن . غير ان الدولة العثمانية في المدة الاخيرة من حكمها الشام اي في سنة ١٨٦٢ كانت أقرت برنامجاً للطرق ووضعت قانوناً لانشائها واعمارها ومحافظتها فمن ذلك التاريخ أخذت الأحوال تتبدل وبدأت المشاريع تظهر في ديار الشام بصورة جيدة . وكان القانون العثماني يقضي على كل شخص ان يقوم اربعة ايام في السنة بعمارة الطرق مدة عشرين سنة او ان يقدم ضريبة قدرها ريال مجيدي واحد . وكانت هذه الضريبة تجبى بمعرفة لجنة قوامها بعض الموظفين الاداريين وموظفي المصارف الزراعية . ولكن هذا القانون لم يراع في كثير من الاحوال وكانت الاموال التي خُصصت لعمل الطرق تذهب لنفقات الدولة العامة . وقد بقي العمل بهذا القانون مدة قليلة لان الظروف والأحوال السياسية حالت دون اتمام البرنامج المذكور ولذلك بقيت سورية محرومة من الطرق وكثيراً ما كان يرجح المار على الطريق ان يتبع الاراضي المجاورة له لصعوبة السير عليه .

اما الحالة في لبنان فقد كانت على غير ذلك . لانه منذ نال لبنان استقلاله الاداري سنة ١٨٦٠ ازدادت نفوسه ونتج عن ذلك ان ظهرت حركة المهاجرة التي مافتئت تزداد من ذلك الحين . فاللبنانيون المهاجرون كانوا لا ينسون الذين تركوهم في الوطن بل كانوا يرسلون لهم الأموال بكثرة من مهجرهم اميركا . كما ان الكثير من هؤلاء كان يرجع الى بلاده بعد حصوله على ثروة لإتمام بقية حياته فيها . وان قسماً عظيماً من هذه الثروة التي كان يجمعها اللبناني المهاجر كان ينفقه باعمار بيوته او لإنشاء بيوت جديدة بطراز حديث . و بهذه الصورة تمكن الجبل بمدة قليلة ان يرتدي ثوب العمار بالحصول على قرى جميلة كثيفة بالنفوس تحتاج للمواصلات مع السواحل ولا سيما بيروت وطرابلس الشام وصيدا . وقد اتفق حينئذ الاهلون ان ينشئوا كثيراً من الطرق باموالهم الخاصة . فكان عدد الطرق لا يتناسب مع الفائدة المطلوبة منها بل ولا مع ثروة القرية التي تنتهي فيها هذه الطرق . فكثيراً ما نرى طريقين او اكثر تمتدان الى قرى قريبة بعضها

من بعض على هضبة واحدة الا ان سكانهما الاغنيـاء صرفوا على إنشائهما المبالغ اللازمة . ومن جهة أخرى نرى بعض القرى الفقيرة محرومة هذه الحـالة فلا يصل اليها طريق .

* * *

الطرق العامة { اولاً : الطرق الطوليـة — من الجنوب الى الشمال .
(١) طريق الساحل — يبـدأ من بئر السبع جنوباً }

وينتهي بالاسكندرونة شمالاً ويمر من بئرالسبع — غزة — يبنة — يافا — طولكرم — حيفا — عكا — صور — صيدا — بيروت — طرابلس — طرطوس — اللاذقية — جسر الشغور — جسرالحديد — يكي شهر — يكي كوي — الاسكندرونة .

(٢) الطريق الثاني — يبدأ من بئر السبع جنوباً وينتهي في كليس شمالاً ويمر من بئر السبع = الخليل = القدس = البيرة = رام الله = نابلس = جينين = الناصرة = طبرية = الجاعونة = مرجعيون = قرعون = سغبين = عميق = قب الياس = شتورة = المعلقة = بعلبك = القصير = حمص = الرستن = حماة = معرة النعمان = سراقب = تفتناز = اوروم الصغرى = حلب = كليس .

(٣) الطريق الثالث — يبدأ من بئر السبع جنوبًا وينتهي بحمص شمالاً فيلتقي بطريق حماة وحلب . ويمر من المدن المذكورة أعلاه في الطريق الثاني حتى الجاعونة حيث يفصل منها فيمر من جسر بنات يعقوب = القنيطرة = وادي العجم = دمشق = دوما = القطيفة = النبك = قارة = حسية = حمص . ويمتد بعد ذلك الى حلب كما هو مذكور في الطريق الثاني .

(٤) الطريق الرابع — يبـدأ من القدس جنوباً وينتهي في دمشق شمالاً فيمر في القدس = أريحا = الصلت = عمان = الرمثا = درعا = شيخ مسكين = غباغب = خان دنون = الكسوة = دمشق .

(٥) الطريق الخامس طريق البادية — يبتدئ من دمشق جنوباً وينتهي بدير الزور بعد ان يتصل بطريق الموصل شمالاً ويمر في دمشق = القطيفة = جيرود = القريتين = تدمر = السخنة = دير الزور = الصوار = البيضـاء على الحـدود

التركية . وفرع يبدأ من دير الزور ايضاً الى الصوار ومنها الى نصيبين حيث الاراضي الداخلة في حدود تركيا .

ثانياً : الطرق العرضيـة من الغرب الى الشرق . (١ً) غزة = بئر السبع .

(٢ً) يافا = الرملة = القدس = عمان .

(٣ً) يافا = قلقيلية = نابلس = الناصرة = طبرية = سمخ .

(٤ً) حيفا = الناصرة = طبرية = الجاعونة = جسر بنات يعقوب .

(٥ً) حيفا = الناصرة = جينين = نابلس = أريحا .

(٦ً) صيدا = مرجعيون = بانياس = القنيطرة = ازرع = السويداء = صرخد .

(٧ً) درعا = بصرى = صرخد .

(٨ً) بيروت = دمشق = بغداد .

(٩ً) طرابلس = حمص = تدمر = بغداد .

(١٠) اللاذقية = جسر الشغور = ادلب = حلب = دير الزور .

(١١) السويدية = انطاكية = جسر الحديد = حارم = حلب .

(١٢) الاسكندرونة = قرق خان = بكي شهر = اوروم الصغري = حلب .

✲ ✲ ✲

وصف حالة الطرق { اولاً — طريق الساحل : يبلغ طول هذا الطريق ٢٧٠ كيلومتراً اعتباراً من بئر السبع الى عكا ورأس الناقورة . ومن رأس الناقورة حتى مدينة اللاذقية ٤٠٠ كيلومتر وهو طريق معبّد من أحسن الطرق الشامية . وطريق اللاذقية حتى بكي كوي وطوله ١٧٠ كيلومتراً قيد الانشاء ولا يزال في حالة تمهيدية . ومن بكي كوي الى الاسكندرونة طريق معبد وطوله ٥٠ كيلومتراً و يبلغ مجموع طول هذا الطريق ٨٤٠ كيلومتراً وان المبالغ المنفقة عليه من عام ١٩٢٠ الى عام ١٩٢٧ لا تقل عن ثلاثمائة الف ليرة ذهبية تقريباً .

ثانياً — الطريق الطولي الثانية : ان هذا الطريق يبدأ من بئر السبع الى طبرية

والجاعونة وطوله ٢٩٠ كيلومتراً وهو معبد . ومن الجاعونة الى سغبين وطوله ٨٠ كيلومتراً كان بوشر به في زمن الحرب ولما يتم تعبيده . ومن سغبين الى شتورة والمعلقة وبعلبك وطوله ٦٠ كيلومتراً وهو معبّد ايضاً . ومن بعلبك الى حمص فان الطريق لم يجر انشاؤه حتى الآن . وقد كانت الحكومة العثمانية باشرت بانشاء بعض الجسور فيه ولكنه لم يتم عمله .

اما القسم الواقع بين حمص وحماة فطوله ٤٧ كيلومتراً فانه كان معبّداً حيث كانت شركة الحافلات (الداليجانس) الوطنية قد أنشأته قديماً وبعد انشاء الخطوط الحديدية أهملته الحكومة فتخرب خلال الحرب العامة بسبب النقليات العسكرية بالسيارات الضخمة وحتى الآن لم يجر تعبيده . ولم يكن طريق حماة ــ حلب وطوله ١٥٠ كيلومتراً معبداً من قبل وليس ثمة سوى طريق القوافل القديمة على ان ادارة النافعة في حلب باشرت بانشائه منذ ثلاث سنوات تقريباً واتخذت طريقاً جديداً يبدأ من حلب الى تفتناز باستقامة طريق ادلب = جسر الشغور = اللاذقية ومن تفتناز يتجه نحو بلدة خان شيخون الواقعة على حدود اراضي حلب ودمشق ماراً بسراقب ومعرة النعمان . وقد تمت تسوية الطريق الداخل في منطقة حلب وبوشر بتعبيده وسينتهي في عام ١٩٢٨ وكذلك باشرت ادارة النافعة بدمشق بتسوية القسم الداخل في منطقتها وستنتهي تسويته في أوائل عام ١٩٢٨ . وقد بلغ ما صُرف على هذا القسم من سنة ١٩٢٥ حتى سنة ١٩٢٧ ما يربو على اربعين الف ليرة ذهبية . والطريق من حلب الى تفتناز على طول خمسين كيلو متراً معبدة . وجرت تسوية الطريق من تفتناز الي خان شيخون على طول سبعين كيلومتراً . وتم بناء الأعمال الصناعية من جسور وقناطر وهو يجري تعبيده الآن . وبوشر بتسوية طريق خان شيخون الى حماة على طول ثلاثين كيلومتراً والطريق معبد منذ القديم من حلب حتى كليس وطوله ستون كيلومتراً وقد جرى اصلاحه مجدداً .

ثالثاً — الطريق الطولي الثالث : يبتدئ هذا الطريق من بئر السبع الي الجاعونة وجسر بنات يعقوب وطوله ٣٠٠ كيلومتر وهو معبد . والطريق معبد من جسر بنات يعقوب الي القنيطرة ووادي العجم ودمشق وطوله تسعون كيلومتراً . وكانت الحكومة

العثمانية باشرت بانشائه منذ عشرين سنة ولما يتم عمله . وقد أُنفق على انشائه من سنة ١٩٢٠ الى ١٩٢٧ ما يربي على ثلاثين الف ليرة ذهبية .

اما طريق دمشق = النبك = حمص وطوله ١٦٠ كيلومتراً فقد كانت الحكومة العثمانية باشرت بانشائه قبل ثلاثين سنة وتم قسم كبير من تسويته بيد انه لم يتم عمله . وهناك قسم منه وطوله ثلاثون كيلومتراً يقع بين النبك وقارة والبريج لم ينشأ فيه شيء ايضاً ولا يزال بحالته الطبيعية وتعمل حكومة قضاء النبك على إصلاحه أحياناً وتزيل الحجارة منه وتردم الحفر التي تنشأ بمرور العجلات والسيارات . وتفكر الحكومة الآن بتحويل هذا الطريق الى قرية ديرعطية بدلاً من قرية قارة التي كانت دائماً المركز الطبيعي للمواصلات بين دمشق وحمص . ولقد هجرت الحكومة العثمانية هذا الطريق اثناء الحرب العامة لفقد الامن فيه وكثرة اعتداءات العشائر والجنود الفارين من الزحف وكانوا يلجأون الى هذه المنطقة ليعتاشوا . وصرفت حكومة دمشق مبالغ كبيرة لانشاء هذا الطريق ولم ينته الى الآن . وقد بلغ ما أُنفق عليه من عام ١٩٢٠ الى ١٩٢٧ ما يربو على الخمسين الف ليرة ذهبية .

رابعاً — الطريق الطولي الرابع : يبدأ هذا الطريق من القدس ويتجه صوب أريحا والصلت وعمان والرمثا وإربد ودرعا . وكان شرع بتعبيد هذا الطريق منذ ثلاثين سنة ولم تنته ولم تزل على ما كانت عليه . وجرت فيها بعض الاصلاحات في جهة القدس والصلت وعمان . وما برح من درعا حتى دمشق على حالته القديمة ولم يُدخل عليه سوى بعض الاصلاحات بين دمشق وخان دنون وتعمل حكومة دمشق على إصلاحه وقد حال فقدان المال دون إنجازه .

خامساً — الطريق الطولي الخامس : يبدأ هذا الطريق الذي يجتاز البادية من دمشق الى القطيفة وهو معبد وطوله ٤٠ كيلو متراً . ومن القطيفة الى جيرود افتتح طريق جديد وجرت تسويته بتسخير الاهالي بالعمل فيه . ولم يجر شيء من الاصلاحات من جيرود الى القريتين وتدمر ودير الزور حتى البيضاء . ويبلغ طول هذا الطريق من دمشق الى تدمر ٢٥٠ كيلو متراً ومن تدمر الى دير الزور ٢٢٠ كيلو متراً ومن دير الزور الى البيضاء في حدود الموصل ١٥٠ كيلو متراً فيكون مجموع طول هذا

الطريق ٦٢٠ كيلو متراً ولم يعمل فيه سوى جسر الصوار المعلق وفوهته خمسون متراً . وقد بنت نافعة حلب هذا الجسر مؤخراً وأنفق عليه ١٥ الف ليرة ذهبية . و يبنى الآن في دير الزور جسر كبير معلق يبلغ طوله ٢٥٠ متراً وسيتم بناؤه قريباً وتقدر نفقاته بستين الف ليرة ذهبية .

واما الفرع الثاني الذي ينفصل من الصوار الى الحسجة ونصيبين وطوله ١٩٠ كيلومتراً فانه طريق طبيعي لم يعمل فيه شيء منذ القرون القديمة . و يبدأ طريق بغداد من دير الزور ماراً بالبصيرة والميادين وألبوكمال و يبلغ طوله حتى حدود العراق ١٤٠ كيلومتراً . وتفكر ادارة النافعة في حلب باجراء بعض اصلاحات فيه وهي تقوم بانشاء جسر على نهر الخابور في البصيرة . وكذلك تعمل على تعبيد القسم المار في ارض صخرية وطوله ١٥ كيلومتراً . وهذا القسم الاخير هو جزء من الطريق الذي يبدأ من حلب الى دير الزور و ينتهي الى بغداد .

ثانياً = الطرق العرضية من الغرب الى الشرق : (١) أنشيء طريق غزة = بئر السبع وطوله ٤٢ كيلومتراً في زمن الحكومة العثمانية وهو معبد .

(٢) أنجزت الحكومة العثمانية بعض أقسام طريق يافا = الرملة = القدس = الصلت = عمان وطوله ١٦٠ كيلومتراً والبعض الآخر منه لم يتم . وقسم يافا = القدس وطوله ٦٠ كيلومتراً معبد والباقي قيد الانجاز .

(٣) تم في العهد الاخير تعبيد طريق يافا = قلقيلية = نابلس = الناصرة = طبرية = سمخ = وطوله ١٥٠ كيلومتراً .

(٤) تم انشاء طريق حيفا = الناصرة = طبرية = الجاعونة = جسر بنات يعقوب وطوله ١١٠ كيلومترات . وكانت الحكومة العثمانية أنشأت بعض أقسامه .

(٥) ونصف طريق حيفا = الناصرة = جينين = نابلس = أريحا وطوله ١٥٠ كيلومتراً معبد والنصف الآخر لم يتم تعبيده .

(٦) طريق صيدا = مرجعيون = بانياس = القنيطرة = الشيخ مسكين = ازرع = السويداء = صرخد وطوله ١٨٠ كيلومترا . وكانت الحكومة العثمانية باشرت انشاء قسم الشيخ مسكين الى ازرع والسويداء حتى صرخد وذلك بعد حروب جبل الدروز

لتموين الجيش ولم يتم اذ ذاك فتم مؤخراً تعبيد القسم الواقع بين ازرع والشو يداء وطوله ٣٧ كيلومتراً . و باشرت حكومة لبنـان تعبيد طريق صيدا — مرجعيون — بانياس وطوله ٤٠ كيلومتراً ولم ينته حتى الآن . وتقوم ادارة النافعة بدمشق بتعبيد القسم الواقع بين بانياس والقنيطرة و يبلغ طوله ٣٤ كيلومتراً . وسينتهي في اول صيف عام ١٩٢٨ . وتدرس هذه الادارة ايضاً مشروع انشاء طريق من القنيطرة الى الشيخ مسكين فازرع وسينشأ هذا القسم خلال ثلاث سنوات . وتقدر نفقات انشائه بنحو مائة الف ليرة ذهباً .

(٧) — لم يتم تعبيد طريق درعا — بصرى — صرخد وطوله ٦٠ كيلومتراً وكانت الحكومة العثمانية باشرت بانشائه .

(٨) — طريق بيروت — دمشق — بغداد وطوله من بيروت الى دمشق ١١٢ كيلومتراً نالت امتيازه شركة افرنسية في سنة ١٨٥٧ و باشرت بانشائه في سنة ١٨٥٩ وقد ترأس اعماله الكونت دي توبري وكان رأس مال هذه الشركة افرنسياً بحتاً . وكان السير عليه صباحاً ومساءً من الجهتين بواسطة الحوافل (الداليجانس) وتقطع هذه الحوافل المسافة بين بيروت ودمشق في ثلاث عشرة ساعة ووضعت الحكومة العثمانية اذ ذاك لهذه الشركة نظاماً وأسعاراً لنقل الركاب والبضائع والحيوانات . وامتنع بعض الاهالي من السير عليه بسبب غلاء الاسعار فكانوا يسيرون بالقرب منه على طريقين متواز بين له . وقد كان هذا العمل من اربح الاعمال التي قامت برؤوس أموال افرنسية وكان الكل مجمعاً على ان هذا المشروع أفاد الاهالي والبلاد واصحاب الاسهم فائدة عظمى وقد ربحت الشركة ارباحاً طائلة منه . اذ كان الربح الصافي سنوياً يقدر بخمسمائة الف فرنك . واستمرت هذه الشركة على أعمالها مدة ثلاثين سنة حتى انحلت سنة ١٨٩٢ ايام اشتركت مع شركة خط بيروت — دمشق — حوران الحديدي . واذ ذاك استلمت الحكومة العثمانية الطريق وأهملت محافظته حتى قبل الحرب العامة . فأصبح السير عليه صعباً لعدم اصلاحه وتعميره . غير ان الاتراك اهتموا باصلاحه في الحرب العامة . وبعد الحرب قامت الحكومات السورية واللبنانية

باصلاحه فصلح السير عليه وتيسر ان تستعمل السرعة عليه باجناس السيارات والدراجات على اختلاف أنواعها ·

وبعد دمشق فيتجه الطريق شمالاً على طريق النبك وبعد عشرين كيلو متراً يتجه شرقاً على طريق الصحراء ماراً بجوار قريتي العدراء وضمير الى الرحيبة نقطة الحدود السورية العراقية · ويبلغ طول الطريق من دمشق الى بغداد ٧٧٠ كيلومتراً منه عشرون كيلومتراً على طريق النبك يسير في طريق معبدة والباقي ٧٥٠ كيلومتراً طريق طبيعي قد مهدته السيارات في الصحراء · ولهذا الطريق مكانة كبرى في التجارة والسفر بين دمشق والعراق وبلاد فارس ·

ومن دمشق الى بغداد طريق ثانٍ وهو الطريق الذي يمر بالقطيفة وجيرود والقريتين وتدمر وطوله ٨٥٠ كيلو متراً ، فانه يزيد طوله عن الطريق الاول ٨٠ كيلو متراً ويبلغ طوله من دمشق الى القطيفة ٤٠ كيلومتراً وهو جزء من طريق النبك المعبد وهو بحالة حسنة · وقد جرى فتح طريق القطيفة ـ جيرود مجدداً على طول ١٥ كيلومتراً ولم يعبد بعد غير انه سهل المرور · ومن جيرود حتى القريتين وتدمر وبغداد فان الطريق طبيعي لم تعمل يد الانسان فيه شيئاً · ويرجع شأن هذا الطريق لاجتيازه البلدان العامرة والقرى الآهلة على طول ٢٥٠ كيلومتراً بين دمشق وجيرود وتدمر وعلى الاخص لمروره بمدينة تدمر التاريخية ·

(٩) = طريق طرابلس ـ حمص تدمر ـ بغداد · كانت تستثمر طريق طرابلس ـ حمص شركة وطنية كما كانت تستثمر طريق بيروت ـ دمشق شركة افرنسية وكان ذلك قبل ان تؤسس شركة الخطوط الحديدية الافرنسية · والمسافة بين طرابلس وحمص ٩٤ كيلو متراً وبين حمص وحماة ٤٧ كيلو متراً فيكون المجموع ١٤١ كيلومتراً كانت كلها موضوعة تحت تصرف الشركة الوطنية المذكورة وكان رأس مالها ٢٨ الف ليرة عثمانية ذهبية · ويقسم رأس المال الى سبعة آلاف سهم وقيمة كل سهم اربع ليرات عثمانية ذهبية · وكان ربح كل سهم من هذه الاسهم ليرة واحدة في السنة · ومدة الامتياز خمسون سنة · واجرة الراكب في الحوافل (الداليجانس) نصف ليرة من طرابلس الى حمص · وبعد انحلال هذه الشركة هجرت

الحكومة العثمانية هذا الطريق حتى خربت وتداعت جميع جسوره اثناء الحرب العامة وزادت السيول في تخريبه حتى أصبح في عام ١٩٢٥ بحالة لم يبق معها صالحاً للسير عليه · وقد بوشر بتعبيده في آخر عام ١٩٢٦ وانتهى في النصف الاول من عام ١٩٢٧

واما طريق حمص ٍ حماة فلم يزل على ما هو عليه ايام الحرب العامة · وشرعت الحكومة السورية باصلاح بعض الاقسام فيه وسيتم انشاؤه في نهاية عام ١٩٢٨ · والطريق من حمص الى تدمر فبغداد يمر بالصحراء على طريق طبيعي مهدته السيارات و يبلغ طوله ٧٥٠ كيلومتراً · وكانت السيارات تمر على هذا الطريق اثناء انقطاع السبل بين بيروت ودمشق وبغداد ·

(١٠) = طريق اللاذقية ٍ جسر الشغور ٍ ادلب ٍ حلب ٍ دير الزور · وقد افتتح القسم الواقع بين اللاذقية وحلب في آخر عام ١٩٢٦ ولم يزل العمل فيه مستمراً وسينتهي تعبيده في عام ١٩٢٨ و يبلغ طوله ١٩٠ كيلومتراً وطول المعبد منه الآن مائة كيلومتر · وفي اللاذقية يتصل هذا الطريق بالطريق العام الواصل بين اللاذقية وطرابلس وبيروت ورأس الناقورة فيتمكن المسافر من حلب ان يقطع هذا الطريق على متن السيارة من حلب حتى اللاذقية وبيروت بسهولة · واما من حلب الى دير الزور فالطريق صعب جداً وتقوم ادارة النافعة بحلب باصلاح الاقسام الاكثر صعوبة منه و يبلغ طوله ٣٢٠ كيلو متراً وهو مار بجوار مسكنة والرقة و ينتهي في بلدة دير الزور حيث يتفرع منها ثلاثة طرق طريق الموصل وطريق بغداد وطريق تدمر ٍ دمشق ·

(١١) — طريق السويدية ٍ انطاكية ٍ جسر الحديد ٍ حارم ٍ حلب · افتتح هذا الطريق حديثاً في آخر عام ١٩٢٦ ولم يزل العمل فيه مستمراً · وسيتم انشاؤه في نهاية عام ١٩٢٨ و يبلغ طوله ١٤٠ كيلو متراً · وافتتح القسم الواقع بين السويدية وانطاكية في الجبال والاودية و يبنى عليه عدة جسور ذات شأن عظيم وستكلف نفقات باهظة وطول هذا القسم ٣٥ كيلو متراً · ومن انطاكية الى جسر الحديد حتى حارم يجتاز الطريق في ارض طينيـة لا يمكن المرور فيها في فصل الشتاء · واما بين حارم وحلب فالطريق معبدة وطولها ٧٠ كيلومتراً وتسير عليها السيارات بسرعة ·

(١٢) — طريق الاسكندرونة ٍ قرق خان ٍ يكي شهر ٍ اوروم الصغرى ٍ

حلب . تقضي كثرة المعاملات بين حلب والاسكندرونة بان تكون المواصلات بين هذين البلدين سهلة ولكن لم يعمل في زمن الحكومة العثمانية ما من شأنه ان يضمن النجاح في هذا الشأن . وكان التجار الانكليز في القرن السابع عشر يشكون من الصعوبات الجمة التي كانوا يلاقونها حين ذهابهم من حلب الى الاسكندرونة .

وكانت الحكومة العثمانية أنشأت طريقاً في سنة ١٨٧٠ في الحدود الشمالية من ولاية حلب تضمن به المواصلات بواسطة البحر الى جهات كليس وعينتاب وبيره جك والبلاد التركية الاخرى . وكان القصد من انشائه وصل الاسكندرونة بالبلاد التركية وقد وصلت الحكومة العثمانية هذا الطريق بفرع بين قطمة وحلب اقتصاداً من انشاء طريق ثانٍ خاص بحلب فأصبح هذا الطريق بعد طريقاً لحلب . ثم تخرب في سنة ١٨٨٠ وكان كلف الحكومة مبلغاً كبيراً لو أُنفق على انشاء خط ترامواي لما كان كلف اكثر من ذلك . وكانت القوافل تتبع طريقاً أقصر طولاً منه باربعين كيلومتراً وهو الطريق الذي انشأته الحكومة السورية حديثاً . وكانت القوافل تجتنب المرور في مستنقعات نهر عفرين التي يمر منها الطريق القديم . وعلى هذا فقد بقي هذا الطريق مخرباً الى سنة ١٨٩٠ حتى اتفق ان مر احد الولاة في حلب عليه فتحطمت عجلته وعلى اثر ذلك قررت الحكومة تعميره وخصصت لهذا العمل سنوياً مبلغاً قدره ثلاثة آلاف وثلاثمائة ليرة للاستمرار على ترميمه واصلاحه . وبعد جلاء الاتراك بقي هذا الطريق مهجوراً من غير اصلاح او ترميم الى ان تخرب . ورأت حكومة سورية أخيراً تركه لطول مسافته وكثرة نفقات اصلاحه ولبعده عن مراكز البلاد الواقعة بين الاسكندرونة وحلب . ففكرت بعد انشاء طريق حلب – حارم ان تنشئ فرعاً بين يكي شهر و يكي كوي للاتصال بين الاسكندرونة وحلب . وقد تم فتح هذا الفرع بتمهيده ولم يعبد بعد . وقد أصبح طول هذا الطريق الجديد بين حلب والاسكندرونة ١٢٣ كيلومتراً بعد ان كان طول الطريق القديم ١٦٣ كيلو متراً وصارت المسافة بالطريق الجديد أقصر منها في الطريق القديم باربعين كيلو متراً .

هذا مجموع الطرق الاساسية العامة ببلاد الشام وهناك طرق فرعية كثيرة ممتدة كالشرايين تصل القرى بعضها ببعض ثم تربطها بمراكز الاقضية كما انها تتصل بالطرق

العامة ٠ وكان أنشئ قسم من هذه الطرق الفرعية قديماً وافتتح القسم الآخر حديثاً بطريق السخرة غير ان اكثر هذه الطرق ان لم نقل كلها تحتاج الى الاصلاح والتعبيد لتسهيل المواصلات بين القرى والبلدان ولتتمكن السيارات من السير عليها على أيسر صورة وتصبح حركة النقل سريعة لا كما هي عليه الآن في اكثر هذه الطرق من البطء الظاهر وحينئذ تزداد موارد البلاد و يسهل نقل البضائع الى المدن والسواحل ولا يخفى ما في ذلك من الفوائد العظيمة لانعاش حياة البلاد الاقتصادية ٠ ومن جهة أخرى فان وجود طرق صالحة في البلاد يزيد عدد السياح والمصطافين الذين يرتادونها وهذا ايضاً له شأنه في تقدمها وعمرانها ٠

* * *

السيارات — وقد اخذ عقب انتهاء الحرب العامة سوق السيارات على اختلاف أنواعها وأصنافها تروج رواجاً كبيراً في بلاد الشام حتى أصبح منها عدد غير قليل يستخدم لنقل الركاب والبضائع في جميع أنحائها ٠ وقد تبين من الاحصاء الرسمي لغاية ايلول سنة ١٩٢٧ ان مجموع عدد السيارات التي سجلت رسمياً في البلاد الشامية ٦٦٢٢ ٠ منها ٦٥٣ في دمشق و٦٢٩ في حلب و١٠١ في حمص و٩٣ في حماة و٤١ في دير الزور و٢١٥ في بلاد العلويين و٤٨٩٠ في لبنان ٠ واذا فرضنا ان عدد السيارات في فلسطين نحو ثلاثة آلاف فيكون مجموعها في بلاد الشام ما يقرب من عشرة آلاف سيارة مختلفة الشكل والصورة ٠ وقد اضرت هذه السيارات بمصلحة بعض السكك الحديدية ففترت أعمالها بعض الشيء لرغبة الناس في السرعة الزائدة ٠ انتهى ما كتبه السيد عبد الوهاب المالكي ٠

البرق والبريد والهاتف (1)

منشأ البرق «التلغراف» لم يكن الى الربع الاخير من الحكم التركي بالشام برق ولا بريد ولا هاتف منظم . وضع نظام البرق في ٢٧ ربيع الاول سنة ١٢٧٦ هـ ونظام البريد في ٢٦ المحرم سنة ١٢٨٦ هـ وكان يتبادل بريد الحكومة على عهد الحكومات السابقة بواسطة السعاة والنجابين او بواسطة حمام الزاجل . وتستعمل اشارات الضياء (الفوانيس) إبان الحروب عوضاً عن الاشارات البرقيـة السلكية واللاسلكية والهوليسته المستعملة الآن . واصطلح على استعمال كلمة برق عوضاً عن كلمة تلغراف اليونانية المركبـة من كلمتين تل — غراف والاولى بمعنى بعيد والثانية الكتابة اي الكتابة عن بعد ، منـذ نحو اربعين سنة واستعملت كلمة الهاتف على عهد الحكومة العربيـة عوضاً عن كلمة تلفون اليونانية المركبة من تل وفون اي الصدى البعيد .

وللبرق ثلاثة فصول : الشبكة والآلات والادوات المستعملة وشكل الادارة والمخابرة واقتصرت شبكة البرق بدمشق على العهد التركي حتى سنة ١٨٩٩ على الاسلاك الممتدة منها شمالاً الى حلب وجنوباً الى القنيطرة ، الصلت ، حوران وشرقاً دوما وغرباً بيروت ، حاصبيا ثم توسعت هذه الشبكة في سنة ١٩٠٠ بتمديد الخط البرقي الحجازي من الصلت حتى المدينة المنورة وامتد فرع منه بين معان والعقبـة البحرية . وللسلك البرقي الحجازي عمود تذكاري ركز في ساحة الشهداء بدمشق .

---

(١) أُخذت معلومات هذا الفصل من إدارة البريد والبرق في دمشق .

وتفرع من السلك الشمالي فرع امتد بين حمص ، طرابلس الشام وحمص ، بعلبك وحماة ، سلمية وحماة ، العمرانيـة ومن السلك الجنوبي الى جبل الدروز وبصرى · وعلى أثر جلاء الجيش التركي ودخول جيش الحلفاء أواخر سنة ١٩١٨ خربت هذه الشبكة ثم أعيد انشاؤها على عهد الحكومة العربية على ما كانت عليه قبلاً الى ان انسلخت منطقتا فلسطين وشرقي الأردن وحكومة جبل الدروز عن جسم الشام · وظلت هذه الشبكة البرقية في الشام بطول ١٥٧١ كيلومتراً ·

وقد أنشأت الحكومة التركية اثناء الحرب العامة المخابرات اللاسلكية بدمشق وحلب واستعملت الاشارات الضيائيـة والبصرية بالاعلام والسواعد ضمن قطعات الجيش فقط ·

* * *

الآلات والادوات والمخابرة كانت الآلات والادوات البرقيـة المستعملة على العهد التركي حتى سنة ١٣٠٥ ﻫ ١٨٨٩ م منحصرة في نوع سميس ومورس الاوربي ثم عدلت هذه الادوات في مصنع البرق الذي أحدث في نظارة البريد والبرق في الاستانة بشكل جمع بين النوعين المذكورين بجعل ابرة الكاتبة بآلة الاخذ للمفاوضات البرقية ان تنقش الاشارات الرمزية ٠٠ — [— —٠٠ ٠—٠ ٠٠٠ —٠٠٠ — —٠] على شريط الورق بصورة ناشفة بدلاً من نقشها بالحبر كالآلات السابقة ثم ألغت النظارة المذكورة استعمال الابرة والسلك على أثر ترقي الموظفين بتلقي نقرات المخابرة سماعًا وأصبحت الآلات المذكورة من نوع البارلور الذي هو عبارة عن الآلة الآخذة ، وقد وفرت على الادارة ثلاثة أضعاف ما كانت تكلفها قبلاً بوجود أقسام الكتابة · واستمر الحال على استعمال هاته الآلة حتى نشوب الحرب العامة فأحدثت الماكنات المضاعفة (دوبلكس) الالمانيـة والانكليزية التي سهلت المخابرة اخذاً ورداً في آن واحد على خط واحد كإحداثها ماكنات الهوك المفردة والمضاعفة التي تنقل المخابرات البرقية على السلك الورقي حروفاً هجائية اخذاً ورداً ·

وكانت المفاوضات البرقية على العهد التركي حتى سنة ١٩٠٠ في اكثر المراكز

تنحصر باللغتين الشرقيتين التركية والعربية ولا تتعدى البلاد العثمانية عدا بضعة مراكز كدمشق وبيروت وما يماثلها من مراكز الولايات وبعد ذلك أُحدثت المفاوضات الغربية بين المراكز العثمانية واوربا ٠

* * *

احداث الهاتف «التلفون» } أُحدث الهاتف في الشام بعد اعلان القانون الاساسي في تركيا خلال ٩٠٨ / ٣٢٤ وكان منحصراً بالدوائر الرسمية الرئيسة الملكيـة والعسكرية ورخص بتمديد الاسلاك الخصوصية في مسكن كل مشترك وحانوته او مشترك آخر في بلدة واحدة تحت إشراف ديوان البرق الملكية ٠ واستمرت هذه الشبكة الهاتفية بشكلها حتى نشوب الحرب العامة فأُلغيت منها الاسلاك الخاصة وانحصرت بالاسلاك الرسمية التي تجاوزت نفس دمشق وتوسعت الى منـاطق الجيوش ومواقع الحرب حتى اذا انجلت الحكومة العثمانية عن البلاد ودخل الجيش المحتل استلمها وأُسس على أنقاضها شبكة خاصة عسكرية وعممها الى جميع مناطق الانتداب الرئيسة كدمشق وحمص وحماة وحلب والاسكندرونة الخ ٠ وسمح للسكان وتجار هذه البلاد بالاشتراك والارتباط والمكالمة بها مقابل اجور مقطوعة على كل ثلاث دقائق تمر اثناء المخابرة ٠ وارتبطت الحكومات الوطنية في كل من هاته البلدان بدوائرها المركزية هاتفياً واستقلت الدرك بشبكة خاصة مع مخافرها ٠

اما الهاتف اللاسلكي الرسمي فانحصر والحـالة هذه بمصلحة الراديو العسكري اخذاً ورداً والهاتف اللاسلكي التجاري سمح به في قسم الاخذ منه تحت إشراف إدارة البريد والبرق دون استعمال آلة الرداي الاصدار ٠

* * *

منشأُ البريد «البوسطة» } البريد كلمة فارسية مختصرة من كلمتي بريد ذنب اي مقطوع الذنب ٠ والسبب بهـذا الاصطلاح الغير المأنوس هو ان الفرس كانوا يقطعون أذناب الحيوانات التي تنقل بريد الحكومة تمييزاً لها عن بقية الحيوانات التي تستخدمها لركوب الدرك والجبـاة ٠

فحذفت العرب كلمة الذنب واقتصرت على كلمة البريد والجمع منها برد (ارجع لتاريخ الطائر الغريد في وصف البريد) على ما جاء في تاريخ البريد التركي تأليف مدير بريد الاستانة محمد علي بك . ولم يكن قبل القرن السابع عشر اثر للبريد على ما ورد في مجموعة البرق والبريد التركية .

كان شكل وإدارة البريد وسيره من حيث النقل حتى تاريخ تمديد السكة الحديدية المصادف لسنة ١٣٠٧ هـ ١٨٩١ م بين بيروت ودمشق — المزيريب تنحصر الى بيروت بمركبات شركة الحوافل الملغاة بعد سير السكة المذكورة . واما باقي الجهات فكانت شمالاً حتى حلب فالاستانة تسافر براً مع التاتار اي مع سعاة البريد الموظفين ينقلونه على ظهور الخيل وشرقاً بين دمشق والعراق — بغداد على ظهر الهجن (الذلول) وجنوباً بواسطة السعاة المأجورين وبحراً بواسطة بيروت وهو عبارة عن تبادل الكتب والصحف والملفات والنماذج دون القيمة والصرر ذات القيمة مع البلاد العثمانية وعلى الكتب والصحف والملفات مع البلاد الاجنبية .

وقد بدأ يتطور شكل سير البريد نقلاً وادارةً ومعاملةً من سنة ٣١٦ — ١٩٠٠ فألغيت سعاة التاتار سنة ١٩٠٢ بين دمشق وحماة وسنة ١٩٠٥ بين حماة وحلب وسنة ٣٣١ — ١٩١٥ من حلب وأذنة فقونيــة . وأصبح نقل البريد حتى الاستانة براً بالسكة الحديدية التي أنشئت شمالاً كما انها احدثت نقليــات البريد حتى الحجاز اي المدينة المنورة بالسكة الحجازية التي كان بدي بانشائها سنة ١٩٠١ — ٣١٧ وانتهت بسنة ١٩٠٨ — ١٣٢٤ . وتبدلت نقليات البريد تدريجاً بين البلاد الشامية من وسائط الحيوانات الى متن السيارات . واما فيما له شأن بالمعاملات فقد احدثت على التدريج واعتباراً من سنة ٩٠٠ا أنشئت الحوالات البريدية فالبرقية والطرود العادية فالمشروطة التأدية والمكاتيب ذات القيمة المقدرة بين الممالك العثمانية والشام . وفي سنة ١٩٠٢ بدأت هذه المعــاملات الجديدة مع الممالك الاجنبية في اوربا وآسيا وافريقية . ودامت على هذا التوسع التدريجي حتى نشوب الحرب العامة فانقطعت عندئذ مع الدول المعادية لتركيا واقتصرت على البلاد المتفقة معها الى ان جلت الحكومة المذكورة عن هذه البلاد الشــامية وانقطعت المواصلات البريدية اثناء

احتلال دول الانتداب بلاد الشام ثم عادت المواصلات الى سيرها السابق فتكاملها اللاحق بكل فروعها وذلك بمعاونة الحكومة المنتدبة هذا عدا عن انقطاع السكة الحجازية الذي لم يصل والحالة هذه بين الشام والحجاز اي المدينة المنورة بعد الاحتلال البريطاني لفلسطين وشرقي الأردن الخارج عن حدود الدولة السورية ٠

***

مراكز البريد والبرق في الشام } دمشق مركز البريد ، دمشق باب توما ، دمشق الميدان ، عفرين ، حلب ، اعزاز ، الباب ، بصرى ، ديرالزور ، درعا ، جرابلس ، جسرالشغور ، دوما ، أريحا ، ازرع ، حماة ، حارم ، حمص ، خربة الغزالة ، ادلب ، قطنا ، القنيطرة ، القطيفة ، معرة النعمان ، منبج ، النبك ، عمرآغا ، الرقة ، سلمية ، السويداء ، يبرود ، الزبداني ، الاسكندرونة ، انطاكية ، آرسوز ، بيلان ، قريق خان ، الريحانية ، السويدية ، كسب ، بلودان ٠

هذا في دولة سورية ، وهذه مراكز البريد في لبنان :

بيروت ، جديدة المتن ، جونيـة ، جبيل ، بترون ، أنفة ، طرابلس ، زغرتا ، عكار ، غزير ، أميون ، بشرّي ، الدامور ، صيدا ، صور ، تبنين ، بنت جبيل ، جزين ، نبطية ، مرجعيون ، حاصبيا ، بعبدا ، عاليه ، ديرالقمر ، بعقلين ، بيت مري ، برمانا ، بكفيا ، بيت شباب ، شوير ، بسكنتا ، بحمدون ، صوفر ، حمانا ، زحلة ، رياق ، بعلبك ، الهرمل ، جب جنين ، مشغرة ، حصرون ، أهدن ، دوما لبنان ، حدث الجبة ، عين زحلتا ، سوق الغرب ، سير ، قرطبا ، الشويفات ٠

وهذه اسماء مراكز البريد في بلاد العلويين :

بانياس ، جبلة ، القدموس ، القرداحة ، اللاذقية ، المشتى ، العمرانية (مصياف) ، أرواد ، صافيتا ، صهيون ، طرطوس ، تل كلخ ٠

واليك اسماء مراكز البريد والبرق في فلسطين :

عكا ، العفولة ، بئر السبع ، بيسان ، غزة ، حيفا ، يافا ، جينين ، القدس ، لدّ ، المجدل ، نابلس ، ملبس ، الرملة ، ديران ، سمخ ، صرفند ، تل أبيب ، طولكرم ، زمارين ٠

وقد أصبحت فلسطين في عهد الانتداب الانكليزي مربوطة كلها حتى قراها بشبكة من سلك الهاتف فنازع الهاتف البرق في هذا القسم الجنوبي من ارض الشام وأصبحت المواصلات فيه سريعة للغاية .

وهذه جريدة اسماء مراكز البرق والبريد في شرقي الأردن :

اربد ، ام قيس ، دير ابو سعيد ، الحصن ، الرمثا ، الزرقا ، الصلت ، الطفيلة ، عجلون ، عمان ، القطرانة ، الكرك ، مادبا ، معان ، جرش .

اما مراكز البرق خاصة في بلاد الانتداب الافرنسي في الشام فهي كما يلي :

(سورية) : حلب ، الاسكندرونة ، انطاكية ، آرسور ، اعزاز ، البـاب ، بيلان ، بلودان ، بصرى ، دمشق ، دير الزور ، درعا ، جرابلس ، جيرود ، جسر الشغور ، دوما ، ريحـا ، ازرع ، حماة ، حارم ، حسيه ، خربة الغزالة ، حمص ، ادلب ، قطنا ، قرق خان ، القنيظرة ، القطيفة ، معرة النعمان ، معبطلي ، منبج ، النبك ، عمر آغا ، [illegible] الريحانية ، سلمية ، السويداء ، السويدية ، الزبداني ، يبرود .

(لبـ[illegible] [illegible]كار ، عاليـه ، أميون ، بعبدا ، بعقلين ، بعلبك ، البترون ، بشرّي ، [illegible]ب ، بيت مري ، بيروت ، بحمدون ، بخنس ، بنت جبيل ، بسكنتا ، [illegible]رمانا ، الداور ، دير القمر ، ظهور الشوير ، جزين ، جب جنين ، جبيل ، جونيه ، اهدن ، انفة ، غزير ، حمانا ، حاصبيا ، حصرون ، الهرمل ، قب الياس ، مشغرة ، مرجعيون ، النبطية ، راشيا ، رياق ، صيدا ، صوفر ، تبنين ، طرابلس الشام ، ميناء طرابلس ، صور ، زحلة ، زغرتا .

(العلويون) : بانياس ، جبلة ، حفه ، القدموس ، القرداحة ، اللاذقية ، مصياف ، المشتى ، أرواد ، صافيتا ، ظرطوس ، تل كلخ .

فمجموع المراكز ٤٥ في لبنان و ٤٠ في سورية و ١٢ في العلويين .

المصانع والقصور

تقاسيم المصانع وعظمتها

ان قطراً كهذا القطر البديع ، تعاقب الحكمَ عليه الحثيون والمصريون والبابليون والاشوريون والفرس والفينيقيون والاسرائيليون والرومان واليونان والعرب والترك والتتر والشركس ، وأُعجب الفاتحون بخيراته ، واغتبطوا بالاستيلاء عليه ، لموقعه الممتاز بين الاقطار والقارات ، فجعلوه محط رحالهم ، ومجازاً الى فتوحهم ، لا يستغرب منه اذا رأينا فيه مصانع تشهد لبانيها بسلامة الذوق ، وجودة الابداع ، وعظمة الباني .

ان الشعوب التي أنشأت مصانع وادي مومى وجرش وعَمان ومادبا وبعلبك وتدمر والرقة وأَفاميا ودمشق وحلب والقدس كانت ولاشك ذات معرفة بالهندسة ، لا تقل عن اهل هذا العصر بها ، لان ماشادوه صارع الايام وصرعها ، وبقيت منه هذه البقايا على كثرة ما تناولها من الهدم والتحريق ، بايدي المخربين ، من الظالمين والمظلومين ، وسطا عليها من عوامل الطبيعة القاسية .

تنقسم مصانع الشام الى قسمين : مدني وديني ، فالمدني كالقلاع والحصون والابراج والمناور والمراصد والقصور والجسور والسكور والقنوات والموانى والطرق والدور والقبور والمستشفيات . والديني كالمعابد والبيع والاديار والكنائس والجوامع والمساجد والمدارس والرُّبُط والخانقاهات والملاجئ وما شاكلها .

* * *

مصانع الامم القديمة

ومن أقدم مصانع الشام ماوجد في قرية الحصن من عجلون وهي أنصاب (Dolmens) يبلغ عددها المئتين على ما قال مالون ، وهي عبارة عن ثلاثة أحجار عادية ضخمة احدها طويل منبسط ، يبلغ طوله ثلاثة أمتار في عرض مترين ، يركز أفقياً فوق حجرين آخرين مربعين مستطيلين . ومنها ما يبلغ علوه ٨٠ س ومنها ضعف ذلك . وقد زعموا انها كانت مذابح دينية وانها هي المشارف التي تكرر ذكرها في الاسفار المقدسة . والرأي المرجح انها كانت قبوراً ، ولا يعرف لها تاريخ اكيد . والعلماء يجعلون عهدها في الطور المعروف بطور الظران . وربما كانت أقدم عاديات الشام .

ومن اقدم مصانع الحثيين قلعتهم التي أنشأوها على الفرات في كركميش (جرابلس) فبقيت حسكة في حلق نينوى الى نحو سنة ٧١٠ قبل الميلاد حتى استولى الاشوريون عليها . وبنواسرائيل كالحثيين لم يتركوا في فلسطين منبتهم ومطلعهم سوى آثار ضئيلة . واهم ما بقي من آثارهم ، معبدهم في القدس اومعبد سليمان الذي جمع اليه الصناع والمهندسين من صور بمساعدة الملك حيرام سنة ١٠١٣ قبل الميلاد ، وقد حُرق هذا المعبد فرمم غير مرة على عهد ملوك يهوذا سنة ٥٨٨ قبل الميلاد ولما عاد اليهود بعد ثنتين وخمسين سنة من أسرهم في بابل جددوا المعبد على مثال الاول في الجملة ، وكانت دثرت محاسنه الاولى ، ثم وقع ترميمه في أدوار مختلفة ولم يُصب هذا المعبد باذىً على عهد السلوقيين خلفاء الاسكندر المكدوني في الشام ، ولا في زمن بومبيوس الروماني ، لانه كان من عادة اليونان والرومان ولا سيما الرومان ، ان لا يقاتلوا الامم التي يدوخونها على أربابها . وربما اقتبسوا ممن غلبوهم على امرهم عباداتهم من غير نكير .

وسع هيرودوس ملك اليهود الذي نصبه الرومان معبد سليمان ، وانتهى على عهد نيرون ، وكان عمل فيه الف كاهن والوف من العملة دهراً طويلاً . وقد قيل ان سليمان خزن من غنائمه لبناء معبده مئة الف وزنة من الذهب ومليون وزنة من الفضة ، قُدرت بسكة زماننا بثمانمائة وتسعة وثمانين مليوناً ونصف مليون جنيه ، وذلك ما عدا الحديد والنحاس والخشب . فكمل بناؤه سنة ١٠٠٥ قبل الميلاد وكان فخر اورشليم ، وأجمل بناءٍ في العالم . وقد شيد بجانب الهيكل الشرقي رواق من السواري اي العمد ،

فأدار الملوك المتأخرون هذا الرواق حول جميع البناء ، وبقي هيكل سليمان ٤٢٤ سنة الى ان خربه ملك بابل · وتحيط بالهيكل الذي رممه هيرودوس في محل الحرم الشريف عدة دور ، منها دار الامم وهي الدار الخارجية ، ثم دار النساء ، ثم دار اسرائيل ، ثم دار الكهنة ، ثم الهيكل · وقد هدم الرومان هذا الهيكل سنة ٧٠ م ·

ولا يزال الباحثون منذ ثلاثة قرون ينقبون عن كل ما له علاقة بهذا المعبد ، وكان غاصاً بالخشب الثمين الذي جيء به من أرز لبنان وغيره ، مموهاً بالذهب والفضة ومحلىً بالعاج والاحجار الكريمة ، وفيه من الاواني الثمينة والمُدَى والاحواض وادوات البيوت ، ما صحّ ان يعدّ خلاصة علم الفينيقيين بالصنائع النفيسة · والفينيقيون هم في الحقيقة البانون للهيكل ·

* * *

هندسة الفينيقيين وآثارهم — لم يشتهر الفينيقيون بانهم عُنوا بالبناء والهندسة عنايتهم بالربح والكسب وارتياد القاصية ، ومع هذا أُعجب الغربيون لعهدنا بالمكاتب التجارية التي أقامها الفينيقيون في شواطئ يونان وايطاليا وصقلية وغاليا وايبريا وافريقية · بيد ان هذا الشعب لم يخلف من آثار مدنيته ادنى ماخلفته الشعوب القديمة · وربما كان الباقي منها بل ماثبت قيامه على عهد حضارتهم ، أقل مماخلفته تدمر والبتراء · ولم يثبت ان بقي للفينيقيين معبد من معابدهم الى عهدنا على كثرة ما بنوا منها كما يقول التاريخ ·

اما آثار الفينيقيين المدنية كالحصون والقبور وغيرها ، فان الباقي من أساس حصن صور الذي أعجز اقتحامه قدماء الفاتحين كسراغون وبختنصر والاسكندر ، لا يدل على كبير امر ، وقد بني الاسكندر بين البر والجزيرة فيها سدّه الغريب ، وكان بناء صور الى عصر ابن بطوطة « ليس في الدنيا أعجب وأغرب شأناً منه » وقال ابن جبير : انه يضرب المثل بحصانتها ، وذلك انها راجعة الى بابين ، احدهما في البر والآخر في البحر ، وهو يحيط بها من جهة واحدة ، فالذي في البر يُفضي اليه بعد ولوج ثلاثة أبواب او اربعة ، كلها في ستائر مشيدة محيطة بالباب ، اما الذي في البحر فهو مدخل بين برجين مشيدين الى ميناء ليس في البلاد البحرية أعجب وضعاً منها ، يحيط

بها سور المدينة من ثلاثة جوانب ، و يحدق بها من الجانب الآخر جدار معقود بالجص ·
وكانت بيوت صور كبيوت طرابلس ذات طبقات ست وسبع وثمان على عهد الفينيقيين ·
ولا يزال سور بانياس بين طرطوس واللاذقيـة قائماً ، ولا يعرف اذا كان من صنع الفينيقيين او البلاسجيين ، لانه أشبه بعمل البلاسجيين سكان ايطاليا و يونان القدماء · وهكذا يقال في أسوار بيروت وصيدا وجزيرة أرواد وعمريت ومعبد هذه على رأي «رنان» أقدم معبد بل يكاد يكون المعبد الوحيد الذي بقي من آثار العنصر السامي · اما قبور الفينيقيين فهي أهم ما اكتشفت في بلادهم ، وكلها نقر بياً نقرت في الصخر وهي مثلها في بلاد يهوذا والعرب ، اي عبارة عن عقود كبرى جعلت فيها النواو يس لأُسرة برأسها · والقبور التي ظهرت في عمريت هي أهم ما عرف من نوعها وكذلك ما ظهر في جبيل وصيدا ولا سيما النواو يس الاربعـة التي وجدت في هذه المدينة ، ولا تزال محفوظة في متحف فروق ·

بحث الاثريون في فلسطين عن المعاهد الدينية في الاكثر ، وامتدوا في حفرياتهم الى بلاد العرب للعثور على مدنية يعتدُّ بها سبقت الرومان واليونان · وكل ما عثروا عليه تافه في الحقيقة · وقد تبين لهم ان البيوت كانت كقصور الملوك تحتوي على دائرتين : دائرة الرجال او الثويّ وهو المكان المعدُّ للضيف « السلاملك » ، ودائرة الحريم ، شأن قصور الشرق الاسلامي لهذا العهد · وماقصر هركان في عراق الامير ، وحصون القدس ، و برج انطونينا ، الا من بقايا الهندسة اليونانية الرومانية · ونقلُ في فلسطين وشمالي غربي بلاد العرب القبور التي يرد عهدها الى الزمن الذي يسبق العصر اليوناني · وقبور مدائن صالح التي نحتت في الصخر ، لا يستدل منها الا انها مثال من أمثلة البناء الاشوري · وقد اختلفت الظنون في هذا الشأن ، والاثريون يوالون النبش ليكشفوا شيئاً يستدلون منه على مدنية أقدم أمة نزلت الارض المقدسة ·

* * *

عاديات الرومان أُقيمت عدة أنصاب في الشام لملوك الرومان منها ماعثر عليه الاثريون · ذكر وادنكتون كتابة وجدها في

السويداء كأنها كتبت تحت نصب أُقيم لاحد ملوك الرومان فيه « للملك اليوس قيصر أدريانوس انطونينوس بيوس العاهل » ووجدت كتابة في قرية ام الجمال في حوران كتب فيها « للعاهل القيصر مرقس اورليوس انطونينوس اغسطس قاهر الارمن والبرتيين » . ولهذا القيصر كتابة أُخرى في سهوة الخضر من جبل حوران ، وأُخرى في الشهبة المسماة فيليبولي نسبة الى الملك فيلبس العربي ، ووجدت في السويداء ايضاً كتابة يونانية مؤذنة باقامة اثر تكرمة للملك كومود ، أقامه له دوميتيوس بروكستر والي العربية ، ذكرى جلب الماء الى المدينة وضواحيها سنة ١٨٧ ، ووجد في جنوبي اللاذقية على مقربة من عُدوة النهر الكبير كتابة تدل على محطة عسكرية . وفي دير القلعة في لبنان على الصخر الذي في جانب البئر كتابة فيها « بسلامة مولانا القيصر لوستيوس سبتيموس ساويروس برتينكس اغسطس ، أقام هـذا النصب بومبايوس اينجيوس نذراً للمشتري » .

يصعب الحكم على كل أثر بعينه ، ونسبة كل بناء الى الامة التي أقامتـه ، وكل واحدة منها تركت على الأغلب في هذا القطر أثراً مخلداً متلداً تفاخر به . فالطرق الرومانية التي أُنشئت من القدس الى بلاد النبط جنوبي بحيرة لوط ومن شمالها ، وطريق مادبا الى البتراء والعقبة حتى البحر الاحمر وطريق جرش ووادي موسى ، والطريق المبلط شرقي صرخد الممتد الى العراق ، وكان يسمى بالرصيف ، هي من الآثار المهمة كالمعسكر الروماني في أذرح ، وآثار قنوات وشهبة وسالة ودامة العليا ولبّن .

* * *

عاديات البتراء وجرش وعمان — عدت البتراء في الجنوب رصيفة لتدمر تباريها بضروب مرافقها ، ومنهـا الهياكل الجليلة ، والدور الفخمة ، والاندية والمجالس والقصور ، والحمامات والمسارح والمدافن والمسلات ، وقد رأى فيها «دومازفسكي» آثار الهندسة المصرية واليونانية والرومانية والشامية . ومعلوم ان اهل البتراء عرب من النبط شيدوها حوالى القرن السادس قبل الميلاد ، وارتقت على عهد الرومان بعد المسيح بقرنين الى ان زاحمتها تدمر في القرن الثالث للميلاد . ومن أجمل ما في وادي موسى اليوم خزنة فرعون وهي دار الحكم نقرت في الصخر

وجعلت ثلاث قاعات وبهواً . وهذا القصر الفخم الذي يسميه الناس خزنة فرعون كان في الغالب معبداً لايزيس ، أُنشئ على عهد الامبراطور ادريانوس سنة ١٣١ وفي واجهة هذا القصر رواق يتقدمه بضعة أعمدة كبرى وفوقها ثلاثة أعمدة أصغر منها ونقوش وتيجان ، وربما كان يصعد الى العلية بلولب من الصخر بدليل ما يشاهد في الحائط من اثر الادراج . واذا دخلت هذا الرواق ترى على اليمين قاعة كبرى تلمع أحجارها وتموج كأنها خرجت الآن من يد نقاشها . وفي الجهة اليسرى قاعة مثلها ، وفي الصدر القاعة الكبرى او الردهة المدهشة . وكل هذه السواري والتيجان والقاعات والرواق محفور في الصخر او في هذا الجبل قطعة واحدة فكأن الحجر كان بيد صانعي هذا الهيكل وغيره من الهياكل والنواويس والقصور كالطين يجعلون منه مايشاؤون . والذي يزيد في الدهشة ان الحجر أحمر في هذه الجبال او من نوع الحجر الرملي ولكنه بمتانته كالصخر الاصم . ثم ترى فيه ذاك اللمعان ، فمن موجة حمراء الى أخرى زرقاء ، الى مثلها بيضاء الى جانبها دكناء . فسبحان من أنشأ هذا الصخر هنا منقطع النظير ، ورزق بانيه يداً صناعاً تتفنن في تقطيعه ، ونقره بما فاق به البناة في سائر عاديات الشام . فان كانت قلعة بعلبك تنم عن ذوق سليم وعلم واسع في النقش وجر الاثقال . فان هذه العاديات الازلية تنادي بلسان حالها . هذه عظمة الديان الى جانب تفنن الانسان .

وفي هذا الجوار أقدم النواويس وأهمها وبعد ذلك يجيء قصر البنات وهو بناء من الحجر رصفت حجارته كما ترصف الابنية الضخمة من قلاع وأبراج وأسوار ونحوها . والغالب انه كان للمتأخرين شبه دار للحكومة وهو مما عمر قبل عهد الاسلام . وهناك ولا سيما في خربة النصارى آثار بعض أديار يدل اسمها ورسمها انها من عمل المسيحيين عندما كانت لهم حكومة هنا على عهد الرومان واليونان . وعلى مقربة من تلك الجبال الشوامخ والمنفرجات والاودية بعض نواويس وآثار ولكنها دون آثار البتراء في المكانة . وفي جبل الصبر ملعب او صورة تمثل قتالاً بين سفن حربية .

ويقول بعض علماء الآثار ان معظم القبور التي حفرت كانت على مثال قبور الحجر ، يرد عهدها الى الحارث الرابع احد ملوك البتراء اي ٩ و٣٠ قبل المسيح وبعده .

وليس في وادي موسى أعمدة من قبل الحكم الروماني عليها · وان ما يشاهد من صور ابي الهول وايزيس ورؤوس الحملان يدل على ان هذه البلاد تأثرت بالمدنية المصرية · والمسلتان الموجودتان في النجر تمثل ربي النبطيين اللات والعزى ، وانها كانت مركز عبادة النبط قبل العهد اليوناني بستة قرون على الاقل ، وان المدنية اليونانية دخلت البتراء على عهد البطالسة فاختلط العنصران المصري والشامي ، وظل القول الفصل فيها للمدنية اليونانية الى عهد الحارث الرابع · وفي البتراء ٨٥١ مصنعاً من القبور والمعابد والمذابح ·

وعدوا من مفاخر وادي موسى الملعب العظيم المنحوت في الصخر ، قطره ١١٧ قدماً وفيه ٣٣ صفاً من المجالس يسع من ٣٠٠٠ الى ٤٠٠٠ من المتفرجين · والملعب الروماني في عمان (ربة عمون) اكبر الملاعب في الشام · وهو مركب من ثلاث مراتب ، جعلت المرتبة الاولى خمسة صفوف من المقاعد ، والمرتبة الوسطى اربعة عشر صفاً ، وللمرتبة الثالثة ستة وعشرون صفاً من المجالس · وهو يسع اربعة آلاف ناظر ايضاً · وفي أسفل الملعب حجرتان كبيرتان لسجن الاسود والنمورة والتماسيح ·

و يرد تاريخ ارتقاء جرش الى القرون الاولى للمسيح ، وتاريخ أبنيتها الى امبراطرة القرنين الاول والثاني ، وهي شاهدة بتأثيرات الطراز الروماني حتى في الاصقاع البعيدة · وكانت جرش من جملة المدن المهمة للغاية من بين مدن بلاد العرب ، وعمدها الماثلة للعيان ومنها مابلغ طوله ١٤ متراً وقطره خمسة أقدام ، وملاعبها وهيا كلها وساحاتها وحماماتها تُذكر بما كان للرومان من مثلها في بعض البلاد المهمة التي تولوا الحكم عليها ·

وصف شيخ الربوة خرائب جرش وعمان في القرن الثامن بقوله : « ذكروا ان بدمنة مدينتي عمان وجرش بالشام ملعبين ، فاما جرش فمنهـا تلال وجبال وحجارة منقولة ، وبعض بناء أبوابها قائم في الهواء نحو خمسين ذراعاً ، وبهذه الدمنة موضع كصورة نصف دائرة مقطوعة بحائط وذلك الحائط به مجلس للملك ، واما النصف المستدير فانه مدرّج درج بعضها فوق بعض ، وهي دوائر وكل دائرة فوقانية أوسع من السفلي ، وبين هذه الدرج الدائرة ابواب ومسالك ، وكل درجة وعليها مرتبة من الناس ، وكلهم ينظرون الى الملك وهو ينظر اليهم كلهم لا يحجبون عنه ولا يحجب

عنهم في ذلك المجلس وكأنما هو ليوم الحكم العام فقط ، وبالقرب من هذا الملعب ايضاً ملعب وفيه عمد طوال قائمات وفي كل منهن بكرة ، وهن مستديرات المراكز كصورة دائرة ، وكأنما كان على رؤوسها من الحجارة عتبات من عمود الى عمود وفوق ذلك ابنية لاهلها وآثار شاهدة ولا يعلم في الشام من الآثار مثل هاتين المدينتين الا بمدينة بعلبك وبباب البريد بدمشق اه » .

٭ ٭ ٭

وصف المحدثين خرائب جرش } تبدأ خرائب جرش من الجنوب بباب النصر المسمى باب عمان وهو بناء عرضه ٢٥،٣٠ م والشق الاوسط منه ٦،٤٧ على ١٢ متراً من العلو ، وله من كل جهة باب وهذا البناء أشبه بقوس النصر المنسوب لتراجان في مدينة رومية . ولذلك يظن ان البناء يرد عهده الى القرن الثاني للميلاد . وفي غربي هذا الباب سطح واسع فيه محلان ، وفي الاسفل مسرح لتمثيل الحروب البحرية ، وله بحيرة طولها ١٥٥،٥٠ م وعرضها ٥٥ متراً ، وله اربعة سدود من جنوبها وعمقها ٤،٧٠ م ومقاعد المتفرجين على طول المحل . وهذا الحوض متصل بقناة مع العين . ويفصل الحائط الشمالي المسرح بملعب كبير قطره ٩٠،٥٥ م لا تزال ترى فيه اربعة صفوف من الدرجات وعلى مقربة من الملعب بقايا مدفن كبير . وعلى بضع خطوات من الغرب بقايا معبد طوله ٣٠ متراً وعرضه ٢٠،٣٠ ، وكان للبناء المحيط به عمد منفردة احد عشر عموداً من الشمال ومثلها من الجنوب ، وثمانية أعمدة من الشرق ومن الغرب . وكان للدهليز صفان من الاعمدة وله تيجان قورنثية وعرض الرتاج ٤،٧٠ م . وغرف المتفرجين التي ما زالت جدرانها الجنوبية سليمة الى عشرة أمتار كان طولها ٢٥ متراً وعرضها ١٥ . وقد فقدت تيجان القواعد المركبة (الركائز) المبنية من الصخر المحكم الوضع وقام في العالي طنف بسيط قليل البروز . ومجموع البناء حسن للغاية . وقام مسرح الجنوب المتصل بالجهة الغربية من هذا المعبد على سور المدينة . ولا يزال ٣٢ صفاً من المقاعد سليماً . ومعظم قطر المسرح ٨٧،٧٦ م . وهناك ممشى على شكل نصف دائرة يتصل مع الاسفل بخمسة سلالم ومع الاعلى بتسعة ، وتقسم هذه الدرجات الى قسمين وله اربعة دهاليز من جهة الجنوب .

ويمتد في الشمال الشرقي من المعبد والمسرح ميدان ممهد تحيط به عمد لطيفة ، تؤلف نصف دائرة مفتحة نحو الجنوب الغربي . ولا تزال معظم السواري وعددها ٥٦ محفوظة بحالها ، وهي من الطراز اليوناني يتصل بعضها بالآخر من سطوح الاعمدة . وفي الشمال الشرقي من الميدان تبدأ سلسلة أعمدة مستقيمة الاضلاع تجتاز المدينة كلها وطولها ٨٠،٣ مترات وعرضها ١٢،٦٠ متراً والمسافة بين الاعمدة الموضوعة ثلاثة أمتار . ولم يبق من الـ ٥٢٠ عموداً سوى ٧١ عموداً قائمة الى اليوم . اما الاخرى فقد تداعت بالزلازل او هدمتها يد الانسان في العهد الحديث ، لان هذه الخرائب أصبح اكثرها مقالع لاهل القرية يأخذون من أبنيتها الجميلة حجارة لبنائهم . وعلو هذه الاعمدة من ٦،٥٠ م الى ٩ م يدخل في ذلك الاساس والتاج . اما العمد القائمة وسط الشارع فهي من الطرز القورنتي ، وتيجانها من أرقى ما صنع الصانعون . وما كان منها بالقرب من الميدان وعلى نحو الباب من الشمال فهو من الطراز اليوناني .

ويرى الناظر من جانبي الشارع بقايا صف آخر من الاعمدة ربما كانت مجازات بين الاعمدة على طول الدور . وهناك جسر يجتاز القناة على خمس حنايا وعرض الاوسط منها ١١،٤٠ س . وثم بقايا بناء عظيم منقوش كان يتخذ محكمة جُعل على شكل نصف دائرة ، نصف قطر دائرتها عشرة أمتار ولها فوارة . وعلى مقربة من هذا خرائب أروقة المعبد الكبير الضخمة العظيمة . وقد تهدم جزء من سطح أعلى الباب الاعظم وهو مجنح بفرج لنوافذ مثلثة الشكل منقوشة أجمل نقش . والنقوش السالمة التي تزين الواجهة الغربية هي من طراز رائق بديع . وهذه الاروقة تؤدي الى معبد عظيم يدعى عادة معبد الشمس وهو في مستوٍ طوله ١٦٠،٦٥م وعرضه ١٠٤،٨٥م تحيط به ٢٦٠ عموداً . وطول المعبد ٢٦،٧٠ م وعرضه ٢٠ . ويتألف رواق المعبد من صفين من الاعمدة احدهما من ست والآخر من اربع . وزيادة على ذلك عمود من كل جهة من الحواجز البارزة من المعبد . وفيه تسع سوار علوها ١٣،٨٠ م وعرض الرتاج خمسة أمتار وعرض المجالس ١١،٢٠ م وطولها ١٧،٨ . وفي جنوبي المعبد كنيسة كاتدرائية ذات ثلاثة صحون . وفي الجنوب الغربي كنيسة أصغر منها . ويظهر ان كنيسة ثالثة في شرقي الاروقة كانت من جملة الاجزاء المتممة لمعبد الشمس .

ومن هناك تتشعب شوارع أُخرى وتتقاطع الطرق ، وكانت مزينة بتماثيل ونصب وعمد وسوار لا يزال بعضها أثراً شاهداً على العظمة الماضية .

اما ملعب الشمال الذي كان خاصاً على مايظهر بقتال الحيوانات والصراع ، فكان له ١٧ صفاً من الادراج ومجموع علوه ١٢ م وفي محيط الدائرة منها بين الصف الثامن والتاسع خمسة معابر او مماشٍ ترى بين كل واحد منها كوة عظمى وثنتين أصغر حجماً على شكل الصدف . والحمامات العامة عبارة عن مجموع غرف وعقود يطلق عليها اسم الخان . ومدخلها بناء سلم برمته من عوادي الايام تعلوه قبة ومساحته ١٦٫٧٠ متراً مربعاً . وهناك سلم يوصل الى محل الحمامات الحقيقي مؤلف من ارض مساحتها ٦٧٫٧٠ م طولاً و٣٠ عرضاً ولها جناح مصاقب لها من الجنوب طوله ٤٢ م وعرضه ١١٫٧٠ م . وبالقرب من جامع القرية بناء آخر قديم كان حماماً ايضاً وعلى الشاطئ الشرقي من النهر تشاهد حيطان سور كنيسة رابعة طولها ٦٠ متراً وعرضها ٦٠٫٣٦ م وحنية المحراب مزدانة بكوى على شكل صدف لم يبق من سوار بها سوى تسع قواعد يونانية وبعض اسطوانات . وكان هذا المعبد في الاصل مدفناً للربة نيميزيس ويرد عهدها الى الامبراطور تراجان . »

* * *

عاديات تدمر } ذكر بعض الاثريين ان مدينة تدمر بناها سليمان ليأمن على طريق التجارة ، وقد أصبحت في اوائل النصرانية احدى المدينتين اللتين جمعتا بين تجارة اوربا وآسيا وأعني البتراء وتدمر . قال ياقوت واهل تدمر يزعمون ان ذلك البناء قبل سليمان بن داود عليهما السلام باكثر مما بيننا وبين سليمان . ولكن الناس اذا رأوا بناءً عجيباً جهلوا بانيه أضافوه الى سليمان والى الجن . قلنا وكان القدماء يعتقدون ان بعض مدن ساحل الشام بناها الآلهة قال المعري :

وقد كان ارباب الفصاحة كلما رأوا حسناً عدوه من صنعة الجن

وقال النابغة الذبياني :

الا سليمان اذ قال الاله له قم في البرية فاحددها عن الفَنَد

وخيّس الجن اني قد امرتهم يبنون تدمر بالصُّفاح والعَمَد

خربت آثار تدمر سنة ٢٧٣م على يد اورليانوس الروماني لما قهر زينب ملكتها. ولما انتقض أهلها عليه عاد فافتتحها عنوة، وأعمل في أهلها السيف اياماً متوالية حتى كلت ايدي جنوده من القتل والذبح. ثم امر فبعثرت الابنية، وقوضت الهياكل، ودكت الأسوار، وهدمت القلاع. فأصبحت تلك المدينة الزاهرة قاعاً صفصفاً وظلت على هذه الحال قرية حقيرة الى عهد ديوكليتيانوس استخدمها الرومان لرد غزوات البادية وغيرها.

* * *

وصف عاديات تدمر — وبعد[1] فان كل مادونه مؤرخو العرب في تدمر وما وصفها به رحالتهم مختصر جداً لا يستفاد منه الفائدة العلمية اللازمة ويتعذر علينا من النصوص التي اتصلت بنا ان ندرك حقيقة حالة تدمر وعمرانها حين فتحها المسلمون. والمعروف ان تدمر لم تستعد مكانتها ولا بعضها منذ استيلاء اورليانوس عليها في سنة ٢٧٣ م. يوم دك معاقلها وهدم دورها ودرس قصورها فأخذت تدمر حينئذٍ بالانحطاط الى ان ماوصلت الى ماهي عليه اليوم.

ان اتصل بنا تاريخ هدم تلك المدينة فانا نجهل ماانتاب البقية الباقية من عمرانها بعد ذلك العهد حتى منتصف القرن الثامن عشر. ايام نزلها في سنة ١٧٥١ المهندسان الانكليزيان وانكس وَوود فرسما مخططاً لتلك الخرائب ونقلا الى بلادهم جملة رُقم تدمرية ويونانية تمكن بفضلها سوينتن وبرتليمي من قراءة حروفها وتفسير معانيها.

ومنذ ذاك العهد اشتهرت تدمر في بلاد الغرب ولاسيما عند علماء الآثار وغواتها فكثر شد الرحال اليها وزاد زوارها في السنوات الاخيرة خاصة وذلك بالنظر لسهولة المواصلات وتوفر أسباب الراحة فيها. وبالرغم مما انتاب تدمر من عوامل الهدم والتخريب فان القسم القليل الذي سلم من كوارث الايام واحداث الدهر ينبئ بجمال عظمتها وجلال قدرها. فلا يتأتى لمن يقف وسط تلك الاطلال ويتأمل هذا الاتقان

---

(١) كتب وصف تدمر الباحث الاثري الامير جعفر الحسني.

ان لا تأخذه حيرة في دهشة او رعشة في وحشة لهذا الابداع المعجب ودقة الصنعة وتناسب الجمال والعظمة . فكل جزء منها شاهد على سلامة ذوق مخططها ومهارة عمالها وصناعها . فقد جمعت بين الابداع والاعجاز حتى يتساءل المرء وهو في القرن العشرين ان كان هذا ثمرة جهود الانسان او عمل من صنع الجان .

تعد خرائب تدمر اليوم من اكبر خرائب الشام وأهمها وتنقسم بناياتها الى ثلاثة أقسام : الهياكل والبلدة والمدافن . ولم يبق من الهياكل سوى الهيكل الكبير وهو هيكل بعل والهيكل الصغير وهو هيكل بعلشاميم . والاول هو اكبر بنايات تدمر وأهمها و يقع الى الجهة الشرقية من البلدة . وهو عبارة عن فناء واسع مربع الشكل يبلغ طول كل من أضلاعه ٢٣٥ متراً يحيط به جدار ذو نوافذ ارتفاعه نحو من ١٥ متراً . ومدخله من الغرب . وهذا المدخل يؤدي الى دهليز قام على عمد يبلغ ارتفاع كل منها ١٤ متراً ومنه نجتاز الواجهة الداخلية وتعتبر هذه من أبدع مصانع تدمر وأتقنها صنعاً . ويحيط بهذا الهيكل من داخل الجدار رواق كان قائماً على ٣٩٠ عموداً تهدم اليوم معظمها . وقد شيد في وسط هذا الفناء الهيكل الاصلي وطوله ٦٠ متراً وعرضه ٣١ متراً ونصف . وأقدم كتابة وجدت داخل هذا الهيكل مؤرخة بسنة ١٧ م . و يرجح ان هذا الهيكل بني في أوائل العهد المسيحي .

والهيكل الثاني الى شمالي البلدة ومدخله من الشرق وهو أصغر حجماً من الاول وأقل كلفة . ومجموعه الخارجي يكاد يكون سالماً ومع بساطته تجد إتقاناً في بنائه ودقة في نقوشه وقد تم بناؤه في النصف الاول من القرن الثاني للميلاد .

ان ما بقي من آثار البلدة هو أروع شيء في خرائب تدمر وأعظم منظراً . ومنها تلك الاروقة التي كانت تمتد من جانبي أهم شوارع البلدة فهي أبهج منظراً لعظمة تلك المدينة وأطول هذه الشوارع هو الذي يخترق البلدة من الشرق الى الشمال ويقسمها الى منطقتين وطوله ١٢٠٠ متر وعدد أعمدة كل صف يبلغ ٣٧٥ عموداً ارتفاع كل منها ١٧ متراً وقد تهدم معظمها فلم يسلم منها سوى ١٥٠ عموداً . و يخترق هذا الشارع من منتصفه شارع آخر على شاكلته وعند ملتقاهما يؤلفان مصلباً وكان على مقربة منه تمثالا أذينة وزنوبيا . وفي منتصف كل عمود ركيزة قامت عليها تماثيل

مشاهير حكامها والصالحين من رعيتها . ولم يزل مدخل المدينة الشرقي قائماً وله منظر رائع ومرأى جميل . وماخلا ذلك من الأنقاض المتراكمة الباقية والأعمدة والاحجار المنحوتة مبعثر مشتت عرف بفضلها أصحاب الهندسة تخطيط أبنية المدينة وهندسة شوارعها وأزقتها .

ان قبور تدمر مبعثرة حول البلدة ومعظمها في الجهة الغربية في وادٍ يعرف بوادي القبور لكثرتها فيه . وهي على نوعين : منها ماهو قائم على شكل أبراج مربعة في ثلاث او اربع طبقات منقسمة حجراً وفي جدرانها القبور . والنوع الثاني كهوف نقرت في الصخر على سفح الجبل وهي ذات ايوانين او ثلاثة ومن القبور ما هو في الجدر ومنها ما هو على شكل النواويس ويختلف عدد القبور في كل مدفن بين العشرين والسبعين وهو ملك أسرة واحدة او اكثر . وكان لابناء الأسر في تدمر عناية خاصة بمدافنهم يتنافسون باتقانها وزخرفتها ومنها ما هو أشبه بقصور منها بقبور . وكل هذه العناية لحرصهم على راحتهم في دار البقاء كما تنص على ذلك رُقمهم القبرية اه .

أقام الرومان بين دمشق وتدمر الى الفرات اثنين وخمسين حصناً او قلعة . يبعد كل منها عن الاخرى ثلاث ساعات . ولاشك في ان الحرس الروماني كان في بعضها . وبنى الرومان عدة حصون على الطريق الممتد بين بصرى ودمشق ليأمنوا عيث البادية . وطريقاً من صرخد الى البصرة . وطرقاً من حوران الى البلقاء الى عقبة أيلة وماااليها . وكان ذلك في ايام عظمتهم . قال احد علماء الهندسة من الفرنج : ان الرومان لما أصبحوا سادة الارض وامسى معهم جميع الشعوب بمثابة العبيد عدلوا وهم في اوج عزهم عن أعمال في العمران كان فيها عزهم ونجاحهم واستسلموا الى الكسل وإضاعة الاوقات .

وبعد ان فتحت زينب او زنوبيا سلطانة تدمر المشهورة القطر المصري عمرت الابنية التي جلبت اليها الامم من أقطار الارض ولا سيما اليونان . ولما جاء يوستنيانوس سنة ٥٢٧ جدد بناء الاخربة في تدمر وشيد أبنية أُخرى فيها وجعل لها سوراً . ثم سطت عليها الزلازل كثيراً . وما يرى اليوم من الاثر الضئيل الباقي من عادياتها شاهد على ما كان هناك من عمران ممتد الرواق . وما استخرج ولا يزال يستخرج من ارضها من التماثيل والانصاب والشواهد يدل على فضل ذوق وحسن هندسة .

ومن كل أنواع الانام مصور شباب وشمط يمرحون وشيب
ومجلس أنس يفسح الطرف ملؤه قيان تغني وسطه وشُروب
وصرعى وقتلى في قتال عساكر تجول حصون دونهم ودروب
فمن جانب أضحت تُصب مدامة ومن جانب أضحت تُشب حروب
خليطان هذا للقراع معبس يصول وهذا للسماع طروب
وقد حققوا التصوير حتى وجوههم يبين لنا بِشر بها وقطوب
وكل يُعاني شغله غير انه على فمه دون الكلام رقيب
ملاعب فيها الملك رامٍ بطرفه وكل ابن دنيا ان نظرت لعوب
وعاشوا طويلاً ثم فرق شملهم زمان اكول للانام شروب
فلولا مكان الدين قلّ لفقدهم بكاءٌ لنا في إثرهم ونحيب
ملوك أقاموا ما أقاموا أعزة وقد شعبتهم بعد ذاك شَعوب
وخُيل للرائي ليذكر عهدهم خيال لعمري ان رأيت عجيب
خيال لهم يهدي الى كل أمة لقصد اعتبار ان رآه لبيب

✲ ✲ ✲

عاديات بعلبك امس واليوم } ان بقايا هيكل الشمس او المشتري وهيكل الزهرة وهيكل باخوس ودار المذبح او البهو الكبير الماثلة الى اليوم في قلعة بعلبك لاكبر دليل على ارتقاء فن الهندسة حتى في العصور التي سبقت الرومان واليونان · وقد عدت أحجار بعلبك ومنارة الاسكندرية (الاسكندرونة) من جملة عجائب الشام · فقد قال الهمداني في أحجار بعلبك انفيها حجراً على خمسة عشر ذراعاً اقل اوا كثر ارتفاعه في السماء عشرة أذرع في عرض خمسة عشر ذراعاً في طول خمسة واربعين ذراعاً · هذا حجر واحد في حائط · واما منارة الاسكندرية فانه يصعد اليها رجل على برذون حتى يبلغ اعلاها وهي مبنية على سرطان من زجاج ·

وفي بعلبك هيكلان كبيران طول أصغرهما ٢٢٥ قدماً وعرضه ١٢٠ قدماً وكان محاطاً باعمدة كبيرة الحجم طول الواحد منها ٤٥ قدماً وطول هيكل الشمس ٣٢٤ قدماً وكان محاطاً باربعة وخمسين عموداً يبلغ قطر الواحد منها ٧ أقدام وعلوه

من قاعدته الى قمته ٨٩ قدماً وقد بلغ طول بعض الحجارة المبني منها الهيكل ٦٤ قدماً وسمكه ١٢ . قالوا وكانت هياكل بعلبك تضاهي هياكل اليونان بعظمة بنائها ولكنها دونها بالترتيب والزخرفة . ذكر ابن حوقل ان قلعة بعلبك الحصينة الجميلة من أجل مباني الارض . وانما بنيت قلعة دمشق على مثالها ، وهيهات لا تعد من أمثالها . اين قلعة دمشق من قلعة بعلبك وحجارتها تلك الجبال الثوابت ، وعمدها تلك الصخور النوابت .

قد يبعد الشيء من شيء يشابهه ان السماء نظير الماء في الزرق

قال شيخ الربوة وبقلعة بعلبك بيت محكم من الحجر طوله خمسون ذراعاً وهو من كل جهة ثلاثون ذراعاً وسقفه حجر وفي وسط السقف نسر حجر فارش أجنحته . وفي اربع قرون السقف اربعة أصنام واسماؤها ودّ وسواع ويغوث ويعوق . وبمقطع الحجارة حجر رابع للثلاثة التي بالقلعة متروك الى وقتنا هذا والى مايشاء الله مثالاً للناس . يعني ان من ههنا حملنا الاحجار الثلاثة المبنية بالقلعة — وهو الحجر المعروف اليوم بحجر الحبلى — وبالحصن ايضاً عمد طول كل عمود نحو عشرين ذراعاً وفي الارض منها نحو اربعة اذرع ودوره نحو ذراعين واكثر عددها نحو ستين عموداً وكان على رؤوسها عتبات وفوق العتبات البناء المحكم اه .

وان آثار بعلبك بما فيها من العمد الضخمة ومنها من النوع المعروف بالحبب (غرانيت) الذي جلب من بلاد السودان على مايظهر تدل دلالة صريحة على ان كل هذا من صنع الرومان وبايدي مئات الالوف من العملة المسخرين المستعبدين . وهكذا قامت جميع آثار الرومان بارهاق الانسان للانسان . بيد انهم خلفوا عاديات عظيمة أعلت بين الامم القديمة ذكرهم . وجعلتهم موضع الاعجاب على توالي الأحقاب .

ويصدق على قلعة بعلبك في الوصف ماقاله عبد اللطيف البغدادي في اهرام مصر انها صبرت على مر الازمان بل على مرها صبر الزمان . فانك اذا تبحرتها وجدت الاذهان الشريفة قد استهلكت فيها . والعقول الصافية قد أفرغت عليها مجهودها . والانفس النيرة قد أفاضت عليها أشرف ماعندها لها . والملكات الهندسية قد أخرجتها الى الفعل مثلاً هي غاية إحكامها حتى انها تكاد تحدث عن قومها وتخبر بحالهم وتنطق

عن علومهم وأذهانهم وتترجم عن سيرهم واخبارهم . او ما قاله في برابي مصر : فالحكاية عن عظمها واتقان صنعتها وإحكام صورها وعجائب ما فيها من الاشكال والنقوش والتصاوير والخطوط مع إحكام البناء وجفاء الآلات والاحجار مما يفوت الحصر . ومن أجمل ما وصفت به خرائب بعلبك قول صديقنا خليل مطران من قصيدة :

خرب حارت البرية فيها ... فتنة السامعين والنظار
معجزات من البناء كبار ... لاناس ملء الزمان كبار
البستها الشموس تفويف در ... وعقيق على رداء نضار
وتحلت من الليالي بشاما ... ت كتنقيط عنبر في بهار
وسقاها الندى رشاش دموع ... شربتها ظوامئ الانوار
زادها الشيب حرمة وجلالاً ... توجتها به يد الأعصار
رب شيب أتم حسناً وأولى ... واهن العزم صولة الجبار
معبد للاسرار قام ولكن ... صنعه كان اعظم الاسرار
مثل القوم كل شيء عجيب ... فيه تمثيل حكمة واقتدار
صنعوا من جماده ثمراً يجـ ... ـنى ولكن بالعقل والابصار
وضروباً من كل زهر انيق ... لم تفتها نضارة الازهار
وشموساً مضيئة وشعاعاً ... باهرات لكنها من حجار
وطيوراً ذواهباً آيبات ... خالدات الغدو والإبكار
في جنان معلقات زواه ... بصنوف النجوم والانوار
وأسوداً يخشى التحفز منها ... ويروع السكوت كالتزآر
عابسات الوجوه غير غضاب ... باديات الانياب غير ضواري
في عرانينها دخان مثار ... وبالحاظها سيول شرار
تلك آياتهم وما برحت في ... كل آن روائع الزوار
ضمها كلها بديع نظام ... دق حتى كأنها في انتثار
في مقام للحسن يعبد بعد الـ ... ـعقل فيه والعقل بعد الباري
منتهى ما يجاد رسماً وابهى ... ما تحج القلوب في الانظار

انطاكية وحمص وأفامية
والبارة ودمشق } هذا إجمال في المصانع الكبرى في هذه الديار وهندستها ، ومن أهم آثارها انطاكيـة التي بناها انطيغنوس وأكمل زخرفها سلوقس سنة ٣٠٠ قبل الميلاد · وكان فيهـا من عجائب الهندسة اليونانية مالم يكتب ليونان ان تعمل مثله في أرضها ، ولولا ان الزلازل تحيفتها في أدوار مختلفة لكانت اليوم من أهم ما يقصد للزيارة · وكانت انطاكيـة عاصمة الشرق ايام اغسطس قيصر كما كانت رومية عاصمة الغرب · ومن يدخل انطاكية ويذكر ما كان فيها من القصور والدور والمعابد والهياكل والحمامات والقنوات ودور التمثيل يبكي لبلد انفقت الآفات السماوية والارضية على تخريبـه ، ولم يبق من عظمته التاريخية سوى بعض جدران قلعتها القديمة ·

ومن جملة آثار الهندسة الرومانية اواليونانية بحيرة قَدَس او خزان حمص وقناة سلمية وجسر قنوات وآثار سَبسطية ومنهـا مدامع حلب ، وهي صورة تامة من نشوء الهندسة ، وقد غنيت هذه المدينة الاخيرة بالمصانع ذات الهندسة العسكرية والدينية والمدنية وما برح معظمها بحاله · ومن أهم ما في شمالي الشام ملعب أفامية (قلعة المضيق) وملعب دفنة وكان فيهـا معبد ابولون رب الشمس والنور والصنائع والآداب والطب عند قدماء اليونان ، ونصب فيهـا بريا كسيس المهندس الآثيني تمثالاً للرب اشتهر بين العارفين بالصنائع الجميلة ، وهو قابض بيده على قيثارة ، وقد صورت صورته على نقود انطاكية وفيها معبد ديان والزهرة وغيرهما من الارباب ·

وكانت مدينة أفامية على عهد السلاقسة خلفاء الاسكندر من المدن الكبرى بدليل ما ذكره الهمداني من انه كان فيها ملعب يعد من البنـاء المذكور في العالم · وكانت مستقراً للجيش الرومي · وفيهـا زرائب واصطبلات تؤوي ٣٠٠ فيل و٣٠٠ جاموس و٣٠,٠٠٠ حصان ترعى في سهلها الخصيب وترد ماءها العذب النمير · وقد دك حصنها بومبيس وكان من أمنع الحصون · وفيها الى اليوم آثار شارع يمتد من الباب الشمالي وعلى جانبيـه سوارٍ وعمد مختلفة الاشكال والحجوم وتبلغ نحو ١٨٠٠ سارية يردُّ عهدها الى أواخر حكم الرومان · ولا يزال كثير من الارتجة والابواب قائماً وهناك خرائب أخرى لم تعلم ماهيتها ·

ومنها خرائب البارة في الشمال غربي العاصي . وخرائبها واسعة ومهمة وشوارعها العديدة وبيوتها « على رواية فان برشم » لا تزال محفوظة . منها بقايا خمس او ست كنائس و بيع . وفي ضواحيها بيوت مهملة عملت من الحجر الصلد يكفي ان تسقف بالخشب حتى تسكن وهي خالية . وان ما هنالك من مصانع ومعابد و بيع وقصور و كلها تقريباً من العهد المسيحي قد لا يخلو من نقوش ، و يرد عهدها على الاغلب الى القرن الخامس والسادس ، وفي قلعتها من أحجار البناء ما يبلغ طوله المترين والثلاثة وعرضه ٧٥ س ز برت عليها حروف يونانية . وأغرب ما في عاديات هذه القرية ان خرائبها الواقعة على اربعمائة متر تقريباً ما زالت بجالها تذكر المرء بآثار بومبيه ومساحتها السطحية اربعة كيلومترات مما دل على عظم المدينة في القديم . وقد قام بين المحلتين قصر ذو طبقتين محفوظ في الجملة اسمه ديرسو باطوفيه آثار ونواويس وأبواب أزلية . وقد وجد على احد ابوابها كتابة يونانية معناها « ليحفظ المولى من ملكك ومخرجك الآن وفي العصور المقبلة آمين » وكانت هذه المدينة في سعة حلب كما يفهم من خططها .

ومن أهم الآثار القديمة بدمشق الشارع العظيم الذي كان يخرقها من الشرق الى الغرب اي من الباب الشرقي الى باب الجابية وطوله ١٦٠٠ متر وعلى جانبيه رواقان من العمد وهو اليوم مستور مردوم قامت عليه الدور والحوانيت . وكان مقسوماً الى ثلاثة اقسام الوسط للدواب والعجلات والرصيفان بجانبه للذاهبين والجائين . والباب الشرقي اليوم على ما يري هو احد الرصيفين فقط بحيث يستدل من ذلك ان الشارع لم يكن عرضه اقل من خمسة وثلاثين متراً . ومن العاديات القديمة في دمشق مدخل الكنيسة ولا سيما من الغرب وهي التي أصبحت في الاسلام الجامع الأموي .

* * *

حوران ولبنان وأفامية وغيرها ولا تزال خرائب بصرى عاصمة حوران ، واحصن مدن باشان ومعقل الرومان، شاهدة بما كان في تلك المدينة من الفخامة والعظمة . وكان طولها داخل السور كما قال بورتر ميلاً وربع ميل وعرضها ميلاً ، و يحيط بالسور ربض كثير المباني ، ومحيطها خمسة أميال لها سور عالي الجدران ، وثيق البنيان ، وقلعة لاأحصن منها في عامة بلاد الشام . ويقطع

المدينة شارع كبير على طولها يمر في وسطها له بابان جميلان على طرفه وشوارع رحبة وفيها مايفوق الوصف من غرائب الصناعة ، وبدائع البناء ، واساليب النقش في الهياكل والكنائس والقبور والمذابح ، وركام الأنقاض وبيوت الاقدمين . وقوس نصر أُقيم للقائد فيليبس الذي صار امبراطوراً وهو من اهالي بصرى . والمشهد نصف دائرة قطره ٢٧١ قدماً وهو مكشوف من الاعلى مثل كل المشاهد الرومانية . وفيها مشهدان وستة هياكل وعشر كنائس او عشرة مساجد ، عدا القصور والحمامات والسبل والقنوات وأقواس النصر وغير ذلك من المباني الكثيرة وبعضها مايصلح ان تزدان به اعظم عواصم اوربا الآن .

ولقد شوهد في معظم المدن التي بناها الرومان في هذه الديار وفي غيرها انها متشابهة في مرافقها الا قليلاً . ففي كل مدينة ساحة عامة (فوروم) وما يتبعها من المرافق ومعبد الكابتول او معبد المشتري وجونون ومينرفا (ربة الحكمة والفنون والحرب) . وكانت في المدن الرومانية بمثابة البيع الكاتدرائية في مدن اوربا الحديثة . وفيها أسواق ذات نضائد من الحجر وفوارات ومقاسم ماء ذات قنوات لا تزال ترى الى اليوم آثارها . ومراحيض عامة وخاصة . واماكن للاستحمام فيها مغاطس باردة وحارة وبيوت للتعريق . وقاعات للرياضة والمحادثة ومماش للتنزه . وأفران وأقواس نصر وأبواب تغلق ليلاً ودور تمثيل لا يزال في اكثرها مصاطبها المدرّجة ومساكن خاصة .

ومن أهم مصانع الشام عاديات قنوات في جبل حوران وصفها پورتر بقوله : بلغنا أكمة تطل على قنوات فرأينا على اليسار وادياً عميقاً ، وعلى جانبه الغربي خرائب المدينة القديمة وسورها يتبع الشواهق مسافة ميل ثم ينعطف متعرجاً . فيكتنف ارضاً عرضها نصف ميل فيها القصور والهياكل والكنائس والمشاهد وما مثلها من المباني الفخمة قائمة بعضها بازاء بعض على نسق بديع يدهش الابصار . ووراء السور في اسفل الوادي وعلى الجبال المحيطة به في القنن الشاهقة وبين حراج البلوط ، اعمدة رفيعة ، وابراج مشيدة ، ومدافن عالية . واسمها عند اليونان قناتا وسماها العرب قنوات بلغت اوج مجدها على عهد الرومان . وكانت من اعظم المدن شرقي الاردن . وفي عهد

النصرانية تنصر اهلها وحولوا هياكلها كنائس لكنها خربت بعد الفتح الاسلامي وقتل سكانها او هجروها فلم يُعن المسلمون بجعل كنائسها مساجد كما فعلوا في غيرها من مدن الشام ٠

ثم ذكر انه لم ير في مدينة أُخرى من مدن فلسطين ما رآه في هذه المدينة وبينها تماثيل اسود وفهود وكلاب، وفيها رأْس عظيم للربة عشتاروت امام هيكل صغير، وامام القصر ساحة فسيحة تحتها صهريج كبير سقفه معقود، كانت المياه تجري اليه بقناة منحوتة في جانب الوادي، فيجتمع فيه ما يكفي المدينة فصل الصيف ٠ وغربي المدينة على ربع ميل منها هيكل جميل يحيط به رواق من العمد الكورنثية، وهو قائم على اكمة صناعية وقد سقط اكثره وتصدعت الجدران، وفيها برج مستدير وآثار سور ٠ وفي بطن الوادي مماش مدرجة وفساقي منسقة وكراسي التماثيل وهيكل صغير وملعب نحتت مقاعده في الصخر ٠ وفوق دكته كتابة يونانية كبيرة الحروف يقال فيها ان مرقص لوسياس بناه على نفقته ووهبه لابناء وطنه ٠ ويصعد من هذا الملعب بسلم منحوت في الصخر الى البرج المستدير وهو ضخم الحجارة قديم البناء لم يبق منه الا ما ارتفاعه عشرون قدماً وعلى مقربة منه بقايا قصر مبني بحجارة كبيرة منحوتة واغلاق أبوابه وكواه من الحجر كلها وهي كثيرة النقش عليها اكاليل بارزة من الأزهار والأثمار ٠

ومن أهم الآثار في الشام جسر المعاملتين وجسر جبيل بين البلدة ومدافنها القديمة ومنها قناتان تمتدان بين نهر الكلب وجونية والثانية القناة الكبرى التي كانت تنقل مياه الجبل الى بيروت وهي من عجائب الآثار القديمة ٠ ومنها هيكل دير القلعة بالقرب من بيت مري في لبنان وهيكل انقا عند منبع نهر ابراهيم وهيكل فقرا فوق مزرعة كفر ذبيان في سفح جبل صنين ٠ وفي لبنان هياكل رومانية أُخرى كهيكل زيزا وناوس في جهات أميون قرب طرابلس وتماثيل كثيرة مبعثرة وفي البترون حصن منيع وملعب وفي بيروت مسرح ٠ ومن قلاعهم قلعة صربا ويحمور ٠ ومن أجمل حماماتهم حمام شهبة الذي يذكر بخرائبه الفخمة كما قال ري بحمامات كارا كالا في رومية ٠ وكنيسة السويداء التي تشبه كنيسة القديس بولس في

رومية . قال ولا شك انها اجمل قطعة من هندسة روم القسطنطينية في جميع بلاد حوران .

* * *

الهندسة الشامية والكنائس والهياكل } قال احد علماء الآثار : ان في الشام الوسطى مجالاً واسعاً للابحاث العلمية ودرس العاديات ، فان فيها مالا يحصى من الابنية العادية كالهياكل الوثنية والكنائس المسيحية ودور الخاصة والاندية العمومية من أواخر القرن الاول قبل المسيح والقرن السابع للميلاد ، ولاكثرها كتابات تاريخية تزيل الريب في زمانها . وهذه الآثار تتوالى سنة بعد سنة حتى لو جعلت على سياق متواصل لما وجدت عشرة أعشار من السنين خالية من أثر او آثار .

وقد عدّ ابن خرداذبة من عجائب البنيان ملعب فامية وتدمر وبعلبك ولدّ وباب جيرون قال والروم تقول : ما من بناء بالحجارة ابهى من كنيسة الرُّها (اورفة) ولا من بناء بالخشب ابهى من كنيسة منبج لانها بطاقات من خشب العناب ولا بناء بالرخام ابهى من قسيان انطاكية ولا بناء بطاقات الحجارة ابهى من كنيسة حمص . وبيعة القسيان في انطاكية هيكل طوله مائة خطوة وعرضه ثمانون وعليه كنيسة على أساطين وكان بدور الهيكل اروقة يجلس عليها القضاة للحكومة والطلبة للدرس ، وعلى احد ابواب هذه الكنيسة فنجان للساعات يعمل ليلاً ونهاراً اثنتي عشرة ساعة وفي اعلاه خمس طبقات في الخامسة منها حمامات و بساتين ومناظر حسنة تخرّ منها المياه وهناك كنائس كثيرة معمولة بالذهب والفضة والزجاج الملون والبلاط المجزع . وكنيسة حمص كما قال المسعودي من بناء هيلانة وهي احدى عجائب العالم . وكان في مادبا من عمل البلقاء آثار مهمة اكتشفت مثل سوق طوله ١٤٠ متراً له عمد على الجانبين . ومن العجائب آثار عسقلان واشتهرت الشام بطرابيلها اي صوامعها . وفي كتاب لبنان ان من الآثار اليونانية البيزنطية في لبنان كنيسة مشنقة ومعبد ناوس فوق شبطين ومعبد كفر شليمان وكنيسة حدثون وكانت مبلطة بالفسيفساء تمثل رسوماً وتصاوير جميلة ومن الفسيفساء امثلة جميلة في بعض الكنائس القديمة في لبنان

كفسيفساء كنيسة القديس جاورجيوس في سرح وكنيسة كور القديمة وما وجد في النبي يونس من دائرة فيها كأس حوله طيور كالطاووس والحجل وبعض الحيوانات الرمزية تاريخها سنة ٥٥٤ م . وكان في بيروت عدة كنائس بيزنطية . ومن الكنائس المهمة كنيسة مريم في دمشق كانت ذات شأن قال ابن جبير في القرن السادس ان لها عند الروم في دمشق شأناً عظيماً وليس بعد بيت المقدس عندهم أفضل منها . وسنعرض للكلام على بقية الكنائس والاديار في الفصل الخاص بها من هذا السفر .

* * *

آثار العرب قبل الاسلام . — كان العرب قبل الاسلام يختلفون الى بلاد الشام بل كان النبط وهم عرب هم الذين أنشأوا آثار جرش والبتراء . والغسانيون واليهم تنسب آثار كثيرة في الشام الوسطى ومنها قصر النعمان بن المنذر في السويداء وفي حارب . وبنى جفنة اول ملوكها جلق والقرية وعدة مصانع . وبنى ابنه عمرو ديرحالي وديرايوب ودير الدهناء . وبنى ثعلبة بن عمرو عقة وصرح الغدير في أطراف حوران مما يلي البلقاء . وبنى جبلة بن الحارث من ملوكهم القناطر وأذرح والقسطل . وبنى الحارث بن جبلة وكان مسكنه البلقاء الحفير في البلقاء ، ومصنعه بين دعجان وقصر ابير . وبنى المنذر بن الحارث صربا ورزقا قريباً من الغدير . وبنى جبلة بن الحارث قصر حارب . وبنى الايهم بن الحارث من الاديار ديرضخم وديرالنبوة وسعف . وبنى عمرو بن الحارث قصر الغضا وصفاة العجلات وقصر منار . وكان منزل جبلة بن النعمان بصفين وهو صاحب عين اباغ . وأصلح النعمان بن الحارث صهاريج الرصافة . وكان بعض ملوك لخم خربها .

وحكم التنوخيون شمالي الشام قبل ان يجيئها جيوش العرب بقرون ولم نعرف للضجاعم والتنوخيين آثاراً تذكر . وآثار الصفا ولغتها المأخوذة من الحميرية العربية بخط سبأ وآثار بني سميدع العرب في السويداء من جملة الشواهد على ذلك . وأقدم اثر عثر عليه العلماء الآن وكتب بالعربية كتابة وجدت في زبد للجنوب الشرقي من حلب وأخرى في حران جنوبي دمشق من أعمال اللجاة في حوران . الاولى مثلثة اللغات عربية وسريانية

و يونانية يرتقي عهدها الى سنة ٥١٢ ب٠م والثانية بالعربية واليونانية تاريخها سنة ٥٦٨ ب٠م ٠ بيد ان الاثري دوسو اكتشف كتابة عربية مكتوبة بالحرف النبطي في حرّة وادي السوط على مسافة كيلومتر من النمرة في حوران الى جنوبها الشرقي وتاريخ هذه الكتابة سنة ٢٢٣ لبصرى الموافقة لسنة ٣٢٨ للمسيح فتكون هذه أقدم كتابة عربية ٠ وفي الكتابة المذكورة تاريخ وفاة احد ملوك عرب الشام واسمه امرؤ القيس بن عمرو ملك بني أسد ٠ وزار احد عمال القياصرة في بادية الشام هذه الكتابة واولها : « تي نفس (هـذا قبر) امرء القيس بَرْ (بن) عمرو ملك العرب كله ذو (الذي) اسر التاج وملك الاسدين ونزار وملوكهم الخ » ٠ ونسب دوسو عدة ابنية في سيف البادية الى الغسانيين ٠

ولقد أخطأ الاثري كلرمون غانو في قوله ليست المدنية العربية الا كلمة خداعة لا وجود لها اكثر من فظائع الفتح العربي ، وان المدنية العربية آخر أنوار المدنية اليونانية والرومانية طفئت بايدٍ خرقاء ولكنها محترمة وهي الاسلام ٠ ليست الحضارة ثمرة جيل بذاته ولا هي مما يرتجل ارتجالاً كالارث لا يكون ابن يومه بل هو عبارة عن مجموع ارثي من القوى الحية ٠ هو كنز من التوفير اتت عليه مئات من السنين قد يستطيع احد اللصوص ان يضع يده عليه و يبذّر فيه يوماً ولكن حياته بأسرها لا تكفي للايجاد فقد احترمت هاته الامة الحديثة النعمة ما وجدته من الادارات والمعارف والفنون على حين لم يكن وراءها ماضٍ تعتز به واقتصرت ان تميل كل شيء الى منفعتها و بلغ بها الحال ايضاً ان جعلت لدى مسيس الحاجة امتيازات للقائمين على احتكار هذه الفضائل العقلية وهي امتيازات جادت بها ، ونار التعصب يحرقها ، فتساهلت معها تساهلاً دينياً عجيباً اه ٠ نعم أخطأ في حكمه على العرب وعجيب بعد ان كان للعرب من البنيان قصر غمدان وكعبة نجران وقصر مأرب وقصر مارد وقصر شعوب والابلق الفرد وقصر المشتى والفدين وغيرها من المصانع والقصور التي سنعرض لها في هذا المبحث كيف يسلبهم كلرمون غانو ابداعهم المجمع عليه ٠

* * *

قصور العرب في الاسلام } كان جمهور من الروم في دمشق تخلوا عن دورهم في الفتح ولحقوا بهرقل فنزلها الفاتحون ، ثم اخذوا في كل بلد ينزلونه يرمّون ما عوِر من بنائه ، وربما بنوا بالمدر اي باللبن والطين اولاً ، ولكن عادوا الى استعمال الحجر . فقد روي ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما بلغه ان سعداً وأصحابه بنوا بالمدر كتب : أكره لكم البنيان بالمدر فاما اذا فعلتم فعرضوا الحيطان، وأطيلوا السمك ، وقاربوا بين الخشب . وقد كان لبعض الصحابة الكرام ممن فتحوا دمشق دور وقصور منتشرة في انحاء المدينة مثل دار ابي عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد وفضالة بن عبيد والعباس بن مرداس وابي العزيز الازدي وابصة بن معبد وطلحة بن عمرو وخالد بن اسيد والنعمان بن بشير الانصاري وواثلة بن اسفع وهبار بن الاسود وعمرو بن العاص واوس بن اوس و يزيد بن نبيشة وعبد الله بن عامر الى امثالهم . ولا نعرف الا مكان دار ابي عبيدة وكان في محلة حجر الذهب اي المحلة التي تعرف اليوم بالبيمارستان وكانت أجمل حي في دمشق وقد أقام بعضهم مساجد في جوارهم .

وكان معاوية يقيم أحياناً في غوطة دمشق و ينصب الابنية والاروقة والفساطيط وزعم اليعقوبي ان معاوية كان اول من بنى وشيد البناء وسخر الناس في بنائه ولم يسخر احد قبله . ولما بنى معاوية داره بدمشق المعروفة بالخضراء ، لقبة خضراء بناها عليها ، عرفت الدار بها ، وذلك قبلي الجامع الاموي دخلها وفد الروم فقالوا : ما احسن ما بناها للعصافير وفي رواية اما اعلاها فللعصافير واما اسفلها فللنار فهدمها وبناها بالحجر . والغالب انها ظلت عامرة الى القرن الخامس وفيها دار الامارة . واحترقت سنة ٤٦١ و بادت على ما نقل البرزالي . وقرأ المقدسي في بعض الكتب ان ما أنفق على الخضراء ثمانية عشر حمل بغل ذهب . ولما استخلف عبد الملك بن مروان طلب من خالد بن يزيد بن معاوية شراء الخضراء وهي دار الامارة بدمشق فاشتراها باربعين الف دينار واشترى منه اربع ضياع باربعة أجناد الشام اختارهن فاختار من فلسطين عَمَواس ومن الأُردن قصر خالد ومن دمشق الاندر ومن حمص دير زكا .

وبنى الأُمويون بعده بيوتاً لهم كانت بجوار الجامع ومنها دار عمر بن عبدالعزيز

مكان المدرسة السميساطية الآن ، ودار هشام مكان تربة نور الدين ، وقصر سليمان ابن عبد الملك مكان سقاية جيرون ، ودار مسلمة بن هشام بباب البريد . قال الذهبي : بنى سليمان بن عبد الملك دار السلطنة وعمل بها قبة صغرى عالية بدمشق بدرب محرز وكان لعاتكة ابنة يزيد بن معاوية قصر خارج باب الجابية بدمشق . وقال ابن عساكر : كانت دار هند بنت معاوية في درب القبلي . وقصر حجاج منسوب الى الحجاج بن عبد الملك بن مروان . وقال ابن شاكر وكان قبله ايضاً معروفاً بالحجاجية ملكاً للحجاج ابن يوسف الثقفي فلما ولد لعبد الملك بن مروان ابنه الحجاج المذكور وكانت امه بنت محمد بن يوسف اخي الحجاج بن يوسف الثقفي سمته باسم عمها الحجاج فنحله الارض المذكورة وبنى له القصر فعرف به ونسب اليه . وقال آخر ان الحجاج بن يوسف وهب للحجاج بن عبد الملك داراً بدمشق تعرف بدار الحجاج . واسم قصر الحجاج ما زال دائراً الى اليوم دون القصر الذي دثر .

وقد بنى الأمويون قصوراً لهم في الغوطة وكانوا يملكون جانباً عظيماً منها ولكن لم يظهر لها أثر ولا خبر . قال ابن حزم وكانت دولة بني مروان على علاتها دولة عربية لم يتخذ ملوكها قاعدة لانفسهم انما كان سكناهم كل امير منهم في داره وضيعته التي كانت له قبل الخلافة . ومن قصور الأمويين في حمص قصر خالد بن يزيد بن معاوية جدده في زمن العباسيين عامل تلك المدينة الفضل بن قارن الطبري وتحصن به لما وثب به اهلها .

* * *

عناية الأمويين وتفننهم

وفي ايام الوليد بن عبد الملك كانت الناس تتكلم في البنايات والعمائر لزيادة رغبته في البناء فبنت الناس المجالس الحسان وذلك لان الخليفة كان يرغب في البنايات وإتقان المصانع وفي عهده دخلت دمشق في طور العواصم والناس على دين ملوكهم . قال احد المؤرخين : وكان الوليد عند أهل الشام محبوباً لانه صاحب عمارة وبناء ، عمر الضياع ووضع المنار في الطرقات ، وأعطى المجذّمين وأفردهم ، وقال لا تسألوا واخدم كل مقعد خادماً ، وأعطى كل ضرير قائداً ، وكتب الى جميع البلاد بهدم المساجد والزيادة

فيها ، وتسهيل الطرق وحفر الانهار ، وان تعمل البيمارستانات التي تعالج فيها المرضى وهو اول من فعل ذلك وهو اول من أُجري على القراء وقوام المساجد الارزاق ·

قال ابن ابي عيلة رحم الله الوليد، واين مثل الوليد، افتتح الهند والاندلس، وبنى مسجد دمشق ، وكان يعطيني قصاع الفضة أقسمها على قراء (فقراء) مسجد بيت المقدس · وعدّ المقدسي من أمصار المسلمين في الشام او من المدن التي عمرها المسلمون وبعبارة أُخرى الأُمويون ثم العباسيون على قلة ، انطاكية ، بالس ، المعرتين ، منبج، قنسرين، سلمية ، تدمر ، اللاذقية ، جبلة ، جبيل ، انطرسوس ، بلنياس ، اللجون ، جوسية ، حماة ، شيزر ، وادي بطنان ، داريا ، بانياس ، صيدا ، بيروت ، عرقة ، طرابلس ، الزبداني ، كامد ، عرجموش، بيسان ، أذرعات ، قدس ، كابل ، عكا ، صور ، الفراذية ، بيت جبريل ، غزة ، عسقلان ، يافا ، أرسوف ، قيسارية ، نابلس، اريحا، عمان ، ديلة ، عينون ، مدين ، اذرح ، مآب ، معان ·

* * *

المسجد الأقصى والجامع الاموي

ومن أهم الآثار التي تنم عن ذوق عربي في هذه الديار المسجد الاقصى ، وقد جرى ترميمه في اوقات مختلفة ، والقليل الذي بقي من آثار نقش العرب وتصويرهم يدل على ما كان هناك من فكرة وقادة ، ويد صناع · وقد غشّى الوليد قبة الاقصى بالنحاس اخذه من كنيسة في بعلبك ، وكذلك فعل مروان في قبة الصخرة مدة ولايته ، وكان صناع هذه القبة من الروم · فهندسة الجامع الاموي والمسجد الاقصى مقتبسة اذاً من الهندسة اليونانية وممزوجة باشياء اسلامية ·

بعث ملك الروم الى الوليد كثيراً من البنائين والمقدّرين اي المهندسين مع ما بعث اليه من المفصص اي الفسيفساء والذهب قال المقدسي : ان الوليد جمع لبنائه حذّاق فارس والهند والمغرب والروم · وروى ابن شداد : ان الوليد اقتلع من كنيسة أنطاكية عمداً عجيبة من المرمر والرخام لمسجد دمشق حملت في البحر الى ساحلها · ولما كان البناء من صنع بنائين مختلفين ساغ ان نقول انه جمع اجمل ما في الهند وفارس وآثينة ورومية · اما طرز البناء فالغالب ان بعض الجدر بقيت بحالها

كما كانت يوم كونها بيعة او معبداً للصابئة . ومساجد الشام ومصر مبنية على شكل الكنائس التي قال المؤرخ اوسابيوس انها ذات أفنية واواوين وسواقي ومساكن للقسس .

ولقد بلغ من تفنن الوليد بزخرفة الجامع الاموي ونقشه وتصويره ما يعجب منه ولا يكاد يكون له نظير في هذه الديار فقد قال ابن كثير : ان ارض الجامع الاموي كانت مفصصة كلها وان الرخام كان في جدرانه الى قامات، وفوق ذلك كرمة عظيمة من ذهب وفوقها الفصوص المذهبة والخضر والحمر والزرق والبيض وسقفه مقرنص بالذهب والسلاسل المعلقة فيه من ذهب وفضة . وقد أُنفق فيه خراج الشام سنتين وفي رواية اربعمائة صندوق كل صندوق ثمانية وعشرون الف دينار . وكان خراج الشام على عهد بني أُمية الف الف دينار ومائتي الف دينار . وذكر بعضهم ان الوليد اخذ ربع أعطيات اهل دمشق تسع سنين وكانوا خمسة واربعين الفاً يستعين بها على عمارة جامع دمشق . قال المقدسي : والجامع جامع دمشق أحسن شيء للمسلمين اليوم ولا يعلم لهم مال مجتمع اكثر منه ومن أعجب شيء فيه تأليف الرخام المجزع كل شامة الى اختها ولو ان رجلاً من اهل الحكمة اختلف اليه سنة لافاد كل يوم صنعة .

وقد غلب حب البناء على بني أُمية فكان منزل سليمان بن عبد الملك قبل الخلافة الرملة وهو أنشأ مسجد جامعها ونقل الناس اليها من لدّ وكانت المدينة التي ينزلها الناس فاخذ يهدم منازلهم بلدّ والبنيان بالرملة وعاقب من امتنع من ذلك وهدم منازلهم وقطع الميرة عنهم حتى انتقلوا وخرب لدّ . دخل المأمون مرة جامع دمشق ومعه اخوه المعتصم ويحيى بن اكثم فازدادوا عجباً فقال المأمون لهما : اي شيء اعجبكما من هذا المسجد فقال المعتصم : ذهبه فانا نضعه في قصورنا فلا تمضي عليه عشرون سنة حتى يحول ، وهذا بحاله مع طول الزمن ، كأن الصانع فرغ منه الآن . فقال المأمون : ما اعجبني هذا . فقال يحيى بن اكثم : الذي أعجب امير المؤمنين تأليف زخارفه فان فيه عقوداً ما يرى مثلها . فقال المأمون : كلا بل أعجبني انه بني على غير مثال شوهد .

اما المسجد الاقصى في القدس فقد كاد المؤرخون والجغرافيون من العرب يجمعون على انه احسن من جامع دمشق عمّر عبد الملك بن مروان سنة ٦٥ الحرم

والقبة الكبرى التي فوق الصخرة على أُسلوب جميل لم يسبق اليه · قال بعضهم ان شكل قبة الصخرة مستعار من الهندسة البيزنطية ثم هدم الكنيسة التي كان شيدها يستنيانس وبنى موضعها المسجد الاقصى، وتنوق في تنميقه واكمل البناء سنة ٧٢ وقالوا ان اساس المسجد الاقصى من عمل داود وهو على غاية الحسن والإحكام كما قال ياقوت مبني على الاعمدة الرخام الملونة والفسيفساء التي ليس في الدنيا أحسن منه لا جامع دمشق ولا غيره · وروى ابن العديم ان جامع حلب كان يضاهي جامع دمشق في الزخرفة والرخام والفسيفساء وان سليمان بن عبدالملك هو الذي بناه وتأنق في بنائه ليضاهي به ما عمله اخوه الوليد في جامع دمشق ·

* * *

تاريخ الحرم القدسي شيد المسجد الاقصى وقبة الصخرة في مكان تل موريا، وهي منزلة دينية سامية قدسها الوثنيون واليهود والمسيحيون والمسلمون، وربما كانت بيدراً لاحد اليبوسيين سكان فلسطين القدماء، وقد بنى فوقها داود بعد فتحه البلاد مذبحاً تقدم فيه القرابين · وامر سليمان سنة ١٠١٣ ق·م بانشاء قصر له مكان المسجد الاقصى وهيكل فخم حيث قبة الصخرة · وقد دمره الكلدانيون سنة ٥٨٨ ق·م وفي السنة العشرين قبل الميلاد شرع هيرودس الكبير باقامة هيكل و برج عال في المكان نفسه ولم يتمه، ودمره جنود الرومان سنة ٧٠ لما استولى طيطوس على بيت المقدس · وبنى الامبراطور ادريانوس سنة ١٣٠ م مدينة ايلياء وامر بتشييد زون كبير للمشتري اله الحرب اثنا عشري الشكل (Dodecastyle) فنصب فيه صنماً للمشتري وآخر لديوسقورس او صنم التوأمين (كاستور وبلوكس) وأقام تمثالاً لنفسه بالقرب من الصخرة المباركة · وقضى الفرس على بيت المقدس لما اكتسحوها سنة ٦١٤ ·

ولما وافى عمر بن الخطاب القدس ذهب تواً الى مكان الحرم الشريف وأزال ما كان فيه من الأقذار، ولما افضت الخلافة الى عبد الملك بن مروان وحيل بينه وبين الحرمين الشريفين لقيام عبد الله بن الزبير خليفة في الحجاز امر بانشاء المسجد الاقصى وقبة الصخرة في بيت المقدس ورصد لذلك خراج مصر سبع سنين ففرغ في

سنة ٧٢ هـ وكتب اسمه منقوشاً بالفسيفساء عند مدخل الصخرة من الباب الجنوبي « بنى هذه القبة عبد الملك ... امير المؤمنين في سنة اثنتين وسبعين تقبل الله منه ورضي الله عنه آمين » . وسقط شرقي المسجد وغربيه سنة ١٣٠ بالزلازل وكذلك في سنة ١٥٨ فجدد في سنة ١٦٩ في خلافة المهدي ، وقد أُنقص من طوله وزيد في عرضه ، وجدد عمارة قبة الصخرة في ايام المأمون (٢١٦) وزلزلت الارض ثالثة (٤٠٧) فتهدمت قبة الصخرة وبعض الجدران ، فجددها الظاهر لاعزاز دين الله الفاطمي (٤١٣ هـ) وزيد فيه في زمن الفاطميين البناء المسمي اليوم بجامع النساء . ولما احتل الصليبيون بيت المقدس حولوا قبة الصخرة الى كنيسة ، والمسجد الاقصى الى منزل لسكنى ملكهم . ولما استعاده صلاح الدين بن ايوب أعاد الحرم الى ما كان عليه وامر بترميم محراب الاقصى وكتب عليه بالفصوص المذهبة ما نصه : « بسم الله الرحمن الرحيم . امر بتجديد هذا المحراب المقدس وعمارة المسجد الاقصى الذي هو على التقوى مؤسس عبد الله ووليه يوسف بن ايوب ابو المظفر الملك الناصر صلاح الدنيا والدين عندما فتحه الله على يديه في شهور سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، وهو يسأل الله اذاعة شكر هذه النعمة ، وإجزال حظه من المغفرة والرحمة » .

وفي سنة ٦٣٤ عمر في المسجد الملك المعظم عيسى . وفي سنة ٦٨٨ رمّ المسجد والصخرة الملك الظاهر بيبرس . وفي سنة ٦٨٦ عمر فيه المنصور قلاوون الصالحي ورم فيه العادل كتبغا والملك المنصور لاجين والناصر قلاوون في سلطنته الثالثة وفي ايامه عمر فيه ايضاً الامير تنكز الناصري . ثم جدد الملك الاشرف شعبان (٧٦٩) والملك الظاهر برقوق (٧٨٩) والملك الظاهر جقمق العلائي وفي سنة ٨٧٧ جدد فيه الملك الاشرف ابو النصر . وفي ايام العثمانيين تمت في الحرم عدة عمارات منها ما جدده السلطان سليمان القانوني سنة ٩٦٩ ومنها ما جدد في سني ١٢٣٢ و١٢٥٦ و١٢٩١ وبعدها .

* * *

المسجد الاقصى اليوم	هو اولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين ، ووقع الحرم على مساحة مربعة طول الجهة الغربية منها ٤٩٠

متراً والشرقية ٤٧٤ متراً والشمالية ٣٢١ متراً والجنوبية ٢٨٣ متراً يحيط بها سور يختلف ارتفاعه بين ٣٠ متراً و٤٠ . و يبلغ طول بعض الحجارة فيه خمسة امتار طولاً في اربعة أمتار عرضاً . وحول السور من جهة الغرب والشمال أروقة فسيحة معقودة يتخللها بعض ابواب الحرم وهي ١٤ باباً . وقد قام جامع الصخرة الشريفة في فناء مربع مفروش بالبلاط النحيت طوله من القبلة الي الشمال اكثر من عرضه من المشرق الى المغرب وارتفاعه ثلاثة امتار يصعد اليه بادراج من الجهات الاربع ، وعقد على كل درج من اعلاه قناطر هيفاء دعمتها عمد من الرخام . والقبة على بناء نجم مثمن الشكل ، ذرع كل ثمينة منه ٢٩ ذراعاً وثلث ذراع (٤٠/م٢٠) . وقد كسي القسم السفلي من ظاهر بالرخام الابيض المشجر ، والقاشاني البديع الذي يترقرق فيه ماء الالوان المتزاوجة ، من لازوردي صافٍ ، واخضر قاتم ، وابيض ناصع ، يعلو ذلك شبه افريز رسمت عليه آي القرآن . وضع هذا القاشاني في ايام السلطان سليمان القانوني سنة ٩٦٩ هـ وتحتوي كل ثمينة من البناء على سبع طاقات للتي لا باب فيها وعلى ست للتي لها باب . والطاقات المحاذية لاطراف الثمينات مسدودة كلها ، والاخرى مركب عليها الزجاج والشبابيك الحديد . وللجامع الصخرة اربعة ابواب مزدوجة داخلاً وخارجاً مربعة الشكل بعقود متوسة ، وامام الباب الاخير من الخارج رواق مفروش بالرخام عليه سقف مكسو بالقاشاني في وسطه قنطرة معقودة والسقف محمول على ثمانية أعمدة من الرخام مختلفات في النوع واللون، وللباب المذكور مصراعان ملبسان بالنحاس الاصفر المنقوش عليها اقفال نفيسة متقنة الوضع .

و يبلغ دور البناء من الداخل ٥٣ متراً وهو مقسم الى ثلاث دوائر يفصل بعضها عن بعض صفان مستديران من الاعمدة والاركان يتألف الاول منها من ثماني سوار مسدسة الاضلاع و١٦ عموداً منها « ابيض وازرق » عشرة و « اخضر مرسيني » ثلاثة و « شحم لحم » ثلاثة ، والصف الثاني مؤلف من اربع سوار مربعة الاضلاع واثني عشر عموداً منها سبعة « اخضر مرسيني » وخمسة « شحم لحم » . والسواري ملبسة بالرخام المشجر والملون البديع ، والاعمدة قديمة جداً واكثر تيجانها تدل على انها من الطراز الروماني اوالبيزنطي القديم ، و يربط اعمدة الصف الاول بعضها ببعض

و بالسواري بسائل ملبسة بالنحاس الاصفر المنقوش المذهب . وتحمل هذه الاعمدة مع جدار الجامع سقفاً مائلاً بعض الميل مدهوناً بانواع الدهان قائماً على قناطر مرصعة بالفص المذهب متصلاً طرفه الاعلى بكرسي القبة . و يزين باطن القبة مجموعة لا نظير لها من الفصوص الملونة تمثل ٦٤ شكلاً من الزخارف على نحو ما كان يصنعه فنانو البيزنطيين ، وهي مركبة على سطح موشى بالذهب وفي كرسي القبة ست عشرة طاقة زجاج مذهبة يعلو كلاً منها طبقة من الجبس ، مقسمة عيوناً مغطاة بقطع الزجاج المختلفة الألوان والاشكال ، تنفذ منها اشعة الشمس صافية ، ملطفة بفضل الواح الزجاج الخارجية والمشبكات المصنوعة من القاشاني ، وعلى هذه الطاقات نقوش تدل على انها صنعت في زمن السلطان سليمان سنة ٩٤٥ هـ كما ان المرمر الذي يكسوها ركّب في زمن السلطان صلاح الدين وجدد في ايام السلطان سليمان القانوني .

والصخرة الشريفة قائمة درابزين من خشب منقوش مدهون بانواع الاصباغ طولها ١٧٫٧٠ متراً وعرضها ١٣٫٥٠ متراً وارتفاعها عن الارض يبلغ نحو ١٫٢٥ متر الى مترين ، وينزل الى المغارة التي تحتها باحدى عشرة درجة من جهة القبلة ، وعند باب المغارة قنطرة معقودة بالرخام العجيب على عمودين وبباطنها محرابان كل محراب على عمودي رخام لطيفين وأمام المحراب الايمن صفة تسمى مقام الخضر يواجهها عمود رخام قائم للسقف وآخر راقد وفي الركن الشمالي منها صُفة تسمى باب الخليل وجميع باطن ارض الصخرة والمغارة مفروش بالرخام وفي وسط المغارة بلاطة مستديرة ينبعث عنها اذا نقر عليها رنين تتجاوب اصداؤه مما يدل على خلو ما تحتها . وحول الدرابزين الخشب مصلي للنساء وهو محاط بالقضب الحديدية من جميع جهاته وله ابواب اربعة لا يفتح منها عادة الا الباب الغربي الموازي لباب النساء وهو من عمل الصليبيين إبان احتلالهم بيت المقدس .

✡ ✡ ✡

صفة المسجد الاقصى } يقع المسجد الاقصى جنوبي جامع الصخرة وطوله ٨٠ متراً وعرضه ٥٥ متراً عدا ما أُضيف اليه من الابنية واول ما يقابلك من هذا المسجد عند مدخله من الجهة الشمالية رواق كبير أنشأه الملك المعظم

عيسى صاحب دمشق سنة ٦٣٤ ﻫ وجدد من بعده وهو مؤلف من سبع قناطر عقدت على ممشى ينتهي الى سبعة ابواب، كل باب يؤدي الى كور من اكوار المسجد السبعة . وللمسجد عشرة ابواب والبناء قائم على خمسة واربعين عموداً . والغالب ان هذه الاعمدة قديمة نقلت من أنقاض ابنية متنوعة أقدم عهداً من الحرم . وفوق الاعمدة قناطر يربط بعضها ببعض أخشاب ضخمة مستطيلة وفوق القناطر صفان من الطاقات و باطن السقف مكون من عوارض كلها من الخشب . وعدة ما في المسجد من السواري اربعون ، وهي ضخمة مربعة الشكل مبنية بالحجارة . و باقصى الباب من جهة الجنوب قبة مرتفعة مزينة بالفصوص الملونة المذهبة . وهي مما رممه صلاح الدين الايوبي (٥٨٤ ﻫ) كما رمَّ اكبر جناحي المسجد ، والقبة والجناح على الغالب انما صنعا في خلافة المهدي بعد تهدم المسجد بفعل الزلازل ، وهي كقبة الصخرة من خشب مكسوة بصفائح الرصاص من ظاهرها و بالفص المذهب من باطنها ، ومجدد هذه التزيينات هو الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٢٨ ﻫ وهناك آيات قرآنية كتبت بخط كوفي على جانبي المحراب . والمحراب قائم على أعمدة لطاف من المرمر و بجانبه المنبر وهو من الخشب المرصع بالعاج والآبنوس عمل في عصر نورالدين زنكي ويقابل المنبر دكة المؤذنين وهي على عمد من رخام .

ومن داخل المسجد من جهة الغرب جامع النساء او الجامع الابيض ، وهو عبارة عن عشر قناطر على تسع سوار في غاية الإحكام بناه الفاطميون ، ومن جهة الشرق جامع عمر وهو معقود بالحجر والجير ، سمي بذلك لانه بقية من الجامع الذي بناه عمر رضي الله عنه حين الفتح . والى جانب هذا البناء ايوان كبير معقود يسمى مقام عزير و به باب يتوصل منه الى جامع عمر و بجوار هذا الايوان من الشمال ايوان لطيف به محراب يسمى محراب زكريا وهو بجوار الباب الشرقي . وفي صحن المسجد الاقصى شمالاً بركة مستديرة من رخام سورت بالقضب الحديدية يقال لها الكأس يأتيها الماء بانابيب خاصة من عيون جارية بالقرب من برك المرجيع المسماة ببرك سليمان اهمها عين عطاب ووادي الآبار . ومن الآثار المهمة في الحرم البناء السفلي المعقود بالحجر معروف عند الافرنج باصطبل سليمان وهو عبارة عن مهد عيسى ومحراب مريم

والعقود الواسعة التي يقوم عليها المسجد الاقصى . وكذا البراق الشريف وهو في السور الغربي وجامع المغاربة والمدرسة النحوية المعظمية وفيها اليوم دار كتب المسجد الاقصى وهي من أبنية الملك المعظم (٦٠٤ هـ) ومنبر القاضي برهان الدين بن جماعة ومحرابه . وقبة السلسلة وهي شرقي قبة الصخرة وعلى شكلها صنعت فى ايام عبد الملك بن مروان . وقبة المعراج سنة ٥٩٧ هـ . وسبيل قايتباي (٨٨٧ هـ) وما يحيط بالحرم من المدارس القديمة . هذا حاضر المسجد الاقصى وما اليه وقد أثرت فيه عوامل الطبيعة كالمطر والشمس والثلج والأعاصير الشديدة فنقبت ما يكنها من صفائح الرصاص ونخرت ما قامت عليه من الأخشاب منذ زمن بعيد ، فبادر المجلس الاسلامي الاعلى الى الكشف عن البناء فتبين انه يحتاج الى مئة وخمسين الف جنيه على أقل تعديل . وألفت لجنة لعمارته برئاسة المعماري الشهير كمال الدين بك واستصرخ الامم الاسلامية لمعاونته فجمع زهاء ثمانين الف جنيه ، وشرع حالاً بما كان احكم بناؤه من حجر منقوش او مرمر مسنون او خزف مصقول او خشب منجور او صفر مطلي بالفضة او مكسو بالتبر ، اوفص مذهب مزين ملون مشجر مزهر مرصع موشي منمق ، ويوشك بفضل الله ان يعود الى ما كان له من بهجة في الأعصار السالفة .

* * *

وصف المقدسي للمسجد الاقصى في القرن الرابع } وصف المقدسي المسجد الاقصى فقال : هو على قرنة البلد الشرقي نحو القبلة أساسه من عمل داود ، طول الحجر عشرة اذرع وأقل ، منقوشة موجهة مؤلفة صلبة ، وقد بنى عليه عبد الملك بحجارة صغار حسان وكان أحسن من جامع دمشق ، لكن جاءت زلزلة في زمن بني العباس فطرحت المغطى الا ما حول المحراب فلما بلغ الخليفة خبره ، قيل له لا يفي برده الى ما كان بيت مال المسلمين ، فكتب الى امراء الأطراف وسائر القواد ان يبني كل واحد منهم رواقاً فبنوه أوثق وأغلظ صناعة مما كان ، وبقيت تلك القطعة شامة فيه وهي الى حد أعمدة الرخام ، وما كان من الاساطين المشيدة فهو محدث ، وللمغطى ستة وعشرون باباً ، باب يقابل المحراب يسمى باب النحاس الاعظم مصفح بالصفر المذهب ، لا يفتح مصراعه الا رجل شديد الباع قوي الذراع ، عن يمينه سبعة

أبواب كبار في وسطها باب مصفح مذهب ، وعلى اليسار مثلهن ، ومن نحو الشرق احد عشر باباً سواذج ، وعلى الخمسة عشر رواق على أعمدة رخام احدثه عبد الله بن ظاهر وعلى الصحن من الميمنة أروقة على أعمدة رخام وأساطين وعلى المؤخر أروقة آزاج من الحجارة وعلى وسط المغطى جمل عظيم خلف قبة حسنة والسقوف كلها الا المؤخر ملبسة بشقاق الرصاص والمؤخر مرصوف بالفسيفساء الكبار والصحن كله مبلط وسطه دكة مثل مسجد يثرب يصعد اليها من الاربعة جوانب في مراق واسعة ، وفي الدكة اربع قباب : قبة السلسلة ، قبة المعراج ، قبة النبي صلى الله عليه وسلم . وهذه الثلاث لطاف ملبسة بالرصاص على أعمدة رخام بلا حيطان وفي الوسط قبة الصخرة على بيت مثمن باربعة أبواب كل باب يقابل مرقاة ، باب القبلي ، باب اسرافيل ، باب الصور ، باب النساء ، يفتح الى الغرب جميعها مذهبة في وجه كل واحد باب ظريف من خشب التنوب مداخل حسن امرت بهن ام المقتدر بالله . وعلى كل باب صُفة مرخمة بالتنوبية تطبق على الصفرية من خارج . وعلى أبواب الصفاف ابواب ايضاً سواذج داخل البيت ثلاثة أروقة دائرة على أعمدة معجونة أجلُّ من الرخام وأحسن لا نظير لها قد عقدت عليها أروقة لاطية ، داخلها رواق آخر مستدير على الصخرة ، لا مثمن على أعمدة معجونة بقناطر مدورة فوق هذه منطقة متعالية في الهوء فيها طيقان كبار ، والقبة من فوق المنطقة طولها عن القاعدة الكبرى مع السفود في الهواء مائة ذراع ، ترى من البعد فوقها سفود حسن طول قامة و بسطة . والقبة على عظمها ملبسة بالصفر المذهب ، وارض البيت وحيطانه مع المنطقة من داخل وخارج على ما ذكرنا من جامع دمشق . والقبة ثلاث سافات الاولى من الواح مزوقة والثانية على أعمدة الحديد قد شبكت لئلا تميلها الرياح ثم الثالثة من خشب عليها الصفائح وفي وسطها طريق الى عند السفود يصعدها الصناع لتفقدها ورمها ، فاذا بزغت عليها الشمس أشرقت القبة وتلألأت المنطقة ورأيت شيئاً عجيباً . وعلى الجملة لم أر في الاسلام ولا سمعت ان في الشرك مثل هذه القبة ويدخل الى المسجد من ثلاثة عشر موضعاً بعشرين باباً اه .

***

اصل الجامع الأموي } كان الجامع الاموي على ماذكر المؤرخون معبداً قبل الاسلام ، قال البيروني : ان من آثار الصابئة القبة التي فوق المحراب عند المقصورة ، وكان مصلاهم ايام كان اليونانيون والروم على دينهم ثم صار في ايدي اليهود فعملوه كنيستهم ثم تغلب عليها النصارى فصيروها بيعة الى ان جاء الاسلام واهله فاتخذوها مسجداً . وقال البرزالي : وبنى اليونان والكلدان هذا المعبد ، وكانوا يصلون الى جهة القطب الشمالي وكانت محاريبه تجاه الشمال و بابه يفتح الى جهة القبلة خلف المحراب ، وهو باب حسن عن يمينه و يساره بابان صغيران بالنسبة اليه ، وكان غربي المعبد قصر منيف جداً تحمله هذه الاعمدة التي بباب البريد وغربيه قصر جيرون ، داران يكونان لمن يتملك دمشق قديمًا ، فهو أقدم معبد . وقال شيخ الربوة ان له نحو اربعة آلاف سنة وهو معبد . ولما فتح المسلمون دمشق اخذوا من النصارى النصف الشرقي من هذه الكنيسة التي كانوا يسمونها كنيسة مار يوحنا ، وكان المسلمون والنصارى يدخلون من باب واحد وهو باب المعبد الاصلي في القبلة فينصرف النصارى الى جهة الغرب والمسلمون الى الشرق . وكان لا يستطيع اهل الانجيل ان يجهروا في قراءته بكنائسهم ولا يضربوا بنافوسهم إجلالاً للصحابة . فلما اخذت أصواتهم ترفع في صلواتهم أحب الوليد ان يبعدهم عن المسلمين فعوضهم عنه اربع كنائس اخرى . وقيل انه بذل للنصارى فيه اربعين الف دينـار فلم يريدوا ان يأخذوها فأخذها كما قال ابن العميد . واحتاج الوليد الى صناع كثيرة فوجه اليه ملك الروم بمائتي صانع .

وحكى الجاحظ في كتاب البلدان انه كان مبنيًا على الاعمدة الرخام طبقتين الطبقة التحتانية أعمدة كبار والتي فوقها صغار في خلال ذلك صورة كل مدينة وشجرة في الدنيا بالفسيفساء الذهب والاخضر والاصفر ، وفي قبليه القبة المعروفة بقبة النسر ليس في دمشق شيء اعلى ولا أبهى منظراً منها ، ولها ثلاث منائر احداها وهي الكبرى كانت ديدباناً للروم وأقرت على ما كانت عليه وصيرت منارة . وروى البرزالي انه كان ابتداء عمارة جامع دمشق في أواخر سنة ست وثمانين وتكامل في عشر سنين . وكان الفراغ منه سنة ست وتسعين وفيها توفي بانيه الوليد بن عبد الملك وقد بقيت فيه بقايا من الزخرفة فكملها اخوه سليمان بن عبد الملك وجددت فيه اشياء أُخر ، فمن

ذلك القبة الغربية التي في صحنه ويسميها الناس قبة عائشة ، وغالب ظني انها بنيت في سنة ستين ومائة في ايام المهدي المنصور ، واما القبة الشرقية التي في صحنه تجاه مشهد علي بن الحسين فعمرت في ايام المستنصر العبيدي في سنة خمس واربعمائة وكتب عليها اسمه واسم الائمة الاثني عشر .

وذكر ابن جبير ان طول الجامع من الغرب الى الشرق مائتا خطوة وهي ثلاثمائة ذراع وذرعه في السعة من القبلة الى الجوف مائة خطوة وخمس وثلاثون خطوة وهي مائتا ذراع وبلاطاته المتصلة بالقبلة ثلاث مستطيلة من المشرق الى المغرب سعة كل بلاطة منها ثمان عشرة خطوة ، وقامت البلاطات على ثمانية وستين عموداً منها اربع وخمسون سارية ثمانية ارجل جصية تتخللها واثنتان مرخمة ملصقة معها بجدار الذي يلي الصخرة ، واربعة ارجل مرخمة أبدع ترخيم مرصعة بفصوص من الرخام ملونة ، وقد نظمت خواتيم ، وصورت محاريب ، وأشكالاً غريبة ، قائمة في البلاط ويستدير بالصحن بلاط من ثلاث جهاته سعته عشر خطا ، وعدد قوائمه سبع واربعون منها اربعة عشر رجلاً والباقي سوار . وسقف الجامع كله من خارج ألواح رصاص واعظم ما فيه قبة الرصاص المتصلة بالمحراب وهي سامية في الهواء عظيمة الاستدارة ، وقد استقل بها هيكل عظيم هو عماد لها يتصل من المحراب الى الصحن والقبة ، وقد اغصت الهواء فاذا استقبلتها رأيت مرأى هائلاً .

وذكر الباحثون من الفرنج ان طول الحرم الاصلي من الشرق الى الغرب ١٣٠٠ قدم وعرضه من الشمال الى الجنوب ١٠٠٠ فهو ربع مساحة دمشق كلها . وكان أمام جدرانه الاربعة من الداخل صف من الاعمدة على دائرة كشف علماء الآثار بعضها ، والجامع في وسط هذا الحرم قائم على أسس الكنيسة التي كانت قبله ، وهي قائمة على أسس الهيكل الذي كان قبلها او على بعضها ، والجدار الغربي من الجامع قديم كله ، ما عدا باب البريد في وسطه فانه من زمن العرب ، وفي الجدار الجنوبي انواع البناء كلها ففيه جانب من البناء الشامي اليوناني ، وجانب من البناء المسيحي في عهد ثيودوسيوس واركاديوس من القرن الرابع والخامس للميلاد ، وجانب من البناء العربي من زمن الوليد في القرن الثامن ، وتجديدات أخرى بعدما احترق في قرون متعددة .

وقال ابن حوقل ان الوليد جعل ارض الجامع رخاماً مفروشاً وجعل وجه جدرانه رخاماً مجزعاً وأساطينه رخاماً موشى ومعاقد رؤوس أساطينه ذهباً ومحرابه مذهب الجملة مرصعاً بالجواهر ودور السقف كله ذهباً مكتوباً عليه كما يطوف بترابيع جدار المسجد واذا أرادوا غسل سقفه بثق الماء اليه فدار على رقعة المسجد باجمعه حتى اذا فجر منه انبسط عنه وعن جميع الاركان بالسوية . وأبوابه الاربعة كانت أبواب الكنيسة فبقيت على حالها وفيه ثلاث مقاصير مقصورة معاوية احدثها سنة ٤٤ لما وثب عليه بعضهم ليقتله كان في جدار الصحن القبلي من الجامع حجر مدور على ما روى القزويني شبه درقة منقطة بابيض واحمر بذل الفرنج اموالاً فلم يجابوا اليه . وقد كان عزم عمر بن عبد العزيز ان يعمد الى ما في الجامع من الفسيفساء وهو النقش المفصص والرخام فيقلعه وينتزع السلاسل الذهبية وكانت ستمائة سلسلة ويجعل مكانها حبالاً وينزع غيرها من ضروب الزينة و يبيعها و يجعلها في بيت المال فارجعه اهل دمشق عن فكره . وذكروا له ما قام به اهل الشام من بنائه على هذه الصورة .

ووصف ابن جبير قبة الرصاص في الجامع الاموي فقال : انها من أعظم ماشاهده من مناظر الدنيا الغريبة وهيا كلها الهائلة البنيان قال : انها مستديرة كالكرة وظاهرها من خشب قد شد باضلاع من الخشب الضخام مؤلفة بنطق من الحديد ينعطف كل ضلع عليها كالدائرة وتجتمع الاضلاع كلها في مركز دائرة من الخشب أعلاها وداخل هذه القبة وهو مما يلي الجامع المكرم خواتيم من الخشب منتظم بعضها ببعض قد اتصل انصالاً عجيباً وهي كلها مذهبة بابدع صنعة من التذهيب مزخرفة التلوين ، بديعة القرنصة ، وفي الجدار حجارة يزن كل واحد منها قناطير مقنطرة ، لا تنقلها الفيلة فضلاً عن غيرها ، فالعجب كل العجب من تطليعها الى ذلك الموضع المفرط السمو ، وكيف تمكنت القدرة البشرية لذلك ، فسبحان من ألهم عباده الى هذه الصنائع العجيبة اه .

ومن أجمل ما وصف به جامع دمشق قول ابن منقذ الكناني من قصيدة :

وكأن جامعها البديع بناؤه ملك يمير من المساجد جحفلا
ذو قبة رفعت فضاهت قلة ومنابر بنيت فحاكت معقلا

تبدو الأهلة في اعاليها كما يبدو الهلال تعالياً وتهللا
ويريك سقفاً بالرصاص مدثرا يعلو جداراً بالرخام مزملا
قد ألّف الاقوام بين شكوله فغدا الرخام بذاته متشكلا
لم يرض تجليلاً بجص فانبرى بالفص يعلو والنضار مجللا
يغشى سوام اللحظ في أرجائه من عسجد ارضاً ومن فص خلا
فاذا تذر الشمس فيه تخاله يلقاً تألق او حريقاً مشعلا
فكأنما محرابه من سندس او لؤلؤ وزمرد قد فصلا
وتخال طاقات الزجاج اذا بدت منه للحظك عبقرياً مسدلا
تبدو القباب بصحنه لك مثلما تبدو العرائس بالحلي لتجتلي
وعلت به فوّارة من فضة سالت فظنوها معيناً سلسلا
وببابه حركات ساعات اذا فتحت لها باب تراجع مقفلا
ويريك باريها وكل قد رمى من فيه يقذفه يصيب سجنجلا

وظل الجامع بحاله بهجة النظار والسفار ، ومفخر دمشق على غابر الاعصار، والملوك حتى من العباسيين يرمّون فيه الى ان وقع فيه الحريق الاول سنة ٤٦١ ﻫ فذهبت محاسنه ، وذلك في حرب المصر بين المغاربة اي الفاطميين مع العراقيين ، فأحرقوا داراً مجاورة للجامع فتعلقت النيران به فدثرت محاسنه وتشوه منظره واحترقت سقوفه المبطنة بالذهب وفصوصه وسقطت القبة كما قال الذهبي فأعيد الى ما كان ٠ واحترق ثانية سنة ٧٤٠ وكان الاصل فيه كما قال ابن مفلح من النصارى بدمشق ، واشتهر ذلك عنهم وكتب عليهم محضر به ونقضت مأذنة عيسى وجددت من أموالهم لكونهم اتهموا بحريقها باقرار بعضهم ٠ وهذا الحريق عم جميع الجامع وما حوله من الأسواق ٠ وفي سنة ٧٥٣ كان ثالث حريق وذلك انه وقع حريق عند باب جيرون فاتصل بالباب لنحاس الأصفر فنزعوه وكسروا خشبه وكان من نحاس دمشق ومعاملها ٠ وكان في سنة ٧٩٥ حريق سوق الدهشتان وسوق الورافين والساعات ونصف المعزبة من شرقي الجامع ثم أعيد الى ما كان عليه ٠ ورابع

حريق كان في سنة ٨٠٣ عند حضور تيمورلنك وحرقت خزانة المصاحف والكتب فأُعيد سنة ٨٠٥ الى قريب ما كان عليه وخامس حريق كان سنة ٨٨٤ ٠

وأُصيب بالزلازل مرات وتعطلت جوانبه وتداعت بعض سقوفه ومنها زلزلة سنة ٥٩٧ فرمي بعض المنارة الشرقية وسقط ١٦ شرفة وتشققت قبة النسر وآخرها زلزال سنة ١١٧٣ فخربت قبة النسر والرواق الشمالي وأُعيد بناؤهما من قابل٠ حتى اذا كانت سنة ١٣١٠ سرت النار الى جزوع سقوفه فالتهمتها في أقل من ثلاث ساعات فدثر آخر ما بقي من آثاره وأثاثه ورياشه ، وحرق فيه مصحف كبير بالخط الكوفي كان جيء به من مسجد عتيق في بصرى ، وكان الناس يقولون انه المصحف العثماني ، وجمعت أموال من إعانات وغيرها فنجز القسم الشرقي في سنة ١٣١٧ وفي سنة ١٣٢٠ نجز القسم الغربي وظل العملة في بنائه الذي أُرجع الى ما كان عليه بالجملة عشر سنين وصرف عليه ستون الف ليرة عثمانية ذهب عدا من تطوعوا للعمل فيه بلا أجر ٠ ولم يبق من محاسن الجامع القديمة الا جدرانه وبعض كتابات من عهد السلجوقيين والايوبيين والمماليك على بعض سواريه ٠ وفي دار الآثار بدمشق ايضاً حجران كتبا بالخط الكوفي بعمارة قسم من الجامع في القرن الخامس وصورتها :

الاول — (بسم الله الرحمن الرحيم) : شهد الله انه لا اله الا هو والملائكة واولو العلم قائماً بالقسط لا اله الا هو العزيز الحكيم ان الدين عند الله الاسلام ٠ امر بعمارة هذه القبة والمقصورة والسقف والطاقات والاركان في خلافة الدولة العباسية ايام الامام المقتدي بامر الله اميرالمؤمنين ، وفي دولة السلطان المعظم شاهنشاه الاعظم سيد ملوك الامم ابي الفتح ملك شاه بن محمد وايام اخيه الملك الاجل المؤيد المنصور تاج الدولة وسراج الملة شرف الامة ابي سعيد تتش بن ملك الاسلام ناصر امير المؤمنين وفي ايام وزارة الشيخ الاجل نظام الملك أتابك ابي علي الحسن بن علي الوزير الاجل السيد فخر المعالي ناصح الدولة عميد الحضرتين ابو نصر احمد بن الفضل من خالص ماله ابتغاء ثواب الله عز وجل في شهور خمس وسبعين واربعمائة ٠

الثاني — (بسم الله الرحمن الرحيم) : لقد رضي الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً ٠ أمر بعمل

هذه المقصورة وترخيم الاركان في خلافة الدولة العباسية ايام المقتدي بامر الله ابي القاسم عبد الله امير المؤمنين وفي دولة السلطان المعظم شاهنشاه الاعظم سيد ملوك الامم مولى العرب والعجم ابي الفتح ملكشاه بن محمد بن داود امين امير المؤمنين وايام اخيه الملك الاجل تاج الدولة وسراج الملة وشرف الامة ابي سعيد تتش بن ملك الاسلام ناصر امير المؤمنين الوزير الاجل السيد فخر المعالي ناصح الدولة عميد الحضرتين ابو النصر احمد بن الفضل من خالص ماله ابتغاء ثواب الله عز وجل في شهور سنة خمس وسبعين واربعمائة » اه ٠

***

دور الامويين ومصايفهم ومشاتيهم

وصف يزيد بن المهلب دار ولي عهد سليمان بن عبد الملك بدمشق فقال : دخلتها فاذا هي دار مجصصة حيطانها وسقوفها ، وفيها وصفاء ووصائف عليهم ثياب صفر وحلي الذهب ، ثم أدخلت داراً أخرى فاذا حيطانها وسقوفها خضر ، واذا وصفاؤها ووصيفاتها عليهم ثياب خضر وحلي الزمرد ، وان ولي العهد قاعد على سرير معه امرأته ٠ ووصف حماد الراوية دار هشام بن عبد الملك في دمشق فقال : انها دار قوراء مفروشة بالرخام ، وهو في مجلس مفروش بالرخام ، وبين كل رخامتين قضيب من ذهب ، وحيطانه كذلك ، وهشام جالس على طنفسة حمراء ، وعليه ثياب حمر من الخز ، وقد تضمخ بالمسك والعنبر ، وبين يديه مسك مفتوت في أواني ذهب ، يقلبه بين يديه فتفوح رائحته ، وفي المجلس جاريتان لم ير مثلها قط اه ٠ والله اعلم أكان ذلك حقيقة ام خيالاً ٠

وقد ادعت ميس بل انه لولا حوادث القرن السابع اي لولا دخول العرب الفاتحين لبلغ الشاميون طريقة في هندسة الابنية خاصة بهم مستقلة عن غيرهم ، وان امتزج بها شيء من هندسة الامم الاخرى ، فردَّ عليها لامنس بان هذه المدينة مدينة دمشق لم تمسِ عاصمة كبرى الا في عهد بني أمية وبهمتهم ٠ قلنا ولو لم يُعفِ بنو العباس آثار بني أمية في الشام لرأينا فيه أحسن صورة تامة من صور بنائهم ٠ وكان منه ما هو في المدن ومنه ما هو في البادية او ما يقرب منها ٠ لان الأمويين كانوا على الاغلب يتحامون نزول دمشق لرطوبتها وحمياتها فمنهم من نزل قصر الموقر او المقور

وقصر المشتى والزيزاء والفدين والازرق والاغدف والبخراء والابيض والقسطل والرصافة والزيتونة والجابية وحوّارين والصنبرة ودابق وبطنان حبيب وأيابر في البلقاء وشمالي الشام وشرقها . وحصن الموقر (وقيل المقوّر) بالبلقاء على ساعتين من عمان قرب قصر المشتى الواقع على ساعتين من مادبا سكنه يزيد بن عبد الملك وكان رممه فجعله من القصور الجميلة . واستقر الوليد بن يزيد والعباس بن الوليد في القسطل في البلقاء . والوليد في الزيزاء وقصر الازرق . وابتنى عبدالملك الابنية حول قصر الموقر وكان له في البرية عدة قصور . وقصر عمرا على خط قصر المشتى على سبعين كيلو متراً من جهة الشرق وهو في وسط البادية . اكتشف قصر عمرا الاثري موسيل سنة ١٨٩٨ وهو قصر أموي يجمع بين مزايا الصروح الملكية والحصون . وهو على الشاطئ الشمالي من البحر الميت وكان على ما يظهر حماماً حفظت فيه كما قال هرزفلد نقوش عجيبة بحالها لم يحفظ مثلها في صقع آخر من أصقاع الشام، تمثل مشاهد الحمامات والعاباً رياضية كالجريد وصيوداً لانواع الطيور وقنصاً في البحر ولوحات تمثل الصناعات وصوراً رمزية تمثل أدوار الحياة في البادية والتاريخ والفلسفة والشعر، وخليفة جالساً على العرش واعداء الاسلام ورسوم منطقة البروج ورجالاً ونساء واشجاراً وحيوانات في كؤوس وفرش ، وشجيرات وعساليج الكرمة والدفلى والنخيل وثماراً وطيوراً من أطيار البادية وامرأة عريانة محلاة باللؤلؤ . وكلها تدل على انها من هندسة الروم والشاميين والفرس . ووجد فيه اسم : « قيصر ، رذريق ، كسرى ، النجاشي » مكتوباً بالعربية والرومية . وإجماع الاثريين على القول ان هذا القصر من عمل الوليد الاول بين سنتي ٧١٢ و ٧١٥ ميلادية . وكذلك قصر المشتى وهو على اثني عشر ميلاً شرقي عمان وعلى ساعة من شرقي القسطل في خربة الموقر وهو قصر عظيم يشبه الحصون المنيعة يحيط به سور مربع الشكل تبلغ جوانبه نحو ١٥٠ متراً وفي زواياه اربعة بروج مستديرة ولكل من جوانبه الثلاثة الشرقي والغربي والشمالي بروج يشرف منها اثنان على جهتي باب البناء وهما كثيرا الاضلاع . ويقسم البناء الى ثلاث مربعات مستطيلة اوسعها الاوسط فيه أبنية القصر القديمة وطول القصر خمسون متراً في عرض سبعين ويشتمل على حجرة واسعة يليها اربعة منازل .

والابنية كلها مشيدة بالآجر ماعدا طبقتها السفلى القائم عليها البناء فهي مبنية بالاحجار البيضاء . وفي ساحة القصر قطع ضخمة من الرخام الاخضر لم تنحت بعد . وكان وجه البناء الخارجي مزيناً بابدع النقوش وهي تمثل جفنة محكمة الصنع ذات أغصان وفروع تمتد على طول البناء تتخللها طيور وحيوانات ليست معروفة كالاسود المجنحة والعنقاء تمرح وتنقر العنب او تشرب من الكؤوس . اقتطع هذه الصور علماء من الالمان بامر عبد الحميد الثاني وهي اليوم في متحف برلين . والرأي الشائع انها من صنع الغسانيين . وفي تلك الارجاء نحو اربعين خربة لم يكشفها علماء الآثار حتى الآن .

وبنى هشام حصن المثقب على يد حسان بن ماهون الانطاكي وحوله خندقاً وحصن بوقا من اعمال أنطاكية . وكان هشام ينزل في الزيتونة في بادية الشام فلما عمر الرصافة انتقل اليها فكانت منزله الى ان مات . وكان يزيد يقيم في حُوّارين وتدمر وابنه خالد يسكن في قصر الفدين في البلقاء . ومن الدور الكبيرة بدمشق دار خالد ابن عبد الله بن يزيد ابو الهيثم البجلي القسري من اهل دمشق كان اميراً على مكة وولي إمرة العراقين وكانت داره بقنطرة سنان بباب توما .

وبعض هذه القصور لا تزال أسسه ماثلة للعيان مثل قصر الموقر والمشتى لم ينسفها العباسيون كما نسفوا آثار المدن ونقضوا مثلاً سور دمشق يوم فتحوها حجراً حجراً . وأخربوا ايضاً قصور الامويين في حلب مثل قصر سليمان بن عبدالملك بالحاضر وقصر مسلمة بن عبد الملك بالناعورة بحلب ومنازل هشام بن عبد الملك في القطيفة من جبل سنير وقصري هشام في الرصافة وأبقوا في الغالب على قصر خُناصرة من ارض الأحص لعمر بن عبد العزيز احترموه ولم يبقوا على غير قبره من قبور بني أمية . والظاهر من كلام المقدسي المعروف بالبنّاء الذي ولد سنة ٣٣٦ ان آثار بني أمية كانت موجودة في عهده خلافاً لما هو المعروف من ان العباسيين أتوا عليها كلها . والغالب ان بعض الابنية لم تعور كثيراً ورمّت فأُطلق عليها اسمها الاصلي ونسبت الى بانيها الاول .

قصور خلت من ساكنيها فما بها سوى الادم تمشي حول واقفة الدمى

تجيب بها الهام الصدى ولطالما أجاب القيانُ الطائر المترنما
كأن لم يكن فيها انيس ولا التقى بها الوفد جمعًا والخميس عرمرما

* * *

عمل العباسيين

قال الجاحظ : من شأن الملوك ان يطمسوا على آثار من قبلهم وان يميتوا ذكر أعدائهم ، فقد هدموا بذلك السبب المدن واكثر الحصون ، كذلك كانوا ايام العجم وايام الجاهلية ، وعلى ذلك هم في الاسلام ، كما هدم عثمان صومعة غمدان وكما هدم الآطام (الحصون) التي كانت بالمدينة ، وكما هدم زياد كل قصر ومصنع كان لابن عامر ، وكما هدم اصحابنا (يعني العباسيين) بناء مدن الشامات (قد تسمى الشام بالشامات) اه ·

اما بنو العباس فلم تبق الايام من آثارهم مصنعًا يعتدُّ به في الشام لنحكم على عظمتهم ، وكان من أهمها قناة قرية منين التي جرَّها المأمون الى معسكره بدير مران في جبل قاسيون · وهذا عمل مهم مما بلغنا خبره لان الطريق من منين الى قاسيون يحتوي على اودية وشعاب ونجاد كثيرة ذكر ذلك ابن عساكر · وقد بني للمتوكل العباسي قصر بين داريا ودمشق فلم يعثر له على اثر · قال ابن كثير ان المتوكل لما جاء دمشق عازمًا على الاقامة بها سنة اربع واربعين ومائتين امر ببناء القصور بها وهي التي بطريق داريا · ومن ذلك يفهم انها كانت موجودة الى زمن ابن كثير · وفي سنة ٢٦٢ ﻫ بنى الامير النعمان داراً عظيمة في بيروت وحصن سور المدينة وقلعتها · اما المتغلبة على الملك في زمن العباسيين مثل الفاطميين والطولونيين والحمدانيين والسلجوقيين فاننا لا نعرف عن آثارهم كبير امر ايضًا ولا سيما بنو طولون وبنو عبيد فانهم آثروا ان يجعلوا مصانعهم في مصر مقر ملكهم كما آثر العباسيون ان يجعلوها في العراق وخراسان · ومما بناه ختكين والي دمشق للحاكم بامر الله جسر الحديد تحت القلعة قلعة دمشق على نهر بردى وسخر الناس لاجل عمله واخذ أموالهم ·

ذكر ابن عساكر ان حمزة بن الحسن المعروف بفخر الدولة قاضي دمشق من قبل الفاطميين جدد في دمشق مساجد ومنابر وقنوات واجرى الفوَّارة التي في جيرون · وذكر انه وجد في تذكرته سبعة آلاف دينار صدقة في كل سنة وهو الذي أنشأ

القيسارية المعروفة بالفخرية توفي سنة ٤٣٤ . وكان لشمس الدين بن المقدم من كبار الدولتين النورية والصلاحية (٥٨٤) دار كبيرة بدمشق الى جانب المدرسة المقدمية ثم صارت لصاحب حماة ثم صارت لقرا سنقر المنصوري ثم للسلطان الملك الناصر وله تربة ومسجد وخان . وكان الملك الامجد صاحب بعلبك يقيم بداره التي داخل باب النصر بدمشق المعروفة بدار السعادة وهي التي ينزلها النواب ولعلها دار المشيرية اليوم . ودار السعادة هذه اكملت عمارتها سنة ٤٠٨ ه بعد إلزام النائب اهل البلد بعمارتها ومرمة ما يحتاج السكني فيها وتحول اليها فسكنها .

* * *

آثار عربية محلية ميناء عكا } وقد نشأت في القرن الرابع ومابعده في الشام حركة مباركة في العمران قام بها مهندسون من العرب انتهى الينا قليل من أعمالهم مثل ابي بكر البناء المهندس الذي ابتنى ميناء عكا لابن طولون . قال المقدسي ولم تكن عكا على هذه الحصانة حتى زارها ابن طولون وقد كان رأى صور ومنعتها واستدارة الحائط على ميناها فأحب ان يتخذ لعكا مثل ذلك الميناء ، فجمع صناع الكورة وعرض عليهم ذلك فقيل لا يهتدي احد الى البناء في الماء في هذا الزمان ثم ذكر له جدنا ابو بكر البناء ، وقيل ان كان عند احد علم هذا فعنده ، فكتب الى صاحبه على بيت المقدس حتى أنهضه اليه ، فلما صار اليه وذكر له ذلك قال : هذا امر هين عليّ بفلق الجميز الغليظة ، فصفها على وجه الماء بقدر الحصن البري ، وخيط بعضها ببعض ، وجعل لها باباً على الغرب عظيماً ، ثم بنى عليها بالحجارة والشيد ، وجعل كلما بنى خمسة دوامس ربطها باعمدة غلاظ ليشتد البناء ، وجعلت الفلق كلما ثقلت نزلت ، حتى اذا علم انها قد جلست على الرمل تركها حولاً كاملاً حتى اخذت قرارها ، ثم عاد فبني من حيث ترك ، وكلما بلغ البناء الى الحائط القديم داخله فيه وخيطه به ، ثم جعل على الباب قنطرة ، فالمراكب في كل ليلة تدخل الميناء وتجر السلسلة مثل صور . قال المقدسي : وميناء صور وعكا من العجائب . وقال ابن اياس : من اهل القرن العاشر ان في صور قنطرة ليس في الدنيا أعظم منها وهي على قوس واحد

مثل قنطرة طليطلة بالاندلس الا انها دون قنطرة صور . وبنى احمد بن طولون قلعة يافا ولم يكن لها قلعة من قبل .

وذكر المؤرخون ان جعفر بن فلاح لما فتح دمشق للفاطميين سنة ٣٥٨ نزل بظاهر سور دمشق فوق نهر يزيد وأقام أصحابه هناك الاسواق والمساكن وصارت شبه المدينة واتخذ لنفسه قصراً عجيباً من الحجارة وجعله عظيماً شاهقاً في الهواء غريب البناء . وهذه صورة ما وجد على جسر ثورا مكتوباً على حجر بالخط الكوفي على ما حققه استاذنا الشيخ طاهر الجزائري : امر بعمارة الجسر المبارك مولانا الامام المستنصر بالله امير المؤمنين صلوات الله عليه تاج الامراء ... جيوش ... شرف الملك عمدة الامام سيف الاسلام معز الدولة وسعدها وعضدها وأطال الله بقاءه في ربيع الاول سنة ٤٥٦ .

وفي الروضتين ان صلاح الدين يوسف كان يزور القاضي الفاضل ليستضيء برأيه فيما يريد فعله في جوسق (قصر) ابن الفراش بالشرف الاعلى في بستانه ، حتى ان الصفي بن القابض لما تولى خزانة دمشق لصلاح الدين بنى له داراً مطلة على الشرف بالقلعة وأنفق عليها أموالاً كثيرة وبالغ في تحبيرها وتحسينها وظن انها تقع من السلطان بمكان فما أعارها طرفاً ولا استحسنها ، وكانت من جملة ذنوبه عند السلطان التي اوجبت عزله عن الديوان وقال : ما يصنع بالدار من يتوقع الموت ، وما خلقنا الا للعبادة والسعي للسعادة ، وما جئنا لنقيم ، وما نروم ان لا نريم .

* * *

القصر الأبلق ومن المصانع التي كانت بدمشق القصر الأبلق في الميدان القبلي ، وهو قصر عظيم مبني من أسفله الى أعلاه بالحجر الاسود والاصفر ، بتأليف غريب وإحكام عجيب ، بناه الظاهر بيبرس البندقداري وعلى مثاله بنى الناصر محمد بن قلاوون القصر الأبلق بقلعة الجبل بمصر . قال ابن فضل الله : وامام هذا القصر اي أبلق دمشق دركاه (١) يدخل منها الى

(١) الدركاه البيت المستطيل امام الدار يرتفق به وهو فارسي اخذه العرب من الفرس كما اخذوا لفظ الهنداز بمعني الحد عن اندازه ومنه المهندس المقدّر مجاري القني

دهليز القصر وهو دهليز فسيح يشتمل على قاعات ملوكيـة مفروشة بالرخام الملون البديع الحسن ، المؤزر بالرخام ، المفصل بالصدف والفص المذهب ، الى سجف السقف و بالدار الكبرى به ايوانان متقابلان تطل شبابيك شرقيهما على الميدان الاخضر وغربيهما على شاطىء وادٍ أخضر يجري فيه نهر ، وله رفارف عالية تناغي السحب ، تشرف من جهاتها الاربع على جميع المدينة والغوطة . قال شيخ الربوة : سمي بالقصر الأبلق لكونه مبنياً بالحجارة البيض والحجارة السود . وقد بقي هذا القصر عامراً الى عهد العثمانيين رآه ابن طولون المتوفى سنة ٩٥٣ وقرأ تاريخه ٦٦٨ وقال ان على أُسكفته ضرباً من رخام ابيض وسطه مكتوب عمل ابراهيم بن غنائم المهندس . وقد قال العارفون ان التكيـة السليمانية قامت على أنقاض ذاك القصر .

وصف بهاء الدين الموصلي قصر الأبلق بدمشق فقال : وقصرها الابلق ليس بالعقوق ، من شاهد بديع معانيه سها عن العاشق والمعشوق ، قد شام في عمده مشهور غمدان ، واسبل على ايوان كسرى ستر النسيان ، يبهر الناظر حسن معناه ، ولا يقدر على وصف محاسنه من يراه ، الماء مرفوع في أقطاره ونواحيه ، فتصب في فوار بركه لتمييز ناظريه ، يتكسر جمعه على شاذروانانه مجروراً باضافته الى مجاريه ، فقد اجتمع لقاطنه اضافة المعنى والحسن الباهر ، ولم يكمل ذلك البهاء الا بكمال جمال الظاهر ، اعين شبابيكه الى ميدانه الاخضر ناظرة ، قد جمع الصادح والباغم واللافظ والطاعم ، به الظباء الاوانس ، والمها الكوانس ، أقطاره عريضة طويلة ، لا ترجع الابصار من السفر في دمنه الا كليلة ، أخجلت خمائله الأيك والغصون ، ولاذ القائف بالسلوان عن اقتفاء اثر السلوك في معانيه التي كلها عيون ، وقف الابلق حين جرى الى منتهاه ، وادركه الاعياء فسكن باقصاه ، وشاهد الشقراء تمرح في ميدان واديها فأراد الوصول اليه فعاوده الاضطراب ، فقطعت عليه الانهار الطريق وضرب بينهما بسور له باب اهـ .

والابنية واخذوا البركار ايضاً وكما اخذوا الشاذروان للفوارة نشتق منها فوارات كثيرة والايوان والدهليز والبازار والخركاه والبيمارستان والخانقاه وكثيراً غيرها ومن ذلك يستدل على كثرة تأثير الاوضاع والهندسة الفارسية في الاوضاع والهندسة العربية .

وبنى علم الدين قيطر المعروف بتعاسيف للملك المظفر في حماة أبراجاً وطاحوناً على العاصي وعمل له كرة من الخشب مدهونة رسم فيها جميع الكواكب المرصودة وعاونه في عملها المهندس القاضي جمال الدين بن واصل ·

✲ ✲ ✲

المعاهد الدينية والمدنية في العهدين النوري والصلاحي

ولما قويت حركة العمران في عهد الدولتين النورية والصلاحية بدمشق وحلب والقدس وحماة وطرابلس وبعلبك وغيرها واخذوا ينشئون فيها المدارس والجوامع والرُّبُط والمستشفيات والقلاع والجسور ، كان منها ماهو مثال الهندسة العربية مثل واجهة بناء المدرسة العادلية التي شرع ببنائها نورالدين ولم يتمها ، ولما ولي العادل أزل ما بناه نور الدين وبناها كما قال صاحب الروضتين هذا البناء المحكم الذي لا نظير له في بنيان المدارس · ومن البدائع واجهة مدخل المستشفى القيمري في صالحية دمشق ، وهندسة مدرسة الصهيبية في حلب ، وكذلك المدرسة التي كانت بجوار الشهباء وصفها ابن جبير قال : ومن أظرف ما يلحظ فيها ان جدارها القبلي مفتح كله بيوتاً وغرفاً وله طيقان يتصل بعضها ببعض ، وقد امتد بطول الجدار عريش كرم مثمر عنباً ، فحصل لكل طاق من تلك الطيقان قسطها من ذلك العنب متدلياً أمامها ، فيمدُّ الساكن فيها يده ويجتنيه متكئاً دون كلفة ولا مشقة · وقد قيل ان منارة جامع حلب المثال الوحيد من الهندسة الاسلامية ·

ولقد بنى الملك الاشرف بن الملك العادل بدمشق قصوراً ومتنزهات حسنة · وكانت عمارة اللاذقية في الحروب الصليبية من أحسن الابنية واكثرها زخرفة مملوءة بالرخام على اختلاف أنواعه كما قال ابن الاثير فخرب المسلمون كثيراً منها ونقلوا رخامها الى دمشق وغيرها وخربوا البيع التي قد غرم على كل واحدة منها الاموال الجليلة المقدار ، ولما تسلمها تقي الدين عمر حصن قلعتها وكان عظيم الهمة في تحصين القلاع والغرامة الوافرة عليها كما فعل بقلعة حماة · وبنى الملك الناصر صلاح الدين من أسرة صلاح الدين يوسف قصراً في قرية القابون بدمشق « لم ير الراؤون مثله » وعمَّر الشرف الاعلى بدمشق بقصور العظماء ·

عمران دمشق في القرون الوسطى — وبعد ان كانت دمشق في القرن السادس اكثر مدن الارض سكاناً كما قال ابن جبير وكانت في القرن الثامن كما قال ابن تغري بردي أجمل مدينة في العالم بل أغني مدينة ، أحرق تيمورلنك بعض أحيائها ومدارسها وغرّمها ملايين من الدنانير ، وحمل معه المهندسين والبنائين والنقاشين في جملة من حمل من ارباب الصنائع الى سمرقند ، كما فعل السلطان سليم العثماني في مصر لما فتحها في الربع الاول من القرن العاشر ، فحمل الى القسطنطينية كل صاحب صنعة وعمل نافع وجردها من بدائعها وصناعاتها النفيسة .

وكان في دمشق في القرن التاسع مائة حمام أفردها ابن عبد الهادي في رسالة كما كان في عصره الف جامع ومسجد في دمشق وضاحيتها وناهيك ببلدة فيها هذا القدر من آثار العمران ولا غرو بعد هذا ان قال فينا ابو الفضل ابن منقذ الكناني يوم كان لنا القدح المعلى في العمائر :

واذا مررت على المنازل معرضاً عنها فقضي لك حسنها ان تقبلا
ان كنت لا تسطيع ان تتمثل الفر دوس فانظرها تكن متمثلا
واذا عنان اللحظ أطلقه الفتى لم يلق الا جنة او جدولا
او روضة او غيضة او قبة او بركة او ربوة او هيكلا
او وادياً او نادياً او ملعباً او مذنباً او مجدلا او موئلا
او شارعاً يزهو بربع قد غدا فيه الرخام مجزّعاً ومفصلا

* * *

دور الخاصة — ومن قصور حلب في القرن الثالث دار واليها زكا الاعور ودار حاجبه فيروز ودار سيما الطويل ودار كورة الخراساني ومنها قصر السلطنة بدمشق . وذكر ابن عساكر ان محمد بن عمرو بن حوى السكسكي كان في اقليم من أقاليم غوطة دمشق يعرف ببيت لهيا بينها وبين دمشق نحو ميل وكان له في هذا الاقليم عدة قصور مبنية بالحجارة والخشب الصنوبر العرعر في كل قصر منها بستان ونهر يسقيه وكان كل جليل يقدم من الحضرة (بغداد) او من مصر

يريدها ينزل عنده وفي قصوره ، وكان ذلك في القرن الثالث . ومن قصور الشام قصر عبد الملك بن صالح والي حلب في مدينة منبج وكان بناه لنفسه وأنشأ بستاناً الى جانبه . قال ابن الجوزي : هدم اهلَ دمشق قصر السلطنة في القرن الخامس ودرسوه وكان عظيماً يسع الوفاً من الناس . وقصر بِطياس في حلب المذكور في شعر البحتري كان عامراً الى عهد ابن العديم في القرن السادس وكان عامراً الى عهده برج من الحصن الذي كان بناه مسلمة بالناعورة وكان بنى فيها قصراً بالحجر الاسود الصلد .

وقد خربت محلة الفراديس المعروفة اليوم بمحلة العمارة في فتنة القرامطة سنة ٣٦٣ وكان فيها على رواية ابن القلانسي من البنيان الرفيع في الحسن والبهاء ما لم ير مثله وهو أحسن مكان كان بظاهر دمشق . وقال ابن شاكر : ان اللؤلؤتين كانتا منظرتين ظاهر دمشق مما يلي باب الحديد غرباً وكانتا من أعجب البناء . احرقهما المصريون لما حاصروا دمشق . واللؤلؤتان الصغيرة والكبيرة هما اليوم حدائق في أرض باب السريجة بينها وبين قرية كفر سوسة . وقنطرة سنجة التي قال فيها ابن حوقل ليس في ألاسلام قنطرة أحسن منها ويقال انها من العجائب وسنجة بالقرب من منبج . وقال ابن القلانسي : من اقتراحات شمس الملوك صاحب دمشق الدالة على قوة عزيمته ، ومضاء همته ، ومستحسن ابتدائه ، ما أحدثه من البابين المستجدين خارج باب الحديد من القلعة بدمشق الاوسط منها ، و باب جسر الخندق الشرقي منها وهو الثالث لها ، أُنشئَ ذلك في سنة ٥٢٧ مع دار المسرة بالقلعة والحمام المحدثة على صيغة اخترعها ، وبنية اقترحها ، وصفة آثرها ، فجاءت في نهاية الحسن والطيبة ، والتقويم والاعتدال .

واشتهرت في القرن الخامس دار ابن عقيل صاحب صور (٤٦٥) دخلها أُسامة ابن منقذ فرآها وقد تهدمت وتغير زخرفها فكتب على لوح من رخام هذه الابيات :

احذر من الدنيا ولا تغتر بالعمر القصيرِ
وانظر الى آثار من صرعته منا بالغرور
عمروا وشادوا ما ترا ه من المنازل والقصور
وتحولوا من بعد سكـ ناها الى سكنى القبور

وذكر سبط ابن الجوزي ان أُسامة الحلبي بنى داراً بدمشق بانقاض بيوت الناس

فخربت على يد ايوب بن الكامل محمد في سنة ٦٤٧ ، وكان أسامة قد غرّم عليها أموالاً عظيمة واخذ اراضي الناس والآلات بدون الطفيف ، وصح فيه قول القائل الحجر المغصوب في البناء أساس الخراب . وكانت هذه الدار سبب هلاك أسامة .

ومن جملة قصور الحكومة في الدولة الشركسية دار السعادة وكانت مكان دائرة المشيرية امس ودار الانتداب في دمشق اليوم .

* * *

تجديد المدن الصغيرة } من المدن ما نبه ذكره بعد خموله في عهد الدولة الاتابكية والايوبية مثل حماة فلم يكن لها في القديم نباهة ذكر ، وكان الصيت لحمص دونها ، فلما آلت الى ملك بني ايوب مصروها بالابنية العظيمة ، والقصور الفائقة ، والمساكن الفاخرة ، وفي جوامعها أثر من آثار الصنائع في القرون الوسطى وما قبلها . ومنها ما قام على أنقاض الكاتدرائية القديمة ، ومنها ما حرق وخرب واستعيض عنه مكاناً آخر ، مثل طرابلس ففي سنة ٦٨٨ فتحت طرابلس وأخرب سورها وكان من الأسوار العظيمة . وامر السلطان بتجديد مدينة على مثل طرابلس فبنيت ثم سكنها الناس . وكانت في يد الفرنج من سنة ٥٠٣ ، ومثل ذلك يقال في غزة فقد قال الظاهري في القرن التاسع للهجرة : ان فيها من الجوامع والمدارس والعمارات الحسنة مايورث العجب وتسمى دهليز الملك . وكان سور عسقلان عظيم البناء بحيث كان عرضه في مواضع تسع اذرع وفي مواضع عشر اذرع . وقال ابن فضل الله في بعلبك : انها مختصرة من دمشق في كل محاسنها ، وحسن بنائها وترتيبها ، بها المساجد والمدارس والربط والخوانق والزوايا والبيمارستان والاسواق الحسنة . وقال آخر وبقلعة بعلبك من عمارة من نزل بها من الملوك الايوبية آثار ملوكية جليلة . وكان على منبج سور بالحجارة المهندسة حصينة جداً . ومن هذه المدن ما أصبح الآن كالقرى مثل المعرة معرة النعمان التي ترى الى اليوم مسافة ما بين أبوابها ساعة على السائر ومثل قيسارية التي قال فيها المقدسي ليس على بحر الروم بلد اجل ولا اكثر خيرات منها . مر احدهم سنة اربعين وستمائة بقيسارية فوجد على حائط منها مكتوباً هذه الابيات :

هـذه بلدة قضى الله يا صا ح عليهـا كما ترى بالخراب
فقف العيس وقفة وابك من كا ن بهـا من شيوخها والشباب
واعتبر ان دخلت يوماً اليهـا فهي كانت منازل الاحبـاب

وأزهرت طرابلس على عهد سيف الدين اسندمر الذي بنى القلعة وحماماً وسوقاً وأنشأ فيها مجاري المياه الغريبة في تقسيمها الى جميع طبقات الدور ليأمن ساكنوها من الحمى في الطبقات الارضية وقد عمر فيها هذا الملك سنة ٧٠٩ حماماً عظيماً أجمع من رأوه انهما عمر مثله في البلدان ، وعمر قيسارية وطاحوناً وأنشأ لمماليكه بها مساكن حسنة البناء تجري المياه اليها بالقنوات ، ومنها مايطلع الى اعلاها وتجري في طباقها ، وعمر بعض القلعة وأقام أبراجاً وهذه القلعـة مجاورة لدار السلطنـة بطرابلس — قاله النويري .

* * *

القلاع والحصون وقلعة حلب ودمشق } في بر الشام كثير من القلاع من بناء القرن الخامس والسادس والذي بعده مثل قلعة صرخد

قال ابن تغري بردي : في حوادث سنة ٤٦٦ وفيها بنى حسان بن مسمار الكلبي قلعة صرخد وكتب على بابها أمر بعمارة هذا الحصن المبارك الامير الاجل مقدم العرب عز الدين فخر الدولة عدة امير المؤمنين يعني المستنصر صاحب مصر . وذكر عليها اسمه ونسبه . ومثل قلعة حلب وان كان تاريخهـا يُردُّ الى ابعد من هذا القرن والمهم من أبنيتها بدأ في عهد الاسلام .

وقلعة حلب أفخم ما في الديار الحلبية من القلاع بنيت وسط المدينة على اكمة ربما كانت صناعية ، ويحيط بها خندق عظيم كان القدماء يملأونه ماء ليتعذر الوصول اليها الا من مدخلها ، وهذا من أحسن ما يتصور العقل ، ويقال ان حلب القديمة كانت كلها مبنية في هذه القلعة ، تعاورتها الايدي بالبناء في قرون مختلفة وظلت مسكونة الى سنة ١٨٢٢ م ايام خربت بالزلازل . يسير الداخل الى القلعـة على جسر بديع أقيم فوق الخندق ، فيبلغ برجاً خارجاً جعل في واجهته أنواع من نوافذ الحديد البديع ، قيل انه من عهد الملك الظاهر غازي ، لما وجد في مدخله من كتابة تاريخها سنة ٦٠٥

مع بعض الآيات الكريمة . وفي دهليز القلعة المتعرج عدة كتابات ونقوش بارزة على الحجر منها صورة نمرين على يمين الباب و يساره من أجمل ماز برت ايدي النقاشين على الصخور . فاذا دخل المرء من الباب وجد ساحة وآثار عدة شوارع وركاماً من الأنقاض ، بعضها أنقاض جامع ومأذنة ، وأخرى أنقاض أروقة ، وأخرى محال لرصد العدو ، وفي الوسط صهريج كبير ينزل اليه بمئة وخمس وعشرين درجة ، وكان بها دير للنصارى و يقال ان في أساسها ثمانية آلاف عمود . تعاورها الملوك في الاسلام بالبناء والترميم . ومنهم الظاهر غازي الذي بنى على بابها برجين لم يبن مثلهما قط وجعل لها ثلاثة أبواب حديد . وكان كثير من ملوك حلب يسكنونها . وذكر الغزي ان في قلعة حلب آثار عدة مساجد وانه كان فيها عشرة مساجد . قال الخالدي شاعر سيف الدولة في وصف هذه القلعة :

وخرقاء(؟)قد قامت على من يرومها ... بمرقبها العالي وجانبها الصعب
يجر عليها الجو صيب غمامه ... و يلبسها عقداً بانجمه الشهب
اذا ماسري برق بدت من خلاله ... كما لاحت العذراء من خلل الحجب
فكم من جنود قد أماتت بغصة ... وذي سطوات قد أبانت على عقب

ومثل هذا يقال في قلعة دمشق التي سميت « الاسد الرابض » وهي من بناء تاج الدولة تتش سنة ٤٧١ هـ جعل بها دار أمارة وسكنها ، ثم زاد الملوك بعده فيها وسكنها كثير منهم . وكانت دار الامارة قبله تسمى « القصر » بناها العباسيون بعد ان دكوا الخضراء وقصور الامويين ، فخرب القصر في بعض فتن الفاطميين . وفي سنة ٦٩١ كمل بناء الطارمة وما عندها من الدور والقبة الزرقاء في قلعة دمشق ، فجاءت في غاية الحسن والكمال والارتفاع ، وأنشئ فيها قاعة اسمها قاعة الذهب وفرغ من جميع ذلك في سبعة اشهر . طولها من الشرق الى الغرب ٣٣٠ وعرضها من الشمال الى الجنوب ١٧٠ خطوة . وقد خربت في أدوار كثيرة ثم أعيد بناؤها .

وصف ابن حجة الحموي قلعة دمشق عندما حوصرت في الوقعة المشهورة : ونظرت بعد ذلك الى القلعة المحروسة وقد قامت قيامة حربها ، حتى قلنا أزفت الآزفة ، وقد ستروا بروجها من الطارق وهم يتلون : (ليس لها من دون الله كاشفة) ، واستجلبت

عروس الطارمة عند زفتها وقد تجهزت للحرب ، ولم ترض بغير الارواح مهراً ، وقد عقدت على رأسها تلك العصائب ، وقد توشحت بتلك الطوارق وأدارت على معصمها الابيض سوار النهر ، وغازلت بحواجب قسيها ورمت القلوب من عيون مراميها بالنبال ، واهدت الى العيون من مكاحل نارها الكحالاً كانت السهام لها أميال ، وطلبها كل من الحاضرين وقد غلا دست الحرب ، وشمخ وهو على فرسه بنفسه الغالية ، وراموا كشفها وهم في رقعة الارض كأنهم لم يعلموا بان الطارمة عالية ، وتالله لقد حرست بقوم لم يتورعوا بغير آية الحرس في الاسحار ، وقد استيقظوا لحمل قسيهم ولم تنم اعينهم عن الاوتار ، فأعيذ رواسيها التي كالجبال الشامخة بمن أسس المحجوج ، وأحصنها قلعة بالسماء ذات البروج .

ووصف القاضي الفاضل حصن الكرك في بعض كتبه فقال : هو شجًا في الحناجر ، وقذى في المحاجر ، قد اخذ من الآمال بمخنقها ، وقد قام بارصاد العزائم وطرقها ، وصار ذئباً للدهر في ذلك الفج ، وعذراً لتارك فريضة الله من الحج ، وهو وحصن الشوبك يسران من الآخر كبيت الواصف للاسدين :

ما مرَّ يوم الا وعندهما   لحم رجال او بولغان دما

ومن القلاع المهمة قلعة بصرى بنيت على مثال قلعة دمشق . وهي أقدم من الاسلام جدد فيها من استولوا عليها بعد في أدوار مختلفة ، دع القلاع والحصون الكثيرة في الشمال والجنوب مثل شقيف ارنون وشقيف تيرون وهونين وتبنين وكوكب وعجلون وقاقون والصبيبة والصلت والهارونية وبيت لاها وحصن ابي قبيس وصافيتا وعريمة ولوقا وتل باشر وعكار وحارم وصهيون وبغراس ودر بساك ودركوش واسفونا وبسرفوت وبلاطنُس وحصن الاكراد وشيزر والمنيطرة والشغر وبكاس وأرسوف وبيت جبرين وحبرون وأرتاح والاثارب وبارين وبارة وإعزاز وصرفند وعدلون وبرج الرصاص وحصن الاسكندرونة والتينات وحلبا وعرقا وبُرزيه وخناصرة وقسطون وتل اعدى وحصن الحبيس والقدموس ومصيات والكهف والعليقة والخوابي وغيرها من القلاع المعروفة بقلاع الدعوة اي الدعوة الباطنية او الاسماعيلية . هذا الى قلاع المدن المشهورة مثل قلعة طرابلس وقلعة حماة وحمص وعكا والكرك

والشوبك وصرخد وأذرح وصفد وشميميس . ومعظمها تناطح السحاب بعلوها وتشبه الجبال بمتانتها . وما احلى ما قاله القاضي الفاضل في وصف حصن كوكب : ووردنا حصن كوكب وهو نجم في سحاب ، وعقاب في عقاب ، وهامة ، لها الغمام عمامة ، وانملة ، اذا خضبها الاصيل كان الهلال لها قلامة .

ووصف شهاب الدين محمود حصناً فقال : حصن قد تفرط بالنجوم ، وتقرطق بالغيوم ، وسما فرعه الى السماء ، ورسا اصله الى التخوم ، تخال الشمس اذا علت انها تنتقل في أبراجه ، و يظن من سها الى البها انها ذبالة في سراجه ، لا يعلوه من نسر السما غير نسر السما وزمامه ، ولا يرمق متبرجات بروجه غير عين الشمس والمقل التي تطرف من انجمه ، وحوله كل شامخ تهيب عقاب الجو قطع عقابه ، وتقف الريح حسرى اذا تعرفلت في هضابه ، تخفق العيون اذا رمقته سلوك مادونه من المحاجر ، و يحيل الفكر صورة الترقي اليه لا يبلغها حتى تبلغ القلوب الحناجر ، وحوله من الاودية خنادق لا تعلم منها الشهور الا بانصافها ، ولا تعرف فيها الاهلة الا باوصافها .

ولقد بدأ منذ القرن الخامس الغرام ببناء القلاع والحصون لان المدينة او الموقع الحربي اذا خليا من حصن يسهل على العدو كل حين ان يجتاحها . ومن كتاب فاضلي في وصف حصن بيت الاحزان : « وقد عرض حائطه الى ان زاد على عشر أذرع وقطعت له عظام الحجارة كل فص منها من سبع اذرع الى مافوقها ومادونها وعدتها تزيد على عشرين الف حجر ، لا يستقر الحجر في مكانه ولا يستقل في بنيانه الا باربعة دنانير فما فوقها ، وفيما بين الحائطين حشو من الحجارة الصم ، المرغم بها انوف الجبال الشم ، وقد جعلت سقيته بالكلس وأحاطت قبضته بالحجر مازجه بمثل جسمه ، وصاحبه بأوثق وأصلب من جرمه ، وأوعز الى خصمه من الحديد بان لا يتعرض لهدمه » .

* * *

مثال التخريب في الحصون والبيع — وكثيراً ما كان ساسة هذه الديار يخربون الاسوار والحصون لغرض من الاغراض ، كما خرب عبد الله ابن طاهر سنة ٢٠٩ سور معرة النعمان ومعظم الحصون الصغار . مثل حصن الكفر

وحصن حناك وحصن كيسوم وغير ذلك · وكما خرب سلاطين الشام منذ استولى عليها الاتابك زنكي الى أواخر عهد المماليك الحصون التي استولوا عليها او التي كانوا بنوها لئلا يعود اعداؤهم فيستولوا عليها و يتقدموا في داخلية البلاد · وقد ألف جمهور الناس ان ينقضوا البنيان القديم ويعمروا به بناءهم الحديث · ولهذا أمثلة كثيرة في تاريخ العمران في هذه البلاد خاصة · فقد ذكر العماد الكاتب ان اللاذقية لما استخلصت من ايدي الصليبيين وقع من عدة من الامراء الزحام على الرخام ، ونقلوا منه أحمالاً الى منازلهم بالشام « فشوهوا وجوه الاماكن ومحوا سنا المحاسن » وبظاهر اللاذقية كنيسة عظيمة نفيسة قديمة باجزاء الاجزاع مرصعة ، و بالوان الرخام مجزعة ، واجناس تصاو يرها متنوعة ، ولما دخلها الناس أخرجوا رخامها ، وشوهوا اعلامها ·

وذكروا ان سيباي كافل الشام في الدولة الشركسية لما أراد بناء جامعه في باب الجابية خرب عدة جوامع ومدارس واتى باحجارها فسمى العلماء مابناه « جمع الجوامع » ولما أرادوا في أواخر القرن الماضي بناء رصيف على طول نهر بردى من صدر الباز الى داخل مدينة دمشق حملوا اليه من ضخام الاحجار التي كانت في قلعتها · وربما هدم بمثل هذا العامل ما كان في اكثر مدن الشام من دور الضيافة التي ابتدعها عمر بن عبد العزيز وهو اول من اتخذ من الخلفاء الخانات للمسافرين كما اتخذ دار ضيافة · وقصر الفقراء الذي بناه نور الدين في ربوة دمشق ووقف عليه قرية داريا ليصطاف الفقراء الى جانب الاغنياء · ودار العدل التي بناها نور الدين ايضاً في دمشق وهي اول واحدة من نوعها بناها لكشف الظلامات وسماها دار العدل كان يجلس فيها لفصل الخصومات مرتين في الاسبوع وعنده القاضي والفقهاء · وبنى نور الدين جسر كامد اللوز في سهل البقاع (على الليطاني) كما جدد كثيراً من الجسور والخانات وقنوات السبل في اعمال دمشق وغيرها · ولاهل الخير في كل عصر اياد بيضاء في إقامة الخانات والفنادق بين البلاد ومنها خان بناه علي بن ذي النون الإسعردي الدمشقي بقرب الكسوة اول مرحلة للحج الشامي وكان من كبار التجار وعمّر هذا الخان لنفع الناس · وما كان في قمم الجبال من المناور التي كانت توقد فيها النيران للإعلام بحركات العدو في الليل وما كان شيد في البلاد من أبراج حمام الزاجل لنقل الاخبار

في النهار • ومن ذلك دمنة القبتين المائلتين في قنة جبل قاسيون وكان فيه مرصد فلكي بناه المأمون فدثر في جملة ما دثر • ومما اشتهر جسر منبج اتخذ في زمن عثمان بن عفان رضي الله عنه للصوائف و يقال بل كان له رسم قديم •

* * *

قلاع الصليبيين وكنائسهم } دخلت الشام في القرون الوسطى هندسة جديدة عسكرية وغيرها وهي هندسة الصليبيين للقلاع والحصون والدور والكنائس ولا سيما في طرابلس وبيروت وعكا • واهتم الصليبيون ببناء القلاع والكنائس في البلاد التي احتلوها من ارض الشام ولاسيما في طرابلس وصور وانطاكية وعكا والقدس حتى قال بعض الباحثين : اذا استثنينا الدور الروماني فانه لم يأت على الشام زمن توفرت الهمم فيه على البناء مثل عهد الصليبيين • فان كل مستعمرة تجارية في الموانئ البحرية كانت تحاول ان يكون لها على الاقل كنيسة وخانات وحمامات • ثم القلاع التي غصت بها البلاد وهي أحسن نموذج للهندسة الحربية في القرون الوسطى • قال فان برشم : ان على طرابلس صبغة المدن الايطالية أثرت فيها منذ الحروب الصليبية كما اثرت هندسة المدن الايطالية الكبرى في جميع الموانئ البحرية في الشام • وكان للطراز الايطالي التقدم على غيره لان الطليان اهل البندقية وبيزة وجنوة وطسقانا كانوا أسبق أمم الغرب الى الاختلاط بسكان الشام للقرب وللعلاقة الدينية بين رومية ونصارى الشرق العربي قبل الحروب الصليبية • وكان عدد الصليبيين من جمهوريات ايطاليا اكثر من غيرهم من الامم • قال الاثري فان برشم : لما كانت سواحل الشام محط رحال الصليبيين ، ونقطة حركاتهم الحربية ، تشبعت ابنيتها بالروح الايطالي خصوصاً لان الطليان كانوا اذذاك اكثر عدداً في هذه الحملات من العنصر الفرنسي • ومن هذه المدن ما دثر مثل طرطوس وصيدا وصور وقيسارية وعسقلان ، ومنها ما هو باقٍ مثل انطاكية وبيروت واللاذقية وعكا • وفي مدينة طرابلس من بين المدن كلها يتجلى الروح الايطالي الباقي من القرون الوسطى في أبنيتها وهندستها • ولا تزال قلعة الحصن اوحصن الاكراد والكرك كما يدعوها فرسان الصليبيين محفوظة منذ عهد الصليبيين على ما هي عليه وهي آية في باب الهندسة العسكرية في القرون الوسطى ؛ ناطقة بلسان

حالها بان الصليبيين نزلوا الارض المقدسة . ومن هندسة الصليبيين جامع خليل الرحمن وجامع بيروت وطرطوس الكبير وأرواد وصور وصيدا ودير البلمند قرب طرابلس وكنيسة مار يوحنا في جبيل وكنيسة مار شربل في معاد وكنيسة انفة هذا الى غير ذلك من البيع في شمالي لبنان وجوار البترون وقد بنوا نحو خمسين قلعة وحصناً في البلاد التي احتلوها .

قال رنان : الظاهر ان البنايات المربعة الشكل الضخمة الحجم هي من عمل الطليان وفرسان الهيكليين . وان البنايات ذات البرج المدور هي من صنع الفرنسويين وفرسان الاسبتاليين وكثيراً ما كان تأثير هندسة اليونان البيزنطيين لقلاعهم — وكانت البلاد غاصة بها — تعدل ذوق الافرنج الخاص في هذا المعنى . قال وفي طرطوس قامت أهم هذه الآثار واستدل مما فيها ان منزل الصليبيين في هذه البلاد لم يكن منزل قُلعة، بل وطدوا انفسهم على احتلالها احتلالاً دائماً وان في طرطوس بيعة هي أجمل مصنع من المصانع التي بنيت على الطراز الغوتي في هذه الديار .

* * *

هندسة البيوت وبيوت دمشق وحلب { لم يبلغنا ان في البلاد دوراً يرد تاريخها الى الف سنة حتى نعرف حق المعرفة كيف كانت هندسة المساكن في عهد ارتقاء البلاد على عهد الحكومات العربية كما بقيت مثلاً بعض دور قنوات في جبل حوران محفوظة على الصورة التي كانت عليها بنوافذها وابوابها الحجرية . وكما ادعى القرماني ان في اللجاة من البنيان ما يعجز عن وصفه اللسان وكل دورها من الصخر المستحدث ليس في الدار خشبة واحدة بل كلها حجارة سوداء منحوتة تنوف على مائتي الف دار (كذا) كل دار منفردة عن الاخرى لا يلاصقها جدر أُخرى ، وكل دار فيها حوش وبئر وله باب من حجر اذا أُغلق ووضع خلفه حصاة لا يمكن فتحه ابداً من الخارج . ولكننا على مثل اليقين من ان طرز البناء في دمشق هو كما كان منذ بضعة قرون بل منذ دخول العرب الفاتحين وقبلهم بعصور وان هذا الطراز في بناء بيوت دمشق خلاصة أُسلوب قديم ارتقى مع الزمن حتى بلغ ما بلغ في القرون الاخيرة ومنه مثال حي من المدارس والرُبُط وغيرها في دمشق .

قال احد المهندسين المعاصرين ان التشابه مؤثر بين هندسة دار قديمة ودار عربية فقد كانت الدور تشاد ولا تجعل لها نافذة على الشارع ويكتفى بطيقان للتهوية ولها فناء دار داخلي تحف به غرف ومخادع وفي وسط الفناء او الصحن فوارة اوحوض ماء . لا جرم ان المسلمين قد اخذوا عن الرومان هذا الطراز في البناء الذي ينطبق مع هذا على مناخ البحر المتوسط ولا نزال نجد فيه مثالاً في اسبانيا حيث يسمى الفناء الداخلي باسم « باتيو » او الفناء المبلط .

وكانت دمشق تعتمد في أبنيتها على الحجر غالباً . وزاد الاعتماد على الخشب والطين في الادوار الاخيرة . قال المقدسي : ان منازل دمشق ضيقة وأزقتها غامة ، واكثر أسواقها مغطاة ، ولهم سوق على طول البلد مكشوف لا ترى أحسن من حماماتها ، ولا أعجب من فواراتها . هذا في القرن الرابع للهجرة . وقال ابن جبير في القرن السادس ان اكثر ابنيتها بالقصب والطين . وقال ابن فضل الله في الثامن ان غالب بناء دمشق بالحجر ودورها أصغر مقادير من دور مصر لكنها اكثر زخرفة منها ، وان كان الرخام بها اقلّ ، وانما هو أحسن أنواعاً . قال وعناية اهل دمشق بالمباني كثيرة ولهم في بساتينهم منها ما تفوق به وتحسن باوضاعه وان كانت حلب أجل بناءً لعنايتهم بالحجر فدمشق أزين واكثر رونقاً لتحكم الماء على مدينتها ، وتسليطه على جميع نواحيها ، ويستعمل في عمارتها خشب الحور بدلاً من خشب النخل ، الا انه لا يغشى بالبياض ويكتفى بحسن ظاهره ، واشرف دورها ماقرب ، واجل حاضرتها ماهو في جانبها اه .

قلنا وهذا ينافي ما كان يراه العرب في تخير أماكن بيوتهم فقد كانوا اصطلحوا على ان الاطراف منازل الاشراف قال البحتري :

عجب الناس لاعتزالي وفي الاط — راف تُلفى منازل الاشراف

* * *

نماذج من آثار الشراكسة والعثمانيين } ولذلك كنت ترى في سفح جبل الصالحية والربوة والشرف الاعلى الشمالي والشرف الادنى الجنوبي من ظاهر دمشق قصوراً أنيقة ينزلها القضاة والحكام وكبار ارباب الاملاك والاشراف ولكنها دثرت بالفتن المتواترة ولم تقو على عوادي الايام حتى نحكم

على ماعمله الدمشقيون وأسلوبهم في هندسة مصانعهم على العهد الاسلامي الاوسط وقد خربت هذه كلها في عهد العثمانيين . ويقول كاتب جلبي : انه كان في المرجة بدمشق قصور عالية مشهورة في الآفاق لا يتأتى ايفاؤها حقها من الوصف لا سيما أبنية البرامكة وآثارهم فانها لم تزل باقية الى هذا العهد (القرن الحادي عشر) . وروى الظاهري : ان دمشق تشتمل على سور محكم وقلعة محكمة وبها طارمة مشرفة على المدينة بها تخت الملك مغطى لا يكشف الا اذا جلس السلطان عليه وقال ايضاً : ان ما في الميدان الاخضر في دمشق من القصور الحسنة عجيبة من العجائب وهذا في القرن العاشر .

وقد أنشأ العثمانيون بعض خانات في طريق الشام الى الروم وفي طريق الشام الى الحجاز وبعض قلاع اوأبراج ومنها برج قلعة طرابلس فقد كتب على احد جدرها بعد البسملة « رسم بالامر الشريف العالي السلطاني الملكي المظفري سلطان سليمان شاه ابن السلطان سليم شاه لا زالت اوامره الشريفة مطاعة في الامراء بان يجدد هذا البرج المبارك ليكون حصناً منيعاً على الدوام وكان الفراغ من عمارته في شهر شعبان المبارك سنة ٩٢٧ وفي سنة ٩٦٧ امر السلطان سليمان بتعمير قلاع بطريق الحاج الشامي وتعيين صنجق لكل قلعة واحدة بالقطرانة وثانية بمعان الى ماوراء ذلك من ارض الشام ، فعمرت ودام الانتفاع بها زمناً طويلاً .

وآثار العثمانيين في دمشق التكيتان السليمانية والسليمية والجامعان السنانية والدرويشية . بنوها على الاسلوب التركي البيزنطي ولهم مثل ذلك في حلب ومنها المدرستان البديعتان مدرسة الخسروية والمدرسة العثمانية . قال سوبرنهيم الاثري : ان عدداً عظيماً من مصانع حلب يرد الى زمن المماليك والعثمانيين وماعدا الجوامع الكثيرة مثل جامع الاطروش والطونبغا والطواشي ومناراتها المختلفة الهندسة — وبفضلها تذكر حلب بصورة القاهرة في هذا المعنى — فان حلب قد احتفظت بالمستشفى الجميل الذي بناه ارغون سنة ٧٥٥ وبكثير من المخازن والخانات والحمامات والدور والسلسبيلات وفي هذا المستشفى افاريز ونقوش من اجمل مانقش النقاشون تزينه فتجعله بهجة للناظرين . ومدينة حلب غنية بمصانعها الجيدة الهندسة ومنها العسكري والديني والمدني

وكلها بما زبر عليها من الكتابات مادة واسعة لمن يريد ان يتصور اصول الهندسة لا في حلب فقط بل في شمالي الشام اهـ . ومن اجمل آثار الهندسة في حلب محراب مدرسة الفردوس التي بنتها ضيفة خاتون التي ملكت حلب ست سنين وهي ابنة ابي بكر ابن ايوب الملك العادل . ولو كتب البقاء على الاقل للقصر الذي بناه بقرية بطياس من ضواحي حلب صالح بن علي العباسي وقصر الدارين الذي بناه عبد الملك بن صالح خارج باب انطاكية وقصر مرتضى الدولة احد موالي بني حمدان وقصر سيف الدولة ابن حمدان الذي بناه بالحلبة من ضواحي حلب وتناهى في حسنه وعمل له اسواراً وقد احرقه الروم في احدى غزواتهم فلم يعمر بعد ذلك او قصر آخر من قصور الحمدانيين — لو كتبت الاقدار ذلك لساغ لنا ان نحكم حكماً صحيحاً على هندسة دور الشهباء في القديم . والغالب ان هذا الطراز المعروف اليوم منها منقول كما هو الحال في دمشق عن الطراز القديم . و يقول الظاهري ان الميدان الاخضر في دمشق كان فيه من القصور الحسنة ما هو عجيبة من العجائب .

* * *

هندسة الجسور } وفي سنة ٦٩٢ كان الفراغ من بناء جسر نهر الكلب الذي شرع ببنائه سيف الدين ارقطاي المنصوري الناصري كافل السلطنة ايام الملك المنصور بن قلاوون ، وكان بناؤه بعدما خرب الجسر الذي اقامه السلطان انطونيوس الحليم الذي تملك على رومية بعد المسيح بمائة واربعين سنة وهو الذي قطع الصخور وبنى البرج ومشى في الطريق الذي على شاطئ البحر الموصل الى مدينة بيروت كما هو مكتوب على الصخر قبالة الجسر القديم مما يلي قبليه على هذه الصورة : الامير ادوار قيصر ماركوس اورليوس انطونيوس الحليم السعيد اغسطس كبير الجرمانيين الحبر الاعظم قطع الجبال المشتملة على نهر ليقا ونهج الطريق مهلاً ولقبه بالطريق الانطيونياني . وهذا النهر تلقب بالكلب لكونه بعدما اصلحه انطونيوس الملك نصب به قائمة (نصباً) من حجر كبير على صورة الكلب وقيده بسلسلة حديد في الصخر وجعلوا قدامه نقيراً لاجل الطعام .

لما اراد نائب الشام في اواخر النصف الاول من القرن الثامن عمارة جسر الدامور

الجاري بين صيدا وبيروت ، ندبوا لذلك مهندساً خبيراً بالاعمال الساحلية يقال له ابو بكر بن البصيص البعلبكي وهو الذي عمر جسر نهر الكلب وله غير ذلك من الاعمال الثقال ببلاد طرابلس فعمله على صورة متينة . وعمر الامير بشير الشهابي بايعاز من والي صيدا جسراً على نهر الدامور ايضاً فجمع اهل الصناعة اليه فكانوا اكثر من مائة وخمسين رجلاً فأتمه في شهرين وغرم عليه نحو مائة الف درهم . وكذلك جسر الظاهر برقوق الذي بناه على نهر الأردن (الشريعة) وطوله مئة وعشرون ذراعاً وعرضه عشرون . وقالت فيه السيدة عائشة الباعونية الدمشقية :

بنى سلطاننا برقوق جسراً بامر والانام له مطيعه
مجاز في الحقيقة للبرايا وامر بالمرور على الشريعه

وعمر قاضي دمشق سنة ٩٣٢ سوقاً تجاه باب جيرون بدمشق فبنى اقواساً يحملون فيها قباب مبنية بالآجر اذ رآه احكم في البناء لانه لا يحتاج الى طين ويؤمن من حرقه . وجدد سور قلعة حلب السلطان سليمان بن السلطان سليم في شهر المحرم سنة ثمان وعشرين وتسعمائة وكتب ذلك بالعربية .

* * *

القاعات والقصور المعتبرة } من القاعات في دمشق وحلب ما يرجع تاريخه الى القرن التاسع والعاشر والحادي عشر والثاني عشر ومنها نعرف كيف كانت هندسة القوم في تلك العصور . فمنها القاعة المشهورة بباب جيرون وباب السلسلة أنشأها الامير محمد بن منجك الذي عمر العمارات الفائقة بدمشق فانه تأنق في عمارتها بالقاشاني والرخام وعمر القصر المعروف به في الوادي الاخضر (١٠١١) . وذكر الخياري انه كان في القرن الحادي عشر في المرجة بدمشق قصر مقابل القصر المنجكي قصر الباشا محمد بن الناشف وغير ذلك من العمارات والقصور الفائقة . وكان في الصالحية محل يقال له القصر عمّره ابو البقاء الصفوري المتوفى سنة ١٠٣٥ وكان يقال له صاحب القصر وكان من احسن المتنزهات وفيه يقول الامير المنجكي من قصيدة :

أقسمت بالبيت العتيق وما حوت بطحاؤه من حجره وحجونه
ما ضمت الدنيا كقصرك منزلاً كلا ولا سمحت بمثل قطينه

ومنها عمارات الامير منصور بن الفريخ امير البقاع المقتول سنة ١٠٠٢ بقرية قب اليـاس وكانت له دار عظيمة خارج دمشق قبلي دار السعادة قال المحبي: لم يرسم مثلها، جعل بابها بالرخام الابيض والحجر الاحمر المعدني، ونقل لها الرخام من بلاد السواحل والحجارة من البقاع واستعمل فيها العملة بالسخرة . وفي سنة ١٠٣٤ بنى الامير منذر ابن الامير سليمان بن علم الدين بن محمد التنوخي سرايا عظيمة في قرية عبيه في لبنان وبقي مدة اربعين سنة ولم يكملها لزيادة اتساعها وكان البناؤون من اسلامبول . وامر الوزير احمد باشـا الكوبرلي الذي ولي دمشق سنة ١٠٧١ بعمارة قاعة معظمة داخل دار الامارة بدمشق فبنيت كما قال المحبي على أُسلوب عجيب ووضع غريب . وقال المؤرخون ان الامير بشير الشهابي كان كالامير فخر الدين المعني يحب البذخ والرفاهية وتنظيم اصطبلاته وبيطرته حتى أصبح مضرب الامثال في ذلك ، وعمر في بيت الدين قصراً ملوكياً وجلب اليه الماء في ساقية طولها ثلاثة فراسخ . قال بعض المؤرخين جر الامير بشير بواسطة رجل دمشقي قناة ماء من ينبوع القاعة بجانب نهر الصفا الى منزله في بيت الدين من بعد ثلاث ساعات وغرّم على ذلك زهاء مائتي الف درهم وكانت جميع اهل البلاد تحضر في كل سنة يومين تعمل في هذه القناة بغير اجرة اكراماً له . ومدة العمل اثنان وعشرون شهراً .

والمهندسون في سراي بيت الدين ايطاليون والبناؤون دمشقيون وحلبيون واتراك من الاستانة وهي على الطرز التركي الممتزج بالطرز الايطالي أنشـأها الامير بشير عمر الكبير ١٨١٠ وانتهت سنة ١٨١٥ وعلى جوانب هذا القصر اربعة جواسق بديعة وله مدخل فخم يبلغ علوه نحو ١٥ متراً كله بني بضروب الرخام الوطني الغـالي الثمن والاجنبي الفاخر ، مزين بنقوش ملونة ، وتمثل اشكالاً هندسية ونباتات وتصاوير شتى ، ولهذا المدخل افاريز لطيفة الصنع تطيف به على شكل الاقواس ، وفوقه شُرُف بتقاطيع جميلة وللمدخل رتاج عظيم ذو مصراعين وفي داخل القصر ديوان كبير واسع يعرف بقاعة العمود ، لعمود من الرخام المجزع في وسطه ، كان مفروشاً بالفسيفساء

والرخام وهو ملك الحكومة منذ سنة ١٨٦٠ · ومن الابنية التي اشتهرت قاعة حسين ابن فرنق في صالحية دمشق عمرت سنة ١٠٧٧ وكان يضرب بها المثل وهي على الارجح في رأس العقبة مكان دار بني الشريف دثرت في القرن الماضي · وكان ابن فرنق عارفاً بالعلوم الغريبة مثل الطلسمات والنيرنجيات والاعمال العجيبة وكان صدر دمشق وعمر الاماكن البهية من جملتها قصره وقاعته قال فيه مفتي دمشق احمد المهمندار مؤرخاً عام بنائه :

لقد شيد الشهم الحسين الذي له مآثر مجد لا يحيط بها عدّ
بناءً الى اعلى السما كين ارخوا هي القاعة الحسنا فطالعها السعد
(١٠٧٧)

ومن الدور القديمة في حلب وهو مما بني في القرن العاشر دار جان بلاط بن عربو وهي ملك آل ابراهيم باشا ذكر في اعلام النبلاء ان صدر ايوانها مبلط بالقاشاني على اختلاف انواعه والوانه على اشكال هندسية واوضاع بديعة احكمت فيه الصنعة ايما إحكام قال ان رؤيتها تذكرك ايوان كسرى وعظمته · وذكر المحبي ان الوزير حسين باشا صاري احد ولاة دمشق المتوفى (١٠٩٤) عمر القصر المعروف به في طرف الشرف بالميدان الاخضر من دمشق وكان مكانه يعرف بالخانونية وتأنق في وضعه وغرس فيه انواع الاشجار من كل صنف وعزّ عليه بدمشق بعض انواع الفاكهة فجلبه من اماكن بعيدة ·

ومن محاسن دمشق في هذا القرن الداران اللتان عمرهما في القنوات الامير منصور الشهابي امير وادي التيم وابن عمه الامير علي وذلك على أُسلوب متقن محكم وزخرفاهما بانواع الزخارف والنقوش وجلبا اليهما الرخام من بلادهما · قال المحبي : ولعمري انهما ابدعا ونوعا واجادا في صنعهما ·

وذكر المؤرخون ان الامير فخر الدين المعني جلب مهندسين من الغرب ولعلهم من ايطاليا ليضعوا له خطط قصوره في بيروت وصيدا وذكروا ايضاً انه بنى عدة بنايات وقلاعاً وحصوناً كثيرة ، ولما حدث اختلاف بينه وبين بيت سيفا واتى بنو سيفا اصحاب طرابلس فأحرقوا ونهبوا الشوف قيل انه اقسم هكذا : وحق زمزم والنبي

المختار لأعمرك يادير بحجر عكار . وهكذا لما فاز على بني سيفا وحاصر قلعة الحصن واخذها وهدمها جعل الجمال بالالوف تحمل الحجارة من قلعة عكار الى دير القمر ، وبنى جميع الدور القديمة في دير القمر ، ووزع في جدرانها من حجارة عكار ، وهي الحجارة الصفراء الموجودة في الخراج وفي جميع بنايات بيت معن القديمة وهي باقية الى الآن .

* * *

قصور القرن الثاني عشر والثالث عشر } ومن امثلة البناء الجميل دار اسعد باشا العظم في جوار جامع بني أمية بدمشق شرع بانشائها (١١٦٣) وانتهت (١١٧٤) قيل ان ما أنفق عليها اربعمائة كيس ، كل كيس بخمسمائة قرش . وهذا اجور العملة . واما الخشب والبلاط والتراب وغيره فكله من املاكه وبساتينه عدا من سخرهم للبناء من الناس . وكان عدد العملة ثمانمائة . قال ابن بدير : ان بانيها جد في العمارة ليلاً ونهاراً واحضر لها ١٢ الف عمود خشب عدا ما اهداه اياه اعيان البلد . واوعز الى الاطراف ان لا يباع القصرمل الا اليه ، وشغل غالب بنائي البلدة ونجاريها ونقاشيها ، وجلب البلاط من اكثر دور المدينة وحيثما وجد بلاطاً ورخاماً واعمدة وفساقي يبعث بمن يقتلعها ويعطي القليل في ثمنها . وكان على مقربة من مقبرة البرامكة فوق نهر بانياس قصر يقال لها قصر الزهرائية مطل على المرجة الخضراء انهدم فأخذ انقاضه واخذ انقاض طاحون كانت على نهر بانياس في وادي كيوان ونقل من بصرى احجاراً وعمداً من الرخام واخذ من مدرسة الملك الناصر في الصالحية عمداً غلاظاً وهدم سوق الزنوطية فوق حارة العمارة وكان كله عقداً بالاحجار ففكه واخذ احجاره كما نقل احجاراً من جامع يلبغا . واينما سمع ببلاط لطيف او عمد حسنة يأتي بها شراء وبلا شراء و يشغل العملة بكراء وبلا كراء .

قيل ان داخل هذه الدار اماكن عديدة لا تشبه الواحدة الاخرى ، وجميعها عمل بماء الفضة والذهب واللازورد والبلاط والرخام العظيم . ونقل بعض السائحين ان ليس مثلها في ملك بني عثمان حتى ولا سراي الملك المعظم . وهذه الدار بما حوت من الفناء والقاعات والردهات والابهاء والفساقي والفوارات والحمام من الطف

ما هندس المهندسون في ذاك القرن وكذلك يقال في قصره في حماة وهو على مثال داره في دمشق على صورة مصغرة · والنقوش وأنواع الزينة فيها فارسية · فاستدل من ذلك ان النقاشين كانوا فرساً او تأثروا بالاسلوب الفارسي · ومن أجمل ما فيه صورة حماة في القرن الثاني عشر تبين منها انها كانت عامرة اكثر من اليوم على مايظهر · ودار أسعد باشا العظم في دمشق اشترتها فرنسا ورممتها وجعلتها مدرسة للصناعات الاسلامية (حزيران ١٩٢٢) وقد حرقت قاعتها في ثورة سنة ١٣٤٤ ﻫ · ودار اسعد باشا في حماة اشترتها جمعية وجعلتها مدرسة وهي عامرة ايضاً · ومن أجمل الآثار في دمشق ايضاً خان اسعد باشا العظم وواجهته ورتاجه « بوابته » وقد عمر هذا الباشا جسر الكسوة من الرأس الى الرأس وعرضه · ومن أعظم بيوت حلب القديمة سراي الچلبي كانت كل غرفة منها تضاهي داراً عظيمة استخرج منها مؤخراً خان وعدة دور · ومن أعظم خانات حلب خان الكمرك القديم المعروف بخان محمد باشا الشهيد طوله مائة ذراع في مثلها ·

ومن أجمل آثار ذاك القرن جامع الجزار في عكا وداره في البهجة على مقربة منها نسج فيها على مثال الهندسة المصرية في ذاك القرن · ومن البيوت الجميلة قصور بني جنبلاط في المختارة في لبنان وفي الهلالية قرب صيدا وقصر بني شهاب في حاصبيا وسرايهم في راشيا · فان هذه القصور مثال من تفنن أعيان ذاك الزمان في تجميد بيوتهم وحسن هندستها · وكانوا يبنون كما قيل بناء الجبابرة وينقشون نقش الصياغ ·

وانا اذا تأملنا الابنية التي قامت في النصف الثاني من القرن الثالث عشر للهجرة في مدن الشام نراها طرزاً طليانياً في الاكثر قد لا ينطبق مع روح البلاد ومصطلحها في إشادة البيوت منذ القرون الاولى · وقد انتشر هذا الطراز في مدينة بيروت ولبنان اولاً ثم امتد الى طرابلس و يافا وحيفا والقدس ودمشق وحلب وحمص وغيرها من المدن · وما دور بني سرسق في بيروت وصوفر ودور بني بسترس والتويني وغيرها في بيروت والدور المعلقة في مدينة طرابلس ودور الجميلية والعزيزية في حلب ومصايف لبنان في عاليه وصوفر وبكفيا وغيرها وبعض الدور المحدثة في دمشق الامثال منها · ومن أهم أبنية الشام المحدثة دير الكازانوفا في الناصرة ، ودير الالمان ودير الروس في

القدس ، ومدرسة اليسوعيين والجامعة الاميركية ودار المفوضية العليا في بيروت ، ومحطة السكة الحجازية في دمشق ، ومحطة سكة بغداد في حلب ، وغير ذلك من القصور الخاصة والفنادق والمدارس والملاجئ والمياتم والمستشفيات في القدس وطبرية وبيروت ولبنان وغيرها . ومن أهم دور القرن الماضي في دمشق دار القوتلي وشامية وعنبر وشمعايا واستانبولي والحلبوني . ومن الدور الحديثة قصر الامارة الجديد في عمان . و يسرع البلى الى ما كان بناؤه منها من الخشب والطين او بعضها منهما على الاغلب . واكثر دمشق كانت كذلك ظاهرها تنبو عنه العين والزخرف في داخلها قال البحتري :

وتأملت ان تظل ركابي بين لبنان طُلَّعًا والسنير
مشرفات على دمشق وقد اع — رض منها بياض تلك القصور

ومع ان المقالع قريبة من دمشق وفيها ضروب الحجر الجميل من ابيض ومائل الى الصفرة او الحمرة ، فان القوم يستسهلون او يسترخصون البناء بالخشب واللبن او الحجر الاسود الناري فيبنون به كما يبني اهل حمص بل اهل كل بلد كانت الحراء السوداء قريبة منهم . وأجمل الحجر الحجر الرملي في بيروت وحجر حلب . ولم يزل بناء بيت المقدس — كما قال القاضي الفاضل — من الرخام الذي يطرد ماؤه ، ولا ينطرد لألاؤه ، قد لطف الحديد في تجزيعه ، وتفنن في توسيعه ، الى ان صار الحديد الذي فيه بأس شديد ، كالذهب الذي فيه نعيم عتيد ، فما ترى الا مقاعد كالرياض لها من بياض الترخيم رقراق ، كالاشجار لها من النبت اوراق . وان بعض القاعات اذا كتب لها البقاء فلانها بنيت بالحجر الصلب وتعاورتها ايدي العقلاء فرمتها يوم احتاجت الى الترميم بطارئ طرأ عليها .

* * *

العلة في قلة قصور الافراد قلت في الشام قصور افراد الناس من التجار والصناع والزراع كما نشاهد في الغرب مثلاً لان اهل البلاد كانوا يفنون في كبرائهم فلم يكن شأن من مظاهر النعمة والغبطة مدة قرون لغير ارباب

الدولة او من كان يعد من جملتهم ، وكان سائر الناس يحاذرون ان تنشأ لهم شهرة في الثروة ، والثروة تتجلى في الدار والفرش والدابة واللباس ، فيتظاهرون بالفقر لينجوا من مخالب العمال الذين كانت مصادرة الاموال اسهل شيء عليهم ، وقتلُ من يريدون استصفاء ارضهم وعقارهم وعروضهم من المباحات . ولذلك كان ذو الغنى كثيراً ما يدفن امواله في مكان مجهول من داره ودكانه وربما خاف من زوجه وولده فكتم عنهم ما يملك . وقد يموت وتبقى دفينته مجهولة حتى يجيء بعد دهر طويل من ينبش الارض او الجدار ويعثر بالعرض على ما جمعه ذاك الغني المحروم .

وفسدت الاذواق في البناء في العهد الاخير . وحسن الذوق تبع للحضارة في الامة فاذا تأخرت حضارتها كان الذوق من اول ما يفسد فيها . ولذا كان الناس يخربون العامر و يبنون بانقاضه . وكم أدركنا وأدرك آباؤنا واجدادنا في هذه الديار من اثر بديع سطت عليه يد خرقاء لتسل حجارته . وكم من كتابة تاريخية عفي اثرها جهلاً وغباوةً . اجتاز القاضي ابو يعلى المعري ببلدة شيات ظاهر معرة النعمان والناس ينقضون بنيانها ليعمروا به موضعاً آخر فقال :

مررت برسم في شيات فراعني ... به زَجل الاحجار تحت المعاول
تناولها عبل الذراع كأنما ... رمى الدهر فيما بينهم حرب وائل
أتتلفها شلت يمينك خلها ... لمعتبر او زائر او مسائل
منازل قوم حدثتنا حديثهم ... ولم ار احلى من حديث المنازل

* * *

الاحتفاظ بالعاديات والمصانع

وبعد فقد علمنا بما مرَّ بنا ان الشام وافر المصانع ابقت فيه كل امة وكل جيل اثراً من غناها وعظمتها وان الخراب يتحيف اكثر هذه العاديات لان حب الاحتفاظ بالقديم قد ضعف فينا . ونرى ان الشام لا يحتفظ بآثاره وينميها الا يوم تنشأ فيه ادارة للعاديات يكون سلطانها نافذاً على الكبير والصغير كما فعلت مصر منذ امد ، فاحتفظت بالبقية الباقية من أعمال الغابرين ، وخدمت احباب الآثار وغلاة الهندسة من المحدثين .

ولا يبحث عن العاديات في أصقاع الا اذا توفر للباحثين العلم بالآثار على احدث الطرق العلمية ، حتى اذا استخرج شيء منها يضن به فلا يصدر الى البلاد الغريبة بل يحفظ في دور الآثار تراث الاجداد . وأهم من هذا وذاك ان يتربى في الامة الذوق في الجمال ، وينتشر العلم بالصنائع النفيسة حتى بين الاطفال ، ويعرف كل وطني معنى هذه التذكارات المطبوعة بطابع الاجداد والاجيال ، المنبعثة من ارجائها ريح فضائلهم ، المشبعة بانوار نبوغهم ، الصادرة من فيض قرائحهم وعبقريتهم ، وعندئذ يصبح الشام كله متحفاً نفيساً دونه اجمل المتاحف ، وانخم بيت يجمع المفاخر والمآثر .

انتهى الجزء الخامس ويليه الجزء السادس واوله « التاريخ المدني — البيع والكنائس والديرة »

فهرست الجزء الخامس

« من خطط الشام »